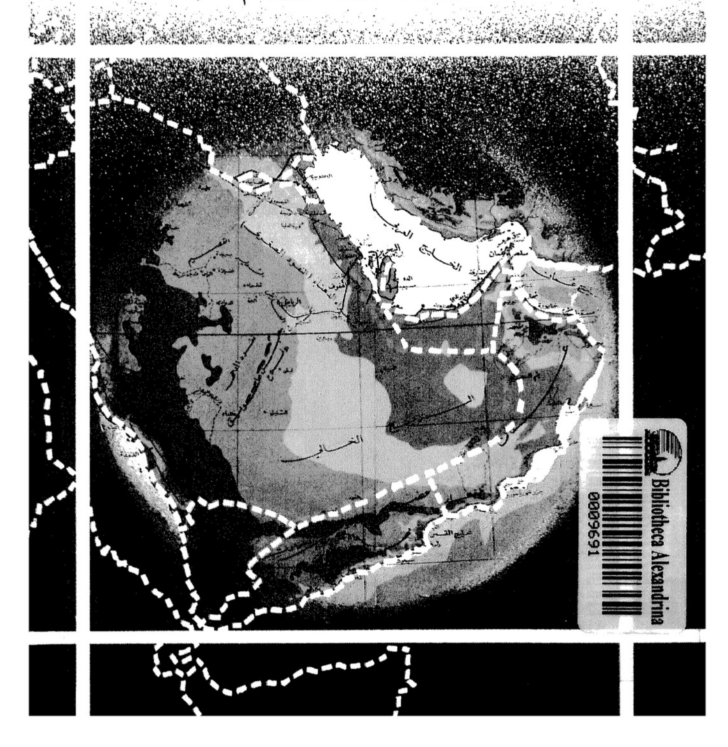
أُمَراء وَغُزاة

قصة الحُدود والسيادة الإقليمية في الخَليج

(دراسة وثائقية)

الدكتور عبد العزيز عبد الغني ابراهيم



أُمَرَاءُ وَغُزَاةٌ

أُمَراء وغُزاة

قصة الحُدود والسيادة الإقليمية في الخليج

الدكتور عبد العزيز عبد الغني ابراهيم

أمراء وغزاة

قصة الحدود والسيادة الإقليمية في الخليج

(دراسة وثائقية)



دار الساقي

الطبعة الأولى ١٩٨٨
الطبعة الثانية ١٩٩١
ISBN 1 85516 041 2

United Kingdom: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Lebanon: P.O.Box: 113/5342, Beirut.

ص.ب: ٥٣٤٢/ ١١٣، بيروت، لبنان.

بسم الله والصلاة على رسول الله

مقدّمة

قام العثمانيون أيام فتوتهم وشبابهم بأعمال جلّى في خدمة الإسلام والمسلمين فرفعوا المصحف وعارضوا باتباعه القوى المتربّصة بالمسلمين ودافعوا عن الأرض وصانوا العرض. وما زالت تلك الدولة تحمل القرآن تحقّق بأنصاره غاياتها وتلجم بهم أعداءها، ثمّ فترت همة هذه الدولة حين أصابتها رياح التحديث الأوروبية واستحداث القوانين على النمط الأوروبي والانبهار بمبادىء الثورة الفرنسية وبغيرها من المبادىء الداعية للقومية المنبثقة من أصول غير إسلامية. حدث هذا حين أهملت هذه الدولة أمر العلم والتعليم الذي رعته أوروبا رغم معارضة رجال الدين فيها، ثمّ ما كان من انشقاق بين رجال العلم والدين هنالك كسبه الأوائل، وبات العلم في أوروبا علمانياً لا يقرّ بكتاب ولا يؤمن برسالة. وضعت الدولة العثمانية الإسلامية قبّعة الأوروبي على رأسها، وغرست مفاهيمه في دماغها، وأرادت أن تحكم بتلك المفاهيم جسداً إسلامياً. ولم يكن التعايش في هذا الإطار ممكناً، فانطلقت القوميات التي حاربها الإسلام من عقالها. ومع انعتاق الروح القومية فارقت هذه الدولة المفاهيم الإسلامية التي تقضي بالإخاء في الله، والوحدة في أرضه، وبعدم التفاضل بين مواطن وآخر إلاّ بقدر تقواه وعلمه وجهاده لإعلاء كلمة الله.

لم يعد أكثر سلاطين آل عثمان المتأخّرين وساسة تلك الدولة ينطلقون من وحي الحرمين الشريفين أو يعملون لتحقيق أهدافهما كما كان دأب أكثر أسلافهم.

ولم يعد الحرمان عند هؤلاء السلاطين سوى مسوّغ يؤمِّن لهم حكم القوميات المختلفة التي تعجّ بها الدولة. إنتقل الحرمان في تخطيط هؤلاء من القداسة إلى السياسة. ولم يعد الجندي العثماني ينطلق من وحي الجهاد، إنّما كان يحارب من أجل دولة حدّث الغرب جلدها، ووصلت أشعته النافذة إلى نخاعها، فأضافت إلى وهنها وهناً. وبهذا أصبح همّ السلاطين المتأخّرين المحافظة على أمبراطورية ذات قوميات متباينة في إطار هش صاغته قوانين وضعية.

حين قام عسكر هذه الدولة لإخماد الحروب الأهلية التي قامت بين أبناء الإمام فيصل في نجد، حتى لا تمتدّ ذيولها إلى الحرمين الشريفين، لم يكونوا يؤدّون واجباً إسلامياً مقدّساً، إنّما كانوا يؤدون واجباً تجاه دولة علمانية تزعزع ولاء بعض مناطقها بعد أن وهنت في أرضها روابط الدين، وتقطّعت بالجهل السائد روابط الإخاء في الله، وتصرّمت بالقومية وشائج الانتماء إلى دولة الإسلام. وما كان المسؤول المباشر عن هذه الحملة في العراق يعمل إلاّ لمعالجة بعض أطراف هذه الدولة في آسيا، بعد أن خسرت الكثير من أجزاء جسدها العاري الممدّد هامداً في أوروبا بعد أن تعرّض لسموم الأفكار الأوروبية.

يبدأ الفصل الأول من هذه الدراسة بالنظر في الحملة التي سارت إلى الأحساء في شرق شبه الجزيرة العربية لتحقيق أغراض سياسية بعينها. ويتابع هذا الفصل النظر في مقدّمات هذه الحملة وخططها، وحركتها، وعملياتها العسكرية، ثمّ الأثر الذي أحدثته في سياسة الخليج البريطانية بعد أن عجزت عن أن تبلغ أهدافها في نجد، وتوقّفت عند تلك السواحل، وباتت جاراً غير مرغوب فيه من قِبَل القوى الإقليمية في المنطقة، والقوى الاستعمارية الوافدة إليها من بريطانيا وغيرها.

يدرس الفصل الثاني التعقيدات التي أحدثتها الحملة العثمانية في سياسة الخليج البريطانية، وما أدّت إليه من تثبيت للنفوذ البريطاني في البحرين، وكذلك التعقيدات في الظهير الصحراوي الذي لفته الفوضى وسادته الفتن. عالجنا في هذا الفصل أيضاً بعض مسائل الحدود التي غرست في تلك الأيام وأخذت تنمو شيئاً

فشيئاً في مناطق قطر لتؤكد الفرقة، وتفصل بين مناطق النفوذ البريطاني في الساحل العماني، وفي البحرين، ومناطق الامتداد العثماني المتسرّب في تعثّر تجاه تلك الأجزاء. واستعرضنا بعد هذا، السياسة التي اتّبعتها حكومة الهند البريطانية لسلخ البحرين عن الساحل وإبعادها عن كل مؤثرات الصحراء. فالبحرين جزيرة، والجزر ومياه الخليج ما كان لها أن تكون ـ في تلك الأيام ـ إلاّ هندوبريطانية. إستخلصت الهند البريطانية في هذه الفترة البحرين لأمن الهند، وحجّمت كل نشاط لنجد العثمانية تجاه عمان، والساحل العماني، ومخانق الخليج العربي. ولم تصادف الهند البريطانية أية مقاومة جادّة من الآستانة التي اكتفت بالشجب والاحتجاج، ولا من سلطاتها الإدارية الواهية التي اكتفت بتهديد الشيوخ في المنطقة.

تابعنا في الفصل الثالث التطوّرات السياسية في المنطقة حتى ١٣٠٩هـ/١٨٩١م، تلك التطورات التي عصفت تماماً بالأسرة السعودية الحاكمة في نجد، وذلك بعد أن أنكرت القوتان المؤثرتان في الخليج ـ البريطانية والعثمانية ـ الدعم لتلك الأسرة. ونظرنا في إمارة جبل شمّر التي ورثت الدولة السعودية الوسطى (الثانية)، وانتهينا إلى خروج الإمام عبد الرحمن الفيصل وأبنائه إلى الكويت تربّصاً لفرص العودة للأهل والديار. وقد سنحت هذه الفرصة لعبد الرحمن وأبنائه، على رأسهم عبد العزيز، ومن والي الأسرة السعودية من الذين هجروا ديارهم مغاضبين لآل الرشيد، حين بدأت الاضطرابات بين مبارك شيخ الكويت وبين ملوك شمّر. وقد ناصر السعوديون شيخ الكويت بطبيعة الحال تحقيقاً لأهدافهم التي تطابقت لفترة ما مع أهدافه.

أمّا الفصل الرابع فيجري وراء النشاط العثماني في هذه المنطقة، ذلك النشاط الذي أدخل المنطقة إلى بؤرة السياسة الدولية. وتتبّعنا المفاوضات والاتفاقات التي قامت بين الأطراف المتباينة. وانتهينا محليّاً إلى روضة مهنا، وثبات أمر الأسرة السعودية في نجد.

خصّصنا الفصل الخامس والأخير لدراسة نهاية الوجود العثماني على سواحل

الخليج العربي بعد أن انتهى سلفاً في القصيم، وبات هناك، بجهود الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن السياسية والعسكرية، أثراً بعد عين. ونظرنا في الأحساء وما لاقاه من عنت تحت الإدارة العثمانية المهترئة ممّا يسّر لابن سعود تحقيق أهدافه ليطل من تلك المنطقة التي انفرجت عنها قبضة العثمانيين الواجفة. حاول ابن سعود أن يصل إلى اتّفاق مع البريطانيين وقصرت محاولاته المتكررة دون ذلك الهدف حيث لم تكن بريطانيا تريد التعامل مع الإرث السياسي السعودي، أو أن تنساق وراء السياسة القبلية في الظهير الصحراوي. وبعد أن تبيّن لبريطانيا موقف العثمانيين ضمن دول المحور في الحرب العالمية الأولى سعت إلى ابن سعود باتفاق دارين اشترت به حياده في الحرب. أمّا هو فقد اشترى به حماية دولته الناشئة من كل غائلة تأتيها بحراً في وقت لم يكن يملك فيه قارباً بحرياً واحداً. وبهذا تفرّغ ابن سعود لمعالجة شؤون الداخل بعد أن أمّن مشاكل الساحل.

قد يلاحظ القارىء أنّنا سعينا إلى أن نستكمل بهذه الدراسة دراسات لنا أخرى في تاريخ الخليج العربي لعلّ آخرها «نجد والقوى السياسية في الخليج العربي حتى ١٨٧١م». ولا نجد في هذه الدراسة خروجاً كبيراً عن اهتماماتنا الثابتة بتاريخ الخليج العربي سوى أنّنا قد أضفنا فصلاً عن القصيم اقتضاه السياق التاريخي. ولعلّنا بهذا رمينا ضمن ما رمينا إلى الإشارة بأنّ شبه الجزيرة العربية في ترامبها من الخليج إلى البحر الأحمر هي كل متكامل، وأن الأحداث التي تقع في الخليج يتعاظم وقعها في شبه الجزيرة. وستؤكّد دراساتنا اللاحقة إن شاء الله هذه الحقيقة.

إلتزمنا في مصادرنا لهذه الدراسة بالوثائق البريطانية كما هو دأبنا في دراساتنا السابقة، ونجد أن البعض يعتب علينا اعتمادنا الكبير على هذا المصدر الذي نراه وافياً. فالوثائق البريطانية لَمن يعرفها معرفة وثيقة هي في أعمّها بريطانية الدار، وليست بريطانية المنشأ والهوية. نجد أضابير هذه الوثائق وقد فاضت بالمراسلات الخارجية على امتداد العالم المأهول تعبّر عن آراء وتطلّعات هؤلاء وأولئك. أمّا منطقة الخليج العربي التي أصبحت على هذا الوقت حزام أمن الهند البريطانية فقد احتلّت في هذه المكتبة الوثائقية مكاناً بارزاً حيث نجد كل تطلّعات شيوخها وآمالهم مجسّدة في خطابات وتقارير ودارسات وافية. كما نجد هنا الكثير من أخبار القبائل

وأيامها. وأعتقد أنه ما من شخصية برزت في خليج تلك الأيام في أي مجال من المجالات إلاّ وجدت لها موقعاً في هذه المكتبة حيث كان البريطانيون هم المسيطرون على سياسات هذه المنطقة، يتعقّبون سكناتها وحركاتها ويلتقطون همساتها. ونحمد للبريطانيين حالياً تنظيمهم لهذه الوثائق وتقديمها في سهولة ويسر خدمة ذات كفاءة عالية للدارسين والباحثين.

وقد اعتمدت هذه الدارسة أيضاً على بعض المصادر والمراجع المحلية في المنطقة. وقد أعانتنا هذه بما أثبتته من غث وسمين على فهم بعض الظواهر المحلية وتفسيرها. وأرجو أن أشكر في هذا المجال الصديق الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيع عميد البحث العلمي في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الذي مكّنني من الاطّلاع على مكتبته العامرة.

أخيراً أرجو أن أكون قد وفّقت في وضع لبنة في صرح فترة تاريخية لا تزال بحاجة إلى البحث العلمي، والاستقصاء الموضوعي، وعلى الله قصد السبيل، ومنه نرجو العون والمغفرة والثواب.

وصلّى الله على سيّدنا محمد ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

ملاحظة: جميع الاستشهادات الواردة في هذا الكتاب، نُقلت تبعاً للأصل من دون إجراء أي تصحيح لغوي، حفاظاً على أمانة النص.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

يؤرخ هذا الكتاب لذيول فترة لم يكن الوطن العربي قد عرف الحدود السياسية فيها بعد حيث كان يستظل بظلال دولة اسلامية شاخت دوحتها وذبلت أوراقها التي تناثرت برياح قومية الترك ثم أخذت تذروها رياح القومية العربية فإذا هي أثر بعد عين. لم يكن أكثر امراء العرب من الرافضين لفكرة الجامعة الاسلامية ولكنهم كانوا يقاومون حقيقة تسلط العنصر التركي. كان الخلاف على صيغة الحكم ولم يكن خلافاً على جوهره. واستشرى الخلاف حتى أودى بوحدة العالم الاسلامي وأدى الى تشرذم الاقاليم العربية داخل حدود صنعتها الامبريالية العالمية ورعتها المصالح الاقليمية الضيقة. ولما استبان زعماء العرب أمرهم سعوا الى توحيد الجهود العربية بجامعة عربية قصرت عن استيعاب طموحات الجماهير في الوحدة فاستبدلوها بكيانات اقليمية في المشرق والمغرب نأمل ان تؤدي دورها في الوحدة الاقليمية، وأن تكذب الايام ما يراه البعض فيها من انها أدوات تناطح لا وسائل تصالح. وهنا سيتسع الخرق على الراقع في هذه المنطقة التي هي مكان القلب في الجسد الاسلامي الكبير والتي ما فتئت القوى الإمبريالية تتربص بها الدوائر خشية من اتحاد كلمتها وطمعاً في السيطرة على مقدراتها. إن حال القوى الامبريالية اليوم وموقفها هو عين حالها وموقفها حين ضربت في الحرب العالمية الأولى القوة الإسلامية الواهية التي باعدت القوميات بينها، وحالنا اليوم ليس بأحسن منه بالأمس. ولا أجد تعبيراً يصور الواقع أميز مما أتى به الشاعر الخالد محمد اقبال الذي كتب إبان تلك الفترة فقال:

«سفينتنا في خضم العاصفة
الأمواج تتقاذفها
والرياح الغربية تطفىء مصباح وجودنا»

ولم يغب عن ذهن اقبال أن الطورانية المستمدة من الأفكار الغربية كانت السبب في انهيار الدولة الاسلامية وذلك حين يقول:

«سمعت مزاعم الأتراك فهل من مبلغهم رسالتي؟
انكم ـ أيها الأتراك ـ أخذتم جانب أوروبا ورضيتم صحبتها
مع انكم بفضل الاسلام كنتم على مقربة من الكواكب والنجوم»

ولا يسعى كتابنا هذا الا إلى القول بأن العالم الاسلامي قد انقسم في غياب الوعي الاسلامي ـ إلى امراء وغزاة ثم اُستحدثت الحدود لتعميق الفجوة وتجسيد الجفوة.

نفذت الطبعة الأولى من هذا البحث ولما ينقضي عام على صدورها. وكان هذا الأمر حافزاً لنا على اصدار الطبعة الثانية منه من دون اضافات أو تنقيح اللهم الا ما كان من تصحيح بعض الأخطاء المطبعية التي شابت الطبعة الأولى. ونحن إذ نقدم هذه الطبعة نشكر الدوائر العلمية التي تقبلت هذا العمل بقبول حسن واولته من تشجيعها ورعايتها ودعمها الشيء الكثير. والشكر مبذول أيضاً لبعض الدوائر الرسمية التي احتفت بجدية هذا العمل وللأخوة الاجلاء الذين كتبوا الينا ناقدين او مستفسرين. الى هؤلاء جميعاً نعتذر عما قد يكون قد خالط هذا العمل من تقصير رغم اجتهادنا في نفي التقصير عنه، وعذرنا ان الكمال لله وحده، وأن اللاحقين من الباحثين سيكونون أكثر من السابقين قدرة على التأمل ومقدرة على تطويع القلم لتحرى الحقيقة العلمية. والله نسأل أن يوفق كل جهد مثمر، وأن يعين كل عامل جاد.

عبد العزيز عبد الغني ابراهيم

الفصل الأول

الحملة العثمانية إلى نجد

لحق الإمام فيصل بالرفيق الأعلى في ٢١ رجب ١٢٨٢/٩ ديسمبر ١٨٦٥م وخلف وراءه أربعة من البنين هم عبدالله وليُّ عهده، ومحمد، وسعود، وعبد الرحمن.(١) وبايع أهل الحل والعقد وليَّ العهد عبدالله بن فيصل بالإمامة.

لم يكن الإمام عبدالله على وفاق مع أخيه سعود وذلك لاختلاف بالشخصية وتعارض في الطموح. كان الخلاف بين الرجلين بيّناً واضحاً ممتداً بشكل سافر حتى لاحظه الرحالة الذين طرقوا نجد على عهد أبيهما الإمام فيصل. وصف بالجريف (Palgreve) هذا الاختلاف الظاهر وصوّره في كتابه حين قال إن كلاً منهما كان خنجراً مسلولاً مسلّطاً على أخيه، ولاحظ أنّهما لم يتبادلا الحديث مع بعضهما البعض دون شجار أو عراك.(٢) يقول بالجريف إن عبدالله كان قصيراً بديناً كبير الرأس، ضخم المنكبين، قوى البنية، عسكرياً شجاعاً، أمّا سعود فقد كان على عكس أخيه، طويلاً وسيماً، يحدّث محيّاه عن صفاء البادية وانطلاق البدو، وقد اشتُهر وسط القبائل بالكرم وحب الفروسية. لم يكن لسعود مع القبائل مشاكل كما هو حال أخيه عبدالله الذي كان يد أبيه في تأديب القبائل التي تجنح إلى الشغب أو تحاول المروق عن السلطة.(٣) كان عبدالله عسكرياً محنّكاً حمل لواء أبيه وأدّب العجمان في موقعة ملح في ١٧ رمضان ١٢٧٦هـ/ ٨ أبريل ١٨٦٠م كما أخذهم بالقرب من الجهرة في عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م في موقعة الطبعة(٤). كما خاض عبدالله الكثير من المعارك ضد العديد من القبائل، وعلى هذا لم يتهاون الكثير من القبائل والمناطق في اهتبال فرصة الخلاف الذي نشب بين ابني فيصل لتحقق تطلعاتها القبلية وتسوي مشكلاتها المحلية بما يتفق وتحقيق مصالحها.

الإمام عبدالله يطلب النجدة من العثمانيين

إنسلّ سعود من الرياض وقصد إلى محمد بن عائض بن مرعي في عسير وطلب إلى ذلك الشيخ أن يعينه على أخيه. أرسل الإمام عبدالله سفارة إلى ابن عائض في أثر أخيه تطلب إلى الشيخ أن لا يناصر سعود الذي خرج على الرياض دون سبب يستوجب الخروج، كما أرسل إلى أخيه يستدعيه إلى الرياض ووعده بتلبية طلباته. رفض سعود الاستجابة، أمّا ابن عائض فقد أبلغ الإمام بأن سعود «طلب منّا المناصرة والمساعدة فلم نوافقه على ذلك وأشرنا عليه بالرجوع وترك الشقاق فلم يقبل». (٥)

غادر سعود أبها ووصل إلى نجران حيث رحّب به شيخها ووعده بالدعم. وصادف سعودبعض العجمان الذين أجلاهم عبدالله سلفاً إلى نجران فاغتنموها فرصة ليكيدوا لعبدالله فاجتمعوا حول سعود، واجتمع حوله بعد ذلك خلق كثير واستفحل أمره. سار سعود بتلك الجموع حتى بلغ وادي الدواسر في ذي الحجة ١٢٨٣هـ/أبريل ١٨٦٧م وانضمّ إليه نفر من أهالي المنطقة. وحين بلغ خبر هذا المسير الإمام عبدالله أمر أهل سدير والمحمل أن يوافوه بالرياض للخروج لردّ عصيان أخيه فساروا إليه وانضمّ لهذا التجمع مقاتلو الرياض. حمل محمد بن فيصل لواء أخيه الإمام وسار لقتال أخيه الطامح إلى الإمامة. وقعت بين الجانبين معركة في المعتلي (المعتلا) كانت نتيجتها نصراً لجيوش عبدالله وهزيمة لسعود الذي لحقت به جراحات أرغمته على التراجع فسار في جماعة من العجمان إلى الأحساء وانحاز هناك إلى بني مرة وبقي فيهم حتى برئت جراحه.

أمر الإمام عبدالله عمه عبدالله بن تركي بالمسير إلى الأحساء حتى لا يخرج أمر سعود عن يده، وأن يهاجم ديار العجمان في الرقيقة عقاباً لهم على ما أقدموا عليه من مناصرة سعود. سار عبد الله بن تركي في عام ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م بأهل الرياض والوشم وسدير وتمكّن من تدمير الرقيقة وإحراق عششها. وعزل الإمام في هذه السنة محمد السديري عن إمارة الأحساء وأناط حكم المنطقة بناصر بن جبر الخالدي. (٧) ولم يغفر الإمام عبدالله لجماعات وادي الدواسر عملهم في إذكاء حدة

الفتنة فقام عليهم في ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م بجيش يقوده بنفسه وأدبهم وردهم إلى الطاعة.[٨]

غادر سعود إلى البريمي التي سبق أن غزاها عزّان بن قيس إمام عمان، وسار بعد ذلك إلى مطرح حيث قابل عزّان بن قيس في شوال ١٢٨٦هـ/يناير ١٨٧٠م. وتأكّد بعد هذا غزو الإمام عبدالله لعمان[٩]. وفي فبراير من هذا العام نجد أن استعدادات عبدالله الحربية كانت في ذروتها، حين كان يجهز بشخصه جيوشه في الأحساء من أجل هذا الهدف.[١٠] واتّصل الأمير تركي بن سعيد الذي كان يريد أن يستخلص عمان من عزّان بعبد الله ليدعمه في أهدافه، إلاّ أن تطوّر الأحداث في المنطقة كان في غير صالح تجمع الإمام عبدالله والأمير تركي بن سعيد، ممّا اضطر عبدالله أن يؤجل حملته التي لم يقيّض له أن يقوم بها أبداً، وعاد قافلاً إلى الرياض. أمّا سعود فقد استقبل استقبالاً حافلاً من عزان الذي لم تمكّنه ظروفه من دعمه إلاّ ببعض المال.[١١]

خرج سعود من عمان ولجأ إلى آل خليفة في البحرين في عام ١٢٨٧هـ/ أغسطس ١٨٧٠م، وبدا واضحاً أن عبدالله يفكر في أمر غزو البحرين ولم يستمهله أخوه ففي رجب ١٢٨٧هـ/ أكتوبر ١٨٧٠م ظهر سعود بالكثير من الجند من العجمان وغيرهم[١٢] وقاتل الجفر وتمكّن منها. وصالحه بعدئذ أحمد بن محمد بن جبيل أمير الطرف. وتوجّه سعود بعد هذا إلى الأحساء فخرج إليه ناصر بن جبر الخالدي ونازله في موقعة «الوجاج» التي انهزم فيها ناصر وأهل الأحساء وذلك نتيجة لغدر حزام بن حثلين أحد شيوخ العجمان البارزين وابن أخيه راكان بن فلاح بن ناصر وبعض أهل الأحساء.

تراجع أهل الهفوف إلى مدينتهم فحاصرها سعود وأحاط بها تماماً.[١٣] وأرسل أهل الهفوف إلى الإمام يطلبون النجدة. سارت نجدة الإمام لأهل الهفوف بقيادة محمد بن فيصل الذي كان تحت لوائه جماعات من أهل الرياض وضرما وأهل العارض عموماً وسدير وسبيع والسهول. وفي ٢٧ رمضان ١٢٨٧هـ/ ٢٠ ديسمبر ١٨٧٠م. تلاقى الجمعان في ماء جودة، وغدرت سبيع في هذه المرة بجيش

محمد، فلاقى هزيمة ساحقة. كما لاقى الكثير من مشاهير العسكريين الذين عملوا في جيوش الإمام فيصل سابقاً، وناصروا عبدالله بعدئذ، حتفهم في هذه المعركة. وكان من هؤلاء عبدالله بـن بتّال المطيري، وابن سويد أمير جلاجل، وعبدالله ابن مشاري بن ماضي من رؤساء روضة سدير، وغيرهم.(١٤) كما تمكّن سعود في هذه المعركة من أخيه محمد، وأرسله إلى سجن القطيف، وبهذا دانت الأحساء لسعود.

بقي سعود في الأحساء فترة نظم إدارتها وجعل عليها فرحان بن خيرالله أميراً وبدأ يعد العدّة للزحف إلى الرياض. أبرقت الهند في ٥ المحرم ١٢٨٨هـ/ ٢٨ مارس ١٨٧١م إلى مقيمها في الخليج ليبعث لها بتقرير عمّا آلت إليه الأمـور في الأرض السعـودية فـرد بأن الأمـير سعود لا يـزال يسيطر عـلى منطقـة الأحساء وسواحلها، وأنّه يعد العدة لينطلق إلى الرياض ليحسم أمره مع أخيه.(١٥)

لم يجد الإمام عبدالله حين علم بمسيرة أخيه إلاّ أن يخلي الرياض ويتجه إلى بادية قحطان.(١٦) أرسل عبدالله أمواله وأسلحته في سريّة يقودها حطاب بن مقبل العطيفة، وقد تمكّنت بعض جماعات سعود الزاحفة تجاه الرياض من هذه السرية، وغنمت الأموال والأسلحة. وبات انقسام أهل نجد بين المعسكرين المتقاتلين أمراً فرضاً، فعمت الفتنة، وسرت سريان النار في الهشيم. واتّسع معسكر سعود، وزاد أنصاره، فانضم إليه الكثير من البارزين في القصر من أمثال محبوب بن جوهر، كما كان جلوي بن تركي منذ البداية في صف سعود، أمّا عبد الرحمن بن فيصل فقد انضمّ لسعود بعد أن سقطت الأحساء للأخير، وهكذا أصاب سعود الكثير من الدعم والمعاضدة.(١٧)

تفيد التقارير التي أرسلها هربرت (Herbert) من العراق العثماني في ٢ و٧ محرّم ١٢٨٨هـ/ ٢٤ و٢٩ مارس ١٨٧١م إلى السفير البريطاني في الآستانـة بأن سعود قد أصبح سيد الموقف القابض على زمامه تماماً، فقد اجتمع حوله الكثير من القبائل. أمّا عبدالله فلا يزال لاجئاً في منطقة تقع إلى الشمال من جبل شمّر. كما أفادت هذه التقارير بأن عمه عبدالله بن تركي وابنه تركي لا يزالان في معيّته. وترى هذه التقارير بأن النزاع قد خبت فورته خاصة وأن الأموال التي أصابها سعود

في قلعتي الأحساء والقطيف قد زادت في قوته. وتضيف هذه التقارير أيضاً بأن قوة عبدالله حين خرج إلى قحطان لم تكن أقل عدداً وعدّة من قوة أخيه سعود، إلاّ أن تجمّع عبدالله قد بدا غير متماسك، فتقلّص حتى ذاب تماماً، واجتمع أمر أغلب العرب في المنطقة حول سعود.[١٨] تمكّن سعود من الرياض في محرم ١٢٨٨هـ/ مارس ١٨٧١م ووفدت إليه الوفود مبايعة وبدأت سلطته تمتد، بخاصة بعد أن خاض ضد أخيه معركة البرة في ٧ جمادى الأولى ١٢٨٨هـ/ ٢٤ يوليو ١٨٧١م وانكسر عبدالله ومناصروه من قحطان[١٩] وبهذا أصبح سعود سيّد نجد.

تفيد التقارير البريطانية اللاحقة أن بندر بن طلال بن رشيد، شيخ جبل شمر، قد حوّل ولاءه لسعود، وأرسل إلى الرياض سفارة تقود ٢٠ مهرة شمّرية، إلاّ أن سعود لم يرضَ بذلك، وطلب إلى بندر أن يشخص إلى الرياض بنفسه للبيعة.[٢٠]

أرسل الإمام عبدالله إلى شريف مكة يستنصره ضد أخيه سعود، وكتب الشريف بدوره إلى بندر أمير الجبل، وإلى زامل شيخ عنيزة في القصيم، يطلب إليهما مناصرة عبدالله ودعمه، واعتذر الرجلان عن هذه المهمة. وكان زامل قد انحاز بصفة قاطعة إلى معسكر سعود وذلك لموجدة له كانت على عبدالله حين قام في عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م، على عهد أبيه بحصار القصيم. ولهذا كان زامل يريد أن يساند أميراً يأمل أن يحقق تطلعاته من خلاله، وأن يسوّي حساباً قديماً. أقام سعود في بريدة حسن بن عبد المحسن ليحكم المنطقة باسمه. وكان حسن بدوره من أسرة مناوئة للإمام عبدالله، فقد عزله الإمام عبدالله سابقاً بأمر من والده الإمام فيصل، وعيّن محمد بن أحمد السديري أميراً في مكانه. ولم يزل السديري على إخلاصه لعبد الله حتى أقاله سعود فترك القصيم وغادر إلى سدير.[٢١] وبهذا دخلت القصيم في طاعة سعود، ولم يبق لعبدالله إلاّ مناطق البادية حيث كان يقيم.

أرسل الإمام عبدالله أحد المخلصين له وهو عبد العزيز بابطين سفيراً له إلى والي بغداد عن طريق والي البصرة لوضع اللمسات النهائية لخطة الغزو المرتقب. أثقل عبدالله رسوله إلى الوالي بالهدايا، وأرسل معه خطاباً يطلب إلى الوالي أن

يعينه بالجنود لإخماد فتنة أخيه.[٢٢] وصل خطاب عبدالله إلى الوالي ولم تصل هداياه إذ تمكن بعض الأعراب من هذا المبعوث في منطقة تقع على مسيرة يومين من الزبير ونهبوه وجرّدوه من كل ما يملك حتى انّه وصل إلى الزبير سائراً على قدميه، ثم أُوصل بعد ذلك إلى بغداد التي بلغها في صفر ١٢٨٨هـ/ ٢٢ أبريل ١٨٧٢م/ وهو خالي الوفاض.[٢٣]

مقدّمات الحملة

وعد الباشا بالدعم وطلب إرسال دليل ليقود الحملة عبر مسالك نجد. وكان مدحت باشا، والي بغداد، يدرك أن سعوداً أقدر من أخيه عبدالله وأرسخ قدماً، وأن مهمة إعادة تثبيت حكم عبدالله لا تتمّ بإرسال ثلة من الجند إلى مناطق نجد، فالأمر يحتاج إلى حملة كبيرة ربما لا تستطيع أن تفي بها حالة البلاد المادية في ذلك الوقت.[٢٤]

يفيد تقرير لهربرت[٢٥] مرسل إلى حكومة الهند بتاريخ ٢٦ أبريل ١٨٧١ م بأن قوة عبدالله قد وهنت تماماً، وأن ما تبقّى له من رجال قد زهدوا فيه، وهجروه حين علموا أنه استنجد بالعثمانيين (٢٥ ـ أ)، وأن نجداً قد انتظمت بمشاعرها وسيوفها مع سعود الذي تزايدت قوته وأصبح له ـ فيما يشاع ـ جنداً يصل عددهم إلى ٧٠،٠٠٠ ـ ٨٠،٠٠٠. وعبّر هربرت عن رأيه في أنّه لو كان لسعود هذا العدد من الجند حقيقة، أو حتى نصف هذا العدد، فإنّه سيشكل مقاومة عنيفة للحملة العثمانية التي يتوقّع أن تتراوح أعدادها بين ٨٠٠٠ إلى ١٠،٠٠٠ رجل، وأكّد بأن معرفة رجال سعود بطبيعة الأرض ستكسبه ميزة كبرى، وستؤكد تفوّق سعود على الحملة العثمانية المزمعة.

بدأ مدحت باشا يخطّط فأرسل بعض رجاله إلى نجد في زي التجار، وأقاموا هناك حوالى شهرين، ورجعوا له بتقارير شاملة عن قوة سعود الحربية، رجاله وقلاعه وسلاحه. كما درست هذه البعثة الاستكشافية المراسي في المنطقة، وقرّرت أن رأس تنورة هو أسلم المرافئ الذي يمكن أن تنزل به الحملة.[٢٦]

أسباب حملة نجد العثمانية

لم يكن استنجاد الإمام عبدالله بمدحت باشا ضد سعود إلّا السبب المباشر لقيام الحملة العثمانية إلى نجد، أمّا الأسباب الخامدة فقد كانت كثيرة ومتنوعة. يتّصل بعض هذه الأسباب ـ على ما نعتقد ـ بالمواصلات والاتصالات والإنقلاب الذي أحدثه البخار في الملاحة النهرية بخاصة والبحرية عموماً، وما استتبع هذا من ازدياد في التجارة وسهولة في التنقل. ومن هذه الأسباب أيضاً استعمال البرق الذي أدّى إلى تيسير انتقال الأوامر من العـواصم إلى الأقاليم، وربط لـلأقاليم بعواصمها، وسهولة الاتصال بوحدات الجيوش وتحريكها. ومنها كذلك فتح قناة السويس أمام الملاحة البحرية حيث انفتح الباب أمام عاصمة العثمانيين لنشر قواتها البحرية في منطقة البحر الأحمر، وفي الخليج العربي، وحول شبه الجزيرة العربية، تلك المنطقة الحيوية في سياسة الأمبراطورية العثمانية.

يتّصل بهذه الأسباب أيضاً السياسة النشطة للسلطان عبد العزيز ١٢٧٨ ـ ١٢٩٣هـ ١٨٦١ ـ ١٨٧٦م الذي عمل بهمة لا تعرف الملل على إخضاع مقاطعات الدولة التي تزعزع ولاؤها، وما كان من جدّه في تدعيم حاميـات مكة المكـرمة والحجاز بصفة عامة. ويسبق هذا كلّه التنظيمات التي أعقبت حرب القرم، وما صـاحب هذه التنـظيمات من إنشـاء جيش عثماني منـظّم مجهز بـوسائـل الحـرب الحديثة.(٢٧) ومن هذه الأسباب أيضاً ما يتّصل بمدحت باشا، والي بغداد، الذي كان يرى ضرورة أن تبسط الدولة نفوذها بشكل فعلي على المناطق التابعة لها اسمياً لتعويض خسائرها في القارة الأوروبية.(٢٨)

ربّما كانت كل هذه الأسباب أسباباً وقتيةً تعاضدت وتكاثفت مع سبب لا نشكّ في أنه أساسي جوهري، ولا مراء في أنّه كان المحرّك الأول، والعنصر الأولي في أسباب الحملة. هذا السبب هو الإرث القديم من العداء المشترك بين الدولتين السعودية والعثمانية الذي بدأ حين ضمت الدولة السعودية الأولى الحجاز وأزالت الكثير من مظاهر البدع التي كانت تعشـش هناك تحت نظر الولاة العثمانيين بل وبتشجيعهم. لم تكن الدولة السعودية ترضى بأعمال المتصوّفة الذين كان لهم نفوذ

حتى في ثكنات الجيش العثماني. ولم يكن السلطان العثماني يرضى بأن تنتزع منه قوة ناشئة السيادة على الحجاز، والقيام بخدمة الحرمين الشريفين وهي الوظيفة التي كانت تعطي السلطان قوة روحية خوّلت له القيام بحكم العالم الإسلامي عجمه وعربه، وأسبغت على ذلك الحكم الشرعية المطلوبة. ولهذا تلقّت الدولة السعودية الأولى ضربة قاصمة من حملة حرّكتها الدولة العثمانية.

لم يكن الجيش الذي استردّ الحرمين الشريفين يرفع المصحف أو يقاتل من أجل إعلاء كلمة الله. يقول سادلير (Sadlier) الذي صحب بعض فرق هذا الجيش المنسحبة من الأحساء في ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م إلى الحجاز بأنه لم يسمع من الأتراك ذكراً للدين إلاّ عند تخوم المدينة المنورة.[٢٩] من أجل هذا وغيره لم تولد ذكرى هذه الحملة في أذهان أهل المنطقة الشعور بجديّة العثمانيين في حماية الحرمين الشريفين. وكيف لجيش لا يؤدّي أفراده الصلاة أن يعمل لاسترداد قبلة المسلمين، وماذا يراد بالقبلة إذا عطّلت الصلاة؟

كان العداء بين الدولة العثمانية والدولة السعودية عداء سياسياً، وكان سعي الباب العالي للاحتفاظ بالحرمين الشريفين في دائرة نفوذه سياسياً بالدرجة الأولى. وحين أُطلق سراح فيصل بن تركي وعاد إلى حكم نجد بعد مبادرة سياسية بريطانية لدى حكّام مصر، تحقيقاً لمصلحة دولية ـ فيما يعتقد ـ كان هناك اعتراف اسمي منه بسيادة الدولة العثمانية في المنطقة التي آل إليه الحكم فيها. ولكنه كان في واقع الأمر زاهداً في تلك الدولة زهدها فيه. ولا نستغرب، بناء على هذا، طلب فيصل للمقيم بيلي في ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م بمعاضدته ومساندته ضد العثمانيين.[٣٠] وحين توفي فيصل لم ترض الدولة العثمانية الاضطرابات التي أحدثها أبناؤه من بعده في المنطقة التي تجاور الحرمين، ولم يكن من الممكن لها أن تنتظر ما يمكن أن تتمخض عنه الأحداث التي ربما تجيء بمناوئ بارز لسياستها في تلك المنطقة ولهذا وجدت في دعوة عبدالله بن فيصل قميص عثمان فتدثرته في طريقها إلى الأحساء.

تسرّبت أخبار الحملة العثمانية على نجد من القاهرة حيث بعث القنصل

البريطاني في مصر في ١٢٨٧هـ/ ٣٠ ديسمبر ١٨٧٠م إلى وزارة الخارجية البريطانية يخطرها بأن بغداد ستحرّك بعض قواتها لاحتلال مناطق بعينها في الخليج العربي. طلب جرانفيل، وزير الخارجية، إلى هنري أليوت (Elliot) السفير البريطاني لدى الدولة العثمانية، ليتحرى عن هذا الأمر. كما طلبت حكومة الهند في برقية لها في ذي الحجة ١٢٨٧هـ/ ١٧ فبراير ١٨٧١م إلى القنصل البريطاني في البصرة ليستطلع صحة الأخبار، وردّ الرجلان بعدم صحة الإشاعة.(٣١) وتدل هذه السريّة على حرص الحكومة العثمانية على العمل والتجهيز لهذه الحملة حتى لا تعمل بريطانيا على خنقها في مهدها.

أبرق هربرت في ٤ محرم ١٢٨٨هـ/ ٢٧ مارس ١٨٧١م بأنه قد تحقّق من قيام حملة عثمانية بحرية وبرية من بغداد إلى نجد لتعين الإمام عبدالله لاسترداد حكمه عليها. ويضيف هربرت في رسالة لاحقة بأن الحملة البحرية المزمعة ستغادر في بارجة حربية عثمانية واحدة، مصحوبة بثلاث بواخر غير مسلحة، وبعدد من القوارب الوطنية. ويضيف هربرت بأن الحملة ربما تنزل في القطيف أو الدمام. تلقى أليوت السفير في الأستانة هذا الخبر وتيقّن من صحته وأبرق به إلى لندن.(٣٢)

متابعة حكومة الهند لأخبار الحملة

أبرقت حكومة الهند في ٣١ مارس ١٨٧١م إلى هربرت تطلب إليه أن يستفسر من الوالي عمّا إذا كانت الحكومة العثمانية قد اتّصلت بالسفير البريطاني لإبلاغه بشأن هذه الحملة. وردّ الباشا على هربرت بأنه لا علم له بذلك، وأضاف بأن الحملة المزمعة قد أُرجئت بصفة مؤقتة. وكانت الهند قد أبرقت إلى وزيرها في ٣١ مارس كذلك تعبّر عن رأيها في الحملة العثمانية الذي يفيد بأن أية تحركات عسكرية فوق مياه الخليج العربي هي بمثابة خرق للسلم البحري البريطاني، وأن عملاً كهذا سيضر بالتجارة البريطانية في المنطقة، ويحدث تعقيدات أخرى لا حصر لها. وطلبت الهند إلى وزيرها سرعة الاتّصال بالأستانة وإبلاغها بأهداف حكومة الهند في المنطقة وبرأيها في الحملة والعمل على تثبيط الباب العالي عن القيام بعمليات عسكرية في الخليج العربي.(٣٣)

أرسلت حكومة بومباي إلى حكومة الهند بأن بيلي، المقيم البريطاني في الخليج، قد أبرق لها في ١١ أبريل بأن الاعتقاد السائد في بوشهر يحدِّث عن أن الحملة العثمانية ستتحرّك وشيكاً، وأنه قد سئل عمّا إذا كان سيمنع العرب على ساحل الخليج عن مناصرة سعود ضد العثمانيين. وطلب بيلي تعليمات محدّدة يلتزم بها في هذا الصدد. وعبّر بيلي في رسالته هذه عن رأيه بوجوب عدم تدخّله ضد الحملة العثمانية «لأن العثمانيين ليسوا طرفاً في الهدنة البحرية» وأنه سيلتزم العمل بهذا الرأي حتى تصله تعليمات أخرى. كما طلب بيلي في رسالته هذه إلى حكومة بومباي أن تزوّده بسفينة ذات كفاءة عالية لتخدم تحرّكاته لمراقبة الأحداث، كما طلب أيضاً إخطار الوكيل السياسي البريطاني في بغداد، لكي يتصل به مباشرة، ويخطره بتحركات الحملة وأخبارها أوّلاً بأول. وصدرت تعليمات حكومة الهند لحكومة بومباي في هذه الصدد بأن على بيلي أن لا يتدخّل ضد العمليات العثمانية بحراً إلّا بعد صدور تعليمات محدّدة من قِبَلها بذلك. «وعليه فإن على المقيم بيلي أن يقوم بمراقبة الأحداث بدقة، ويرسل تقارير عاجلة. أمّا إذا تدخّل عرب السواحل في النزاع فعلى بيلي أن يقصر تدخله بصفة قاطعة في العمل على الحفاظ على السلم البحري». [٣٤]

أبرق هربرت إلى الهند في ١٧ أبريل/ ١٨٧١م بأن استعدادات الحملة على نجد قد اكتملت، «وأنّها ستغدار بغداد في غضون الأيام القليلة القادمة» وأضاف بأنه قد تمّ تجهيز ثلاث سفن بخارية لنقل ستة فيالق من الجنود و١٢ مدفعاً. وأرسل هربرت في الوقت نفسه رسالة تحمل المعنى نفسه إلى أليوت في الآستانة. [٣٥]

لم يقتنع بيلي بتعليمات حكومة الهند التي أحالتها إليه بومباي وراح يسأل مجدّداً: «هل أفهم بأن حكومة الهند تطلب إليّ أن أمنع رؤوساء الساحل المهادن عن مساعدة الوهابيين ضد الأتراك أم أن أمنع كل التحركات العسكرية على إطلاقها من قِبَل هؤلاء؟ وماذا سيكون ردي على الشيوخ المتهادنين إذا سألوا عمّا إذا كنا سنحميهم من هجوم الأتراك على أرضهم بحراً؟». وتساءل بيللي عمّا إذا كان من المستحسن أن تكشف الحكومة البريطانية للعثمانيين عن طبيعة ارتباطاتها بشيوخ

الساحل المتصالح. وانتهت رسالة بيللي بالتعبير عن اعتقاده بأن «أعين الأتراك ترنو إلى البحرين». (٣٦)

أرسل بيللي إلى حكومة بومباي مرة أخرى في ٣ مايو يخطرها بأن سعود بن فيصل قد اتصل به كما اتصل به شيخ البحرين كذلك وأبلغاه بأن شيخ الكويت يتهيّأ لمساندة الحملة العثمانية. وطلب سعود إلى المقيم بأن يسمح له بالعمل العسكري ضد العثمانيين بحراً ما دام قد سمح لشيخ الكويت بذلك. أمّا شيخ البحرين فقد أبلغ المقيم كذلك بأنه يعتمد على التعهدات البحرية التي دخل فيها مع البريطانيين ليتقي بها الحملة العثمانية وأنه ما فتىء ينتظر «نصيحة المقيم» في هذا الصدد. ويعبّر بيللي عن اعتقاده بأن الحملة العثمانية المزمعة على نجد لا تتّسم بالحكمة، ويحرِّض حكومته على محاولة العمل لمنع قيامها. «أمّا إذا كان هناك إصرار عليها فلا نرى ما يستوجب تدخّل الهند في دوامتها لأنها تختص بالوهابيين والكويتيين والأتراك وليس في هذه الأطراف جميعها من هو عضو في اتّفاقات السلام». ويضيف بيللي «أعتقد أنّنا لا نوافق على قيام تركيا أو الكويت بهجوم بحري على أراضي الشيوخ المتصالحين الذي يحترمون ارتباطاتهم معنا ويعملون بموجبها. وعليه اطلب رداً سريعاً على برقيتي هذه وكذلك البرقية التي أرسلتها بتاريخ ٢٢ الماضي».

لم تصل حكومة بومباي ولا حكومة الهند إلى سياسة ثابتة تجاه الحملة الغثمانية. كان كل ما يهمّ الحكومتين عدم اضطراب الأمن في الخليج، أو إثارة شيوخه للعمل العسكري. سعت حكومة الهند، وبومباي من خلفها، إلى تهدئة المنطقة ولا شيء فوق هذا. ولهذا لم تكن معارضة الهند للعثمانيين حاسمة في بداية الأمر. أمّا حكومة لندن فما كانت تريد أن تثير العثمانيين بمعارضتهم في أمر كهذا، فهي تدرك تماماً أن الدولة العثمانية ليست قوة بحرية ولا تتطلع إلى شبه القارة الهندية. عرفت لندن بأن أمن الهند لن يضار بهذه التحركات العثمانية، وأن المسألة يمكن أن تعالج برمّتها في الأطر المحلية أو الإقليمية، إذ ليس للحملة تطلعات فيما وراء النطاق الإقليمي. وبالرغم من أن هذا النطاق الإقليمي يقع في الحزام الأمني للهند إلاّ أنّه لم يكن في هذا الوقت نفوذ دولي في الآستانة لأيّة قوة أخرى أبلغ من

النفوذ البريطاني. وعلى هذا فلا يخشى أن تسرج أية قوة دولية أخرى هذه الحملة وتركبها لتصل بها إلى غايات ضارة بالحكومة البريطانية وأهدافها في الهند.

عبَّرتْ حكومة بومباي لحكومة الهند عن رأيها من أن العثمانيين سيعتمدون على السياسية البريطانية المعلنة في الخليج العربي، التي تقضي بحظر التحركات العسكرية على القوى الساحلية وسيستفيدون من هذه السياسة إلى أقصد حد، «وهذا في حد ذاته تدخّل نشط من جانبنا في مصالح تركيا». وأحال حاكم الهند العام في مجلسه هذا الأمر إلى الأمانة الخارجية في حكومته لدراسته وإبداء الرأي. وعبر أيتشسون (Aitchison) في صفر ١٢٨٨هـ/ ٣ مايو ١٨٧١م عن رأي الأمانة الخارجية في مذكرة طويلة جداً جاء فيها:[٣٨] «يجب ألّا ننسى بأننا قد اكتسبنا السمات الرئيسية لوضعنا في الخليج العربي بالسياسة، ثم صغناه بعدئذ في شكل تعهدات ضعيفة واهية كالسراب. إنّنا لم نكتسب هذا الوضع بالغزو العسكري، أو بمرسوم يخوّل لنا ذلك. إن المبرّر الوحيد لوضعنا هناك هو اعتمادنا على الظروف التي هيّأت لنا الحصول على هذه التعهدات، ثم طول فترة سريانها، ممّا أكّد لنا الوضع الذي اكتسبناه بموجبها وربّما لا يدرك سعادته (الحاكم) في مجلسه أن مجال هذه التعهدات ضيق ومكتسب بالممارسة». وتشير المذكرة إلى خاصية يتميّز بها وضع شيخ البحرين، فهو بموجب تعهده مرتبط بالابتعاد عن كل الحملات البحرية على إطلاقها ما دام متمتعاً بحماية الحكومة البريطانية ضد كل الاعتداءات المماثلة التي قد يقوم بها شيوخ العرب الآخرون. «أمّا الشيوخ الآخرون فقد تعهدوا بأن لا يقوموا بالاعتداء على الشيوخ الداخلين في اتّفاقات معنا، ولهذا فإن حقّنا في التدخل مقصور على ما تنص عليه هذه التعهدات، وحماية الطرف المتضرّر من الأطراف المتعاقدة معنا ضد الأطراف الأخرى المتعهدة بذلك أيضاً. أمّا تدخّلنا في هذه الحالة الناشئة إلى جانب الأطراف المتعاقدة أو غير المتعاقدة معنا فليس له أساس يسنده». وترى المذكرة بأنه ليس للحكومة بموجب التعهدات القائمة ما يدعوها إلى التدخل ضد هذه الحملة، أو أيّة حملة أخرى، تقوم بها أية دولة أخرى مثل فارس مثلاً: «ليس لدينا الحق، ولا يقع علينا الالتزام بالتدخل لمنع الأطراف الموقعة على معاهدات السلم البحري عن مهاجمة الأتراك أو الفرس، أو تجهيز حملة

عسكرية ضد أي طرف آخر غير موقّع على هذه التعهـدات». وتستمر المـذكرة لتضيف بأن الحملة العثمانية ما هي إلّا «إجراءات تقوم بها تلك الدولـة لتثبيت سلطتها على أراضيها. وبالرغم من الخوف الناشئ أخيراً من أنها ربما تخرج عن هذا المجال، إلّا أنه حتى في هذه الحالة، فإنّ الأمر لن يختلف كثيراً». وأشارت مذكّرة أيتشسون إلى خطل توجه السياسة البريطانية التي تقوم على مياه الخليج بمؤثّرات السياسات العربية في الساحل «لنمنع حملة بحرية محتجين بعدالة أو عدم عدالة الادّعاءات التي تسعى الحملة إلى تأكيدها. إنّنا إذا فعلنا ذلك زججنا بأنفسنا في علاقات القبـائل العـربية بعضهـا بالبعض، وهـذا أمر لا نفهمـه ولسنا مؤهّلين لفهمه».

وتخلص المذكرة إلى رأي الأمانة فتقول: «لقد التزمت سياستنا حتى الآن بمنع الحملات العسكرية بحراً، وعلينا أن نفرض هذا الحظر على الكبير والصغير على حد سواء، فنجاح هذه السياسة يعتمد على تكاملها. أمّا إذا سمحنا باستثناءات، فإنّنا لا نعرف تماماً إلى أين سيأخذنا هذا التراجع، لأنّنا لا بدّ وأن نُحشر بتراجعنا في الحدود الضيقة التي تتضمنها التعهدات. إنّنا لن نستطيـع أن نُفهِم الآخرين الـذين لم نسمح لهم بمثـل هـذه الاستثنـاءات، السبب الـذي يجعلنـا نحـرمهم فوائدها». ويرى أيتشسون أن العثمانيين، لو قيّض لهم أن يرسلوا حملتهم بحراً على السعوديين، فإن للسعوديين والطوائف العربية الأخرى المساندة لسعود حقاً مماثلاً في مهاجمة العثمانيين بحراً. ويستطرد أيتشسون فيقول إنّه لو قيّض أيضـاً للعثمانيـين هزيمة العرب، فسيكون من حقهم أن يمارسوا الحقوق التي يمارسها المنتصر عادة في تثبيت سيادته على تلك الأرض. «وهنا تكمن نهاية سياستنا في الخليج. فالعرب، الهادئون الآن، ربما أرادوا القيام بحملة أسـطولية. فـما هو المخـوّل لمنعهم وقد سمحنا بذلك للأتراك قبلهم؟ وإذا قامت فارس التي تريد أن تضع لها أسطولاً في الخليج لتأكيد سيادتها في بعض مناطقه بالـدخول في أحضـان قوة دوليـة أجنبية وحصلت من تلك القوة على سفن حربية فبـأي أساس نستـطيع أن نحتـج؟». ويخلص أيتشسون إلى أنه إذا عجزت الحكومة عن منع قيـام هذه الحملة، فلن يكون في مقدورها التعامل مع فارس على هذا النحو، أو على الأقل، فإنّها لن تجد

حجة قوية تستند لها.(٤٠) وهنا يشير أيتشسون بوضوح إلى ما سبق أن تقدّم به الشاه في ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م من طلب لبريطانيا لشراء قوارب حربية لتحقيق سياسته في الخليج بخاصة تجاه البحرين، وبما ذكره الشاه في هذه المناسبة من أنّه ربما يشتري هذه القوارب الحربية من فرنسا في حالة عجز بريطانيا عن مدّه بها.(٤١) وهنا يذكّر أيتشسون بأن الحملة التي يُعتقد أنها محلية ربما تجر في أذيالها دخول قوة أوروبية أخرى إلى الخليج وما سيسببه ذلك من تقويض لأمن الهند.

أمّا فيما يخص الكويت فيرى أيتشسون أن سكانها يعترفون بسيادة الباب العالي، ويرفعون العلم العثماني. ويستطرد أيتشسون فيقول «وعلى الرغم من أن سلطة السلطان هنالك ليست أكثر من اسمية إلاّ أن الكولونيل بيللي قد أصاب كبد الحقيقة حين رأى أنه ليس من التزامات حكومة الهند أن تتدخّل بموجب التعهدات لصالح الشيوخ المهادنين ضد التدخل التركي». ويرى أيتشسون بأن مجال تعهد البحرين أوسع مدى من مجالات التعهدات الأخرى فقد تعهد شيخ البحرين بتجنب إثارة الشغب في البحار ما اضطلعت الحكومة البريطانية بمساندته ضد كل الاعتداءات المماثلة التي قد يقوم بها شيوخ الخليج الآخرون وقبائله. كما تعهد شيخ البحرين برفع مثل هذه المسائل إلى المقيم ليحكم فيها، وتعهد له المقيم بدوره بأن يتخذ الخطوات اللازمة لرد كل ظلم يقع عليه. وقرر أيتشسون «بأنّنا ملتزمون بالتدخل فيما يخص البحرين في حالة وجود مخطّط بحري للهجوم عليها أو في حالة وقوع الهجوم فعلاً. أمّا فيما يخص مسألة التدخل لصالح الشيوخ الآخرين، فإن تدخلنا ـ في هذه الحالة ـ سينبع من السياسة وليس من الالتزام».(٤٢)هذا ويمكننا أن نعتبر أن هذه المذكرة أول تجسيد حقيقي لخطط حكومة الهند التي بدأت تخط حدود أمنها خارج حدودها الجغرافية وتخومها. ولعلّنا نلحظ هنا سياسة إرساء ركائز الأمن الهندي على الجزر الواقعة عند سواحل الخليج لضبط حركات السواحل والتأثير على الظهير دون تدخل جاد في سياسات الظهير التي لا تدعم الهند وأمنها في شيء.

أرسل هربرت في ٢٥ أبريل إلى حكومة الهند بالشائعات التي تقول بأنه في حالة نجاح هذه الحملة وتحقيق أهدافها في نجد فإنّها ستتوجه بعد هذا إلى البحرين

ومسقط والساحل العربي من الخليج عموماً. وذكّر هربرت الحكومة باحتجاج مدحت في ذي الحجة ١٢٨٦هـ/ ١٦ مارس ١٨٧٠م على ما قام به بيللي في البحرين في حوادث ١٢٨٦هـ/ سبتمبر ١٨٦٩م التي انتهت بمقتل الشيخ علي، واعتقال بيللي لمحمد بن خليفة، ومحمد بن عبدالله، وبعض الشيوخ البارزين، ونفيهم إلى بومباي. جاء في ذلك الاحتجاج: «أن البحرين من الأراضي العثمانية» وأن حكومات هذه المناطق جميعها تابعة لقائم مقام نجد التابع بدوره للعثمانيين. والجدير بالذكر أن هذا الاحتجاج قد أُرسل إلى وزير الهند بعد أن علّقت عليه حكومة الهند في أواخر صفر ١٢٨٧هـ/ ٢٠ مايو ١٨٧٠م بقولها «لقد سبق أن أخطرنا سيادتكم بأن أي اتّجاه للاعتراف بالادّعاءات الفارسية على البحرين سيثير موجة ادّعاءات مماثلة من تركيا. إن ما توقعناه قد حدث الآن بالفعل». (٤٣)

سياسة حكومة الهند تجاه الحملة

أبرق هربرت إلى الهند في ٢٨ أبريل ١٨٧١، بأنه قد تلقّى من السفير أليوت برقية تفيد بأن الحكومة العثمانية قد أكّدت له بأنّها لا تعمل على تثبيت سيادتها على البحرين، ومسقط، ومناطق العرب المستقلين في جنوب شبه الجزيرة العربية، وأنها لم تخطط للهجوم على تلك المناطق أبداً. وأكّد السفير أليوت بعد ذلك حين طلبت إليه حكومته أن يتثبّت مرة أخرى من مخططات العثمانيين في تلك المناطق، بأن الباب العالي ينفي كل نيّة له في مد سيادته على البحرين ومسقط ومناطق العرب في جنوب شبه الجزيرة العربية. وجاء في برقية أليوت إلى لندن في ٢٢ صفر ١٢٨٨هـ/ ١٢ مايو ١٨٧١م أنّ الباب العالي قد أكّد له بأن المهمة الوحيدة للحملة المزمعة هي «معالجة شؤون نجد التي ثار فيها سعود ضد أخيه الشيخ عبدالله». كما أكّد الباب العالي للسفير بأنه لا يزمع القيام بأيّة عمليات عسكرية في الخليج العربي، وأن السفن التي أُعدّت هي «لترحيل الجنود فقط». ولم ينسَ الباب العالي أن يحتجّ على هذا التدخّل البريطاني السافر، وأنهى للسفير أليوت «بأن الدولة العثمانية دولة مستقلة لها الحق في معالجة شؤونها الداخلية وفق ما يتطلبه الأمر. وبما أن نجد هي جزء من ممتلكات السلطان فلا يجوز أن يحرم الباب العالي

من تأكيد سيادته عليها». وأكّد الصدر الأعظم في هذا الصدد بأن الإمام عبد الله ليس حاكماً مستقلاً، ولكنه قائم مقام عثماني، يحكم باسم الدولة العثمانية التي يقع عليها واجب مساندته ضد الخارجين على سلطته. وأكّد الباب العالي بأن الحملة لا تهدف إلّا إلى إقرار النظام، وتثبيت العدل والسلم في المنطقة.(٤٥)

حمل هربرت نتائج اتصالات الحكومتين العثمانية والبريطانية إلى مدحت باشا، والي بغداد، وناقشه في أمرها. وأقرّ مدحت باشا تماماً التأكيدات التي أوردها الباب العالي. وعلى هذا بنت حكومة الهند سياستها تجاه هذه المسألة.(٤٦)

أرسلت حكومة الهند إلى حكومة بومباي في ١٧ مايو بتعليماتها وطلبت إليها أن يقوم المقيم بيللي إلى البحرين والساحل المهادن لكي يخطر الشيوخ هنالك بأنّه قد قام بالتحريّات اللازمة فيما يخصّ أهداف الحملة العثمانية، وأن الحكومة العثمانية قد أكّدت لحكومته بأنّها لا تنوي مهاجمتهم. أمّا فيما يخصّ التعليمات المحدّدة التي يجب على المقيم اتّباعها فقد رأت الهند أنّه من المتعذّر عليها إصدار تعليمات محدّدة في هذا الشأن. فهم «لا يدركون العقابيل الكامنة في جوف المستقبل، ولكنهم يدركون شيئاً واحداً وهو أن هذه الحملة يجب أن لا تؤثر في طبيعة التعهدات ولا في إعمالها». «فالحملة ليست ضد الالتزامات البريطانية في المنطقة، ولا ضد الشيوخ الذين تعهدوا بالسلم البحري، وعلى المقيم أن يتبع كافة السبل للمحافظة على هذه التعهدات».(٤٧)

لم يثق اللورد ميو (Mayo) حاكم عام الهند، في التأكيدات العثمانية فأرسل إلى أرجيل، وزير الدولة للهند، في ٢٢ مايو يستعرض كل المكاتبات السابقة الواردة بخصوص هذه الحملة معبّراً عن رأيه من أن ما تقوم به الحكومة العثمانية في نجد لا يثير مخاوف آنية، ولكنه يخشى أن تضطر الظروف هذه الحملة لتخوض عمليات عسكرية في مناطق ما كانت تريد أن تخوضها فيها، وعندها ستبدأ التعقيدات. «ولهذا فإنّه من المرغوب فيه جداً ألّا تقوم هذه الحملة وذلك من أجل مصلحة الباب العالي، ومصلحة السلام في الخليج عامة. وأمّا إذا لم يكن ذلك ممكناً، وهذا ما نخشاه، فيجب على حكومة الباب العالي أن تقصر عملياتها في الحدود المشار إليها، كلّما كان ذلك ممكناً».(٤٨)

كان بيللي، المقيم البريطاني في الخليج، يريد استخـلاص تعليمات مفصّلة للتعامل مع هذه الحملة، ويلح في ذلك. أبرق بيللي في ٢٥ مايو بأنّ التجار في المنطقة منزعجون لقيام هذه الحملة، ويخشون أن يصاب موسم الغوص بالكساد. وتساءل بيللي عن إمكانية السماح للقبائل الموقعة على الهدنات البحرية أن تساند بعضها بعضاً في العمليات الحربية المتوقعة. وردّت حكومة الهند على مقيمها في ١١ ربيع الأول ١٢٨٨هـ/ ٣٠ مايو بأن يقوم إلى البحرين في ثلاث من السفن الحربية وهي هج روز (Hugh Rose) وماجيباي (Magpie)، وبلفنش (Bllpinch) ليؤكد لشيوخ الساحل شفاهة التعهدات العثمانية، ولينقل إلى شيخ البحرين بأن الحكومة البريطانية ستفي بتعهداتها له ما التزم بقيد الشرطين الثاني والثالث من تعهده، كما أن على المقيم أن يخطر العاملين في صناعة اللؤلؤ بأن الحكومة البريطانية ستعمل على حماية مصالحهم، كما طُلب إلى المقيم أيضاً أن يؤكد للشيوخ المهادنين وغيرهم بأن الحكومـة العثمانيـة لا تسعى للهجوم عليهم أو إلى مـد سيادتهـا على دولهم «المستقلة». (٤٩)

وأحال النائب في الهند تساؤل بيللي إلى لندن طالباً رأي الحكومة البريطانية في شأن تخويل بيللي استعمال القوة ضد الشيوخ إذا قاموا بعمل عسكري بحري ما لصالح الدولة العثمانية أو ضدّها. وجاء الردّ من لندن برقياً في ٣١ مايو بأنّه يجب على المقيم حظر التحركات العسكرية بحراً على الشيوخ المتهادنين دون سواهم. وجهت حكومة الهند حكومة بومباي في ١٧ ربيع الأول/ ٥ يونيو بـإخطار بيللي بفحوى الرسالة، وأضافت إلى ذلك أن على بيللي أن يعمل أقصى نفـوذه لحمل الشيوخ «غير المتصالحين» للمحافظة على الهدنة البحرية. وأبلغت هذه التعليمات الصادرة إلى بيللي إلى الحكومة العثمانية كذلك. وأكّد الصدر الأعظم، عالي باشا، مرة أخرى بأن حكومته لا تسعى إلى أيّة عمليات عسكريـة في البحر، وأنّها لا تسعى إلى الاستعانة بالشيوخ المذكورين. «إلاّ أنّها بالرغم من ذلك لن تتردّد في قبول خدمات أي من الشيوخ الذين ربّما يتّصلون بها». وأضاف الصدر الأعظم بأن الحكومة البريطانية لن تطلب من حكومته الالتزام بالتعهدات التي أشارت إليها والتي لا تعرف حكومته عنها شيئاً. وعلى هذا وجهت وزارة الخارجية البريطانية

سفيرها لدى العثمانيين بمد الباب العالي بنسخ من «التعهدات التي أبرمها شيوخ العرب لحفظ السلام البحري»، وأن يخطره بأن الحكومة البريطانية ستعمل على أن تضع هؤلاء الشيوخ أمام التزاماتهم ومراعاة ارتباطاتهم.(٥٠)

أبلغ مدحت كذلك بتعليمات حكومة الهند لبيللي، وعبّر عن رغبة مماثلة في حماية العاملين في صناعة اللؤلؤ مؤكداً أن هذا من واجب الحملة. وعبّر مدحت عن شكره لصدور هذه التعلميات التي تقضي من بيللي المحافظة على الأمن، وتثبيت السلام، وأشار بأن الحملة لن تهاجم أية قبائل خارج نطاق نجد، أو المناطق التي كانت سابقاً تحت ولاية عبدالله. وأشار مدحت باشا بأن الحملة ستضرب كل قبيلة تعمل على مساندة سعود حتى مع افتراض أنها مستقلة، مع أنّه لا يعرف بوجود قبائل مستقلة في المنطقة. كما أفاد مدحت بأنه حظر على القائد المعيّن للحملة بأن ينزل في البحرين، و«عليه أن يرفض النزول هناك حتى لو وصلته من شيخها دعوة للضيافة والتكريم والمجاملة».(٥١)

وبالرغم من هذا أبرق هربرت للهند في ٢ يونيو بأنه ورد في العدد الأخير من مجلة الحكومة أن الشارقة ودبي وأبوظبي وعددا من المدن العمانية في الساحل المتصالح داخلة في عداد البيوت والبساتين في مقاطعة نجد. وردّت الهند بأن على هربرت أن يذكّر الباشا مجدداً بما ارتبط به من عدم القيام بأيّة عمليات عسكرية خارج النطاق المرسوم إلّا ما تقضيه ضرورة توصيل القوات والمؤن الخاصة بالحملة، كما يطلب إليه كذلك أن لا يخوض في المسائل الخاصة بوضع قبائل المنطقة، ويترك ذلك ليُبت فيه بواسطة وزراء الحكومتين المعنيتين، وأن يوضح له مجدداً «بأن الوضع الذي استقرّت عليه بريطانيا في الخليج طويلاً يجب ألّا يتأثّر بأي شكل من جرّاء الحملة العثمانية على نجد».(٥٢)

كانت حكومة الهند تدرك تماماً بأن الباب العالي غير متحمّس لهذه الحملة حماس مدحت، حيث طلب الصدر الأعظم إلى مدحت «عدم إكبار الأمر وتوسيع الخرق» وإعطاء التعليمات اللازمة لذلك.(٥٣) وعلى هذا استقرّت سياسة حكومة الهند على تحجيم الحملة حتى لا تحدث في البحر خللاً، أمّا البر فإن مسألته لا

تعنيهم إلّا بقدر تأثيرها على البحر، وعلى الركائز التي أحدثتها الهند قرب السواحل في عدد من جزر الخليج لضبط تحرّكات البر، وطرد مؤثّرات سياسة الـظهير من نطاق أمن الهند في البحار.

موقف طهران من الحملة

أرسل أليسون (Alison)، الوزير في طهران، في ١٤ مايو إلى أيرل جرانفيل ينهي إليه أن شاه فارس ووزراءه قد أزعجتهم أخبار مفادها أن مدحت باشا ينوي إرسال حملة عثمانية لإخضاع البحرين، التي ترى الحكومة الفارسية أنها جزر فارسية، وقد احتجّت الحكومة الفارسية للسير أليسون، في هذا الصدد، بمذكّرة اللورد كلارندون إلى حاجي محسن خان بتاريخ ١٨ المحرم ١٢٨٦هـ/ ٢٩ أبريل ١٨٦٩م التي يعتقد الفرس أنها تتضمّن اعترافاً بسيادة لفارس في الجزيرة، في حين يرى أليسون أنها مجرّد إشارة من الحكومة البريطانية إلى أن للفرس ادّعاءات على الجزيرة. وقد وجّهت الحكومة البريطانية وزيرها في طهران لينقل إلى الحكومة الفارسية تأكيدات الباب العالي من أن الحملة لن تغشى البحرين، أو تتدخّل لتغيير وضع الجزيرة الذي سيظلّ على ما هو عليه.(٥٤)

تحرّك الحملة

أرسل هربرت إلى حكومته في ٢٤ مارس ١٨٧١م بأن مدحت باشا لا يبدو متحمّساً لمساندة قضية عبدالله الخاسرة ولكنه - في الوقت نفسه - يرى وجوب مساندته باعتباره قائم مقام معترفاً به من قِبَل الباب العالي. وأشار مدحت في محادثة لاحقة مع هربرت بأنه سيرسل إلى نجد قوة تتألّف من ثلاثة إلى أربعة ألوية مسلّحة بأسلحة مختلفة تتراوح بين البنادق والمدافع الصغيرة إلى أصناف أخرى من المدافع الخفيفة، كما سيكون معهم مدفع واحد كبير. وأنهى مدحت إلى هربرت كذلك أن قوة الحملة ستتحرّك إلى البصرة أولاً لتتكامل هناك ثم تنقل على البارجة المسلحة بروسة وبخاريتين هما نينوى وأشور. ويلاحظ هربرت أن مدحت باشا كان يستهين بقوة مَن يحاربهم ولا يعرف قوة شكيمتهم ويصفهم «بالعرب الرحّل» ولهذا يقدّر

مدحت باشا أن ينتهي من مهمته هذه في نجد في خلال شهر واحد. وعلى الرغم من هذا اعترف مدحت بأن الحملة ستكلّف خزانته المثقلة بالديون سلفاً وتزيد في أعبائها. وعندما عبر هربرت، الوكيل السياسي البريطاني، لمدحت عن رأيه من أنه ليس من الحكمة في الوقت الراهن تفريغ منطقة ما بين النهرين من الجنود لأن أعداد الجنود تكفي الولاية بالكاد، ردّ مدحت بأنه يتوقّع قدوم بعض الجنود من سوريا، وأن قوات اليمن ربما تشترك في هذه العملية. وقد علم الوكيل البريطاني بعدئذ بأن دار الخلافة قد أرسلت بعض الجنود إلى الولاية ليحلّوا مكان المرسلين إلى نجد. ويلاحظ هربرت في بعض تقاريره إلى حكومته أن العثمانيين ينوون أن يحتلّوا نجداً احتلالاً دائماً، إذ أعدّ قسم من الجيش إعداداً خاصاً لهذا العمل، كما أنهم سيرسلون حاكماً عسكرياً مقيماً إلى هناك.(٥٥) ولعلّ هذه أول إشارة لنوايا مدحت باشا لاستقطاب نجد تماماً.

يشكّك هربرت، الوكيل السياسي البريطاني، في خطاب له لحكومته بتاريخ ٢١ صفر ١٢٨٨هـ/ ١١ أبريل، في حكمة تدخّل العثمانين في شؤون ابني فيصل، ويرى بأن طبيعة الإقليم الذي ستعمل فيه القوات العثمانية ستقلّل من فرص نجاح الحملة. ويذهب هربرت إلى أنه في حالة نجاح العثمانيين وتمكّنهم من الرياض، فإنّهم سيفرضون عبدالله فرضاً على قوم لا يرغبون فيه، فهم في صف أخيه، وسرعان ما يهبّون في وجهه حين تنسحب الحملة بعد تحقيق أهدافها. «أمّا إذا بقيت القوات العثمانية هنالك للاحتلال الدائم، كما تؤمل الحكومة العثمانية، فسيكون هنالك سخط شعبي، وستعمّ الاضطرابات المنطقة كلّها». ورأى الوكيل السياسي البريطاني، أنه في كلا الحالين المشار إليهما فإن مشاكل العثمانيين في نجد ستتفاقم، وأن التعقيدات التي تنتظرهم في نجد ستكون أكبر من أي عمل ناجح ستحقّقه هذه الحملة. ولاحظ الوكيل السياسي البريطاني أن نجداً تعيش حالة جدب لسنتين متتاليتين، ولهذا فإن المنطقة لن تهيّئ الزاد والكلأ لحملة كهذه. ولاحظ هربرت أيضاً أن هناك إشاعة «بأن بريطانيا تساند سعوداً في حركته هذه، ولكنه يعرف تماماً أن من سياسة الحكومة البريطانية ألاّ تتدخّل في المسائل الخاصة

بوسط الجزيرة العربية، وأنّها زاهدة في التدخّل لصالح أي طرف من الأطراف في تلك المنطقة». (٥٦)

وفي ٢٦ أبريل ١٨٧١م كتب هربرت بأن طلائع حملة نجد قد تحرّكت من بغداد في يوم الخميس ٢٠ أبريل، وأنّها مشكّلة من آلاي واحد من المشاة تتراوح قوته بين ٤٠٠ ـ ٥٠٠ فرد. وأفاد هربرت بأن هذا الفوج قد غادر بغداد على البخارية الموصل. وفي يوم الجمعة تحرّك جزء من فرقة مدفعية غير مصحوب بأسلحته، كما قام عدد من الخيالة في هذا اليوم براً تجاه نجد. وفي يوم ٢٩ قامت ثلّة أخرى من المشاة تزيد أعدادها عن أعداد الآلاي الأول وذلك على البخارية الدرعية، و«الصندل» المصاحب لها، كما أفاد أيضاً بأنّ هناك قوة أخرى ستتحرّك من العمارة فور رجوع هذه البواخر لترحيلهم. وعرف هربرت أيضاً أن كلّ المعدّات العسكرية الخاصة بالحملة ستنقل بحراً على مراكب الوطنيين، وأن أعداداً من الجنود العاملين في المدفعية سيسيرون إلى نجد براً، وأن قبائل المنطقة، بخاصة عرب المنتفق، ستزوّد الحملة بأكثر من ألف فارس، كما سيشارك في الحملة أهالي منطقة الزبير والكويت وقبائل المنطقة الأخرى.

يكتب هربرت بعد هذا عن توقعاته الخاصة بالحملة التي «ستجد نفسها في أرض معادية». ويتوقّع هربرت بأن الصعوبات ستكتنف طريقها من كل فج، حيث صعوبة المؤن، والشمس المحرقة، والرياح اللافحة في منطقة رملية جرداء ليس بها مياه تكفي لسقاية هذا العدد الكبير. ويلاحظ هربرت أن مصادر المياه في المنطقة من الساحل إلى الهفوف شحيحة ومالحة ولا يعرف مواقعها إلّا الذين خبروا المنطقة من أهلها، وستجد الحملة نفسها مضطرة لترحيل مياه الشرب، وستحتاج الحملة لتحقيق هذه الغاية لعدد كبير من الجمال بشكل يبدو تحقيقه مستحيلاً، كما لاحظ هربرت أيضاً بأن أهل المنطقة سيكونون قلباً وقالباً مع سعود لأن أمه تنتمي إلى منطقة الأحساء. ويضيف هربرت بأن المصاعب التي تنتظر الحملة تجل عن الحصر. «وحين تتغلب الحملة، افتراضاً، على هذه المصاعب فإنّها ستصل إلى الأحساء (الهفوف) حيث يمكن أن تعسكر هناك لفترة وتجد المؤن». ويصف هربرت طريق الهفوف الرياض الذي يعتقد أنه أكثر خطورة وأعظم وعورة من سابقه.

فيقول: «إن على الحملة أن تجدّ في المسير لسبعة أو ثمانية أيام من بزوغ الشمس حتى مغيبها. . وستلاقي في الأيام الأولى من مسيرها عنتاً ورهقاً، وذلك حين تقطع الدهناء، تلك الرمال الحمر الناعمة التي لا تثبت حتى تحت أخفاف الجمال، ولا تستبقي أثراً لقدم يحدث عن اتجاه السير الصحيح. إنّ حرارتها قاتلة، ووهجها غير محتمل، وهي منطقة لا يتجرّأ حتى العرب على قطعها إلّا لضرورة. إنّ كل مَن يسير من الأحساء إلى الرياض يجب أن يجتاز تلك المهمهة التي ينعدم فيها الماء والزاد. على الحملة أن تحمل معها كل ضرورات الحياة، وتضرب في مسالك الصحراء التي لا يعرف دروبها إلّا النفر القليل من الذين اعتادوا مسالكها. أمّا إذا ضلّت الحملة، نتيجة لتخطيط مسبق من دليل أو دون تخطيط، فإنّ ذلك يعني التلف والضياع». ويعتقد هربرت بأن الحملة ستكون في مأمن في الدهناء من هجوم العرب المتربصين بها، ولكنها حين تخرج من الدهناء فإن العرب سيغيرون عليها تباعاً سراعاً ويهربون. ويختتم هربرت تقريره متسائلاً: ترى كم من أفراد هذه الحملة سيُكتب لهم العودة مرة أخرى؟.[٥٨]

أرسلت الهند هذا التقرير إلى وزيرها بلندن تطلب إليه التدخّل لدى الباب العالي لوقف هذه الحملة «الخرقاء الحمقاء». وعلّق ديوك أرجيل على الخطاب، وأحاله إلى أليوت في الآستانة لسرعة التصرّف.

نجد خطابين من بيساني (Pisani) ترجمان السفارة البريطانية، في ١١ مايو يعبّران عن رأي الحكومة العثمانية للبريطانية. يحتج الصدر الأعظم، عالي باشا، بأن العالم الإسلامي كلّه يعترف بالسلطان خليفة للمسلمين، وهو بصفته هذه لن يترك «مفاتيح المدينتين المقدّستين في أيدي عصبة من الشيوخ المتمردين لأن ذلك سينال من هيبته، ويحط من كرامته، ويدني من سمعة الخلافة لدرجة تفقد السلطان سلطته الدائمة في العالم الإسلامي. وأكّد عالي باشا بأن الحملة لم تخطط إطلاقاً لأية عمليات في مناطق «العرب المستقلين». وعبّر عالي باشا عن اعتقاده بوجود ارتباطات بين سعود والفرنسيين، وبأن سعود قد تنازل لشركة فرنسية عن ميناء في الخليج يحمل اسمه وذلك لقاء حفنة من الريالات، وأنه ـ بفعله هذا ـ قد وضع الباب العالي في موقف دولي حرج. ويستطرد عالي باشا ليقول بأن الملاحظات

البريطانية التي تفيد أن عبدالله شيخ مستقل هي ملاحظات خاطئة، فقد أصدر السلطان قبل حوالي ثمانية سنوات فرماناً عيّن بموجبه عبد الله حاكماً على نجد. ويضيف الباشا بأن مدحت لم يقم بإرسال هذه الحملة دون مبرّر إنما تلقى طلباً من عبدالله بالمساندة والدعم. واحتجّ عالي باشا على بريطانيا بالظروف الدولية في الجزائر، وبتحركات روسيا في التركستان تجاه الحدود الهندية، واتّهم الحكومة البريطانية بعدم مبالاتها تجاه تلك الأحداث إذ لم ترفع إصبعها احتجاجاً. «وبالرغم من هذا تعارض الباب العالي في عملياته المشروعة»، وتعمل للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية مستغلة في ذلك الضعف الذي طرأ على الدولة. وأكّد عالي باشا بأن الهدف الأول والأساسي والوحيد لهذه الحملة هو العمل على استتباب الأمن والسلام في إقليم من أقاليمها. ولكن «ما دام هؤلاء العرب المزعجون يتلقّون مؤازرة خارجية، فإن ذلك سيؤدي إلى شل تنظيمات الباب العالي، وتشجيع العرب للتمادي على تحدّي سلطة السلطان».

ردّ السفير البريطاني في الآستانة بعد هذا مؤكّداً للصدر الأعظم بأن الحكومة البريطانية لم تساند الأطراف المتمرّدة وأكّد أن هذا الاعتقاد خاطئ تماماً. وأضاف السفير بأنّ كل ما يهم حكومته يتركّز في عدم اضطراب الأمور السائدة في تلك المنطقة من الجزيرة العربية. «كما أنّنا حين أطلعنا دولته على رأي هربرت قصدنا أن نطلعه على رأي رجل حصيف ذي خبرة ودراية أمبريالية، وأنّه يشجب من واقع هذه الخبرة قيام الحكومة العثمانية بمساعدة زعيم وهابي مطرود». وردّ عالي باشا بأن حكومته «غير متعاطفة مع الوهابيين، وغير متفقة معهم في آرائهم الدينية، ولكن العمل على مساندة عبدالله اقتضته الظروف حيث يريد الباب العالي أن يحافظ على سلطته في تلك المناطق كاملة غير منقوصة». وأحيلت هذه المراسلات إلى حكومة الهند التي ردّت على وزيرها في ٢٦ ربيع الثاني ١٢٨٨هـ/ ١٤ يوليو مؤكّدة صحة عدم قيامها ببادرة واحدة لتشجيع العرب على تحدّي السلطة العثمانية أو استغلال ضعف الدولة العثمانية.

أُحيلت هذه الرسالة الصادرة من الهند إلى عالي باشا، وأكّد السفير لبريطاني له بأنّه بالرغم من أن لهم رأياً خاصاً في «حكمة» تسيير هذه الحملة

والتدخل العثماني بين الأخوين سعود وعبدالله على هـذا النحو، «فـإن عليه ألاّ يخشى أية مصاعب من جانب الحكومة البريطانية وذلـك ما الـتزمت الحملة حدودهـا، وراعت الارتباطات البريطانية تجاه القبائل العربية على ساحل الخليج، ولم تخرج عن الحدود الشرعية المعترف بها لأرض السلطان». [٥٩]

نتابع رسائل هربرت إلى حكومته فنجد أنه زار البصرة في ٢٦ أبريل بهدف الوقوف على الاستعدادات الخاصة بالحملة التي كانت على وشك الإقـلاع. أفاد هربرت في رسالته بتاريخ ١٠ مايو بأن السفن التي ستقلع مع الحملة هي البارجة بورصة المسلحة بثلاثة وعشرين مدفعاً، ونيسان التي سُلّحت بأربعة مدافع وخوجه بك التي تحمل ١٨ مدفعاً، وثلاث سفن حربية أخرى كانت قد بنيت سلفاً في حوض البصرة وعليها ٤ و٦ و١٢ مدفعاً على التوالي. ووصف هربرت هذه السفن الثلاث الأخيرة وكذلك خوجه بك بأنّها سفن غير صالحة. ونجد بعد هذا برقية من بيللي المقيم البريطاني في الخليج مؤرّخة في ١٢ ربيع الأول/ ٣١ مايو تفيد بـأن الحملة قد نزلت في رأس تنورة التي تقع على بعد عشرة أميال من القطيف. كانت الحملة تحت قيادة نافذ باشا، يرافقه منصور باشا، ويتبعه الكثير من أهالي الكويت الذين تطوّعوا لخدمة الحملة ونقل مرافق الجيش ومؤنه، وكذلك حوالى ٨٠ مركباً بين صغير وكبير تابعة لعبدالله الصباح أمير الكويت. [٦٠]

عمليات الحملة في الساحل السعودي

يقول هربرت في رسالة له بتاريخ ٤ جمادي الأولى/ ٢١ يوليو أن الحملة قد تكاملت في رأس تنورة. ويصف هربرت مشاعر أهالي المنطقة تجاه الحملة المتسمة بالعداء والتوجّس. ويضيف بأن الدعاية العثمانية ما لبثت أن امتصّت هذا الشعور وبدأ الأهالي يتوافدون على الحملة معبّرين عن ابتهاجهم لتدخّل الدولة لدرء آثار الفتنة. وعلى هذا سارت الحملة إلى القطيف التي دانت لها إلاّ القلعة التي كان عليها عبد العزيز القائد الموالي لسعود. وأرسل محمد سعيـد أفندي، ابن نقيب البصرة إلى ذلـك الأمير ينصحـه بالتسليم وحقن الـدماء. ورفض عبـد العزيـز

النصيحة وعبّر عن أسفه لمقاومة قوات السلطان العثماني، وبرّر ذلك بأداء واجبه الذي يقتضي منه عدم تسليم القلعة إلاّ إذا أُرغم ولم يجد لغير ذلك سبيلاً. وعلى هذا بدأت العمليات العسكرية، وفتح عبد العزيز النار على القوات التي كانت تحاصر قلعته من ثلاث جهات. فتحت البارجة آشور نيرانها على القلعة تساعدها المراكب الكويتية في العمليات. وسقطت القلعة بعد أن قاومت لثلاث ساعات. وتقدّمت الحملة بعد ذلك إلى الدمّام، واستولت في طريقها على عنك التي لم تقاوم إلاّ قليلاً. وغنم العثمانيون في عنك ثلاثة مدافع وأسلحة وذخيرة ومؤن. وحين وصلت الحملة إلى الدمّام هرب عبد العزيز بن سعود بن فيصل الذي كان على قلعتها. كانت قلعة الدمّام محصّنة تحصيناً قوياً، ومسلّحة بأسلحة جيّدة. غنم العثمانيون منها ١١ مدفعاً، ٩ منها حديدية و٢ نحاسية، كما وجدوا كميّات كبيرة من الذخيرة والمؤن. إستبقت الحملة طابورين من المشاة في الدمّام وتراجعت إلى القطيف يصحبها محمد بن فيصل الذي كان سجيناً في قلعة الدمّام وذلك استعداداً للتقدّم للأحساء (الهفوف)[٦١]. ونجد هنا إشارة في الوثائق البريطانية إلى أن مدحت باشا لا يعتزم أن يتقدّم بحملته إلى نجد، إنّما سيصل بها إلى الهفوف فقط. فهل كان ذلك بوحي من توصيات هربرت؟

يقول الميجور سميث (Smith) مساعد المقيم السياسي في الخليج، إن قلعة القطيف قد سلّمت في ١٥ ربيع الأول/ ٣ يونيو، وسلّمت الدمّام بعد ذلك بيومين. كما تفيد برقية من المقيم بيللي في ٩ ربيع الثاني/ ٢٧ يونيو بأن الأتراك لا يزالون في القطيف يعدّون العدّة للمسير إلى الأحساء. وقدّر بيللي قوة الحملة بثلاثة آلاف جندي نظامي، وألف وخمسمائة من رجال القبائل، وأن أسلحة الحملة تضم تسعة مدافع ميدان.[٦٢]

تقدّمت الحملة باتجاه الهفوف وأرسلت قبل قيامها المنشورات إلى أهل المدينة تحضّهم على الطاعة، مؤكّدة لهم بأن هذه الحملة لم تحل أرضهم إلاّ للعمل على استتباب أمن البلاد «ليستريح الناس، ويصرفوا أوقاتهم في مكاسبهم، وازدياد ثروتهم، واستجلاب دعواتهم الخيرية، لدوام أيام الدولة... فمَن استقبلنا بالطاعة نقابله بعهد الله وأمانه على نفسه وماله، ونبذل دونه الرعاية والحماية، ومَن يستقبلنا

بالعصيان وعدم الطاعة فسنسحقه بحول الله وقوته، بسنابك الخيل، ونجعل داره تدعو عليه بالثبور والويل، وبناء على ما بلغنا أنكم اليوم في أسوأ حال، من جرّاء ما لقيتموه من شدائد الظلم والوبال. وتمنيكم سرعة مجيئنا لأجل استخلاصكم من ذلك، سارعنا للمجيء...». [٦٣] وفي الحقيقة فإن الدعاية العثمانية لأهداف الحملة قد أفادت الحملة كثيراً وجنبتها خوض الكثير من المعارك والمقاومة العنيفة. فقد سبق هذا الإعلان إعلان آخر أصدره نافذ بك عندما وصل القطيف يخاطب أهالي القطيف والأحساء والأقاليم النجدية، ويخطرهم بأن نجداً وملحقاتها هي جزء من الأراضي العثمانية مثلها في ذلك مثل العراق واليمن ومصر، وأن الحملة قد جاءت لترد لعبدالله قائم مقام نجد المعين من قبل السلطان السلطة التي سلبها إيّاه أخوه سعود. وأشار هذا الإعلان إلى أنه إذا دخل الناس في طاعة عبدالله، وإذا أقبل سعود معتذراً عن سلوكه، فإن الحملة ستصدر العفو العام عن سعود ومَن والاه، وإلاّ فإنّها ستعمل على تدميره وتدمير مَن يسانده من القبائل. وفي الحقيقة فإننا نعتقد بأن تلك الحملة كانت تسعى لردّ عبدالله إلى السلطة على مضض منها وذلك لتأكيد سلطة السلطان هناك. وما كانت الدولة العثمانية تساند عبد الله إلاّ مضطرة. غير أن عدم إسراع عبدالله لملاقاة الحملة في القطيف كما طلب إليه مدحت باشا، لكونه غير راغب في ذلك أو غير مستطيع، جعلت مدحت الذي كان يزمع أن يحقّق غرضه في نجد بالدبلوماسية المستندة إلى القوة يقرّر وقف تقدّم الحملة عند الهفوف ويزهد في عبدالله أكثر من ذي قبل.

قامت القوّة في أوائل يوليو من القطيف تجاه الهفوف واستمرّت في زحفها ١٥ يوماً يلفها الجو الحار السائد في ذلك الوقت من السنة، ويحاصرها المرض الذي انتشر بشدة بين الرجال. ضربت الكوليرا بأنيابها في الحملة، وقضت على ما يزيد عن ٤٠٠ رجل قبل أن تفارق الحملة القطيف. كذلك كانت الأرزاق قليلة إذ تلفت الأقوات التي كانت الحملة تحملها معا، وأحاط الجدب المخيّم على المنطقة نتيجة لشحّ الأمطار في العامين السابقين بالحملة، فعانى الرجال من الجوع إلى جانب المرض، وكانوا يعيشون على الأرز والماء[٦٥] يقول صاحب تذكرة أولي النهى والعرفان عن عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م وفيه اشتدّ القحط والغلاء والجوع[٦٦]. ولم

تجد الحملة في الهفوف معارضة حيث هرب قائدها فرحان بن خيرالله وسيطرت الحملة على الأحساء «بلا حرب ولا كفاح».(٦٧)

كتب هربرت إلى حكومة الهند في ٢٥ جمادى الأولى هـ/ ١١ أغسطس بأن قوة الحملة النجدية التي استقرّت في الهفوف تعاني من المرض والجوع وانخفاض الروح المعنوية نتيجة لكثرة الوفيات بين أفرادها. وجاء في هذا التقرير أيضاً أن الشيخ فالح بن ناصر، باشا المنتفق، قد وصل في ٢٦ يوليو إلى الكويت منفصلاً برجاله عن القوة لأنه لم يستلم ـ كما يقول ـ منذ بداية الحملة إلاّ مؤونة سبعة أيام فقط، وقد عانى رجاله وسوائمه على السواء من جرّاء ذلك. ولّما طلب فالح إلى محمد نافذ باشا أن يعينه اعتذر الأخير بأن إمكاناته محدودة، وسمح له بالانصراف مع رجاله. وقد وصل الشيخ المذكور إلى الكويت في حالة سيّئة بعد أن نفق الكثير من خيوله من الجوع والعطش. كما تفيد الأخبار برجوع منصور بك شيخ المنتفق السابق، وكذلك سليمان الزهير شيخ الزبير السابق، ومحمد سعيد. وقد فت رجوع هؤلاء في قوة نافذ باشا الرابضة في الأحساء. يشير هذا التقرير إلى أن نافذ باشا كان قلقاً بشأن الشائعات المتواترة عن محاولات إحداث صلح بين عبدالله وسعود لمقاومة العثمانيين في المنطقة، إلاّ أن روعه هدأ حين وصلته إمدادات من الرجال والمؤن عن طريق القطيف أو حين وصل الإمام عبدالله ـ كما يفيد تقرير بيللي في سبتمبر ـ إلى المعسكر العثماني في الهفوف(٦٨) وبدأت الأمور تسير في صالح الحملة.

امتداد حملة نجد إلى الدوحة

أبرق بيللي، المقيم البريطاني في بوشهر، في ١٨ يوليو بأن قاسم آل ثاني تعهد برفع العلم العثماني على الدوحة بعد أن أرسل له القائد العثماني حملة بحرية يقودها عبدالله الصباح شيخ الكويت. وقد اقتنع قاسم بن محمد بن ثاني، شيخ الدوحة وأكثر الرجال في قطر نفوذاً، بقبول العلم العثماني على الرغم من رفض والده «الذي أثقلته السنون وأعوزته إلى الحزم».(٦٩)

كما أبرق بيللي في الوقت نفسه إلى هربرت يطلب إليه أن يتحرّى الأمر. ولم

يجد هربرت ـ كما تفيد برقيته في يوم ١٩ يوليو ـ عند مدحت باشا تفسيراً للأمر. أرسل بيللي مساعده سميث على السفينة ماجي ليتحرّى الأمر وجاء تقرير سميث بأن عبدالله الصباح، حاكم الكويت، قد وصل إلى البدع ومعه بعض الرجال في قاربين. وحين وصل عبدالله إلى ميناء البدع أطلق قذيفة مدفع من قاربه إشعاراً بوصوله وتحيّة للميناء. إستقبل الشيخ قاسم بن محمد الشيخ عبدالله وأدّى بدوره له التحية ثلاث طلقات وتحدّث الشيخ عبدالله إلى قاسم عن العثمانيين، وأشاد بهم، فاقتنع الشيخ قاسم واستلم من عبدالله أربعة أعلام عثمانية رفع أحدها على منزله، وأرسل الثاني إلى وكرة، وبعث بالثالث إلى علي بن عبد العزيز شيخ الشقيق. وكان الرابع من نصيب شيخ البدع أيضاً.(٧٠) وعاد سميث إلى بوشهر ليؤكد بأن العلم العثماني يرفرف فوق منزل قاسم، كما يرفرف العلم العربي على منزل أبيه. وادّعى الشيخ قاسم أمام سميث بأنه يرفع هذا العلم نتيجة لطلب القائد العثماني الذي أرسله له مع شيخ الكويت. وتفيد تقارير بريطانية أخرى بأن شيخ قطر على صلة وثيقة بناصر بن مبارك، وأن الرجلين اعتقدا صواباً أو خطأ بأن رفع العلم العثماني سيسهّل عليهما أمر القيام «بقرصنة» ضد البحرين التي كان ناصر بن مبارك يدّعي أن له فيها حقاً مضيعاً. واحتج قاسم على البريطانيين في شأن رفعه للعلم العثماني بأنه لا يسكن فوق جزيرة إنما هو على الساحل الذي حلّت به الحملة، (٧٠ ـ أ) «وحين طلبت إلينا الحملة رفع هذا العلم رفعناه». كما احتجّ قاسم أيضاً بأنّه قد اتّصل بالمقيم البريطاني سلفاً شاكياً بعض العمليات التي قام بها بعض الجماعات ضد قواربه ولم ينصفه المقيم.(٧١) وعلى العموم يبدو أن الحملة العثمانية قد أدخلت الدوحة في حوزتها لكي تضبط الأمور بين القبائل البدوية التي يمكن أن تزعجها من الغرب.(٧٢)

أبرق بيللي في ٣٠ يوليو بأنه علم من هربرت بأن مدحت قد أنهى إليه في مناسبة لاحقة علمه بما يجري على ساحل قطر، وحين ذكّر هربرت مدحت بوعوده السابقة أكد له الأخير بأن وعوده تنطبق على البحرين دون سواها، وأنه لن يتدخّل في شؤون البحرين حتى يتم الوصول إلى تسوية بشأنها بين الحكومتين البريطانية والعثمانية، أمّا قطر «فهي حالة مختلفة». لم ترض حكومة الهند من بيللي اتصاله

بهربرت مباشرة فقد خالف ما اقتضته حكمة حكومة الهند من عدم التراسل بين المقيمين إلّا من خلالها، فهي لا تريد للقنوات أن تتعدّد، كما لم ترض من هربرت اتصاله بمدحت باشا دون تفويض منها. ولهذا أبرقت هذه الحكومة لـرجليها في المنطقة تـطلب إلى بيللي الالتزام بعـدم الاتصال بهـربرت في المسـائل السيـاسية والشؤون الدولية وكـافة المسـائل المتصلة بـالارتباطـات التعهديـة أو الالتزامـات البريطانية، كما طلبت إلى هربرت ألّا يقحم نفسـه في الشؤون السياسيـة، وألّا يناقش الباشا بشأنها ما لم يصله منها تفويض محدّد يخوّله ذلك.(٧٣) ولعلّ في هذا ما يفيد بأن حكومة الهند كانت تدرك تماماً أن التعامل مع هذه الأمور يتطلّب شيئاً أكبر من التعامل على المستوى المحلي.(٧٤)

أحالت حكومة الهند هذه المسألة إلى الأمانة الخارجية لدراستها. وكان من رأي الأمانة الذي أثبتته في مذكرتها بتاريخ ٥ جمادى الأولى ١٢٨٨هـ/ ١٩ يوليو ١٨٧١م أن الدوحـة «البدع» كانت تتبع البحرين. وقد وردت هـذه الحقيقة في السجلات في مناسبتين وذلك في عام ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م، و١٢٦٨هـ/١٨٥١م. ولا تعرف الأمانة عن وضع البدع في الوقت الراهن شيئاً. وتعتقد هذه الأمانة بأن البدع التي تقع في الجانب الشرقي من شبه جزيرة قطر لن تحقق للحملة شيئاً، ولن تسبغ عليها ميزة محدّدة. وتعبّر الأمانـة عن مخاوفهـا من أن احتلال البـدع يبدو متناقضاً مع التأكيدات التي أصدرها الباب العالي سابقاً، وكذلك باشا بغداد، وأن هذه العملية تمثل دون شك الخطوة العملية الأولى في فرض سيطرة الباب العالي على قبائل السـاحل. وتذهب المذكرة إلى القول بأن «الأتراك بمنزلـة من الدهـاء بحيث انهم لم يلجأوا بشكل مباشر وفجائي لتأكيد سيطرتهم». وذكّرت المذكّرة بما سلف وروده في الغازيته العثمانية من تبعية هذه المناطق لنجد، وإلى ما سبق أن ذكره الباشا من شكّه في وجود قبائل مستقلّة في المنطقة، ثم رفع العلم العثماني في البدع بعد ذلك. وتعتقد الأمانة الخارجية بأن العثمانيين لا يسعون إلى وضع عبدالله على دست الحكم مرة أخرى بقدر سعيهم إلى فرض سيطرتهم على تلك الأرجاء. «وربّما كان فرض السيادة التركية على تلك المناطق أمراً مستحبّاً أو مستقبحاً من

جانبنا، ولكن في كلا الحالين فإن الأمر يعني أننا قد فارقنا سياستنا السابقة في الخليج». [٧٥]

البحرين وبداية التعقيدات

في مرحلة مبكرة من العمليات العسكرية العثمانية في الأحساء اتّصل ناصر بن مبارك بقائد الحملة العثمانية وعمل كوسيط للتفاهم والاتّصال بالقبائل العربية في الأقاليم المجاورة. [٧٦] أرسل المقيم بيللي في ٢٧ جمادي الثانية ١٢٨٨هـ/ ١٢ سبتمبر ١٨٧١م إلى حكومة الهند يخطرها بمقتل أحد عرب بني هاجر، في قرية الغارية التي تقع إلى الجنوب الغربي من جزيرة البحرين، كان يحمل خطابات من القائد العثماني، ومن ناصر بن مبارك، لبعض شيوخ قطر. ركب هذا المبعوث في مركب كويتي من العقير. ورافقت هذا المركب بعض مراكب البحرين العائدة إلى العقارية ربّما للتزوّد بالماء أو خلافه. [٧٧] وهناك تعرّف عليه بعض أهل البحرين، فقد كان الرجل أحد المشتركين في قتل الشيخ علي بن خليفة في ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م. ووجدت خطابات مع القتيل منها خطاب موجّه من ناصر بن مبارك إلى الشيخ قاسم في الدوحة، جاء فيه أن الحكومة العثمانية تهتمّ اهتماماً كبيراً بشؤون البحرين وقطر وما سواهما من الأماكن، وأنّها ستعمل على تخليص هذه الأرض من أعدائها لإشاعة روح الفرح بين أصدقائها، «وإن شاء الله تصلكم قريباً أخبار تسرون لها». [٧٨] كما فتحت الخطابات الأخرى الموجهة من أحد أبناء ناصر بن مبارك، ومن محمد بن فيصل، ومن عبد الملك بن هرشان، إلى قاسم آل ثاني وغيره.

صودرت أصول الخطابات جميعها وأُرسلت إلى بيللي في بوشهر، أمّا خطاب القائد العثماني إلى قاسم فقد تعامل معه شيخ البحرين بكل الحذر ولم يفتحه إنّما أعاده إلى صاحب المركب طالباً إليه أن يسلّمه إلى الجهة المرسل إليها. [٧٩] وفي يوم ١٥ سبتمبر أبرق هربرت للهند بالحادث كما علم به من مدحت الذي كتب للشيخ عيسى بأنه سيحقّق بنفسه في مقتل الرسول العثماني حين يقوم برحلته المزمعة إلى الأحساء. طلبت الهند في ٣ شعبان/ ١٧ أكتوبر إلى هربرت أن يصحّح الرواية

التي رواها مدحت من أن بعض الجنود البريطانيين في البحرين هم الذين سلّموا الخطاب لقائد المركب لإبلاغه لقاسم آل ثاني، لأن ذلك قد تمّ عن طريق الشيخ نفسه. وحذّرت الهند هربرت من أن يناقش حلولاً لهذا الأمر مع الباشا وعليه أن يكتفي بالتوضيح الوارد. وفي ٢٤ أكتوبر أبرق هربرت بأن مدحت «سيغادر الثلاثاء القادم إلى الأحساء، وأنّه سيتّخذ - فيما يبدو - من مقتل المبعوث التركي ذريعة للتدخّل في البحرين، وذلك إذا لم يستلم مني رداً مقنعاً بتسوية هذه المسألة قبل مغادرته». وردّت الهند بأن على هربرت أن يذكّر مدحت باشا بتأكيدات الباب العالي وبوعوده شخصياً فيما يتّصل بمسألة البحرين، وأن يطلع مدحت على أن ناصر ابن مبارك هو الذي دبّر الانقلاب الذي تسبّب في مقتل الشيخ علي ابن خليفة، وأن الحكومة البريطانية قامت من جانبها بتنصيب ابنه عيسى شيخاً على البحرين، وعمدت إلى معاقبة ناصر ففرّ منها. وتجد الحكومة في الهند أن تعاون العثمانيين مع رجل هارب من عقابهم لا يتّسق مع أصول الصداقة التي تربط الحكومتين العثمانية والبريطانية. وأضافت حكومة الهند بأن القتيل لم يكن يحمل أوراقاً رسمية تدل على طبيعة مهمته، إنّما كان يحمل خطابات شخصية، وانّه حين نزل أرض البحرين لاقى حتفه، ونال الجزاء العادل، لأنه كان من المشتركين في اغتيال الشيخ علي، وأنه لا مانع لديها من تسوية هذا الأمر بين الحكومتين على أرفع مستوى. وعبّر نائب الملك أخيراً عن اعتقاده بأن الباشا لن تراوده فكرة التدخل في شؤون البحرين، لأنه يعرف رأي الحكومة البريطانية في هذا الصدد، كما يعرف أن الحكومة العثمانية قد أنكرت تماماً أن يكون لها مخطط لمدّ نفوذها إلى البحرين. «ولا بدّ أن الباشا سيتذكّر الوعود التي قطعها على نفسه فيما يخصّ هذه المسألة».(٨٠) ولمّا كان مدحت باشا قد غادر في هذا الوقت إلى نجد عن طريق البصرة فقد لحق به هربرت في البصرة، وأبلغه رأي حكومة الهند فيما يخصّ مسألة البحرين.

مدحت باشا في الأحساء

غادر مدحت البصرة إلى القطيف في يوم ٩ أو ١٠ أكتوبر، وغشي الكويت

في طريقه حيث قضى هناك يوماً ثم تقدّم من هنـاك في ثلاث سفن حـربية إلى القطيف التي بلغها في يوم ١٣ أو ١٤ من الشهر نفسه. ولم يدخل الباشا المدينة التي كانت موبوءة بالحمى بعد أن زال عنها خطر الكوليرا فنزل في السهول المتاخمة للمدينة. وتفيد التقارير البريطانية بأن شائعات قد ازدهرت لدى وصول مدحت فحواها أن العثمانيين سيعمدون إلى حكم الأحساء حكماً مباشراً وإلى التخلّي عن أسرة آل سعود.[٨١] قام مدحت باشا من القطيف إلى العقير في طريقه إلى الهفوف يرافقه حوالى ٣٠٠ جندي. وأُشيع في هذه الفترة أيضاً أن بعض شيوخ الأحساء قد تقدّموا بالتماس إلى السلطان، من خلال والي بغداد، يطلبون إليه أن يتولى حكم نجد حكماً مباشراً لتصبح شأنها شأن الأقاليم الأخرى في الأمبراطورية العثمانية. ويقال أيضاً إنّ أحد جنود العثمانيين في الأحساء أسرّ لعبدالله بن فيصل بما يُحاك له، فاحتال لنفسه وخرج إلى عين نجم بعد أن أوكل من آل مرة والعجمان مَن يجهز له الركائب عند جبل أبي غنيمة. واستطاع عبـدالله أن يفلت وابنه تـركي وأخوه محمد من معسكر العثمانيين وقصدوا إلى الرياض.[٨٢] وتفيد رواية إنكليزية في هذا الصدد بأن خروج محمد بن فيصل للرياض كان قبل خروج الإمام بعدّة أيام، كما تضيف كذلك بأن عبدالله ترك خطاباً لمدحت باشا يلومه فيه على ما يبيّته من أمر، فهذه الحملة التي أُعدّت أساساً بدعوى ردّه إلى السلطة تستعمل الآن للتخلّص منه ومن أسرته كلّها. وأخطر الإمام الباشا بأنه ما عاد يثق في الوعود العثمانية، ومـا عاد يسعى للحصـول على مسـاندة الحكـومة.[٨٣] أمّـا مذكّـرات مدحت[٨٤] فتروي رواية أخرى مخالفة. وهي أن مدحت باشا كان «قد أبان لنافذ باشا، قائد الجنـد، الغرض من إرسـال الحملة إلى نجد قـائلاً، إنّنـا لا نقصد الاستيلاء على نجد، بل نريد توثيق الروابط الكائنة بين تلك البلاد وبين الدولة بإبقاء سيادة الحكومة العثمانية على تلك الإمارة. ونريـد توطيـد دعائم الأمن في الحال، والاستقبال بقطع أعمال سعود العدوانية. وعليه فسنولي عبدالله الفيصل شيخ نجد متصرفية تلك البلاد، ونعطيه ثلاثين ألف غرش شهرياً، ونحكم إدارة البلاد المالية والإدارية. وقد أُرسلت إلى تلك البلاد قوة من رجال الضابطة وأُرسل إليهـا نـائب شرع ومـأمـور مـاليـة كـما أُرسـل إلى متصرفيـة المنتفق. ودُعي عبـد الله ابن

فيصل إلى نجد، ولقّب بلقب متصرف، وأجري عليه المرتب، ولكنه كان قد اعتاد الحكم المطلق عن آبائه وأجداده وكان طريد أخيه فلمّا تخلّص منه طمحت عينه إلى القديم، وكان جلّ مقصده الاستقلال، وإعادة موظفي الحكومة العثمانية». وفي اعتقادنا أنه يجب علينا أن نأخذ هذه الرواية العثمانية ـ على علّاتها ـ مأخذ الجد وذلك لأن ما جاء فيها له ما يؤيّده في شواهد تاريخ تلك الفترة. فحين وصل عبدالله إلى الهفوف كانت الرياض في يد سعود. ويبدو أن أهل تلك المدينة سئموا تعدّيات البدو والموالين لسعود، وأيقنوا بأن الرياح قد بدأت تهب في أشرعة عبدالله، فثاروا على سعود وطردوه عن البلدة وتولّى أمر الرياض عبدالله بن تركي، الذي كان في هذه الفترة أكثر ميلاً إلى عبدالله بن فيصل. كتب عبدالله بن تركي إلى عبدالله بن فيصل، وإلى نافذ باشا، ينهي إليهما بأنه قد طرد سعود من الرياض، وأنه ينتظر وصول تعليماتهما لتنفيذها. وردّ نافذ باشا على هذه الرسالة شاكراً لعبدالله بن تركي طالباً إليه أن يبقى في حكم الرياض التي عيّنه مديراً عليها وذلك حتى رجوع عبدالله بن فيصل إلى عاصمته. كما أرسل نافذ باشا إلى عبدالله في الرياض مالاً ومؤونة حتى يتمكن من ضبط الأمور واستبقاء الرياض ريثما يحضر إمامها لتولي الأمر.[٨٥]

جمع سعود بعدئذ قوة من العجمان وآل مرة والدواسر وأراد أن يهاجم بها العثمانيين في الهفوف،[٨٦] ونزل الخويرة، الماء المعروف بالأحساء، وخرجت عليهم الجنود العثمانية وأهل الهفوف يقودهم عبدالله بن فيصل. وانجلت موقعة الخويرة عن هزيمة سعود ومَن معه، وفرّ سعود لاجئاً إلى العجمان.[٨٧] وبهذا بدا وكأن الأمور قد أصبحت مقاليدها في يد عبدالله، الذي لا شكّ أنه قد لاحظ أثناء وجوده في معسكر العثمانيين في الهفوف الحالة البائسة التي تردّى إليها الجند، وأدرك أنهم لا بدّ راحلون عاجلاً أم آجلاً. وحين نوائم بين الرواية العثمانية السابقة وبين الشائعات التي عمّت المنطقة من أن مدحت ينوي إلغاء حكم عبدالله، ونزيد على ذلك بأن مدحت باشا كان كثيراً ما يعتذر صراحة بأنّه يؤدي بهذه الحملة واجب القيام بأمور الدولة، وأنّه لا يهتم بشؤون عبدالله، ولكن يتعينّ عليه أن يسانده، وحين نضيف إلى كل ذلك ما يراه الصدر الأعظم من عدم وجوب مساعدة

الوهابيين «على الاستقرار والحكم إلاّ أن الظروف فرضت هذا الأمر» وحين نجمع إلى كل تلك الخيوط كراهة أهل نجد استعانة عبدالله بالعثمانيين، يتبيّن لنا عمق الهوّة بين الجانبين، والافتقار إلى الثقة بين الشريكين، والتحالف الهش الذي لفظه عبدالله بهروبه إلى الرياض...

وصل مدحت باشا إلى الهفوف في جمادى الآخرة ١٢٨٨هـ/ أواخر نوفمبر ١٨٧١م وأصدر إعلاناً جاء فيه: «لقد أسقطنا الرسومات التي تؤخذ من الأهالي باسم الجهاد، وخدمات المأمورين على تحصيل الزكاة، والزيادة في الخرص المخالف للأحكام الشرعية، ومراد الدولة العليّة ترقية أحوال التبعة، وزيادة ثروتهم، وأمرنا بإلغائها وعدم أخذها، ونبهنا المأمورين بعد تحليفهم على عدم الزيادة على الواجب الشرعي، والذي يتبيّن منه أنه ارتكب ذلك فقد أوعدناه بالمجازاة الشديدة، ولإعلام كافة الأهالي وتبشيرهم، حرّرنا من هذا الإعلام نسخاً متعددة، وأمرنا بتوزيعها على المدن والقرى ليكون معلوم الجميع، ليبتهلوا بالدعوات الخيرية، ببقاء أيام الدولة العلية، ويشتغلوا بتعمير أملاكهم وتوسيع دائرة محاصيلهم وتجارتهم، وأن يكونوا آمنين مطمئنين...».(٨٨)

كتب المقيم بيللي في ٢٢ رمضان/ ٤ ديسمبر بوصول مدحت «قبل حوالى ثمانية أيام إلى الأحساء» وعبّر مدحت عن عدم رضائه عن قائد الحملة لهروب عبدالله بن فيصل. ويفيد هذا التقرير(٨٩) بأن عبدالله بن فيصل قد وصل إلى الرياض، ووجه من هناك خطاباً آخر إلى السلطات العثمانية في الأحساء يحتج فيه بأنها قد دخلت أرضه بموافقته، وذلك بهدف تثبيت سلطته، ولكنها رغم ذلك عمدت إلى إلغاء حكم كل الأسرة السعودية. واختتم عبدالله بأنه لا مانع لديه من أن يكون تابعاً للدولة، يؤدي لها الزكاة، ويقوم بكل ما تطلبه منه، بشرط أن يعلن السلطان إعادة اعتماده حاكماً على نجد. أمّا إذا لم يصله فرمان التعيين، فيقول عبدالله، إنّه سيقاوم. وحذّر عبدالله العثمانيين من أنَّ نجداً منطقة «لا يسهل الاستيلاء عليها» (٨٩ ـ أ) كما يصعب على العثمانيين احتلالها احتلالاً دائماً. وردّ مدحت باشا على ذلك بإعلان ألغى فيه حكم آل سعود، وعيّن بموجبه نافذ باشا متصرفاً على نجد.

ونختتم بالمذكرة التي رفعها بلش (Blech) إلى الحكومة البريطانية من أن مدحت أراد أن يستعمل الإمام عبدالله أداة لتسهيل الانتشار العثماني في نجد، غير أن فرار عبدالله قد أوقف العثمانيين في الهفوف، وجعلهم يحجمون عن المعارك في داخل نجد.[٩٠] واعترفت الدولة العثمانية بجهود مدحت باشا، وقدّرت أعماله في «نجد»، حيث أعطاه السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦م) سيفاً رُصّع جرابه بالجواهر حاملاً اسم نجد.[٩١]

الفصل الثاني

ردّ الفعل البريطاني إزاء الوجود العثماني في الخليج

بدأ ردّ الفعل البريطاني خافتاً حين وصل العثمانيون إلى الخليج العربي وذلك لعدم تعارض المصالح أو تناقض الأهداف. كانت مصالح الحكومة العثمانية وأهدافها بريّة، وقد أظهر البريطانيون زهداً في البر ومصالحه وأهدافه، وقصروا همهم على البحر والسواحل التي تشكّل سياج هذا البحر. وما كان لنا أن نتبينّ وجود رد فعل بريطاني لو لم يتّخذ العثمانيون طريقهم إلى الأحساء بحراً. خشي البريطانيون من اضطراب المناطق المتهادنة ولهذا تابعوا مسير الحملة العثمانية بحراً. وحين استقرّت تلك الحملة في البر ظهرت مشاكل أخرى تصاعد فيها وقع ردّ الفعل البريطاني.

كانت القوة العثمانية تتسرّب من الأحساء بحراً في اتجاه قطر، وخشيت حكومة الهند هذا التسرب، وعملت على وقفه في نقاط معينة لا يتعدّاها حتى لا يصيب السياج، الذي أحدثته على ساحل الخليج بالخلل. أعلن البريطانيون منذ الوهلة الأولى أنهم لن يسمحوا بالوجود العثماني في جزر البحرين، ولن يتراخوا أو يهادنوا في هذا. فالبحرين تقع في المياه التي يحكمونها، والتي يتحكّمون منها في سياسة الساحل، ويضبطون تحرّكات القوى فيه. أرادت السياسة البريطانية أن تضع متاريس فوق البر حتى لا يؤثّر المد العثماني في البحرين، أو الساحل العماني وعمان، فكانت المتاريس عند الزبارة ووكرة والعديد. حاول العثمانيون أحياناً تحدّي هذه المتاريس فجابهتهم بريطانيا وسلطاتها بالقوة. كما حاول بعض القوى المرتبطة

بالعثمانيين أو المحسوبة عليهم تفادي هذه المتاريس فلم تسمح السياسة البريطانية بهذا. وسيحاول هذا الفصل أن يقف وقفة متعجّل عند هذه المتاريس ليختبر قوة ضبطها، وليعرِّف بالامتداد العثماني الذي سمحت به السياسة البريطانية على ساحل الخليج العربي والجهود البريطانية في منع أي تواجد عثماني بحري في الخليج وعلى امتداده. جاورت الدولة العثمانية حين امتدّت إلى الخليج العربي نقطة حسّاسة في جسم الأمبراطورية البريطانية وسلطاتها في الهند. وبرغم الضعف الواضح للعثمانيين والحرص الأوضح لهم في عدم استعداء بريطانيا أو مواجهتها، إلاّ أن حكومة الهند كانت تصدر ضجيجاً عالياً متواصلاً لكي تدفع لندن إلى اتخاذ وضع أكثر حزماً تجاه قوة كانت لندن تدرك خطورة عللها، وتعمل على إنعاشها حتى تتمكّن من النصيب الأوفى في الميراث حين تقضي الأحداث على «الرجل المريض» بالموت.

ضبط العلاقة بين الأحساء والبحرين

حين كانت الحملة العثمانية على الأحساء استعمل العثمانيون السفن لنقل بعض جنودهم وعتادهم إلى سواحل الأحساء ثم رحلت تلك السفن عائدة إلى البصرة. وفي ١١ جمادى الثانية ١٢٨٨هـ/ ٢٧ أغسطس ١٨٧١م وصل إلى عدن عارف بك، على القارب الحربي إسكندرية، في طريقه إلى الخليج العربي. وأبلغ عارف بك القبطان العثماني، المقيم البريطاني في عدن بأن الحكومة العثمانية تزمع بناء محطة أسطولية في المنطقة تمتدّ عملياتها من حضرموت حتى البصرة، وستقع عليه مسؤولية قيادتها. وغادر عارف إلى مسقط التي صرح فيها للوكيل السياسي البريطاني بأن هناك عشر سفن حربية أخرى ستنضم إلى قيادته، وأن العثمانيين يزمعون إقامة مخزن للبارود والوقود في البصرة ليكون في خدمة سفن الحرب العثمانية في الخليج.[1]

كتب ميو إلى لندن ينبّه «للصعوبة التي يشكّلها وجود قوة تركية في وجه الحفاظ على ذلك الوضع الذي اكتسبته الحكومة البريطانية في الخليج، والتي حقّقت من خلاله أطيب النتائج». وأفاد ميو بأن وجود القوة البريطانية الأسطولية دون أن

تنازعها أية قوة أخرى هناك هو الوضع الأمثل الذي لن تزيدنا الأيام إلاّ قناعة بوجاهته. ويرى ميو أن التعقيدات الدولية في المناطق المجاورة لشبه القارة الهندية تجعل من الوضع البريطاني القوي في الخليج أمراً لازماً. وأضاف النائب أنّه «لمن المؤسف حقاً أن تقوم دولة حليفة مثل تركيا، التي ضحّت إنكلترا كثيراً للحفاظ على بقائها، لتكون هي القوة الدولية الأولى التي تخطو خطوة في اتجاه تغيير الأوضاع القائمة التي تعتبر الهند استمرارها حيوياً لتحقيق الأهداف الأمبراطورية الهندية». وأشارت المذكرة بأن الباب العالي قد أفاد كثيراً، سياسياً وتجارياً، من هذا النظام التهادني، وأنّه سيستمر يستمتع بفوائده دون أن يكلّفه ذلك أية مشاق. ويخلص النائب إلى أن حكومته «تلحّ بإصرار تام، وهي في ذلك على صواب، على أن تقوم الحكومة البريطانية بالتأكّد من سياسة الباب العالي في هذا الصدد، والتثبّت من نواياه فيما يخص أمر المحطّات الأسطولية في الخليج، وأن تبذل كل الجهود لإبعاد الحكومة العثمانية عن هذا الخط السياسي الجديد الذي ستواجهه حكومة الهند بكل الحزم، لأنه سيؤدّي إلى أبعاد خطيرة حتى للدولة العثمانية نفسها.» .[٢]

إحتجّت لندن لدى الآستانة على هذا، واحتج الباب العالي بدوره بأن الخليج العربي يشكّل إحدى المحطات الأسطولية لحكومته، فهو امتداد لدجلة والفرات وشطّ العرب عموماً.[٣]

طلب بيللي منذ ١١ أبريل ١٨٧١م من حكومته أن ترسل له سفينة حربية عسكرية ليتابع تحرّكات السفن التي تنقل الجنود العثمانيين إلى الأحساء. واعترضت حكومة الهند سلفاً على هذا الرأي بحجة أن القائد العثماني للحملة ربما عمل ضد رغبات البريطانيين في الخليج «فإذا لم تقم السفينة الحربية البريطانية بالردّ في هذه الحالة فسيعني هذا خروجاً عن السياسة الراهنة.» أمّا إذا لم تكن هناك سفينة بريطانية في مسرح الأحداث فيمكن للبريطانيين أن يتصرّفوا بتؤدة وحريّة وفق ما تمليه المواقف العثمانية. وعلى العموم بدأت حكومة الهند منذ ٨ صفر ١٢٨٨هـ/ ٢٨ أبريل ١٨٧١م تتحرّى في إعداد مواقع سفنها التي يمكن أن تعمل في الخليج. وحين عرفت الهند بأن شيخ الكويت سيرافق الحملة العثمانية بحراً أصدرت أوامرها لسفنها للتحرّك إلى مياه البحرين والقطيف. وطلبت الحكومة في الهند إلى المقيم

بيللي سرعة الاتّصال بسفنه المتفرقة في الخليج وعلى أطرافه وفي ٨ مايو أبرق بيللي بأن بلفنش قد ردّت من باسيدور وتوجّهت إلى البحرين التي بلغتها في يوم ٣ مايو، وأنه سيقوم شخصياً في هج روز (Hugh Rose) إلى القطيف. كما وردت الأخبار في ٥ يونيو بأن ماجيي في الجاسك تستعد لدخول الخليج كما وصلت لنكس (Lynx) إلى أنجاوم في ١٦ يوليو، وستتجه إلى المنطقة(٤). كانت التعليمات الصادرة من حكومة الهند إلى سلطاتها في الخليج بتاريخ ١٧ مايو تقضي بأن تبحر البارجتان بلفنش وماجيي بصفة دائمة في مياه البحرين وتبقى مجاورة للقطيف والموانىء التي يفترض أن الحملة سترسو فيها. وعلى قائدي هاتين السفينتين أن يبذلا محاولات جادة لرصد كل ما يدور فوق البحر، وأن يحصلا على استخبارات تختص بكل ما يجري في البر، وأن يرسلا التقارير بواسطة المقيم بيللي إلى الهند كلّما كانت هناك ضرورة. ويجب أن ينسق الأمر بين هاتين السفينتين بحيث يجب أن تبقى إحداهما في المنطقة لرصد الأحداث إذا كان على الأخرى أن تقوم في مهمة لإرسال التقارير إلى بيللي. كما طلبت إلى قائدي السفينة أن يكونا على اطّلاع تام بالعلاقات البريطانية مع شيوخ البحرين والساحل العماني، وعلى ما أصدرته الحكومة العثمانية من تأكيدات لمراعاة هذه العلاقات. وإذا ظهر بأن هذه العلاقات ستختلّ، أو ربّما تختلّ بتجاوزات ترتكبها الحملة، أو أي طرف من الأطراف الأخرى، فعلى قائدي السفينتين أن يقدّما تقريراً عاجلاً عن هذه الملابسات.(٥) وقد راقبت القوة البريطانية فعلاً العثمانيين وهم يحرّكون قواتهم في مياه الخليج وينزلونها في رأس تنورة ثم البدع.

وحين قُتل المبعوث العثماني في البحرين وأبدى مدحت رغبته في التحقيق مع شيخ البحرين، أبرقت الهند لوزيرها في ٢٥ شعبان ١٢٨٨هـ/ ٨ نوفمبر ١٨٧١م لكي يتصل بالباب العالي ليبرق لمدحت باشا والقيادات العثمانية في المنطقة أن تلتزم بعدم القيام بأي عمل مسلّح ضد البحرين، أو التدخّل في شؤونها لأن ذلك سيعد نقضاً صريحاً لما سبق أن أكّده الباب العالي قبل ذلك مراراً. كما طلبت الهند إلى وزيرها أن يبرق لهم عاجلاً بالخطوات الواجب اتّباعها في حالة تدخّل العثمانيين بالقوة في جزر البحرين. كما أرسلت حكومة الهند إلى حكومة بومباي تطلب إليها

أن توجه المقيم بيللي إلى البحرين، وخوّلته حشد أكبر عدد ممكن من السفن الحربية لتكون في معيته حتى لا يتجرّأ العثمانيون على الهجوم، وأن على بيللي أن يتجنب تماماً مناقشة أمر مقتل المبعوث العثماني مع السلطات المحلية العثمانية في المنطقة، ويصر على حلّها دبلوماسياً.(٦)

وكانت حكومة الهند أكثر حكمة وتعقّلاً من حكومة بومباي التي ما كانت تريد لمقيمها أن يقنع بمراقبة الأحداث وإرسال التقارير. يقول حاكم بومباي في مجلسه في خطابه إلى حكومة الهند، إنّه إذا كانت له قوة عسكرية كافية في الخليج العربي، فإنه ما كان ليتردّد أبداً في تخويل بيللي استعمال القوة لمنع احتلال الجزيرة بواسطة العثمانيين. ويرى حاكم بومباي في مجلسه أن مجرّد الإعلان عن هذا الأمر يكفي لإبعاد العثمانيين عن الجزيرة.(٧)

عندما فارق مدحت باشا بغداد كان في نيّته أن يسير إلى البحرين بعد انتهاء مهمته في الأحساء، ولمّا لاحظ أن السفن الحربية البريطانية ترمقه أينما سار، عدل عن الذهاب إلى البحرين، وأرسل إليها قومندان فرقة البصرة البحرية عارف بك نيابة عنه.(٨) وصل عارف في بارجة وسفينة مدفعية إلى البحرين، وتفاوض مع شيخ البحرين بشأن المبعوث القتيل. واعتذر شيخ البحرين مدحت بموجب خطاب رسمي جاء فيه أنه رحّب بوصول القائد البحري، وأنه عرف منه عن عزم مدحت لزيارة البحرين «للتحقيق في أمر رجل قتل في البحرين قبل بضعة أشهر. وقد أخطرني عارف بك أن الرجل كان مبعوثاً عثمانياً». وشرح شيخ البحرين الحوادث التي أدّت إلى مقتل أبيه، ودور ناصر بن مبارك والهواجر فيها، وكذلك اشتراك هذا المبعوث في الأحداث. وأشار الشيخ إلى مسألة الثأر وإلى أن قانون الدم كان هو القانون الذي أعمله البحرانيون ضد هذا الرجل وقتلوه. ثم أشار بأنه قد فتح كل الخطابات التي كانت مع القتيل إلّا واحداً بدا له أنه من موظف عثماني فعرضه على الضباط البريطانيين الذين كانوا وقتها في البحرين، ووافقوه على أن يرسل الخطاب دون أن يفتحه إلى المرسل إليه. و«أرجو أن أعبّر عن اعتذاري الصادق، وأسفي البليغ، لمقتل مبعوث عثماني في الأراضي التابعة لي، وأرجو أن أشير في هذا الصدد إلى أن الحكومة العلية لم تتصل بي لتخطرني بأن الأحساء باتت تحت الحكم المباشر

للباب العالي». أشار الشيخ بعد ذلك إلى عدة اعتراضات منها أنه ما كان يجدر بالسلطات العثمانية أن تختار رجلاً اشترك في قتل الشيخ علي، وله اتصالات سرية بالشيخ ناصر بن مبارك، لمهمة تقتضي مروره على البحرين. وجادل الشيخ بأنه حتى إذا تمّ تجاوز هذا فإن المبعوث لم يكن يحمل أوراق اعتماده، أو جواز سفر يدلّ على هويّته كموظف عثماني، كما أن هذا الرجل كان يحمل خطاباً معنوناً إلى قطر «يشير إلى رغبة الباب العالي في احتلال أرضي... وعليه أرجو من سعادتكم أن ترفعوا هذه الملاحظات والتوضيحات إلى السلطان...».(٩)

انسحب المقيم بيللي بعد هذا من البحرين إلى بوشهر تاركاً مساعده ليراقب الأحداث في البحرين، وليواجه أية محاولة عثمانية للسيطرة على البحرين.(١٠) ردّ مدحت باشا في ٢١ رمضان ١٢٨٨هـ/ ٤ ديسمبر ١٨٧١م على شيخ البحرين بأن المبعوث العثماني كان في مهمة رسمية من القائد العام في نجد، نافذ باشا، إلى قاسم بن ثاني قائم مقام قطر. ويفنّد مدحت ردود شيخ البحرين: «إذا اعتبرنا أن البحرين ليست تابعة للدولة العثمانية، وأن أهل البحرين غير تابعين لحكومة السلطان أو من رعاياه، وإذا اعتبرنا ذلك الرجل قاتلاً بالفعل، فإنه ما دام من رعايا الحكومة العثمانية، وما دام يحمل معه وثائق مهمة، كان الأجدر أن يسمح له بتوصيل خطاباته، ثم الاتّصال بالسلطات العثمانية بعد ذلك فيما يخص الاتهام، وأن يطلب إليها أن تعاقبه حسب مقتضيات قواعد العدل... أمّا فيما يخص جواز السفر فإن هذه ليست عادة متّبعة في هذه الأرجاء، إنما هي العادة في المدن الكبرى التي لم ترها ولكنك سمعت عنها ثمّ اعتذرت بذلك... كان يمكن لك أن تستنتج هذا الأمر من الخطاب والختم الذي يحمله، والمهمة التي كان يقوم بها ذلك الشخص... والمدهش حقاً قولك بأنك لا تعرف بوصول القوات العثمانية إلى البحرين. لقد وصلت هذه بالقوات قبل ستة أشهر، وجاء أهل البحرين يتردّدون على الساحل ينعمون بالأمن الذي أقامته هذه القوات، ويجرون تجارتهم دون توقف بين البحرين والساحل. كذلك فإن بوارجنا في غدوها ورواحها تمر بساحل البحرين، ولا أدري كيف فات عليك هذا الأمر الجلي بالرغم من أني قد سمعت بأنك رجل عاقل مدرك...» وطلب مدحت باشا بعد هذا ١٠،٠٠٠ درهم فضة

تدفع إلى قائم مقام قطر في الدوحة ليدفعها إلى ورثة القتيل، وحبس القاتل. وهدّد مدحت في نهاية خطابه «بأني مستطيع أن أنفّذ ما أراه».(١١)

وفي ١٧ ذي القعدة ١٢٨٨هـ/ ٢٧ يناير ١٨٧٢م أملى بيللي على شيخ البحرين الرد على مدحت باشا الذي جاء منه «أحلت خطابكم إلى الحكومة البريطانية وجاء الاتّصال بحكومة السلطان وتسوية الأمر بما يتّفق... وأتعهد بالالتزام بأيّة تسوية خاصة بالمسائل المتعلقة بين نجد والبحرين».(١٢)

نشأت مشكلة أخرى في الوقت الذي كانت فيه مشكلة المبعوث القتيل تتفاقم وهي مشكلة قاربين يخصان محمد بن حسين، من أهالي قطر، أدعى وجودهما في البحرين، بعد أن استولى عليهما سابقاً سعود بن فيصل قبل وصول القوة العثمانية، ويبدو أنه أهداهما إلى شخص أو أشخاص في البحرين. رد عيسى بن علي على قائم مقام القطيف يعلمه باستلام خطابه في ٢١ رمضان ١٢٨٨هـ/ ٤ ديسمبر ١٨٧١م وتملص من مسألة القاربين. ولم يقبل البك العثماني الإعتذار «الذي لا يقبله عرف ولا قانون»، وأضاف بأن مدحت باشا «قد أخطرني قبل مغادرته بأسلوب التصرف معك. وينبني على هذا أن ترد ما نطالبك به كاملاً أو ترد صراحة بأنك لن تلتزم برغبات سيادته». ونصح بيللي الشيخ عيسى بأن يرسل رده إلى مدحت باشا يعبر فيه «عن أسفه للهجة خطاب القائم مقام المرسل إليه، ويعبر عن استعداده لتسليم المركبين لمن يعينه الباشا، وذلك بحضور بعض المسؤولين البريطانيين». وقد قام شيخ البحرين بالعمل بنصيحة المقيم البريطاني(١٣).

القوة البحرية العثمانية في الخليج

لم تكن الهند تهتم للاحساء التي لم يشكل ظهيرها حتى الحرب العالمية الأولى أدنى أهمية لحكومة الهند ولا لأهدافها أو مصالحها في الخليج العربي. لم تشكل الاحساء عنصراً في سياسة الهند الأمنية أو في مصالحها الاقتصادية ولهذا لم تهتم الهند بمسير الحملة العثمانية إلى نجد التي لم تكن تمثل خطراً على الإطلاق على استراتيجيتها، ولم تأبه للعثمانيين ووجودهم في الخليج العربي الذي كان يمثل في هذا

الوقت منطقة أمنية للهند. كانت الهند تدرك تماماً بأنه ليس للعثمانيين مطامح أو مطامع في شبه القارة الهندية، ولهذا لن يضيرها الوجود العثماني في شيء، ولا يستوجب معارضتها إلا في شأن واحد موغل في المحلية وليس له اتصال بالسياسة الدولية، هو الحفاظ على النظام التهادني الذي أقامه البريطانيون في الخليج ليسهل لهم قيادته بأقل عدد ممكن من السفن الحربية. حظر هذا النظام على الشيوخ في الساحل الغربي التعارك بحراً. ولهذا تمثلت المشكلة الهند وبريطانية أولاً في كيفية إفهام الشيوخ المعنيين، لماذا يسمح للدولة العثمانية بالعمليات العسكرية في البحر، ولا يسمح لهم بنفس هذا النوع من العمليات. ولهذا أيضاً كانت معارضة الهند لقيام الحملة بحراً حيث لم يكن البر يهمها في شيء. ولهذا أيضاً قررت الهند أن تنكر على الحكومة العثمانية سيادتها على البحرين، فهي مجموعة جزر لها اتصال بالبحر الذي تريد الهند البريطانية أن تحافظ على سياستها فيه. ولهذا أيضاً لم تعمل حكومة الهند أولاً لوقف النفوذ العثماني والسيادة العثمانية في بر قطر حيث لم يكن لها به شأن. وحين تبين لتلك الحكومة بأن قطر يمكن أن تصبح معبراً للسيادة العثمانية إلى ساحل عمان عن طريق العديد، أو إلى البحرين عن طريق الزبارة، ربض الأسد البريطاني عند ساحل قطر، وأحس قاسم آل ثاني قوة براثنه، وتحمل ضرباته دون أن تسانده الحكومة العثمانية إلا بالوعود تبذلها له، والاحتجاجات تسوقها لبريطانيا.

كان كل ما يهم حكومة الهند هو عدم التواجد العثماني في البحر. ولهذا خشيت من قيام الحملة بحراً، وخشيت من وصول عارف القبطان العثماني إلى الخليج بحراً عن طريق البحر الأحمر وعدن، وخشيت، وهي تحتج على الدولة العثمانية بأمن الخليج، أن تضع الدولة العثمانية بعض سفنها لحماية الخليج ولوقف الإضطرابات البحرية لما لهذا الأمر من أثر مدمر للسياسة التهادنية في الخليج. فهناك فارس التي ربما تقوم بإجراء مماثل. أو ربما طمح بعض شيوخ الخليج لمثل هذا، وحينئذ ستكون تكاليف النظام التهادني ثقيلة على الخزينة الهندية لأنها ستضطر إلى زيادة عدد سفنها حتى تبقى لها الغلبة والريادة، وتأمن المنافسة.

نبهت حكومة الهند لزيادة عدد السفن العثمانية في الخليج وخطورتها منذ

بداية الحملة. واعترفت لندن بخطورة الأمر، ولكنها لم توافق الهند بأن تفاتح الباب العالي صراحة في هذا الشأن. وكان خطاب وزارة الخارجية البريطانية إلى سفيرها في الاستانة المؤرخ في صفر ١٢٨٩هـ /٩ مايو ١٨٧٢م واضحاً حيث قال «إن حكومة جلالتها لا تعترض على اقامة تركيا لسلطتها الشرعية في الخليج . . . ولن نستطيع أن نطلب منها تغيير الأسلوب الذي تعتبره لازماً لإقامة تلك السلطة. إلا أن وجود تسليح تركي ثقيل في المنطقة يعتبر بشكل عام مخلاً بالهدوء السائد في الأقطار المجاورة. ويستدعي هذا بالضرورة من الحكومة البريطانية أن تتخذ خطوات مقابلة لتهدئة الرأي العام في المنطقة، وستزيد حكومة الهند في قوتها البريطانية العاملة في الخليج، وسيجد الرأي العام في هذه الخطوة البريطانية تشجيعاً يزيد في مقاومته للباب العالي». . وأبلغت هذه الرسالة إلى الباب العالي في جمادى الأول١٢٨٩هـ/ يوليو ١٨٧٢م. (١٤)

أبرق روث، المقيم البريطاني في الخليج، إلى نكسون، الوكيل في العربية التركية، في شوال ١٢٩٥هـ/ اكتوبر ١٨٧٨م يفيده بأن المياه في مجاورة القطيف غير آمنة حيث سادت الإضطرابات، وأخطره بموافقة حكومة الهند على تخويله ارسال قوات بريطانية للحفاظ على الأمن في ساحل الإحساء. أخطر نكسون، الوالي عبدالله باشا الذي اعترف بأن هناك «قدراً» من عدم الأمن في المناطق المجاورة للقطيف، وأنه قد أرسل سلفاً قوات لتأمين الوضع هناك، واعتذر الوالي عن المساندة البريطانية المقترحة. وتقول التقارير التالية من الاحساء بعدئذ بأن الثورة على العثمانيين التي اشعلها أبناء سعود بموافقة عمهم عبدالله قد بدأت تنحسر، وأن أهل الاحساء قد وعدوا بعدم مساندة الثورة شريطة أن ينتهي «سوء السلوك والفساد في الإدارة المحلية». (١٥)

سرت إشاعات في جمادى الثانية ١٢٩٦هـ/ يونيو ١٨٧٩ بأن العثمانيين يزمعون اقامة محطة فحم في البحرين. وزارت بعض البوارج العثمانية البحرين في ذي الحجة ١٢٩٧هـ/ نوفمبر ١٨٨٠م وادعى قائدها بأن البحرين تحت السيادة العثمانية. ورأى المقيم البريطاني أنه من المستحسن أن يوجه الشيخ عيسى لتوقيع اتفاق يرتبط فيه بعدم التعامل مع القوى الأخرى إلا بموافقة بريطانيا. وعلى هذا تم

توقيع هذا التعهد بالرغم من أن روث لم يفوض من قبل حكومته لاتخاذ خطوة كهذه. كتب روث تقريراً لحكومته في ٢٠ المحرم ١٢٩٨هـ/ ٢٤ ديسمبر ١٨٨٠م «هناك عدة أسباب تدعوني للإعتقاد بأن السلطات التركية تسعى للحصول على قدر معين من النفوذ في البحرين ولك بإقامة وكالة يكون إنشاؤها مركزاً لتموين السفن بالفحم. إنه من الثوابت لدينا أن حكومة الهند تسعى في سبيل الحفاظ على صلاتها السياسية السائدة مع البحرين إلى إبعاد كل نفوذ لكل قوة أجنبية أخرى حتى لا يعمل في شؤون هذه الجزيرة. ولقد رغبنا إلى شيخ البحرين لكي يبتعد عن كل اتصال مباشر مع السلطات التركية فيما يخص شؤونه السياسية، وأن يرفض السماح بإقامة مخزن فحم لتلك القوة فوق أرضه». وتستمر المذكرة لتقول بأن القوى السياسية الأخرى من فرنسية وأمريكية ويابانية قد وصلت إلى تلك المياه، وبدأت سفنها تتقاطر إلى المنطقة، وستعمد تلك القوى لوضع ممثلين لها، وأن شيخ البحرين سيحرج حين يرفض استضافة ممثلي تلك القوى، ولن يستطيع أن يبرر رفضه ما لم يكن لديه ارتباطات تبرر ذلك. «ولهذا فقد بدا لي من المستحسن أن اقنن التعهد القائم فعلاً مع شيخ البحرين وذلك بأن أحصل منه على تعهد محدد كإجراء تحوطي لما تأتي به الأيام، وليكون أمراً مربحاً ومرضياً للشيخ الذي سنعطيه الذريعة التي تمكّنه من عدم الإستجابة لنغمات القوى الأخرى. قمت في رحلة أخيراً إلى البحرين، وتحدثت مع الشيخ عيسى في هذا الشأن، ووجدت منه رغبة تامة في الموافقة على اقتراحي. وعلى ذلك أخذت توقيعه على الإتفاق الذي أرسل لكم منه نسختين عربية وانكليزية. هذا وسيكون سريان الإتفاق رهناً بما يريده نائب الملك الحاكم العام في مجلسه. لم أترك من الإتفاق أية نسخة في يد شيخ البحرين، وذلك حتى إذا كان هناك اعتراض على قبوله كتبتم لي بالإعتراض به ويكفي ذلك لانهاء الأمر كله. أما إذا وافقت الحكومة على هذا التعهد، فأرجو أن ترسلوا لي إحدى النسخ العربية معتمدة لإرسالها إلى شيخ البحرين». احالت الهند الأمر إلى وزيرها بتوصية جاء فيها: «إنه من المرغوب فيه قبول الإتفاق واعتماده فهو لن يغير في ارتباطات ومسؤوليات الحكومة البريطانية الخاصة بالبحرين...» ووافق الوزير على ذلك. ورغم كل ذلك فقد وجهت الحكومة مقيمها في الخليج بأنه

«ليس من الحكمة أن يقوم الضباط السياسيون بمفاوضات مثل هذه دون الحصول على تعليمات مسبقة»(١٦)

ضبط العلاقات بين قطر العثمانية وعمان

ظهرت مع الحملة العثمانية إلى نجد لأول مرة في شبه الجزيرة العربية بشكل سافر مسألة اقامة الحدود فوق رمال الجزيرة وعلى سواحلها الشرقية. طرحت هذه المسألة بشكل عابر حين غزت جيوش محمد علي بعض مناطق الجزيرة العربيةولكنها غدت مع الإمتداد العثماني إلى نجد مسألة ملحة. كان هربرت، الوكيل البريطاني في العراق العثماني، هو أول من أثار هذه المسألة حين كتب لحكومة الهند بما ورد في غازيته بغداد من ذكر للبحرين وبعض مناطق عمان كملحقات لنجد. واعتبر هربرت نشر هذا الأمر مؤشراً هاماً يعبر عن رأي الحكومة الإقليمية في العراق. وأبدى هربرت اعتقاده بأنه من المستحسن أن يحدد مع الباشا بصفة قاطعة الحدود الإقليمية لنجد وعمان.(١٧)

درست حكومة بومباي هذا الرأي وخلصت إلى أن إمام نجد كانت له أبداً ادعاءات للسيادة على البحرين ومسقط، وأن الحملة الحالية تحاول أن تأتي بإقليم نجد إلى حظيرة الدولة العثمانية، وأن مدحت باشا، وهو من أكفأ رجال تلك الدولة، يتطلع إلى مد سلطة الباب العالي إلى أبعد مدى يمكن أن يصل إليه. وانتهت حكومة بومباي إلى القول بأنه «من المستحيل علينا أن ندرك حجم التعقيدات التي ستقود إليها هذه الإجراءات» وحولت بومباي هذه الأوراق جميعها إلى نائب الملك في الهند الذي علق عليها في ٤ جمادى الأولى ١٢٨٨هـ/ ٢٩ يوليو ١٨٧١م بأنه «لا يدري في الحقيقة ماذا تريد بومباي منا فعله، هل يطلبون منا أن نحدد أو أن نشير لهم بآرائنا فيما يخص أمر تحديد حدود عمان، والولاء فيها، وحقوق السيادة عليها؟» وفي لهجة صارمة انهى الحاكم العام /النائب، لحكومة بومباي «بأن الحكومة التي تسعى للسلام لا تبدأ بإثارة مشاكل صعبة معقدة كهذه». وأشار النائب إلى أنه لا يعتمد على رأي حكومة إقليمية في بومباي ويتبع رأيها بقدر ما يعتمد على «التأكيدات التي جاءت من الحكومة التركية. لقد كتبنا

للوزير (البريطاني) مؤكدين عليه بشدة أن يبذل أقصى مساعيه الدبلوماسية للضغط على السلطان فيما يخص هذه المسألة الخطيرة. ثم وردتنا تأكيدات من تركيا أكثر مما كنا نتوقع». وعبر النائب عن رأيه بأن اقتراح بومباي بالبت في تحديد الحدود هو «اقتراح غير حكيم»(١٨). ويبدو أن حكومة بومباي كانت أبعد نظراً من حكومة الهند وحكومة لندن من ورائها إذ بدأت حالاً مشكلة خور العديد، وأوقف البريطانيون المد العثماني في تلك المنطقة ولهذا اعتبرت قطر عثمانية في السياسة الهندبريطانية. وما لبثت سياسة حكومة الهند أن تعدلت في هذا الصدد وضغطت الهند على حكومة لندن لكي تصبح قطر دولة عازلة تفصل بين نفوذ كلتا الدولتين، ثم أرادت الهند بعد ذلك أن تُحجِّم المد العثماني وتحصره في المنطقة حتى القطيف. لم تتحمس الهند أولاً لموضوع العديد حين أثاره شيخ أبو ظبي خوفاً من التعقيدات السياسية التي لا ضرورة لها. ففي ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م حين قام سميث، مساعد المقيم البريطاني، يحقق مع الشيخ بطي اعترف الأخير بأنه فارق شيخ أبو ظبي، ولكنه استقر في «ديرته» القديمة في العديد. وجادل بطي بأن ديار القبيسات تمتد قديماً من رأس الحالة التي تقع في منتصف المسافة بين العديد ووكرة تقريباً لتنتهي عند نقطة في الساحل تطل على جزيرة بني ياس، وأنه قد لجأ لأرضه مع قبيلته ليحكم فيها. أرسل المقيم بيللي إلى بومباي في ١٧ رجب ١٢٨٨هـ/ ١ اكتوبر ١٨٧١م بأن أهل العديد يرفعون علماً عثمانياً في أيام الجمع. وأكدت حكومة الهند في ٢٤ صفر ١٢٨٩هـ/ ٢ مايو ١٨٧٢م بأن على بيللي ألا يتدخل في مسألة العلاقة بين العديد وأبو ظبي ما لم يقم شيخ العديد بالإخلال بأمن البحر، كما طلبت الحكومة إلى مقيمها أن يرسل لها تقريراً عاجلاً في حالة ظهور أية بادرة تشير إلى أن العثمانيين يعملون على احتلال ذلك المكان.(١٩)

استطاعت السياسة البريطانية بعد هذا، أن تضع العديد عقبة أمام تقدم العثمانيين براً، وبهذا فصلت بين منطقة ساحل عمان وبين الاحساء وقطر. هذا بالرغم من أن شيخ أبو ظبي الذي راسل السلطات العثمانية في الاحساء منذ جمادى الثانية ١٢٨٩هـ/ أوائل سبتمبر ١٨٧٢م، والذي خشي البريطانيون أن يتخذه العثمانيون جسراً يأخذهم إلى عمان، كان قد أعلن تخليه عن العثمانيين

ومصالحته لشيخ دبي الذي أراد أن يستعين عليه بالعثمانيين. وقد كتب تركي، سيد مسقط، إلى المقيم البريطاني بأن شيخ أبو ظبي قد جدد معه علاقات الصداقة وأن «ما فات مات». (٢٠)

لم يكن أمر الإنتشار في عمان وارداً في حسابات العثمانيين الذين تثاقلت خطواتهم على طريق نجد وتوقفوا في دربها دون بلوغ الرياض، ومع هذا فقد خشي البريطانيون من أن يقوم شيخ أبو ظبي بدعوة العثمانيين إلى التدخل لرد القبيسات ٢٠ ـ أ الذين تركوا أبو ظبي وهاجروا إلى العديد أو أن يستعين القبيسات بالعثمانيين ضد شيخ أبو ظبي ليبعدوه عنهم كما وضع البريطانيون احتمال أن يحاول الشيخ زايد بن خليفة، شيخ أبو ظبي، طلب المساندة العثمانية ضد شيخ دبي، أو ربما ضد شيوخ البريمي. وبما أن نفوذ الشيخ زايد «الذي كان يمتد على فرع من قبيلة النعيم التي تسكن البريمي قد تقلص الآن حتى تلاشى، فلربما راودته فكرة الاستعانة بالعثمانيين لاسترداد ذلك النفوذ، وهذا أمر له جاذبيته لكلا الطرفين» ويشير المقيم بأنه لا شك في أن السلطات العثمانية تعتبر أبو ظبي، مثلها مثل البريمي، تابعة لنجد وأنهم سينتهزون بكل سرور أية فرصة سانحة لادعاء السيادة على البريمي بصفة خاصة». (٢١)

أرسل جرانت (Grant) مساعد المقيم، في جمادى الثانية ١٢٩٠هـ/ سبتمبر ١٨٧٣م تقريراً جاء فيه أن المدعو يوسف أفندي قد أرسل برسالتين إلى شيخي أبو ظبي ودبي، وعلّق المقيم روث بأنه يبدو من هذه المراسلات بأن السلطات العثمانية تسعى لمد جسور الصداقة مع الشيوخ المتصالحين في عمان لخدمة الأهداف السياسية والتجارية. «وبالرغم من أن لغة الخطابين تشير بوضوح لما يخص المسائل التجارية إلا أن ذلك يمكن أن يكون استقصاء للشعور العام، وقياساً لاتجاهات الشيخين». وأفاد المقيم بأن الشيخين لا يريدان الدخول في أية علاقة مع العثمانيين بالرغم من الإعتقاد من أن هناك تفاهماً سابقاً بين يوسف أفندي وشيخ أبو ظبي. (٢٢)

أدرك شيخ أبو ظبي المعارضة البريطانية الجادة للإمتداد العثماني تجاه عمان فاستغل الأمر لتأديب اتباعه من القبيسات في العديد، وادعى بأن العثمانيين كتبوا

إليه يدعون ملكية ذلك المكان. ولما طلب المقيم منه هذه الخطابات اعتذر بأنه فقدها. ولما كان هذا الأمر يلائم تفكير الإدارة البريطانية في الخليج كتب روث يفسر هذا الأمر بأن ابن نهيان، شيخ العديد، ربما علم بنية شيخ أبو ظبي، فأراد أن يستعين عليه بالعثمانيين الذين أرسلوا هذه الخطابات بعدئذ لينذروا الشيخ زايد. ويبدو أن الشيخ خادم قد تبنى بدوره سياسة مزدوجة فهو يدفع للعثمانيين سنوياً، عن طريق قاسم بن ثاني شيخ البدع، مبلغ اربعين أو خمسين ريالاً، ويحتفظ بعلم عثماني ينشره أحياناً، كما ينشر في أحيان أخرى علم المتهادنين الذي فرضته بريطانيا بموجب تعهدات ١٨٢٠م. وشاهدنا في ذلك أنه حين كان الكابتن جوثيري (Gewthere) في عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م في العديد يحقق في بعض حوادث اضطرابات البحر، كان الشيخ يحتمي بعلم المتهادنين. واعتذر الشيخ للكابتن جوثيري بأن العثمانيين قدموا إلى بلاده قبل فترة في باخرة وأمدوه بعلم وعرف جوثيري أن شيخ العديد لا شأن له بالحوادث البحرية، ولا يد له فيها، ولكنه ضعيف لا يستطيع أن يحمي المنطقة من التجاوزات التي ترتكبها القبائل، وأن الإضطرابات الأخيرة قامت بها قبيلة آل مرة. علق الكابتن بريد وكس، المقيم البريطاني بالانابة، على ذلك متسائلاً عما إذا كان من حق الحكومة البريطانية التدخل لرد شرعية السيادة في هذه المنطقة لشيخ أبو ظبي الذي هو من الشيوخ المتهادنين، ملاحظاً في نفس الوقت أنه لا توجد في الوقت الراهن أية اضطرابات بحرية قرب سواحل المتهادنين. وانتهى بريدوكس إلى القول «بالرغم من أن لشيخ العديد علماً تركياً فإنه من غير المحتمل أن يحتج الباب العالي على ما نقوم به لأن المنطقة حتى قبل سنوات قليلة مضت كانت تابعة لشيخ أبو ظبي» وخولت الهند لمقيمها بالانابة رد الشيخ بطي بن خادم لحظيرة أبو ظبي. وكتبت الهند إلى لندن بأن آل مرة التابعين للحكومة العثمانية إسمياً يقومون باعتداءات في البحر من منطقة العديد، ولا يستطيع شيخ المنطقة لضعفه، أن يردعهم، وطلبت الهند إلى لندن أن تتصل بالباب العالي تطلب إليه وقف اعتداءات آل مرة «وأن يبلغوه بأننا سنقوم من جانبنا بإجراءات لقمع القراصنة في منطقة العديد حتى لا تصبح المنطقة عشا تفرخ فيه القرصنة»[٢٣] واحتجت حكومة الهند بأن العديد لا تتبع حكومة

الاحساء «لأن الحكومة البريطانية لم تستلم من الأتراك ما يفيد رسمياً بأن العديد تقع تحت سيادتهم. ولهذا نعتقد أن مجرد رفع العلم التركي لا يعني منعنا من حرية التعامل مع هذا الأمر». وقامت لندن بدورها بالاتصال بحكومة السلطان كما صادقت على التعليمات التي أرسلت للمقيم في ربيع الثاني ١٢٩٤هـ/٧مايو١٨٧٧م وخولته العمل بها(٢٤) وقضي الأمر كما خطط له البريطانيون. واحتج صادق باشا ناظر الخارجية العثماني في ٢٨ مايو على ما قام به مقيم بوشهر والكابتن ود هاوس(Woodhouse) قائد السفينة الحربية تياسر(Teaser) قرأ الوزير العثماني على ليارد، السفير البريطاني، برقية وردته من البصرة يشكو فيها من أن «زايد بن خليفة قام بسبعين مركباً مدعوماً بسفينة حربية بريطانية عليها قنصل بوشهر، بالهجوم على العديد التابعة للحكومة العثمانية في ساحل قطر، وأن السكان قد هجروا ذلك المكان وهربوا، وأن المهاجمين قاموا بتدمير العديد، واستولوا على قواربه». ويطلب الباب العالي «توضيحاً لهذا الأمر». وأحال اللورد كارنبروك من لندن الأمر لحكومة الهند، وحين وصله رد حكومة الهند طلب ـ على ضوء هذا الرد ـ إلى حكومته أن تبلغ الحكومة العثمانية «بأن العديد تابعة لشيخ أبو ظبي الذي تربطه مع الحكومة البريطانية ارتباطات واتفاقيات مباشرة، وقد استمرت الحكومة لسنين عديدة تقوم بحقوق هذه الإتفاقيات. إن الإدعاء التركي بالسيادة على هذا المكان هو ادعاء رخو بل غير قائم على أساس. ربما كان صحيحاً أن الشيخ بطي كان يرفع في العديد أحياناً العلم التركي، ويسبغ على نفسه الحماية التركية، وأنه دفع مبالغ تافهة للبدع، ولكن مع كل هذا فإنه لم يجر الإعتراف أبداً بمشيخة مستقلة في ذلك المكان. إن إقامة الشيخ بطي لمستعمرة في هذه المنطقة هو اعتداء على حقوق ملكية شيخ أبو ظبي للمكان، وأن ما أسبغه هؤلاء القوم على أنفسهم من الحماية التركية لن يبرر بحال فرض السيادة التركية على تلك النواحي. وأننا حين نرضى هذا المبدأ فيمكن لكل شيخ في الساحل أن يطبقه».(٢٥) وبهذا وُضّح الأمر للحكومة العثمانية التي لم تأبه لاطرافها التي بدأ المقص البريطاني يعمل فيها. رأت حكومة الهند بعد هذا أن تنهي السلطة العثمانية عند البدع، على أن يتعهد الباب العالي صراحة بعدم التدخل مع الشيوخ المهادنين في منطقة العديد وما وراءها، وأن يعترف بالبحرين

تحت الحماية البريطانية، وأن يتعهد في حالة وقوع اضطرابات بحرية بالتعويض عن نتائجها. وافق كرنبروك، وزير الهند، على هذا الرأي، واعترض عليه سالسبري Salisbury وزير الخارجية، ثم وصل الطرفان إلى صيغة معدلة أبلغت للباب العالي. وحين أراد قاسم بن محمد بن ثاني أن يعيد تعمير العديد مرة أخرى اتصل في هذه المرة بالسلطات البريطانية في الخليج، ولم يلجأ إلى الدولة العثمانية. وليس أدل على ذلك ما يشير لوضوح فهم الشيوخ للضعف العثماني وللهيمنة البريطانية.
كتب قاسم في جمادى الثانية ١٢٩٨هـ/ مايو ١٨٨١م إلى المقيم روث بأني «أرجو أن أخطركم بأني قررت أن أعيد تعمير قرية العديد ليسكنها بعض الرجال التابعين لي وذلك بهدف حماية مناطقي من هجمات اللصوص والقراصنة براً وبحراً، ولهذا أطلب إليكم تحذير أهل عمان من ارتكاب أعمال في البحر ضد رجالنا الذين يرغبون في سكنى العديد. ونحن نعلم سلفاً أن أمور البحر لله يحكم فيها ثم لكم. **وأتعهد بأن أتحمل كل مسئولية عن كل عمل يقوم به رجالي الساكنين في العديد**»[٢٦].
وردّ روث في ٢٢ شعبان ١٢٩٨هـ/ ١٩ يوليو ١٨٨١م على خطاب قاسم «أرجو أن أبلغكم بأن الحكومة البريطانية قد قررت أن العديد تابعة لشيخ أبو ظبي، وعليه فإنه من المستحيل السماح لرجالكم بسكنى العديد. وأرجو أن تطرد من ذهنك أية هاجسة تجاه هذا الأمر».

مسألة الزبارة: ضبط العلاقة بين قطر العثمانية والبحرين

إذا كانت العديد هي المنطقة التي أرادت بريطانيا في فترة ما أن تجعلها حداً للإمتداد العثماني في اتجاه عمان وتحمل الشيخ قاسم عن الدولة العثمانية وطأة غضب بريطانيا هناك، فإن مسألة الزبارة هي مشكلة أخرى تعرض لها قاسم وتحمل فيها مواجهة الغضب البريطاني أيضاً نيابة عن الدولة العثمانية. ظلت الزبارة على ولائها للبحرين، وكانت نقطة الوصل بين البحرين والساحل، جهد المقيم البريطاني في قطع تلك الصلة حتى لا تجر شيخ البحرين في دوامة مشاكل الساحل. ولهذا أحدث المقيم اتفاق ١٢ سبتمر ١٨٦٨م بين أهل قطر بقيادة محمد آل ثاني، وحاكم البحرين علي آل خليفة وقصر بهذا الإتفاق الصلة بين الطرفين على المال الذي

تؤديه قطر إلى البحرين لتؤديه البحرين بدورها إلى الرياض. وتغيرت سياسة المنطقة بدخول عنصر جديد لم يكن وارداً في الحسابات السابقة وذلك حين تدخلت الدولة العثمانية في المنطقة وامتدت إلى قطر. ولم تكن الحكومة البريطانية في الهند أو في لندن تهتم لما يجري في ساحل قطر، ولكنها اهتمت للبحرين، وبينت للدولة العثمانية وولاتها بأنها لن تحتمل أي تدخل فيها. ولهذا كان لابد من قطع الزبارة عن البحرين تماماً ونهائياً حتى لا يسري النفوذ العثماني من خلالها إلى تلك الجزيرة.

أثار المقيم روث أمر السيادة البحرانية على الزبارة وقبائل النعيم. وطلب المقيم في خطابه لحكومته في رجب ١٢٩٠هـ/ سبتمبر ١٨٧٣م أن توضح له سياستها تجاه هذه المسألة. وكان من رأي جرانت، مساعد المقيم، أن الإتفاق البريطاني مع البحرين لا ينطبق على الزبارة أو قبائل النعيم بالرغم من أن البند الأول في الإتفاق ورد فيه ذكر «البحرين وتوابعها». وردت حكومة الهند على مقيمها بوجوب عدم تدخل شيخ البحرين في البر. وأثار المقيم المسألة مرة أخرى في نوفمبر ١٨٧٤م مع حكومته[٢٧] فأرسلت الهند ردها في آخر شوال ١٢٩١هـ/١٠ ديسمبر ١٨٧٤م لمقيمها في الخليج رداً على رسالته لها بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٨٧٤ في شأن مسألة الزبارة: «إن شيخ البحرين يطلب إليكم التدخل لمنع شيخ قطر من العمليات العسكرية براً وبحراً ضد الزبارة كما طلب إليكم هذا الشيخ السماح له كي يزيد في عدته وعتاده ورجاله في تلك المنطقة. وعرفنا أنكم لم تمانعوا في قيام الشيخ بهذا الأمر بشرط ألا يدخل في عمليات حربية ضد الحكومة التركية. غير أن هذه الحكومة ترى عدم السماح لشيخ البحرين بإرسال أية قوة لمناصرة حلفائه من النعيم في تلك المنطقة، هذا وستقوم الحكومة البريطانية بموجب ما التزمت به من التعهدات بحماية الشيخ ضد أية هجمات تأتيه من الساحل»[٢٨]. وعلى هذا كتب المقيم في ٢ ذي القعدة ١٢٩١هـ/ ١٢ ديسمبر ١٨٧٤م للشيخ عيسى بن علي يخطره بهذا الرأي وينذره بأن الحكومة البريطانية لن تتحمل مسئولية حمايته إذا زجّ بنفسه في المشاكل والتعقيدات التي تكتنف البر.[٢٩] جاء في هذا الخطاب لعيسى «في مقابلتي لكم بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٩١/ ٥ نوفمبر ١٨٧٤م تحدثت إليّ في موضوع الزبارة وعبرت عن رغبتك في مساعدتي لك من أجل حمايتها. وقد عبرت

لك بدوري عن اعتقادي بأن الحكومة البريطانية لن تتحمل نتائج عمل كهذا. وقد جاءني من حكومة الهند الآن ما يفيد بأن الحكومة لن تتحمل مسئولية حمايتك إذا دخلت في التعقيدات التي تكتنف البر»[٣٠]

ولم يرضَ الشيخ عيسى برأي الحكومة وكتب إلى المقيم في ٢٥ محرم ١٢٩٢/٤ مارس ١٨٧٥م محتجاً بأنه لا يريد أن يزج بنفسه في مسألة تعقيدات الساحل: «ولن نتدخل في شؤون الساحل، ولا يهمنا من أموره سوى الزبارة التي هي من أملاكنا، والتي يعتمد أهلها علينا نحن المعتمدين بدورنا على الحكومة البريطانية. وإنّي على يقين من أن الحكومة البريطانية لا تطلب منا أن نهجر أملاكنا ليستولي عليها أعداؤنا». وردّ المقيم في ١٢ مارس ردّاً قاطعاً في هذه المرة «بنصيحة نابعة من علاقات الصداقة بين الطرفين بأن ينفض يده عن أمر الزبارة تماماً». [٣١] وهكذا تمّ الفصل بين قطر العثمانية وبين البحرين التي بدأ يتزايد فيها النفوذ البريطاني. إمتثل الشيخ عيسى لرأي الهند مكرهاً فلم يرسل رجالاً أو عتاداً للزبّارة إلاّ أنّه صار يساعد أهلها بالمال والإمدادات سرّاً كما نفهم من خطاب للمقيم مؤرخ في ٣ أبريل ١٨٧٥.

عبد الرحمن بن فيصل في البحرين: - تأكيد قطع البحرين عن العثمانيين

تفيد تقارير البصرة في مارس ١٨٧٥م بأن الشيخ ناصر شيخ المنتفق الذي يقود القوات العثمانية لإخماد الثورة في الأحساء قد اتهم الشيخ عيسى بإرسال خطابات إلى عدّة أشخاص في الأحساء يُحسِّن لهم التمرّد على سلطة العثمانيين. [٣٢] وتفيد التقارير أيضاً بأن الشيخ قد ساند سلفاً الأمير عبد الرحمن الفيصل في الثورة القائمة في الأحساء. وكان هذا الأمير قد وصل إلى البحرين من بغداد في ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م بعد أن أطلق الوالي سراحه. بقي عبد الرحمن حوالى الشهرين في جزيرة البحرين دون أن يتدخّل في أمورها السياسية ثم راسل ساحل الأحساء ووجد أن القبائل موالية لآل سعود. ويبدو أن شيخ البحرين قد سانده ليحقّق

بدوره طموحاته في ساحل قطر عامة ومسألة الزبارة بصفة خاصة. ويبدو أيضاً أن حاكم القطيف العثماني قد عرف بوصول عبد الرحمن إلى المنطقة. وعلى هذا خاطب الشيخ ناصر باشا الشيخ عيسى شيخ البحرين في ربيع الأول ١٢٩١هـ/ ٢٠ أبريل ١٨٧٤م بخطاب جاء فيه: «لقد عرفت بوصول عبد الرحمن بن فيصل وفهد بن صنيتان إلى البحرين حيث يقيمان في هذه الأيام. وعرفت أيضاً أن أفكارهما الشريرة قد تقودهما إلى خلق الاضطرابات للحكومة العثمانية، وأنّهما سيتبعان سبيلاً يوردهما موارد التمرد، وأنّك تساعدهما في مسعاهما هذا بأربعمائة أو خمسمائة رجل من الخارجين. وعليه أرجو أن يكون معلوماً لديكم أنه إذا تبينّ لنا أنك تساعدهما، أو تجهز المراكب لنقلهما، أو تقوم بأيّة محاولة مهما كانت طفيفة لدعم خططهما الواهية، فتأكد أن الحكومة العثمانية ستحاسبك على كل صغيرة تقع أو كبيرة. وعليه أجد أنه من الضروري أن أحذّرك كتابة برسالة يحملها إليك حسن أفندي الضابط في القوات السلطانية. وحين يصلك هذا يجب أن تخطرنا فوراً عمّا إذا كنت تسعى لمحاربة الحكومة العثمانية. وقد أصدرنا تعليماتنا لهذا الضابط لكي لا يبقى عندكم لأكثر من يوم واحد تبلغونه فيه قراركم الذي ستتصرّف على ضوئه».(٣٣)

لم يرد شيخ البحرين على هذه الرسالة كتابة إنما أبلغ حسن أفندي، الضابط الذي حمل إليه الخطاب، بأنه سيحيل هذا الخطاب إلى مندوبي الحكومة البريطانية. وأنكر الشيخ أنه قدّم مساعدة لعبد الرحمن أو فهد، وأفاد بأنه لم يفعل سوى ما تستوجبه حقوق الضيافة فقط. وأبلغ مقيم بو شهر حكومته في الهند بأنه من غير المستبعد أن تحمِّل السلطات العثمانية شيخ البحرين مسؤولية ما يقوم به عبد الرحمن الذي ترك الجزيرة بعد ثلاثة أيام من وصول خطاب حاكم القطيف، واستقرّ في منطقة ما قرب العقير. قام المقيم إلى البحرين بشخصه لكي ينصح شيخها في هذا الصدد، وطلب منه أن يرسل خطاب اعتذار لطيف إلى حاكم القطيف ينفي فيه عن شخصه كل مسؤولية لأي عمل يقوم به عبد الرحمن، ويخطره بأنه ما زال يبذل جهده حتى لا يقع في أي خطأ في الشؤون المتصلة بالحكومة العثمانية. وطلب المقيم إلى عيسى أن ينفض يده تماماً من كل الإشكالات التي تحدث في البر حتى لا تلفه دواماتها.(٣٤)

اعتمدت حكومة الهند الخطوات التي اتّخذها المقيم، وطلبت إليه أن يرسل لها بتقرير عن كل ما يتّصل بالأمير عبد الرحمن في الوقت الراهن. وأفـاد المقيم حكومته في تقريره بتاريخ ٤ ذي القعدة ١٢/١٢٩١ ديسمبر ١٨٧٤ أن عبد الرحمن قد وصل إلى البحرين قادماً من بغداد والبصرة في قارب محلي، ومعه عشرة رجال من أتباعه وحلّ ضيفاً على الشيخ عيسى الذي خصّص له مسكناً مستقلاً. وحين أراد عبد الرحمن الخروج إلى نجد، وجد نفسه في حاجة إلى المال لتسوية بعض ديونه في البحرين، وحاول الاستدانة ولكنه لم يجد مَن يقرضه. وعندما علم شيخ البحرين بذلك أقرضـه ٥٠٠ قران (حـوالى ٢٠٩ روبية). وغـادر عبد الـرحمن الساحل في قارب كويتي. كان في طريقه إلى ساحل الأحساء، ولم يؤجر عبد الرحمن ذلك القارب خصيصاً لنقله وأتباعه. نزل عبد الرحمن في مكان يسمى الحجرية، ولحق به بعدئذ بعض البدو الذين كانوا على وشك مغادرة البحرين كما هو دأبهم كل سنة بعد انقضاء موسم جني التمر، كما رجع معهم بعض مـواطني المنطقـة الساخطين على الحكم العثماني. ويقطع المقيم بأن كل هذه الجماعة التي تربو على الخمسين، كانت نجدية، وليس فيها من أهل البحرين أحد كما يعتقد العثمانيون. ويضيف المقيم بأنهم غير مسلحين إلّا بحراب أو سيوف أو بنادق فتيـل. إنضمّ هؤلاء لعبد الرحمن وأتبـاعه في منـطقة قـرب العقير، ثم انضمّت إليهم بعـدئذ جماعات من العجمان وآل مرة. . ثم كانت الثورة. كان الرأي سلفاً عند السلطات العثمانية المحليّة أن يتحمّل شيخ البحرين مسؤولية مساعدة الأمير عبـد الرحمن. وطلب رديف باشا من الباب العالي، كما قال هربرت في خطابه إلى السفير أليوت في شعبان ١٢٩١هـ/ سبتمبر ١٨٧٤م بأن يأذن لـه بمهاجمـة البحرين، ومعـاقبة شيخها. غير أن التحريات اللاحقة أثبتت أن الأمر كلّه إشاعة لا أساس لها من الصحة. وبالرغم من ذلك نجد خطاباً من حكومة الهند إلى وزيرها بتاريخ ٥ محرّم ١٢٩٢هـ/١٢ فبراير ١٨٧٥ م مخطرة بأنها خوّلت مقيمها لينهي إلى الشيـخ (في البحرين) التأكيدات السابقة بحمايته إذا التزم بالاتّفاق: «لقد سبق أن قدمنا هذه التأكيدات للشيخ عندما كان يخشى هجوماً من بعض القبائل النازلة بالقرب من الزبارة ومنعناه من مساعدة حلفائه من النعيم الذين يسيطرون على قلعـة ذلك

المكان حالياً. ولا شك أن روح هذا التأكيد ينطبق على أي اعتداء يأتيه من أية ناحية لأننا ملتزمون بذلك.»(٣٥) وأبرقت الهند للأدميرالية لكي تزيد من قوتها العاملة في مياه البحرين، ووافقها الوزير على ذلك.

وفي ١٣ صفر ١٢٩٢هـ/ ٢٠ مارس ١٨٧٥م حذّر المقيم البريطاني شيخ البحرين مرة أخرى من التدخّل في شؤون قطر، أو الساحل على إطلاقه. وأنكر المقيم في رسالته للهند أي تدخّل نشط من قِبَل شيخ البحرين في الساحل، كما أفاد بأن ما يدّعيه ناصر باشا، شيخ المنتفق، الذي كان يقود وقتها حملة في الأحساء، من تدخّل شيخ البحرين في أمور الساحل زعم باطل. «وعموماً فإن عدد اللاجئين إلى البحرين من الأحساء كبير ممّا يسبب لشيخ البحرين حرجاً». وخلص المقيم إلى ضرورة وجود سفينة حربية بريطانية لتبحر بشكل دائم في مياه البحرين».(٣٦).

تفاقم مسألة الزبارة وخروج الشيخ قاسم من المعسكر العثماني

إستطاع الشيخ قاسم يناصره ناصر بن مبارك في ١٣٠٥هـ/ ١٨٧٨م إجلاء النعيم عن قلعة الزبارة، ولم يتدخل شيخ البحرين حيث غلّ المقيم البريطاني يده تماماً عن العمل. ولم يكن المقيم البريطاني يهتم للأمر فذلك عمل عسكري في بر قطر ولا يعنيه في شيء. ولمّا كانت حكومة الهند غير مهتمة أولاً بالشؤون القطرية، ولا بالامتداد العثماني عليها، فقد كان هذا الأمر يخدم سياستها في هذه المرحلة، ويبعد البحرين عن التعقيدات السياسية على الساحل حيث تنتهي صلتها بالساحل بجلاء النعيم من ذلك المكان. وبقيت الزبارة غير مأهولة حتى عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م. وكان من رأي المقيم أنه إذا قيّض للزبارة أن تعمر مرة أخرى فيجب أن يعمرها أصدقاء شيخ البحرين، أو على الأقل الذين يرضى عنهم شيخ البحرين. وعبّر المقيم عن رأيه من أن ناصر بن مبارك ربما يعمر الزبارة ويسكنها. «وفي هذه الحالة فإن مصالح بريطانيا في المنطقة ستضار كثيراً، وستفرخ القرصنة في الزبارة وما جاورها». وأكّد المقيم ضرورة التقيّد بهذا الأمر لتعويق السلطة العثمانية في تلك المنطقة، ولحفظ السلام في البحار، ولضمان سلامة البحرين. وصدرت موافقة حكومة الهند على ذلك، وعلى وجوب تبليغ قاسم وناصر على السواء بالقرار

وتحذيرهما. أمّا وزارة الهند فلم ترض التشكيك في أمر استقرار السلطة العثمانية على ذلك المكان.(٣٧)

كتب روث في ٢٩ جمادى الثانية ١٣٠٥هـ/ مارس ١٨٨٨م إلى حكومة الهند خطاباً أرفق به مذكرة من شيخ البحرين مؤرخة في ٧ مارس. جاء في هذه المذكرة أن ناصر بن مبارك وأتباعه من آل بني هاجر سيستقرون في الزبارة في الجزء الشمالي الغربي من ساحل قطر في مواجهة البحرين، وأن العثمانيين يساندون هذا المخطط بشكل مباشر وغير مباشر، مّما سيدخل البحرين في دائرة الخطر.(٣٨) وتفيد أخبار البحرين بأنه قد وصلت موافقة والي البصرة على سكنى ناصر في الزبارة. وأصبح الأمر وكأنه مواجهة بين المقيم البريطاني ووالي البصرة.

وصلت بعدئذ أنباء للمقيم بأن العثمانيين ينوون تعمير الزبارة والعديد، وتعيين مديرين لهاتين المنطقتين، فأبرق إلى سملا في ٩ صفر ١٣٠٨هـ/ ٢٣ سبتمبر ١٨٩٠م بذلك، وأوصى حكومته بالتحرّك فوراً للتحري في هذا الأمر، وإبلاغ الحكومة العثمانية برأي الحكومة البريطانية مجدداً في هذا الشأن. يرى المقيم أن العديد بصفة خاصة ضرورية لأسس النفوذ البريطاني في أبو ظبي، وأنه لو حدث أن قام العثمانيون بالوصول إلى إحدى هاتين المنطقتين أو كليهما فسيكون من الصعوبة إجلاؤهم بالأساليب الدبلوماسية. وأبرقت الهند إلى وزيرها بالأمر موصية باتخاذ إجراءات عاجلة. وأحال الوزير كروس الأمر إلى سالسبري في الخارجية ليطلب إلى السفير في الآستانة سرعة التحقق من هذا الأمر، وأن ينهي للباب العالي بأن الحكومة البريطانية تعتبر العديد بصفة خاصة تابعة لأبو ظبي، وأُجرى الاتّصال.(٣٩)

في جمادى الثانية ١٣٠٨ هـ / يناير ١٨٩١ م وصلت إشاعة إلى المقيمية تقول بأن حكومة الأحساء قد عيّنت ثلاثة موظفين في وظائف متعددة في قطر، أحدهم حاكماً للزبارة، والثاني حاكماً للعديد، والثالث مساعداً لقاسم، وأن هناك إعداداً من الجند العثماني يصل عددهم إلى ٤٠٠ فرد سيعسكرون في هاتين المدينتين المذكورتين. وجرى بعد هذا اتصال لندن بالحكومة العثمانية فأكّدت الأمر ولم تتراجع.(٤٠)

وردت في ١٢ رجب ١٣٠٨هـ/ ٢٠ فبراير ١٨٩١م أخبار من وكيل البحرين البريطاني تفيد بوقوع انشقاق خطير بين قاسم آل ثاني والسلطات العثمانية المحلية. طلب قاسم إلى أفراد قبيلة القبيسات الذين يقيمون في وكره بأن يسكنوا العديد. ووعد قاسم هذه الجماعة التي تبلغ حوالى ٤٠ شخصاً بأنه سيكون معهم على الخير والشر قولاً وفعلاً. ووافقت هذه الجماعة بشرط أن يعيّن قاسم أحد أبنائه أميراً عليهم يصرّف شؤونهم وألّا يتولى مسؤوليتهم ضابط عثماني. وسبب آخر للانشقاق هو أن قاسماً قد عارض إقامة مركز جمارك عثماني في البدع، واحتج قاسم بأن المواطنين سيهجرون المكان حال قيام هذا المركز، وأصرّ العثمانيون على إقامة المركز رغم أنف قاسم. ولهذا قدّم قاسم مرة أخرى استقالته من منصبه كقائم مقام، وأخطر والي البصرة بأن الموظفين الذين عيّنوا في قطر سيقومون بالمهمة خير قيام. وبالرغم من هذا لم تقبل استقالته كما تفيد التقارير الواردة في رمضان ١٣٠٨هـ/ أبريل ١٨٩١م. وتفيد تقارير شعبان ١٣٠٩هـ/ مارس ١٨٩٢م بأن أكثر من ألف جندي عثماني سيغادرون البصرة إلى البدع[٤١] للتعامل مع قاسم وضبط شؤون المنطقة.

قام والي البصرة بزيارة البدع في شعبان ١٣١٠هـ/ فبراير ١٨٩٣م ولم يقم الشيخ قاسم باستقباله. وحين أرسل الوالي لقاسم يستقدمه باذلاً له الأمان أرسل له قاسم أخاه أحمد لتسوية الأمور. ولم يقبل الوالي بل أصرّ على حضور قاسم بشخصه ورفض قاسم الأمر، وأرسل إليه أحمد مرة أخرى في جمع مع أعيان قطر. وعلى هذا قام الوالي باعتقال أحمد آل ثاني، وخرج طابور عسكري عثماني في ٣ أبريل يضم ١٥٠ جندياً ليتعقّب قاسماً ففاجأهم أصحاب قاسم من مكامنهم وفرقوهم وقتلوا بعضاً منهم. وأرسل الوالي بعد هذا قوة كبيرة لمهاجمة قاسم ووقعت معركة خسر فيها الجانبان كثيراً واضطرّ الوالي أن يعقد هدنة تلاها اتفاق في يونيو لتسوية الخلاف وذلك بعد تدخّل نقيب البصرة.

كان الاتفاق من ثلاث نقاط:

أولاً: يُخلي قاسم منصب القائم مقامية لصالح أخيه أحمد الذي سيؤدي الجباية للعثمانيين.

ثانياً: يرد قاسم الأسلحة العثمانية التي استولى عليها أخيراً.
ثالثاً: تصدر الحكومة العثمانية عفواً شاملاً عن قاسم وأتباعه.(٤٢)

يبدو أن قاسماً قد سئم رحى العثمانيين الذي راح يطحنه بلا رحمة. كان قاسم واثقاً في الدولة العثمانية وقوّتها فجابه البريطانيين مجابهة مَن يشعر بأن هناك قوة دولية تشدّ من أزره فإذا بهذه القوة تحيل كل شكاوى قاسم من عاصمتها إلى عاصمة البريطانيين. وفقد قاسم المال والولد حين انتظم في طاعة تلك الدولة وعمل على الحفاظ على شرفها، وانتهى الأمر بالدولة العثمانية إلى محاربته. قام قاسم قبيل الحوادث الأخيرة بإرسال خطابين إلى المقيم البريطاني في بوشهر، وإلى شيخ البحرين، يطلب الحماية البريطانية صراحة وأفاد بأنه سينزل في المنطقة الشمالية من قطر التي اعترف في هذه المرة بأنها تقع تحت سيادة شيخ البحرين، أو بالأحرى تحت الحماية البريطانية. ورفض المقيم أن يستضيف شيخ البحرين أحد الخارجين على السلطة العثمانية «لأنها قوة تربطها أواصر صداقة مع الحكومة البريطانية». كتب قاسم بعدئذ لشيخ أبو ظبي يطلب إليه طيّ صفحة الخلاف وأن يقطعه أرضاً يقيم عليها، مشيراً ربما إلى العديد، واقترح المقيم على شيخ أبو ظبي أن يرد على قاسم بالمثل. ويبدو أن هذه الردود لم ترسل إلى قاسم حيث وافق العثمانيون على هدنة لإجراء المفاوضات معه ولهذا أسقط قاسم اتصالاته السابقة ولم يتطلّع إلى نتائجها.

حين كانت الأحداث تجري في قطر على هذا النحو أرسلت لندن اقتراحاً إلى الآستانة قدّمه وزير الهند اللورد روزبري Rosebery وهو أن يتدخّل المقيم بالوساطة بين قاسم والوالي العثماني. وأُخطر الباب العالي بذلك كما وافقت حكومة الهند على اقتراح الوزير. وقام طالبوت، المقيم البريطاني، إلى وكره وأبرق لحكومته في شوال ١٣١٠هـ/ ٥ مايو ١٨٩٣م بأن الوالي رفض وساطته حيث لم تصله تعليمات بذلك من الباب العالي. «أمّا قاسم فقد اجتمع به ليومين متتالين وعرف منه أنه فوّض أخاه الشيخ أحمد لتسوية المسألة مع العثمانيين. وطلب قاسم من المقيم مكاناً يأوي إليه، ولم يشترط الزبارة أو غيرها، وتعهد قاسم بتجديد اتفاق ١٨٦٨م مع بريطانيا، وأقرّ بأنه يقبل بأية تسوية عادلة تتم بواسطة المقيم. وأخطر

قاسم المقيم بأنّه الطرف الذي وقع عليه الضرر، ولكنه برغم هذا فوّض الشيخ أحمد لكي يدفع ٢٠،٠٠٠ روبية كحد أقصى نظير خسائر العثمانيين، وأنّه يريد أن تتم هذه التسوية بشكل عاجل حتى لا يخسر أهل قطر موسم الغوص خاصة وأن العرب قد هجروا البدع التي لم تعد آمنة. كما اقترح قاسم أن يدفع للعثمانيين مبلغاً يصل إلى ٩،٠٠٠ قران سنوياً نظير انسحاب العثمانيين من البدع. وأرسل هذا التقرير إلى وزير الهند لكي يتولى تسوية الأمور على أساس رأي الشيخ، وتعهّدت الهند بدفع الأقساط المستحقة على الشيخ. وكان من رأي روزبري أن الباب العالي لن يوافق على ذلك. وفي هذه الفترة تمّ الاتفاق بين قاسم والعثمانيين وطويت صفحة الخلاف إلى حين.[٤٤] وقد كسبت حكومة الهند زيادة في النفوذ في قطر بما أبدته من حسن النوايا، وبسياستها الرامية إلى إقرار السلم حتى لا تضطرب مياه الخليج، حزام أمن الهند.

إستطاعت بريطانيا بعد هذا في عام ١٨٩٥م أن تنكر الاعتراف بقطر عثمانية، وأضافت بأن وجود حامية عثمانية في هذه المنطقة يشكّل خطراً على أمن البحرين.[٤٥] واضطرت قطر بعد هذا أن تساير السياسة الهندية المتشدّدة واتّسمت السنين ١٣١١ - ١٣٣٢هـ/ ١٨٩٣ - ١٩١٤م بتغير واضح في سياسة الشيخ قاسم الذي نفض عنه الولاء للدولة العثمانية ولم يخسر شيئاً سوى مسمى وظيفته ولكنه استمرّ مطاعاً بين قومه يوجّه سياستهم. وقد برهنت حوادث الزبارة في ١٨٩٥م بما لا يدع مجالاً للشك على ضعف الحكومة العثمانية أمام الحكومة البريطانية. ووردت إلى المقيمية البريطانية في مايو ١٨٩٥م أخبار تفيد بأن آل علي، الذين اختلفوا في وقت سابق مع شيخ البحرين، سيستقرون في الزبارة على ساحل قطر، وأن هذا الأمر سيهدد أمن البحرين. وأرسل المقيم إلى قاسم محذراً. وفي هذه الأثناء وصل متصرّف الأحساء إلى الزبارة وبدأ تحت رعاية قاسم تعمير المكان.[٤٦]

قامت البارجة سفنكس يقودها الكابتن بيللي إلى الزبارة وطلبت إلى الشيخ سلطان شيخ آل علي أن يعود وقبيلته إلى البحرين. ورفض الشيخ أن ينصاع للأمر فصادرت سفنكس سبعة قوارب لبني علي. واحتج مدير الزبارة المعيّن من قِبَل الباب العالي على هذا الإجراء لأن آل علي من رعايا الدولة العثمانية. لم تهتم

سفنكس وصادرت في ١٥ يوليو تسعة قوارب أخرى. وجاءت إلى الزبارة بعض قوارب البحرين لتعود بالشيخ سالم أحد شيوخ آل علي الذي كان قد وافق على أن يرجع بقسم من القبيلة إلى البحرين فصادرها المدير العثماني بدوره. وبدأت نذر المقاومة حيث أعلنت حالة استنفار في القطيف كما جمع الشيخ قاسم مراكبه واستنفر رجاله وظهرت البارجة العثمانية زحاف على ساحل قطر. وأرسلت الهند لمقيمها في ١٨ أغسطس بأن يقاوم بالسلاح أية قوة تزحف في دروب البحرين، وأن يطلق النار على أي هدف بحري يصل إلى مسافة ٨ أميال من سواحلها، وأبرق وزير الهند موافقاً على هذا الإجراء. وقامت البارجة الحربية البريطانية بيجون Pigion إلى مسرح الأحداث وبدأ في بومباي تجهيز بعض المشاة الوطنيين لكي يبحروا إلى البحرين، ولكنهم لم يبحروا لانقشاع الخطر بإنهاء حالة الاستنفار العثمانية. وأصدرت الهند رغم هذا أمرها إلى البارجة بلاسيه لتتقدّم إلى البحرين لمؤازرة بيجون. وعلى هذا قامت الخارجية البريطانية في ٢٢ أغسطس بتسليم مذكّرة إلى السفير العثماني في لندن ترفض فيها سيادة الباب العالي على قطر وتوضح فيها أن البحرين تحت الحماية البريطانية.(٤٧)

كتب متصرّف الأحساء إلى مقيم الخليج في ١٩ أغسطس يتّهمه بإثارة الاضطرابات في سواحل نجد، ويطلب إليه ردّ قوات قوارب قطر المصادرة، وحذّره من أن أهل قطر يريدون أن يهاجموا البحرين ولكنه يلجمهم. وأعطى المتصرف للمقيم مهلة ١٧ يوماً لإرجاع القوارب. وكان من رأي الهند أن يرد على ذلك الموظف بتحميله مسؤولية ما سينجم عن تصرفاته وإخطاره بضرورة إطلاق سراح سفن البحرين المحتجزة في الزبارة. ووافق وزير الهند على هذا الرأي في ربيع الأول ١٣١٣هـ/ ٧ سبتمبر ١٨٩٥م.

أرسل بيللي، قائد بيجون، في ٥ سبتمبر بأنه حين كان في مياه الزبارة جاءه مدير الزبارة العثماني وطلب منه مغادرة المكان حالاً وإلاّ فإن الشيخ قاسم سيهاجم البحرين، وأن العثمانيين سيباركون هذا الأمر. وعلى هذا حذّر القائد البريطاني قاسماً في اليوم التالي(٤٩) طالباً إليه أن يفرق داواته حالاً، ولمّا لم يستجب فتحت بيجون وسفنكس النار عليها ودمّرت له ٤٤ داواً. وفي صباح اليوم التالي (٧

سبتمبر) لم يكن في الزبارة علم أو موظف عثماني. ورفع قاسم علم الهدنة مؤثراً العافية معتذراً بأن هذه الداوات قد جمعت كما أمر المتصرف. وطلب قائد السفينة إلى قاسم إرجاع سفن البحرين وعليها آل علي إلى البحرين، وتفريق جموع البدو التي حشدها.[٥٠] وعادت الزبارة بعدئذ خاوية كما كانت وانتصر الطغيان البريطاني على الضعف العثماني، وكان قاسم وأتباعه هم الضحية.

قرّر ويلسون Wilson المقيم البريطاني في خطابه بتاريخ المحرّم ١٣١٣هـ/ ١٩ أكتوبر ١٨٩٥ أن قاسماً كان وراء هذه الاضطرابات، وعليه رأت حكومة الهند تغريم قاسم ٣٠،٠٠٠ روبية. وفي حالة رفضه تدمّر البقية الباقية من قواربه. كما قررت الهند مصادرة قوارب الشيخ سلطان على أن تُعطى هدية لشيخ البحرين ليتصرف فيها كما يحلو له.[٥١] «أمّا إذا كان هذا الأمر الأخير سيعود بإشكالات على الشيخ عيسى، فيمكن له أن يعرض على الشيخ سلطان أن يدفع مالاً يشتري به قواربه مرة أخرى، على أن يستمر هذا العرض لفترة محدودة لن تباع له بعدها». واحتج الباب العالي، كما هي العادة وردّت بريطانيا ـ كما هي العادة أيضاً ـ بأنها تحمي أمن البحرين، وأن ما قامت به سلطاتها في الخليج كان ضرورياً من أجل تحقيق هذا الهدف. وأضافت مذكرة الحكومة البريطانية بأن استضافة قبيلة معادية تحت علم السلطان لا يتسق مع أصول علاقة الصداقة التي تربط بين الحكومتين. وانتهت المذكرة إلى القول بأن الحكومة البريطانية لا تعتبر الساحل الذي تقع الزبارة عليه عثمانياً.[٥٢]

وهكذا انتهى الأمر بأن خسر قاسم وأتباعه أكثر من ستين مركباً بيعت بمبلغ ٢٧٣٧٧٠ روبية. كما أحرقوا لهم ٨٨ داواً. واحتجت الحكومة العثمانية في رجب ١٣١٤هـ/ ديسمبر ١٨٩٦م[٥٣] بعد فترة طويلة من التأخير حتى في تقديم الاحتجاج. ويبدو أن تأخّر تقديم الاحتجاج العثماني يرجع إلى المشاكل والاضطرابات التي كانت تعانيها تلك الحكومة في هذا الوقت في بلغاريا وجزيرة كريت والحرب العثمانية اليونانية ١٨٩٦ ـ ١٨٩٧م. ردّت بريطانيا ردّها المعتاد وطويت هذه الصفحة في الوقت الراهن.

ناصر بن مبارك ونشاطاته: قطر دولة عازلة بين العثمانيين والبريطانيين

بدأت الإرهاصات التي تشكك في تبعية قطر للعثمانيين التي ما لبثت أن تبلورت تماماً في عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م وذلك لتصبح قطر دولة عازلة. رأت حكومة الهند أن حوادث البحر التي تقع بالقرب من ساحل قطر أو تنطلق منه تقضي بأن تكون قطر دولة عازلة غير مرتبطة بالبحرين ولا بالعثمانيين حتى يستطيع المقيم البريطاني أن يتخذ في تلك المنطقة الإجراءات التي يراها كفيلة بحفظ أمن البحر. ورأت حكومة الهند أن ارتباط قطر بالبحرين ربما جلب معه مؤثّرات السياسة العثمانية التي تسعى الهند لطمسها في قطر نفسها حتى لا يكون العثمانيون طرفاً في حفظ أمن البحر وحتى لا تكون لهم قوة أسطولية في الخليج. وحين ثارت المشاكل بين القبائل التابعة لشيخ أبو ظبي والأخرى التابعة لشيخ قطر منذ عام ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م وأدّت إلى ذلك الصراع الذي استمر لفترة تقرب من العشر سنوات خشي البريطانيون من تدخل العثمانيين المباشر في الصراع بقوّتهم ونفوذهم من قاعدتهم في الأحساء أولاً، ثمّ تدخّلهم غير المباشر من خلال ابن رشيد حاكم نجد. ولهذا رؤي أنه من الأنسب بتر قطر كلها من جسم السيادة العثمانية.(٥٤)

طلبت حكومة الهند إلى وزيرها في خطابها بتاريخ ذي الحجة ١٢٩٨هـ/ ٣٠ أكتوبر ١٨٨١م أن يبصرها بالخط السياسي في التعامل مع الشيخ قاسم مشيرة إلى ارتباطاته بالشيخ ناصر بن مبارك والخطورة التي يمثلها هذا الشيخ على البحرين.(٥٥)

كانت الهند ترى في الشيخ ناصر «قرصاناً هارباً» مسؤولاً عن أحداث البحرين في ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م التي أودت بحياة شيخها علي بن خليفة. جاءت التقارير منذ محرم ١٢٨٨هـ/ ابريل ١٨٧١م بأن ناصر بن مبارك الذي يرأس الجناح الأسري المناوىء لشيخ البحرين يعيش في كنف حاكم الإحساء، وأنه يدعي ملكية نصف البحرين، كما دلت التقارير أيضاً بأن أحمد بن ناصر بن عبدالله قد سار إلى بغداد ليحصل على الرعوية العثمانية ثم يكافح لاسترداد حق أبيه وعمه

في البحرين. وقد أزعجت هذه الأخبار وقتها الشيخ عيسى حاكم البحرين فكتب بها إلى المقيم يطلب الدعم. واخطر المقيم الشيخ في البحرين بأنه يمكن لـه أن يتعامل مع أحمد بن ناصر بن عبدالله دونما ضرورة للتدخل البريطاني، ذلك في حالة أن يحاول الحصول على حقه بصفته عربي، أما إذا جاء في رداء عثماني يحمل هوية العثمانيين فعلى الشيخ أن يتصل بالبريطانيين لأن هذا الأمر تستتبعه مسألة السيادة على البحرين وتبعيتها للباب العالي. كتب ناصر بن مبـارك وسليمان بن خليفـة ومبارك بن علي في ربيع الثاني ١٢٩٣هـ/ ابريل ١٨٧٩م إلى الصدر الأعظم رسالة جاء منها: «اننا لا نرى ضرورة في أن نذكركم بأن البحرين واقعـة تحت حمايـة السلطان خليفة المسلمين. ونحن بهذا نعلنْ على المـلأ أنه لا تـوجد بيننـا وبين الحكومة البريطانية أية تعهدات واجبة التنفيذ، وأننا على قناعة تامة من أن تلك الحكومة تمارس علينا سياسة القهر. ونعترف من جانبنا بأن السلطان وحده هـو صاحب الحق في معاقبتنا إذا خرجنا عن العمل وفق رغباته. اننا لنأسف بشـدة لذلك العمل الذي قام به القنصل البريطاني حين تجرأ على طردنا من ترابنا الوطني إلى المناطق المجاورة، ونفي الشيخين محمد بن خليفة ومحمد بن عبدالله بن خليفة إلى الهند، وصادر ممتلكاتهما. ولا يخفى على الجميع أن هذين الشيخين من أفضل رجال قبيلتنا». وتنتهي الرسالة إلى القول «بأن هذه الإجراءات غير عادلة ومرفوضة من قبلنـا». وطلب هؤلاء إلى الحكومـة العثمانيـة أن تعمـل عـلى ارجـاعهـم إلى أرضهم، وإعادة الشيوخ المنفيين في الهند، وفك الحظر عن ممتلكاتهم جميعاً. وقد أُرسل هذا الإلتماس عن طريق عارف باشـا الذي أوصى عليـه بضرورة العمل للحصول على حقوق هؤلاء الرعايا، وانتزاع اعتراف من الحكومة البريطانية بأن البحرين غير تابعة لها مذكراً بما سلف حين أعلنت الحكومة البريطانية في آخر صفر ١٢٩٠هـ/ ٣٠ ابـريل ١٨٧٣م في مـذكرة للورد جـرانفيل بـأن البحرين دولـة مستقلة.(٥٦)

كان دور الحكومة العثمانية المعتاد هو أن تحيل مثل هذه الرسائل إلى لندن وتطلب توضيحاً. أو ترسل احتجاجاً في بعض الحالات، فهي تدرك ضعفها تماماً أمام القوة البريطانية. ويبدو أنها كانت تعرف أنه من الأمثل لها والأسلم أن تلتزم

في النهاية برأي الحكومة البريطانية. عبر اللورد ديربي عن اعتقاده بأن لبساً ما قد وقع في مذكرة جرانفيل في هذا الصدد. وأحيل الأمر لحكومة الهند، وعبر سالسبري بعدها للسفير البريطاني في دار الخلافة بأن الحكومة البريطانية رفضت سلفاً حقوق السيادة العثمانية على البحرين ولا زالت عند رأيها. عبرت الهند في ردها بتاريخ شعبان ١٢٩٠هـ/ ٢٣ اكتوبر ١٨٧٣م مستعرضة المشاكل في أسرة البحرين الحاكمة، وبأن الشيوخ المعنيين هم من فرع عبدالله الذي أُقصي عن حكم البحرين هم والذين حاولوا مؤخراً الهجوم على الجزيرة بمعاضدة آل بني هاجر. وتذهب مذكرة حكومة الهند إلى الرأي الذي عبرت عنه بقولها: «نخلص إلى القول بأنه في الوقت الذي لا ندَّعي لأنفسنا أية سيادة على البحرين نرفض ادعاءات عارف باشا في خطابه إلى موزورس باشا المؤرخ في ٢٤ يونيو والمرفق نسخة منه في رسالتكم ونشير إلى أن ناصر بن مبارك والآخرين الذين قدموا هذا الإلتماس هم متمردون على حكومة البحرين خارجون عليها، وأن تبني رأيهم في مسألة البحرين سيغير من وضع البحرين السياسي، ويؤثر في علاقتنا التعهدية معها». (٥٧)

كتب قاسم بن ثاني في صفر ١٢٩٨هـ/ ٩ يناير ١٨٨١م إلى روث المقيم في الخليج العربي يعلمه بأنه قد منع ناصر بن مبارك من مهاجمة البحرين من سواحل قطر، ولهذا فربما قام ناصر بالهجوم على البحرين من الظهران أو غيرها من سواحل الاحساء. ويستطرد قاسم إلى القول: «وطلبت إليه تأجيل الهجوم حتى اتصل بكم.. فناصر صاحب حق، ومحتاج، وغير راض عنكم لأنكم منعتوه حقه، ولا يجدي أن نمنعه من الهجوم على البحرين من قطر لأنه سيهاجمها من منطقة أخرى. وعليه أرجو العمل على اصلاح ذات البين بينه وبين الشيخ عيسى شيخ البحرين، وتقرروا له شيئاً لمعاشه، وسترجع وساطتكم في هذا الأمر بالخير على الجميع إن شاء الله». (٥٨) ورد المقيم بأنه لا يعرف لناصر على البحرين حقاً، ولكن يمكن أن يناله الفضل إذا سكن في منطقة أخرى غير قطر، كما أن رجوعه إلى البحرين أمر مستحيل الحدوث. «أرجو أن تعمل على منعه من الدخول في أية مغامرات فاشلة تنتهي به إلى الدمار، وتدخلكم شخصياً في مشاكل مع الحكومتين البريطانية والعثمانية». (٥٩)

حاول ناصر بن مبارك الذي يعمل بتنسيق مع قاسم بن محمد آل ثاني وبجد تشجيعاً من السلطات العثمانية المحلية أن يهاجم البحرين في ربيع الثاني ١٢٩٨هـ/ مارس ١٨٨١م. فأرسلت حكومة الهند تحذر قاسماً من أنها ستعتبره مسؤولاً عن أي هجوم يقع على البحرين ولن يسعفه حينئذ وجود حامية عثمانية أو رفع علم عثماني. كما طلبت هذه الحكومة إلى الوكيل السياسي البريطاني أن يتصل بالسلطات المحلية العثمانية ويطلب منها أن تكافح القرصنة في سواحل الاحساء وقطر وإلا فإن الحكومة البريطانية ستجد نفسها مضطرة لمعالجة الوضع بنفسها. ونجد في خطاب الهند بتاريخ ٣٠ أكتوبر المشار إليه سلفاً إلى وزيرها في لندن بأن ناصر بن مبارك لن ينفض يده عن البحرين ما لم نبعده عن قاسم بن ثاني الذي يقدم له الدعم ويسانده مساندة فعالة(٦٠)

إن مشكلة ناصر طويلة تخرج عن متطلبات هذا البحث حيث لا تهمنا جهوده الذاتية في استرداد ما يعتقد أنه حق له، وتحريضه بعض القبائل لمناصرته، وشكاياته إلى المقيم بعدئذ من أن العثمانيين قد أوقفوا صرف معاشه، والتماسه الثاني في ١٨٩٠م للسلطات العثمانية في الاحساء حين قدم مذكرة للمتصرف للعمل على استرداد حقوقه في البحرين. يهمنا من هذه المسألة أن ناصر كان على اتصالات نسب ومصاهرة وصداقة مع قاسم بن ثاني الذي كان يحتل منصباً رسمياً من قبل العثمانيين، وعلى هذا رأت حكومة الهند أنه من الأوجب والأحكم ألا يكون لقطر ابن ثاني اتصال بالعثمانيين حتى لا تكون قطر «ذلك النتوء المصوب تجاه البحرين قذيفة عثمانية تدمر النفوذ البريطاني في البحرين».(٦١).

الشيخ قاسم بين الضغط البريطاني والضعف العثماني

أشارت حكومة الهند في خطابها بتاريخ شوال ١٢٩٨هـ/ ٣٠ اكتوبر ١٨٨١م الذي ألمحنا إليه سابقاً إلى أن علاقات قاسم مع ناصر ستودي بأمن الجزيرة. وألمحت الهند لأول ثغرة تستطيع أن تدلف من خلالها لتبعد قطر عن السيادة العثمانية حين اشارت إلى أن قاسم قد اتصل بالمقيم روث يبلغه بأنه سيغير على العجمان النازلين قرب القطيف، وأنه سيركب إليهم البحر. رأت الهند أن

رسالته هذه ربما تعني اعترافاً منه بتعهد ١٨٦٨م الذي وقّعه والده سلفاً. ورفض وزير الهند هذا الرأي في خطابه بتاريخ ربيع الأول ١٢٩٩هـ/ ٢٠ يناير ١٨٨٢م مشيراً إلى أن حكومة لندن تعترف بقطر عثمانية. ولم يطرح الوزير رأي حكومة الهند تماماً إذ قال إنه بالرغم من أن قاسم سمح بوجود حامية تركية في قلعته، وبالرغم من أنه يرفع العلم التركي إلا أن سيادة العثمانيين في قطر ليست إلا إسمية. ويستطرد خطاب الوزير المؤرخ في ربيع الأول ١٢٩٩هـ/ ٢٠ يناير ١٨٨٢م فيقول بأن الشيخ قاسم على اتصال دائم بمقيم الخليج البريطاني، وقد التزم برغبته حين طلب الأخير إليه بأن لا يقوم بالحملات بحراً كما أشار قاسم سلفاً إلى أنه يعتبر البحرين تحت الحماية البريطانية. وترى الحكومة البريطانية وجوب تشجيع اتجاه هذا الشيخ في التراسل مع المقيم إذا كان هذا التراسل غير ماس بشؤون الأتراك في البر، وإذا التزم هذا الشيخ بعدم الإساءة للرعايا البريطانيين من البنيان الذين يعملون في أرضه، فإن ارتباطاته الأخرى لا تهم الحكومة البريطانية التي تسعى جهد إمكانها للالتزام بعدم التدخل في السياسة القبلية الخاصة بالشيوخ المتصالحين وغيرهم. «فنحن لا نتدخل في نزاعاتهم براً إلا بالقدر الذي يستوجبه منع الإعتداءات بحراً»، ويستمر خطاب الوزير إلى نائب الملك في الهند: «أما في حالة قيام هذا الشيخ أو غيره بإثارة اضطرابات في البحر فهذا أمر لا نستطيع أن نفتي سعادتكم في مجلسه بشأنه. فهذا الأمر يعتمد على ظروف كل حادثة على حدة، ومدى تأثير الحادث المعني على سلم البحار، ومن خلال المراسلات الجارية بيننا في السنتين الأخيرتين، يتضح لكم جلياً أن حكومة جلالتها لا تمانع في أن يمد السلطان سيادته على قبائل قطر بشرط أن يقوم الباب العالي بضبط أمور تلك السواحل، وأن لا يقوم موظفوه المحليون بتشجيع القبائل شبه المستقلة في تلك المنطقة على الهجوم على البحرين، أو اتخاذ القبائل آلة يضربون بها البحرين وأراضي الشيوخ المتهادنين».(٦٢)

لم تكن الحكومة العثمانية تستطيع أن تقدم لقطر شيئاً أو تساند قاسماً الذي أخلص لها الولاء. وحين شكا بعض البنيان في قطر من معاملة قاسم اقترح المقيم روث أن يحصل من قاسم على تعهد ينص بسريان تعهد ١٨٦٨م المعقود مع

والده، وقررت حكومة الهند في رجب ١٢٩٩هـ/ مايو ١٨٨٢م أنـه يمكن للمقيم أن يحصل على هذا التعهد شفاهة، ويبدو أن المقيم قد تحدث إلى قاسم في هذا الشأن. وحين طرد قاسم البنيان من أرضه في عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م طلب المقيم إلى حكومته تخويله استعمال القوة ضد قاسم غير عابىء بسيادة العثمانيين هناك. ودافعت الهند عن رأي المقيم أمام لندن محتجة بأن ما قام به قاسم سيكون لـه مردود سيء على السياسة البريطانية برمتها على امتـداد الخليج العـربي. ووافقت لندن، ونفذ روث الأمر في صفر ١٣٠٠هـ/ ديسمبر ١٨٨٢م طالباً إلى قاسم أن يعتذر عما بدر منه، وأن يسمح بعودة البنيان من البحرين لاستئناف نشاطهم في قطر، وأن يدفع تعويضات تصل إلى ٨٠٠٠ روبية وحين وجد قاسم أنه مواجه بمدافع بارجتين بريطانيتين لم يجد إلا أن يصيخ للأمر ويمتثل. وانكسر حينئذ عرابي (٦٢ ـ أ) آخر في أقصى بلاد العرب شرقاً. كتب قاسم للمتصرف في الاحساء يحتج على ما قام به المقيم، وطلب أن ترد إليه الغرامة التي استخلصت منه قسراً، وهدد في حالة عدم المقدرة على إجابة مطالبه بأن يتخلى عن منصبه في قطر كقائم مقام عثماني. واحتجت الحكـومة العثـمانية إلى لنـدن كالعـادة، وردت الحكومـة البريطانية متذرعة بأمن البحار كالعادة، وطلبت الحكومة البريطانية إلى سفيرها أن ينقل إلى الباب العالي عدم اعترافه بتبعية قطر للحكومة العثمانية. كما أبلغ السفير العثماني في لندن بهذا الأمر صراحة في ربيع الثاني ١٣٠٠هـ/ ٧ مايو ١٨٨٣م. وزادت الحكومة البريطانية للسفير العثماني في عاصمتها هذا الأمر تأكيداً حين أبلغته في ٢٢ سبتمبر بأنها لن تتخلى عن حقوقها المكتسبة عبر السنين التي تقضي «بالتعامل المباشر مع شيوخ عرب قطر حين تستدعي الضرورة عملاً كهذا وذلك حفاظاً منها على أمن البحار، والحصول على التعويضات للمتضررين من الرعايا البريطانيين وغيرهم من المشمولين بالحماية البريطانية».(٦٣)

لم تهتم الدولة العثمانية لمأساة القائم مقام في قطر. وقد اقتنع قاسم بهـذه الحوادث وبغيرها وأدرك أن هناك خللاً ما ربما كان في الدولة أو في سلطاتها المحلية ولهذا أعلن قاسم في شعبان ١٣٠٤هـ/ مايـو ١٨٨٧م بأنـه لم يعد مسؤولاً عن شؤون قـطر التي «ترك رعـاية شؤونها لله ثم للحكـومة العثـمانية»، وغـادر الشيـخ البـدع

ليعيش خارجها. ولم تنته مأساة قاسم هنا فقد أرسل المقيم البريطاني في شوال ١٣٠٤هـ/ يوليو ١٨٨٧م يقول بأن انسحاب الشيخ قاسم من البدع قد تسبب في اضطرابات في المنطقة والمناطق المجاورة، وأن بدو الهواجر قد أغاروا على سوق البدع، وعانى بعض التجار الفرس من جراء ذلك. أما التجار البنيان فقد حماهم بعض أقارب الشيخ قاسم. وأبلغ المقيم حكومة الهند أن قاسماً ربما كان وراء الإضطرابات.(٦٤)

ويبدو أن انسحاب قاسم المفاجىء عن السلطة قد سبب فراغاً أمنياً عاثت فيه الإضطرابات. أبلغ المقيم البريطاني روث حكومته في اغسطس بأن ساحل قطر يعج بالقرصنة، وأن اثنين من الهنود قد سطا عليهم العرب في البدع، وحمّل المقيم قاسماً مسئولية هذه الأحداث. وعبر المقيم في ٢١ اغسطس عن رأيه: «أعتقد أن التعويضات يجب أن تؤخذ من قاسم لتسوية خسائر التجار الهنود في المنطقة، ولتعويض الجريحين، ولدفع مستحقات تعويض خسائر القوارب الفارسية والبحرانية التي سطا عليها القراصنة عند ساحل العديد، كما يجب أن نستخلص منه فوق هذا كله غرامة تردعه. «ولم يستجب قاسم بالطبع لهذا الإجراء التعسفي، فأمر المقيم شيخ البحرين بمصادرة الأشياء الخاصة بقاسم في البحرين. تحفظ الشيخ عيسى على مجموعة من اللآلىء وكمية من البهار تخص قاسماً تقدر بعشرين ألف روبية وذلك لصالح الحكومة البريطانية.(٦٥) ويشير تقرير للمقيم في ١٠ سبتمبر إلى أن قائد القوات العسكرية في الاحساء قد وصل من العقير إلى البدع بحراً في صحبة ثمانية من الجندرمة وأنه قد بدأ المشاورات مع قاسم وأعيان قطر. ونعرف من تقرير آخر أرسله المقيم بأن قاسم قد رفع أمر مصادرة ممتلكاته في البحرين إلى والي البصرة وإلى الحكومة العثمانية. وأبرق المقيم البريطاني في ٣ اكتوبر بأن الباب العالي أبرق لوالي البصرة يطلب تقريراً مفصلاً عن الحادث. كما أبرق المقيم في اليوم التالي بأن حاكم الاحساء قد بعث برسالة إلى الشيخ عيسى يهدده ويتوعده إذا لم يفك الحظر عن ممتلكات قاسم. وأبرق المقيم في ٦ أكتوبر ينهي إلى حكومته بأن قاسماً قد رغب في تسوية المسألة بدفع التعويضات دون الغرامة، وأن المقيم لا يعترض على ذلك. وفي ١٥ اكتوبر أبرق المقيم إلى الهند

يقول بأن المسألة قد سويت تماماً.[٦٦]

أمّا متصرّف الأحساء فقد كتب إلى عيسى يقول له بأن البحرين «جزيرة أوال» تابعة لمتصرف نجد ويطلب إليه الالتزام بذلك ورد أموال قاسم. وعبّر المقيم البريطاني لحكومته عن رأيه في ربيع الأول ١٣٠٥هـ/ ١٩ نوفمبر ١٨٨٧م بأنه يعتقد بأن هذا الإجراء قد اتخذه المتصرف دون تفويض من والي البصرة، ولكن ربما بموافقته. وطلب المقيم تخويله إبلاغ هذا الأمر لقنصل البصرة[٦٧] ووافقت حكومة الهند.[٦٨]

لجأت الحكومة العثمانية إلى الأسلوب التقليدي بإحالة الأمر إلى لندن واحتجت على ما قام به المقيم روث وكتبت وزارة الهند إلى وزارة الخارجية برسالة عبّر فيها اللورد بارون Baron عن قناعة الهند بأن تعتبر قاسماً مسؤولاً عن كل ما يقع في منطقة قطر، وأنها بصدد إقامة علاقات وثيقة معه.[٦٩] وردّ اللورد سالسبري لسفير حكومته في الآستانة في ١٧ أبريل ١٨٨٨م بأن الحكومة البريطانية تعتبر الشيخ قاسم آل ثاني مسؤولاً عمّا وقع في منطقة قطر من نهب لبعض التجار في البدع، وتعدٍ على القوارب البحرانية والبريطانية التي تتاجر مع قطر. وأضاف بأن الحكومة في سعيها لضبط الأمن في المنطقة غير مستعدة للتنازل عن تاريخ طويل من التعامل مع الرؤساء المحليين في منطقة الخليج العربي، وأن حكومة الهند تقرّ تماماً ما قام به المقيم روث.[٧٠] وبهذا الردّ انتهى أمر العثمانيين في الدفاع عن ممتلكات قاسم.

ضبط العلاقة بين قطر العازلة وعمان

قام المقيم البريطاني في الفترة من ٩ إلى ١٤ ديسمبر ١٨٨٧م بزيارة الساحل العماني حيث اتّصل بكل من الشيخ زايد بن خليفة شيخ أبو ظبي، والشيخ حميد ابن عبدالله بن سلطان شيخ رأس الخيمة، والشيخ صقر بن محمد بن خالد بن سلطان شيخ الشارقة، والشيخ راشد بن حميد شيخ عجمان، والشيخ أحمد بن عبدالله شيخ أم القوين، وطلب إليهم أن يتعهدوا بألّا يدخلوا في مراسلات أو

اتفاقات وألّا يسمحوا لأيّة حكومة سوى الحكومة البريطانية بوضع وكيل مقيم في أراضيهم، ووقع الشيوخ هذه التعهدات.[٧١] وبهذا فصل المقيم بين قطر والساحل العماني حيث استبعد قوة العثمانيين ومَن والاهم عن تلك المناطق.

لم يفقد قاسم الأمل في الدولة العثمانية تماماً إذ كان يكتب لها بمشاكله مع شيخ أبو ظبي. قام ابن الشيخ زايد بغارة على البدع انتهت بمقتل أحد أبناء قاسم. وقام قاسم في هذا الصدد بعدة اتصالات فراسل متصرّف الأحساء يشكو هذا الاعتداء، كما راسل شيخ البحرين يخطره بالاعتداء وذلك باسم الصداقة التي تربط بينهما، كما اتّصل بمحمد بن رشيد شيخ جبل شمر الذي بدا يهيمن على منطقة نجد. وكتب قاسم إلى المقيم البريطاني كذلك يشجب مناصرته لشيخ أبو ظبي الذي أغار على مناطقه، كما كتب إلى الباب العالي وإلى عبدالله باشا بن ثنيان آل سعود في الأستانة.[٧٢] ونورد هنا الخطاب الموجه إلى ابن ثنيان لأنه أوفى هذه الخطابات في شرح مسألة قاسم وطموحه وتطلعاته. يذكر الشيخ قاسم في هذا الخطاب المؤرّخ في ٢٣ رمضان ١٣٠٥هـ/ ٩ يونيو ١٨٨٨م بعد الديباجة:[٧٣] «بالرغم من أني لا أريد أن أكلّفكم بما يزعجكم إلّا أني أطلب منك أن تنوب عني وتتحدّث بلساني حين تصل بعض التقارير الخاصة بي إلى الحكومة العثمانية. لن أكتب لك تفصيلاً في المصيبة التي دهتني، ولكنني أطلب العون من الله ثم منكم، وأملي في الله ثم فيكم كبير، وسأصل إلى تحقيق هدفي من خلال مساعدتكم النبيلة. لقد كنت مخلصاً للحكومة السامية كما أخلص أتباعي كلهم لها منذ أن تولّت هذه الحكومة مقاليد الأمور في نجد. أطعنا وبذلنا الولاء للدولة وخدمناها دون مقابل في وقت لم يخدمها فيه الآخرون إلّا بمقابل. لقد قمت بمسؤولية قائم مقام نواحي قطر وضحّيت من أجل ذلك بكل شؤوني الخاصة وانخرطت في خدمة الحكومة السامية، ولم أطلب أبداً من الدولة راتباً، فقد خدمتها من أجل العقيدة الإسلامية» . ويستطرد قاسم الذي خذلته الدولة مرات عديدة ولم يخذلها فيقول لابن ثنيان: «أمّا فيما يخص عمان فأنت أدرى بأمرها وبالأموال التي يمكن أن تدفعها خراجاً للدولة، وتعرف أيضاً أن هذه المناطق وسكانها تابعون لحكومة نجد، وحين أخذت الدولة في يدها مقاليد الأمور في نجد أهملت أمر عمان ولم يشر لها به أحد،

وظلّت عمان يحكم كل منطقة فيها مواطنوها. ولا يخفى عليكم أن زايد بن خليفة، أحد ساكني عمان، كان من أول الذين يدفعون لكم الزكاة ولآل سعود. ولمّا أنهت الحكومة سلطة آل سعود، ولم تهتم بعمان، تبع زايد أهواءه التي قادته للاعتقاد بأنه أصبح سيّداً للخلق، فجمع الأموال وطغى وبغى، وليس للخلق حول يقاومونه به إلّا بمساعدة الله ثم الحكومة العثمانية، وبما عرفوه من عدالة ومعاملة حسنة من آل سعود. جاء البعض يطلبون مساندتي لهم ضد زايد، وسألوني بحكم علاقتي الطيبة مع الحكومة أن أعمل على إخراجهم من دائرة سلطة زايد، وذلك بأن تدخل هذه المناطق ضمن سلطة وإدارة نجد، لكي يرتاح الأهالي، ويطمئنوا، ويتخلّصوا من القتل والنهب الذي يقوم به هذا الشخص. . .وقد وعدتهم ومنيتهم، واتصلت في هذا الشأن بالولاة كلهم، وبالمتصرفين الذين عملوا في هذه النواحي. وكانوا جميعاً يمنوني الآمال، وكنت أنقل بدوري وعودهم إلى الأهالي الذين ينصرفون فرحين برجاء الخلاص بإذن الله وبأمر الدولة العليّة. . وتمرّ السنون ولا تأتي بنتيجة. وأرى أن هذا أمر غير جائز من الحكومة لأن هؤلاء هم من جملة رعاياها وداخلين ضمن سلطة حكومة نجد». ونبّه قاسم في خطابه الطويل هذا إلى أن دخول عمان تساوي دخول نجد إن لم تفقها خصوصاً عندما تتولى الحكومة العثمانية أمر جبايتها. «ولمّا علم زايد بن خليفة بمحاولاتي الدائبة في هذا الشأن أضمر لي العداء وجعل قبائله تغير على أطراف بلادنا، تنهب ممتلكاتنا، وتقتل رجالنا، وتأخذ نساءنا، وتستعبد أحرارنا. وبما أني تابع للدولة العلية فقد أمسكت يد رجالي حتى لا يردوا ضرباته ثقة مني بأن الدولة ستنتقم لنا، وستعاقبه على ما اقترف من أعمال رديئة. وقد شكوت أمري لموظفي الحكومة هنا الذين وعدوني بالوعود الكبار دون أن يحققوا شيئاً، ولمّا علم زايد بأن الحكومة لن تعارضه، ولم تتحرّك حتى لتنهاه عما يقوم به، راوده الشعور بعدم كفاءة الحكومة، وبأنه لا شرف لها يجعلها تدافع عن أراضيها، ولا عن رعاياها. ولهذا فكّر زايد في ضم قطر إلى عمان، وجهز حملة بقيادة ابنه خليفة، وصهره محمد بن سيف، قامت إلى قطر. كنا في قطر في سلام وفي أمان الله حيث لم نكن نفكّر أن تصل به الجرأة إلى هذا الحد. إنّ ما قام به زايد لن تجرؤ عليه دولة عظمى لأن هذه المدينة تستظل بحماية علم الدولة العليّة. ولقد كنا كلّنا

خارج المدينة التي كان فيها ابني مع قلة من إلسكان فهاجمهم رجال زايد في فجر يوم ١٨ رمضان ١٣٠٥هـ/ (٣٠ مايو ١٨٨٨م) وأخذوهم على حين غرّة..» ويحكي قاسم بعد هذا قصة المعركة، ووصول أخبارها لهم، ثمّ ما كان بعد ذلك من رفضه الثأر دون إحالة الأمر للحكومة العثمانية.(*) «ولهذا فإذا قامت الحكومة بالرد دفاعاً عن شرفها وقياماً بواجبها في حراسة منزلتها السامية فذلك أمر طيب. وإلّا فعلى الحكومة أن تغلق عينيها عن تحركاتنا، وتأذن لنا بالعمل ضد زايد ومناطق عمان. وحين أقبض عليه سنكون أنا وهو رهن مشيئة الحكومة العليّة». ويستطرد قاسم فيقول إن شرفه يملي عليه الحفاظ على شرف الحكومة، والعمل على تحقيق أهدافها. وبعد أن ينبّه قاسم مرة أخرى للعائد الذي ستحقّقه عمان للخزانة الأمبراطورية يتساءل: «لماذا تهمل الحكومة هذه الأمور...؟ إنني في الحقيقة لا أدري عمّا إذا كان هذا الإهمال يعود إلى الحكومة أم إلى تراخي موظفيها الذين يهملون إبلاغها بهذه الشؤون».. ويسوق قاسم بعد هذا لابن ثنيان أحاديث كريمة وآيات حكيمة تدل على قلب عامر بالخير وفكر يفيض بالحكمة. وربّما لم نرض من الشيخ قاسم ذلك التفاؤل الذي جاء في نهاية رسالته حين عرض مساعدته للدولة في ضم عمان، وأنه يستطيع أن يكسبها ويعطيها لقمة سائغة للدولة أو «أن نكون مسؤولين عن هذه المناطق وندفع لها عنها.. كما تحب وتختار».(٧٤)

لم يثمر هذا الخطاب إلّا عن مجيء إبراهيم بن عبدالله بن ثنيان موفداً من قِبَل والده إلى المنطقة لإحداث صلح بين رجالها. وصل إبراهيم إلى مسقط، وبقي فيها لفترة قدَّم فيها واجب العزاء للسيد فيصل وإخوته في وفاة والدهم السلطان تركي. وذهب بعدئذ إلى البريمي حيث بقي فيها لفترة مكان التقدير والتبجيل من شيخها، كما ذهب إلى البحرين، فقطر، وفشل إبراهيم في إحداث الصلح الذي أراده والده بين زايد وقاسم، فقد صمّم قاسم على عدم إسقاط الأمر إلّا إذا قبض على ابن زايد ليدرك منه ثأر ابنه.(٧٥)

لم يثمر هذا الخطاب كما لم تثمر مراسلات قاسم كلها مع الباب العالي وسلطاته في العاصمة أو في الأقاليم أو على المستوى المحلي. ولم يفد قاسماً اتصاله في هذا الشأن بالمقيم البريطاني حيث لم تكن حوادث البر تهم المقيم أو حكومته إلّا

بقدر تأثيرها على أمن البحر. وكان إضعاف قاسم براً يشلّه بحراً، وهذا بالضبط ما تسعى إليه السياسة الأمنية البريطانية. أمّا خطاب قاسم لعيسى، فقد حُوّل إلى المقيم البريطاني أيضاً. لم يعترض المقيم على تحسين العلاقات بين عيسى وقاسم لأنه يعتقد أن هذا ربّما يؤدي إلى تحقيق الهدوء في المنطقة وأبدى رأيه بوجوب تشجيع هذا الاتجاه «بشرط ألاّ يؤدي إلى ارتباطات أو التزامات معيّنة أو امتداد لاتصالات الشيخ مع القبائل الغافرية عموماً أو شيخ دبي بصفة خاصة». (٧٦)

كتب الوكيل «الوطني» البريطاني في الشارقة بتاريخ ذي القعدة ١٣٠٥هـ/ ٢٥ يونيو ١٨٨٨م إلى المقيم البريطاني بما يلي: «. . إعترف لنا حاكم دبي بأنه وصله كتاب من جاسم بن ثاني معناه أن يكون مطمئن الخواطر من طرفه ومن طرف دولة الروم (العثمانيين) هو وطارفه في جميع المآرب لا عليهم بأس وإن سروا غواويص أو طوارفه إلى قطر عليهم الأمان هنا». وقد حرصت الهند وسلطاتها في الخليج العربي على قطع العلاقة تماماً بين قاسم وشيخ دبي حيث جاء في ردّها الذي أرسلته في ١ أغسطس إلى وكيل المقيمية في الشارقة: «يكون تصرف حاكم دبي أنه بنظرنا غير معقول له في قبوليته علاقات الشيخ جاسم بن ثاني في دبي أو أن يدخل نفسه في أمور أي نحو كان. إنّنا نشور عليه أن يطلب منه المسامحة على طريق مناسب». (٧٧)

أرسل المقيم برقية إلى سملا في ذي القعدة ١٣٠٥هـ/ ١٨ يونيو ١٨٨٨م بأنه قد لاحظ بأن العثمانيين قد زادوا في الفترة الأخيرة من عدة جنودهم النظاميين في قطر، وأنه يتحتّم أن تقوم الحكومة البريطانية بالاتّصال بالباب العالي لوقف هذا الأمر. وعبَّر المقيم عن اعتقاده بأن الظروف الراهنة في المنطقة تجعل الامتداد العثماني في عمان أمراً ممكناً. وحثّ المقيم حكومة سملا على أنه يجب التوصل إلى اتّفاق مع الحكومة العثمانية حتى لا يستشري النفوذ العثماني في عمان. وأردف المقيم خطابه هذا بخطاب آخر في ٨ أغسطس ١٨٨٨م يعبّر عن اعتقاده بأن العثمانيين قد أرسلوا هذه القوة إلى قطر بهدف الامتداد إلى عمان. ويرى المقيم بأن الوضع في نجد قد وصل إلى انفراج حيث قوي موقف شيخ جبل شمر وقوّى هذا بدوره من الوضع العثماني في الأحساء ممّا أتاح لهم فرصة العمل للتوسّع في عمان. (٧٨)

خاطبت الهند وزيرها في شأن هذا الامتداد العثماني، وأرسل الوكيل في وزارة الهند إلى الوكيل في وزارة الخارجية البريطانية في ذي القعدة ١٣٠٥هـ/ ١٣ يوليو ١٨٨٨م رسالة جاء فيها: «وجّهني الوزير كروس بأن أرفق لوزير الخارجية نسخة من برقية نائب الملك في الهند لوزارتنا في ٢١ يونيو والتي جاء فيها أن الأتراك زادوا في أعداد رجال حامياتهم في البدع على ساحل قطر في الخليج (العربي). ولهذا فإنه يوصي بأن تقوم الحكومة البريطانية بمخاطبة الباب العالي بشأن هذه التحرّكات القائمة في قطر.[٧٩] وتستمر رسالة وكيل وزارة الهند لتشرح لوزارة الخارجية طبيعة الوجود العثماني في قطر وبداياته التي تسبّب فيها الشيخ قاسم حين دعا القوات العثمانية إلى البدع في ١٨٧٢م. ويخلص بعد هذا إلى رأي المقيم البريطاني في الخليج الذي كان قد أرسل به في شعبان ١٢٩٤هـ/ أغسطس ١٨٧٧م للهند والذي يفيد بأن انسحاب الحامية العثمانية من قطر سيساهم في الحفاظ على السلم في تلك النواحي. ويستمرّ الخطاب لشرح وجهة نظر الحكومة البريطانية في التعقيدات الواقعة في قطر، ويذكر بأن الشيخ قاسم سبق له أن دفع في ١٨٨٢م، حين هدد المقيم بقذف مدينته بالقنابل، مبلغ ٨٠٠٠ روبية، وذلك تكفيراً عن معاملته السيئة لبعض التجار الهنود في البدع، وأن الحكومة العثمانية قد احتجت أثر هذا الحادث على هذه الإجراءات واعتبرتها منافية لمبادئ القانون الدولي، وطالبت بردّ المبلغ إلى الشيخ قاسم «حاكمهم على قطر». ويستطرد الخطاب ليشير إلى رد جرانفيل على موزيرس باشا في جمادى الثانية ١٣٠٠هـ/ ٧ مايو ١٨٨٣م، والذي جاء فيه: «إن حكومة جلالتها البريطانية لم تعترف أبداً بسيادة الباب العالي على ساحل قطر». ويضيف الخطاب بعد هذا بأن السفير العثماني موزيرس باشا أكّد للوزير جرانفيل، بناء على تعليمات من الحكومة العثمانية، حقوق السيادة العثمانية في تلك المناطق. وردّ جرانفيل بأن الحكومة البريطانية تجد نفسها غير قادرة على قبول وجهة نظر الباب العالي في هذا الصدد».[٨٠]

واعتماداً على هذا، يطلب كروس وزير الهند، إلى سالسبري، وزير الخارجية أن يخاطب الباب العالي مجدداً بأن الحكومة البريطانية لم تعترف بالوجود العثماني في قطر. وبما أن العثمانيين يدعمون في الوقت الراهن حامياتهم العسكرية في البدع،

فإن حكومة جلالتها تنظر إلى هذا العمل كفعل من الأفعال المنافية للصداقة وتعتبره أمراً موجهاً لإحداث خرق للسلام في الخليج (العربي)، ذلك السلام الذي أقامته الحكومة البريطانية بالكثير من الجهد والآلام». ويوصي اللورد كروس بسحب الحامية العثمانية من البدع، ويتفق تماماً مع اللورد دفرين Duffrin بأن امتداد النفوذ العثماني في اتجاه الأراضي الخاضعة لعمان: «سيكون أمراً خطيراً لأنه يهدّد المصالح البريطانية في الوقت الراهن، وذلك نظراً للمتغيرات التي أحدثتها وفاة السلطان تركي، وخلافة ابنه فيصل، وما قد يجرّه هذا من تعقيدات».[٨١]

زار المقيم روث الشيخ قاسم في صفر ١٣٠٦هـ/ ٨ أكتوبر ١٨٨٨م وكرر له الشيخ قاسم الشكوى من أنه لم يجد منه العدل والإنصاف. ورجع روث إلى بوشهر وهو أشد اقتناعاً بفكرته السابقة من أن تدعيم العثمانيين لمراكزهم الساحلية تدعيماً قوياً، خاصة في البدع حيث أصبحت لهم حامية مؤثرة يعني حركة عثمانية في اتجاه عمان. كتب روث إلى الحكومة في الهند وطلبت حكومة الهند إلى لندن ضرورة الاتصال بالباب العالي وإخطاره بأن الحكومة البريطانية لن تحتمل أي تدخل عثماني في تلك النواحي.[٨٢] وعمل المقيم على تهدئة الصراع بين قطر وأبو ظبي حتى لا يحمل في طياته امتداداً عثمانياً في اتجاه عمان.

لم يرض قاسم الصلح مع زايد ولهذا نراه يقوم بحملة نجد خبرها في الخطابات التي بعث بها إلى محمد بن عبد الوهاب ومجبل الذكير وابن عيدان، وإلى عيسى شيخ البحرين. ولعل خطاب قاسم إلى عيسى هو أوفى هذه الخطابات في اخباره. جاء في هذا الخطاب بعد الديباجة[٨٣]: «إني أحمد الله اليك لأفضاله المتواترة، وأخطركم بالنجاح الذي أسبغه الله علينا، والهزيمة التي حلت بالأشرار وانتهت بدمارهم. قيل لي أن زايداً خرج يسعى إلينا بالحرب، فسعيت بدوري لمنازلته. وحين وصلنا إلى جوى شرقاً، عرفت أنه اعتصم بمدينته. وعلى هذا فقد قام رجالنا بعمليات النهب والسلب والقتل وأصبحوا سادة الساحة هناك تماماً، وقد هرب بعض السكان الذين نجوا من القتل إلى القلعة واعتصموا بها. وكانت هذه القلعة ذات البرجين أقوى قلاع المنطقة طراً. لقد قتلنا حوالي ١٢٠ رجلاً، ثم غدونا إلى قلعة جوى لنجد ٤٠٠٠ رجل يعملون في الدفاع عنها. سد هؤلاء علينا

الطريق، ولم يجد رجالنا بُداً من اجتياحهم، ولهذا قتلنا كل الرجال وكان من المستحيل علينا أن نحصي عدد القتلى في هذه المعمعة كما أسرنا هنا بعض العبيد. لقد خربّت المدينة تماماً من شرقها إلى غربها، كما قطعت كل زروعها. وكان بين القتلى ١٥ من شيوخ البوفلاح (البوفلاسه). وقد غنمت قوتنا كل ممتلكاتهم بعد أن هرب النساء والأطفال إلى الساحل. وبقينا في تلك المنطقة ١٢ يوماً نقيم الصلاة لأوقاتها وارتفع صوت المؤذن في تلك المنطقة التي ظلت لشهور، بل لسنوات، دون أن يسمع فيها صوت آذان. لم نجد في طوافنا في كل المنطقة طولاً وعرضاً ولا مسجداً واحداً. وفي وقت المعركة عندما كان رجالنا يعملون فيهم ذبحاً وتقتيلاً، كانوا يستغيثون بعبد القادر، وارتفعت أصوات بعضهم تنادي أبا بهلول. لقد حمدنا الله نحن المسلمين لتدمير منازل الذين ظلموا ومحو آثار الـذين يفعلون السوء. أرسل لكم هذا مع أحمد بن محيد ليوصف لكم الأمر شفاهة. .»(٨٤)

إذا استثنينا اللهجة الغاضبة لهذا الخطاب والأفكار السلفية الواردة به نستطيع أن نتبين استراتيجية قاسم الدبلوماسية فهو لا يني يظهر قوته ويلوح بها لشيخ البحرين وللبريطانيين من ورائه. غير أن واقع الحال يقول بأن تلك الخلافات كانت تحقق الاستراتيجية البريطانية التي تسعى لتحقيق القطيعة التامة بين قطر ومنطقة الساحل العماني واضعاف السلطة الوطنية في المنطقتين لـدفعهما في اتجاه التعاون مع السياسة البريطانية والاحتكام إلى سلطاتها في الخليج العربي.

كما نجد أخبار هذه المعركة في خطاب من القائم بأعمال القائم وكيل المقيمية في الشارقة بتاريخ جمادى الأولى ١٣٠٦هـ/ ١٣ يناير ١٨٨٩م الذي جاء فيه: إن قاسم بن ثاني قد غادر قطر في عددٍ كبيرٍ من أتباعه قبل حوالي ١٨ يوماً إلى عمان. وحين علم شيخ أبو ظبي بمسيرة قاسم طفق يعد العدة للقائه فأرسل المبعوثين إلى العديد وإلى القبائل البدوية من أمثال الظواهر والبوشمس وبني قتب والعوامر والدروع. . إلخ كما أرسل زايد الرسل كذلك إلى شيخي دبي وأم القوين وطلب إلى الجميع أن يلتقي بهم في منطقة قريبة من أبو ظبي لكي تتوحد قواتهم مع قوته لملاقاة قاسم. وأفاد القائم بأعمال وكيل الشارقة كذلك بأن شيخ أبو ظبي كان يريد أن يرسل بعض رجاله وذخائره إلى سلع بحراً لمواجهة تحركات قاسم، ولكنه أسقط

الفكرة، وقرر أن يسير لملاقاة قاسم بر.، وذلك خشية أن تثير تحركات رجاله بحراً غضب الحكومة البريطانية.

يعود القائم بأعمال وكيل المقيمية في الشارقة للإتصال بالمقيم في جمادى الأولى ١٣٠٦هـ/ ١٨ يناير ١٨٨٩م لينهي إليه أنـه قد وصلت أنباء من مصادر مختلفة تفيد بأن قاسم بن ثاني قد وصل يرافقه عبد الرحمن بن فيصل وابن السبهان وكيل ابن رشيد في حكم مناطق الرياض، ومعهم عدد كبير من الرجال إلى منطقة الظفرة وإلى ليوا من المناطق التابعة لشيـخ أبو ظبي وأعملوا القتـل في السكان هنـالك وقطعوا كل أشجار النخيل، وأنهم قد قاموا بعد هذا بإرسال الرسل إلى البريمي حيث التقوا بابراهيم بن علي رئيس قبيلة النعيم، وأخطروه بأن ابن رشيد سيرسل رجالاً لمساندة قاسم.(٨٦) ويضيف الوكيل بأن شيخ أبو ظبي في حيرة من أمره ولا يدري كيف السبيل لمواجهة الموقف الطارىء حيث كان يخشى دخول ابن رشيد في هذه الحرب. ويرى شيخ أبو ظبي أن قاسماً ما كان ليجرؤ على الوصول إلى هذه المناطق دون مساندة ابن رشيد ويفيـد المصدر أيضـاً أن بدو المنـاصير، المـوالين لشيخي أبو ظبي ودبي قد هجروا ديارهم وجلوا إلى الساحل حيث حلوا منطقة بين الجبيل وأبو ظبي، وأن أعداداً من البدو الآخرين قد نزحوا من المناطق الداخلية واعتصموا بالجبال الواقعة بين رأس الخيمـة والمقاطعـات الشرقية. ويعـبر القائم بأعمال الوكيل عن اعتقاده بأن كل المناطق الداخلية ستقع في أيدي «أهل الغرب» وسينحاز إليهم الشيوخ الغافريون وذلك لأنهم لا يملكون قوة المقاومة أولاً، ولأنهم ينتمون إلى نفس «المذهب» الذي ينتمي إليه «أهل الغرب» من أمثال قاسم وعبد الرحمن وابن السبهان.(٨٧)

يكتب وكيل المقيمية في ٢٥ يناير مرة ثالثة إلى المقيم يفيده بعمليات «قاسم وأهل الغرب رجال ابن رشيد «في الظفرة ويخطره بأن شيـوخ البريمي وجلون لا يدرون ماذا يفعلون، يتأرجح رأيهم بين التسليم والقتال. ويفيد التقرير بأن شيخ أبو ظبي لم يغادر بلدته للقتال والبدو قد تفرقوا عنه وذهب كل فريق منهم إلى حال سبيله بينما نزح بدو المناطق الداخلية إلى الشرق يبحثون عن أماكن للملجأ. ويرى الوكيل أن شيوخ الساحل لن يستطيعوا القيام بعمل متحد لمواجهة الموقف ما لم

يجدوا الدعم والتشجيع.[٨٨] ويفيد هذا الخطاب أيضاً بأن السيد فيصل بن تركي قد كتب إلى شيخ رأس الخيمة يطلب إليه أن يعين رجالاً لحراسة الممرات الواقعة بين الجبال التي تقود إلى الباطنة وذلك لحماية الأرض العمانية. ويفيد الوكيل بأن شيوخ دبي والشارقة وعجمان ورأس الخيمة قد سألوه عن موقف الحكومة البريطانية من هذه الحرب، ورأيها في سيطرة «أهل الغرب» على هذه المناطق. ويقول الوكيل بأنه قد رد عليهم بقوله إنه لا يعتقد أن الحكومة البريطانية ستتدخل في الأمر وذلك ما دام قاسم وحده في الميدان، أما إذا تدخلت أية قوة أخرى فإن الحكومة البريطانية لن ترضى بأية مداخلات في شؤون هذا الساحل.

يطلب المقيم إلى الوكيل البريطاني في البحرين أن يتحرى فيما يحدث على الساحل المواجه ويرسل له تقريراً بشأنه. فأرسل الوكيل في البحرين في ٢٧ يناير ١٨٨٩م إلى المقيم يقول بوصول بعض القوارب من البدع تحمل رسائل لبعض أهل البحرين، وأنه قد عرف منها أنه قد وقعت معركة في الظفرة قتل فيها بعض السكان.[٨٩] ويستطرد الوكيل في البحرين يقول بأن عدد الضحايا أقل مما ذكر قاسم في خطابه لعيسى. ويصف هذا التقرير المعركة التي وقعت بين قاسم وبين «هؤلاء السكان الذين يعيشون في أماكن متفرقة في أكواخهم الواقعة بين أشجار النخيل» وكيف بدأوا يتراجعون أمام قاسم حتى وصلوا إلى القلعة وأوصدوا أبوابها وجعلوا خلف الأبواب أثقالاً من جوالات الأرز. ويصف التقرير القلعة فيقول إنها عبارة عن سور مبني من الطوب يرتفع إلى ٦ أو ٧ أقدام، ولها برجا مراقبة ولكن ليس بها كوات لإطلاق النار». أطبق قاسم على القلعة وتمكن منها وقتل ـ على رواية وكيل البحرين ـ ١٢ شخصاً، وجرح بعضاً آخر، وتراجع بعد أن استولى على الرقيق والغنائم الأخرى ويضيف وكيل البحرين بأن شيخ أبو ظبي قد بدأ يتحرك في معية أهل دبي إلى الداخل وينوي أن يشق طريقه إلى البدع[٩٠]

وفي ٣١ يناير تصل أخبار موثقة من وكيل المقيمية في الشارقة استقاها من ثاني بن عطيش الذي قدم إلى دبي من سلع حيث كان قاسم قد استخدم مركب ابن عطيش في نقل المؤن والذخائر إلى الكفرية.[٩١] أفاد ابن عطيش بأن حملة قاسم قد تكونت من تحالف عدد من القبائل أهمها قبائل النعيم من أصدقاء شيخ

البحرين برياسة ناصر بن جبر وراشد بن جبر. أمد النعيم الحملة بحوالي خمسين خيالاً، هذا بالإضافة إلى المساعيد قبيلة قاسم، وبني هاجر وبعض بدو آل مرة الذين ساهموا بهجانتهم و ٢٠ فارساً و ٢٥ فارساً من البوعنين وبعض البوكوارة الذين ساهموا بسبعة من الهجن، كما ساهم المناصير الذين كانوا من رعايا شيخ أبو ظبي بسبعين رجلاً بقيادة حميد بن مناع كما اشترك في الحملة حوالي ١٠٠ هجان من المعاضيد والمزروعى، والعماير، والكباش، والمسلطة. وربما وصل العدد الكلي إلى ١٠٠٠ هجان تحت لواء قاسم. كما عرف الوكيل أن بعض المناصير والمزروعى من الذين كان لهم مزارع في ليوا قد احتموا بالقلعة التي كان قاسم وجماعاته يحاصرونها، فتوسط لهم حميد بن مناع المنصوري وقبل قاسم بواسطته. وحين خرج المناصير من القلعة بأمان قاسم هاجم قاسم من بقي فيها ثم تمكن منها. كما أفاد محمد بن سيف أن قاسماً قد سوى القلعة بالأرض بعد أن قتل الرجال وأخذ الأموال.(٩٢)

بدأ الشيخ قاسم شيخ قطر يستعد لمجابهة حملة زايد المزمعة فأرسل رسولاً إلى شيوخ الشارقة وعجمان وأم القوين يستعديهم على زايد، وحمل هذا المبعوث معه خطابات لهؤلاء الشيوخ. ويعبر وكيل المقيمية في الشارقة عن رأيه بأن هؤلاء الشيوخ لن يستجيبوا لقاسم وأخطر بأن شيخ دبي قد بدأ يستعد فعلاً لمساندة شيخ أبو ظبي، وأنه «سيتقدم بحراً إلى خور جنيزة ثم يسير بعد ذلك براً ليلتقي بالشيخ زايد، وينسق جهوده معه ومع المناصير والمزروعي والآخرين المؤيدين لزايد الذين قدموا من المناطق الغربية في الداخل واستقروا في مجاورة دبي».(٩٣)

تقدم مبعوث قاسم من أم القوين لتحريض البدو من أمثال بني قتب، والعماير، والدروع، وغيرهم، والتنسيق مع شيوخهم للحملة المزمعة خاصةبعد أن صمم «شيخ أبو ظبي وأبناؤه، وأخوه وأعيان البوفلاح في أبو ظبي والبوفلاسة في دبي أن يهاجموا قطر ولا يرجعوا عنها أبداً إلا بعد بلوغ هدفهم»، ويشير هذا التقرير في نهاياته إلى أن مقدم عبد الرحمن بن فيصل والسبهان المذكور سابقاً لمساندة قاسم هو «أمر لا أساس له من الصحة»(٩٤).

كان على قاسم أن يستعد للدفاع خاصة وأنه كان في حملته السابقة قاسياً ولم

يقبل «دخالة» كما يقول ابن غارب أحد الذين اشتركوا في صفوف قاسم في قتاله في ليوا. وتواترت الأخبار بأن شيخ أبو ظبي لم يتقدم للدفاع عن ليوا حين عرف بالأمر لأنه كان يعتقد أن قاسماً لن يستطيع أن يبلغ الظفرة إلاّ إذا كان رجال ابن رشيد في ركابه. أما وقد عرف بأن ابن رشيد لم يتحرك برجاله فإنه بدأ تحركاً جاداً.[٩٥]

كان على قاسم أن يعمل على عدة جبهات لحماية بلدته. فهناك الجبهة الداخلية، والجبهة الإقليمية المتمثلة في الشيوخ المحليين في المنطقة، وجبهة العثمانيين الذين لهم حامية في البدع، وجبهة المقيم السياسي البريطاني في الخليج الذي يعمل على حماية أمن الهند.

بالنسبة للجبهة الداخلية: يقول القادمون إلى البحرين من البدع[٩٦] أن أهلها يتوجسون خيفة من هجوم زايد المرتقب. وعليه فقد قام قاسم بتشييد الأبراج حول البدع، وترميم أسوارها وتقويتها، وأعد حراساً يسهرون على الأسوار طوال الليل، كما أقام أهل وكرة أيضاً أسواراً للمدينة. لم يبق قاسم في وكرة أو البدع إنما أقام مع النعيم قرب الزبارة بعد أن سرّح البدو مؤقتاً، واتفق معهم على خطة تقضي بالتعبئة السريعة في حالة وصول زايد. وقد ضمن قاسم بذلك اجتماع عدد من الرجال يقدر بحوالي ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ بسرعة فائقة أما بالنسبة للنعيم فقد وثّق قاسم صلته بالشيخ ناصر بن جبر حيث طلب الزواج بابنته.

أما بالنسبة للجبهة الإقليمية: فقد أرسل الشيخ قاسم، المدعو ابن نابغة الهاجري، إلى ابن رشيد يسوق ١٦ ناقة هدية[٩٧] طلب قاسم من ابن رشيد أن يسانده شخصياً، أو يدعمه بعدد من الرجال حتى يتقي بهم شر زايد. كما أرسل قاسم رسولاً آخر إلى شيخ أم القوين يستثير فيه المشاعر الدينية السلفية ويطلب إليه المساندة والدعم ضد المعتدي،[٩٨] أو على الأقل، عدم مساندة زايد في الجولة المرتقبة. كما أرسل قاسم عدداً من المبعوثين إلى القبائل العمانية يخطرها بعملياته في ليوا، ويهدد ويتوعد. ولم يتردد قاسم في أن يتصل بالشيخ راشد بن مكتوم (٩٨ - أ)، شيخ دبي، الذي حدد موقفه في معسكر زايد يطلب إليه التعاون معه وعدم مساندة زايد أو الوقوف على الحياد. وقد قوبل هذا الطلب بالرفض والاستنكار،

وحدد راشد موقعه في معسكر زايد بصفة قاطعة ورد قاسم على راشد بما اتفق مع رده.[(٩٩)]

نجح قاسم في تحييد شيوخ الشارقة وعجمان وغيرهما من شيوخ الساحل فيما خلا شيخ دبي. وحدّد الشيوخ الغافريون في المنطقة من الشارقة إلى رأس الخيمة مواقفهم حين ردّوا على رسائل زايد بأنهم لن يساندوه ضد قاسم. كما أفاد ملحان الحساوي[(١٠٠)] الذي قدم إلى البحرين من قطر، بأن ابن رشيد قد أرسل أحد رجاله إلى قاسم يفيده بأن رجاله، سيصلون إليه بعد يومين، ويعبّر وكيل المقيمية البريطانية في البحرين عن اعتقاده بأن قاسماً «يشيع الوعود بمساندته ليرفع من الروح المعنوية في أوساط رجاله». ويفيد وكيل المقيمية بأنه اطّلع على إحدى رسائل قاسم إلى مجبل الذكير بتاريخ رجب ١٣٠٦هـ/ ١٨ مارس ١٨٨٩م يقول فيه إنه سيسعى للملاقاة زايد حتى في حالة عدم تحرّك زايد في اتجاه قطر. ويفيد خطاب قاسم هذا بأن ابن رشيد قد وعد بالمساندة والدعم.

أمّا جبهة العثمانيين أصحاب السيادة في المنطقة فقد كان أمرها عجباً. فهم لم يحرّكوا أبداً ساكناً للقيام بأي عمل من شأنه التخفيف من حدة التوتر، وحفظ دماء المسلمين. ولا شكّ أن ذلك يرجع إلى فساد الإدارة العثمانية في المنطقة، وربّما ترى في الإهمال لتلك الأحداث المتفاقمة عملاً من الأعمال المتعمدة للإدارة العثمانية التي ترى في تصارع القبائل ووقوع الشقاق الدموي بينها تثبيتاً لسيادتها حيث يمنع التخلخل الذي يسود المنطقة أي عمل مشترك بين القبائل العربية لمواجهة الطورانية التي ظهرت بوادرها في دولة آل عثمان. وحين نحاول أن ندفع هذا الاتهام عن دولة تؤمن برابطة الجامعة الإسلامية نتساءل ألم يكن من الممكن لحامية البدع العثمانية أن تسيطر على قاسم قائم مقام الدولة في قطر وتقيّده بسياستها وتكف يده عن زايد وأتباعه؟ ألم يكن من الممكن أن تمسك هذه الدولة بزمام زايد وتجبره على احترام هيبتها حتى لو كلفها ذلك غضب الحكومة البريطانية؟ هل كانت مهمة حامية البدع العثمانية هي خدمة الأمن الهندي، كما يقول السفير البريطاني في الآستانة، وأنها وضعت هنالك لحفظ أمن السواحل التي تريدها بريطانيا هادئة.

تعامل قاسم مع هذه الجبهة بالصدق، ونبّه إلى أن هذه التحركات تسيء إلى كرامة الدولة وطالبها بصفتها دولة الإسلام أن تبسط سيادتها على الأراضي الإسلامية، وأن تفرض هيبتها في المنطقة، ولكنه لم يجد منها تجاوباً. أرسل قاسم مبعوثاً برسالة إلى والي البصرة، كما تفاوض مع قائد حامية البدع. أفاد قائد الحامية في البدع بأن الأوامر الصادرة إليه تقضي بعدم التدخل في المناطق الداخلية «إلاّ إذا أجبره قاسم أو أصدر إليه أمراً موقعاً بصفته الرسمية كقائم مقام».(١٠٢) بذل قاسم المال لرجال الحامية وأمدّهم بالأرز رشوة ليضمن تعاونهم معه. تحرّك بعض رجال الحامية إلى منطقة نعيجة وهي المنطقة التي تغذي البدع بالمياه، وتقع على بعد ثلاثة أميال من المدينة، وأعلنوا أنهم سيحاربون لرد أي هجوم يقع على المكان وقوّت هذه الحامية من حصنها في نعيجة. وبالرغم من ذلك فقد أرسل قائدهم إلى متصرّف الأحساء وإلى والي البصرة يقول بأن الاعتداءات التي يشنها قاسم قد دمّرت المنطقة حتى لم يعد في استطاعة الحامية أن تحصل على أقواتها من السوق، فالكل قد هجر حياته العادية، وأصبح يسيطر عليه هاجس الحرب، وصار يعمل في تقوية الدفاعات. وتقول الأنباء الواردة بعد ذلك بأن قائد الحامية هدّد بأنه لن يردّ زايداً إذا جاء محارباً للبدع، ولكنه سيعمل على حماية مصادر المياه فقط. كما أفادت المعلومات بأن قاسماً قبل مسيره إلى ليوا، طلب إلى قائد الحامية العثمانية أن يرسل معه اثنين من رجاله كرمز لرضاء الدولة لما يقوم به في تلك الأرجاء، واعتذر قائد الحامية عن إجابة هذا الطلب.(١٠٣)

بدأ الشيخ زايد يستعد للخروج لحرب الشيخ قاسم، فخرج من أبو ظبي إلى سميح Sameh حيث التقى به هنالك الشيخ راشد شيخ دبي ورجاله. وأوفد الشيخان مبعوثين إلى فيصل سلطان مسقط، رجع كل منهما بمبلغ ٢٠٠٠ روبية. كما وعد فيصل بأن يرسل لهما ٥٠٠ كيساً من الأرز وبعض الذخائر.(١٠٤) أما قاسم فقد هجر كل شيء إلاّ فكرة الثأر والانتقام «من زايد بأي شكل حتى لو أكسبه ذلك معارضة ممثلي الحكومة البريطانية في المنطقة «وأنّه» قد أعدّ للأمر عدّته وعيّن فرق سريعة للانقضاض على رجال زايد حال مسيرهم كما بثّ عيونه في البادية لمتابعة تحرّكات زايد».(١٠٥)

جعل قاسم معسكره في مسيمير. وكان رجاله ـ كما تفيد التقارير ـ غير متحمسين للحرب خاصة بعد أن عرفوا أن الجند العثماني لن يشترك معهم في العمليات. أراد زايد أن يستوثق من موقف الحامية في البدع فأرسل إلى قائدها يطلب إليه عدم التدخل في النزاع القائم، وأنّه سوف لن يحارب في المنطقة التي توجد فيها الحامية. ويبدو أن زايداً وعد القائد بأن يمده بكل الضرورات التي يحتاجها جنده من المناطق المجاورة للبدع من ماء وأخشاب ووقود وما إليها. ورفض القائد العثماني هذا الطلب معتذراً «لزايد بأن واجبه يحتم عليه حماية المدينة وسكانها، وأن تقصيره في واجب كهذا يعرضه لمساءلة حكومته».(١٠٦) ولا نجد في هذه الرسالة تهديداً لزايد أو قاسم أو إشارة تدل على عدم موافقته على هذا القتال الدائر، أو رغبته في العمل على فض الاشتباك.

أدّى هذا الموقف من قائد الحامية إلى قلب خطط الفريقين المتصارعين حيث ثبّط ـ فيما يبدو ـ همة زايد في الهجوم على البدع، واتجهت خطته للثأر من القبائل التي ساندت قاسماً، كما نصح النعيم لقاسم أن يترك معسكره في مسيمير ليقيمه في مشيرب قرب البدع، فالأولى تقع على مسيرة ساعتين من البدع بينما الأخرى تقع في مجاورة البدع تماماً حيث يستطيع الشيخ في حالة اندحاره أن يلجأ إلى القلعة. وأكّد القائد العثماني لقاسم أن واجبه يقضي عليه حماية البدع وما جاورها، وأنه سيحمي منطقة نعيجة تحت كل الظروف حيث يعتمد السكان عليها كمصدر للمياه. ولهذا أقام قاسم برجاله في مسيمير التي تقع بين نعيجة والبدع.(١٠٧)

تقوى زايد بشيوخ البوفلاسة مكتوم بن حشر وبطي بن شويل وعبدالله ابن حارج، كما سانده أيضاً البنو قتب. وأصبح له حوالى ٥٠٠٠ هجان و٢٠٠ فارس. وتحرّك زايد بهذه المجموعة في اتجاه قطر.(١٠٨) ولمّا بلغ زايد سبخة، على حدود قطر، أصاب وقومه شحاً في المياه، وكان لزاماً عليهم أن يحفروا الآبار. عقد زايد هنالك مجلس حرب من شيوخ القبائل الموالية له تقرّر فيه عدم المسير إلى قطر، خاصة وأن قاسماً كان يعسكر قرب البدع وحاميتها، وبالإضافة إلى أنه لا يوجد في ذلك الوقت من العام كلأ كافٍ لسوائم الحملة في نواحي قطر.(١٠٩) رأى المجلس الاكتفاء بمهاجمة القبائل الموالية لقاسم، والتي اشتركت معه في حملته الماضية. وعلى

هذا اتجهت الحملة إلى قارة بالقرب من الأحساء. وتراجع البدو إلى قلعة العقير التي رفض زايد لرجاله أن يهاجموها. واكتفى زايد ومناصروه بنهب كل شيء وجدوه في تلك المنطقة، وبلغت غنائمهم ٢٠٠٠ بعير عدا الأشياء الأخرى. واضطر زايد بعدئذ أن يعيد إلى بعض البدو الذين كانت علاقته بهم حسنة إبلهم، وتبقى له بعد ذلك من الغنمية حوالى ٦٠٠ بعير و٨ خيول. كانت هذه الأباعر من الغنائم في أغلبها تخصّ أهالي قطر تركوها عند آل مرة للمرعى، كما كان بعضها يخص قبيلتي آل بني هاجر والمناصير. ولم يتجاوز عدد القتلى في هذه الإغارة ١٨ من آل بني هاجر والمناصير، كما قُتل سالم بن شافي، شيخ آل بني هاجر، عن طريق الخطأ إذ كانت تجمعه مع زايد علاقات صداقة.(١١٠)

إكتفى زايد بهذا القدر خصوصاً وأن إبله قد أنهكت وتراجع إلى دياره. وحين بلغ قاسم خبر هذه الإغارة شدّ في ٣٠٠ من فرسانه وهجانته وخرج يقتفي أثر زايد الذي كان قد بلغ سلع وعاد منها إلى أبو ظبي. وقد كتب قاسم بعد هذا لمجبل الذكير بأن قاسم قد تراجع خوفاً من ملاقاته وأعرب عن تصميمه لشن الإغارات تباعاً على زايد وحلفائه حتى يدرك النصر.

أرسل قاسم المدعو قاسم بن محمد بن خاطر إلى البصرة يشكو اعتداء زايد. وقد أبرق هذا المبعوث من هنالك إلى الآستانة يخطرها بالاعتداء ويتّهم البريطانيين بتحريض زايد. وقد أرسلت الآستانة ردّها إلى شعبان باشا، والي البصرة، ليتصرف في الأمر. واهتم شعبان للأمر ولكنه عُزل في هذه الفترة، ولم يجد الأمر مَن يتحمّس له بعده(١١١) حيث ارتبطت السياسات الإقليمية للعثمانيين بالولاة والمتصرفين غالباً، ولم يكن للدولة استراتيجية واضحة تلزم بها رجالها. وحتى حين يتحمّس الإداريون لأمر ما ويبلغون به الآستانة يتكسّر حماسهم أمام الضغط البريطاني المستشري هناك.

رجع قاسم بن محمد بن خاطر من البصرة على الباخرة نفسها التي كانت تحمل عاكف باشا المتصرف الجديد للأحساء. وكان ابن خاطر دائم التحدث مع عاكف في شؤون قطر والبحرين. وحين وصل عاكف إلى البحرين وجد محمد ابن

عبد الوهاب، وعبد الرحمن بن عيدان، ومجبل الذكير، يتعاطفون مع قاسم آل ثاني ويؤيدون ابن خاطر في كل ما رواه. وقد أرسل محمد بن عبد الوهاب ليلة وصول المتصرف إلى البحرين الخطابات إلى قاسم في قطر مؤيداً. كما أفاد غانم ابن عطيش، من أهالي قطر، بأنه قد حمل خطاباً من عاكف باشا إلى الشيخ زايد. جاء في خطاب عاكف تهديد لزايد، وبأنه إذا لمس منه أيّة حركة عدائية تجاه القرى التابعة لقطر (التي هي مقاطعة عثمانية) فإنه سيردّ عليه فوراً. كان عاكف يعتقد أن زايداً لا يزال على حدود قطر وعليه كلّف محمد بن عبد الوهاب أن يرسل هذا الخطاب مع ابن عطيش إلى هناك. قرأ قاسم بن ثاني الخطاب المرسل من المتصرف إلى زايد، وأعاده مرة أخرى إلى محمد بن عبد الوهاب مع خطاب آخر يقول فيه إنّه ليس في حاجة إلى خطاب كهذا، وإنه يعرف كيف يردّ على زايد.(١١٢)

ملّ قاسم السياسة العثمانية تجاه بلاده، ويبدو أنه قد اقتنع بأن الإداريين العثمانيين لا سلطة لهم وراء أسوار حامياتهم، وأن تهديداتهم جوفاء لا تحمل معنى، ولا تدفع عنه غائلة الآخرين. ولهذا نراه يركّز على الجبهة المحلية والإقليمية ويكثّف من اتصالاته مع شيوخ المنطقة. كان قاسم يعتقد أن البريطانيين لن يهتموا بأحداث البر، وأن كل ما يهمهم هو أمن البحار. وهذا رأي صائب إذا كان قاسم يمثّل قطر وقبائلها. أمّا وقد حمل لقب مقام من الدولة العثمانية، فإنّ الأمر جدّ مختلف، ففي تدخّله في عمان وساحلها انتشار للمد العثماني، ولم تكن حكومة الهند، ولا حكومة لندن من خلفها، ترى أن تعبث قوة دولية بالحزام الذي يحيط بالبحر الذي يخدم الأمن الهندي.

استمرّ قاسم في اتصالاته مع شيوخ نجد وعمان يطلب إليهم مساندته ضد شيخ أبو ظبي وشيخ دبي على السواء لأن الأخير ساند الأول في حملته الأخيرة. أرسل قاسم في ربيع الأول ١٣٠٧هـ/ نوفمبر ١٨٨٩م هدايا من الخيول في سفينة حربية عثمانية إلى شيوخ الشارقة ورأس الخيمة وأم القوين، كما أرسل هدايا مختلفة لابن رشيد في نجد منها «سجاجيد» وجمال وبنادق «مارتيني» وغيرها من السلع والآلات.(١١٣)

نجد خطابين من والي البصرة في صفر ١٣٠٧هـ/ أكتوبر ١٨٨٩م إلى قاسم بن ثاني وزايد ابن خليفة. ولا نعرف على وجه التحديد إن كان إرساله لهذين الخطابين جهداً شخصياً منه لرأب الصدع أم بأمر من الآستانة التي ربما استجابت لإشارة لندن لها بتحسين العلاقة بين الشيخين. ذكّر الوالي الشيخين بالرابطة الإسلامية التي تجمعهما والتي تربطهما بالسلطان العثماني الذي تحسده القوى الكبرى على سيادته في الأمة العربية وتعمل على التفريق بينه وبين العرب. طلب الوالي إلى قاسم وزايد الكف عن التعارك وإهراق الدماء ورفع المظالم التي بينهما إلى حكومة السلطان لتحكم فيها دون أية قوة دولية أخرى. ردّ الشيخ زايد في نوفمبر بأنه لا سبيل له على قاسم ما التزم الأخير حدود أرضه، وأنه سيرابط بشكل حازم لحماية أراضيه والحفاظ عليها من تعديّات قاسم. ولم يكن هذا الرد بطبيعة الحال مشجعاً. ولهذا كتب والي البصرة مرة أخرى إلى شيخ أبو ظبي يشجب في هذه المرة بشكل صريح تحركاته العدائية تجاه قاسم ويطلب إليه التزام الهدوء. وردّ زايد في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٠٧هـ/ ١٤ يناير ١٨٩٠م. بأن «ما يقوم به هذا الرجل تجاهنا ليس بخاف عليك، وأننا سنظل من جانبنا نعمل على وقف تحركاته العدائية تجاهنا ودرء شرها». (١١٤)

لم يكن قاسم يريد أن يتعامل مع جبهة المقيم السياسي البريطاني في بو شهر على الساحل الفارسي (١١٤ ـ أ) فقد كان يدرك سلفاً موقفه منه، ولكنه كان يدرك كذلك أن هذه الجبهة هي أخطر الجبهات، وأقواها، وأبلغها تأثيراً. كتب قاسم في ١٦ جمادى الثانية ١٣٠٦هـ/ ١٧ فبراير ١٨٨٩م بعد حملته على ليوا إلى المقيم البريطاني خطاباً جاء منه: (١١٥) «لا شك أنكم تدركون ما يقوم به المناصير ومناصروهم من أعمال عدوانية. لقد أقام هؤلاء النفر لهم ملجأ حصيناً تمكّنت بحول الله من اجتياحه ووجدت فيه كافة المنهوبات التي نهبوها من المسافرين بحراً وبراً. لم يتمكّن أحد قبلي من مهاجمة هذا المكان أو أن يهزم هؤلاء القوم. لقد مكنني الله منهم. إن هؤلاء البدو عدوانيون، أمّا أهل تلك القرى فإنهم أكثر شراً من البدو. لقد عضدني الله ضد هؤلاء جميعهم فدحرتهم أعملت فيهم القتل. وقد حققت بهذا عملاً يرضاه الله. ولهذا يسرّني أن أبلغكم خبر هذا الانتصار على

الذين ينهبون الناس في البر والبحر. أمّا أنا فلا زلت مقيماً على صداقتي معكم، أقيم الأمن في المناطق التي تقع تحت سلطتي والتي ترغبون في سيادة الأمن فيها. يسرني أن أتلقى أخباركم فكما تعلم إن في سروركم سرورا لنا». ويردف قاسم خطابه هذا بملحق جاء فيه: «أرجو من الله الذي مكنني من هؤلاء المعتدين وجعلني أنتقم للمساكين والفقراء أن يمكنني أيضاً من الانتقام لمقتل ابني. وأرجو من الله أن لا يجعلك تصغي إلى ما يقوله الأعداء، كما أرجو أن يبتعد رعاياكم ووكلاؤكم في عمان عن التدخل فيما يحدث».

كان الشيخ زايد بن خليفة أسرع اتصالاً من الشيخ قاسم بجبهة المقيم البريطاني حيث أنه كان ضمن الشيوخ المتهادنين الذين يقع على المقيم البريطاني أمر ضبط تحركاته البحرية. أراد زايد أن يدخل المقيم طرفاً في الامر. ففي جمادى الأولى ١٣٠٦هـ/ ١٣ يناير ١٨٨٩م، أرسل وكيل المقيمية في الشارقة خطاباً من الشيخ زايد يشكو فيه إلى المقيم بأن الشيخ قاسماً، قد أرسل عن طريق البحر رجالاً مسلحين وذخائر إلى سلع الواقعة تحت سلطته:[١١٦] وحوّل المقيم هذه الشكوى إلى الوكيل السياسي في البحرين ليتحقق منها. وأفيد الشيخ زايد بأن الأمر قيد التحقيق. وفي ٢٣ يناير أرسل زايد عن طريق وكيل المقيمية في الشارقة أيضاً خطاباً آخر يفيد بأن قاسماً قد أرسل خمسة قوارب تحمل رجالاً وذخائر إلى خليج الكفرية الواقع تحت سلطة زايد أيضاً. وقد حدد زايد في هذه الرسالة أسماء ملاك القوارب. وقدم وكيل المقيمية في الشارقة مع هذا الخطاب تحقيقاً أجراه مع المدعو ثاني بن عطيش الذي شهد بأنه قام بقارب أخيه من وكرة إلى الكفرية يحمل شحنة تمر تخص قاسماً، وكان في معية أربعة قوارب أخرى محملة بالذخائر والحراب، كما أفاده ملاحو هذه القوارب بأنهم كانوا يحملون باروداً وبنادقاً أيضاً. وأحيل الأمر إلى الوكيل في البحرين للتحقيق، وأخطر زايد بأن الأمر رهن التحري أيضاً[١١٧].

أجرى وكيل المقيمية في البحرين تحقيقاً مع قاسم الذي يعترف بالسيادة العثمانية في قطر التي تصر تلك الدولة على أنها من توابعها. وإذا تجاوزنا الجوانب القانونية في هذا الشأن، فإن هنالك مسألة معنوية مهمة لا يمكن تجاهلها. تتمثل هذه المسألة في قيام موظف صغير تابع لتابعين لحكومة تابعة بالتحقيق مع قائم مقام

دولة تدعي السيادة ولا ترفع ـ مع هذا ـ تلك الدولة أصبعها لتعترض على هذا الأمر. تأكد لوكيل البحرين البريطاني ـ بعد التحري ـ بأن قاسماً حمل رجالاً مسلحين في القوارب إلى سلع، وأكد الوكيل ذلك بشهادة المدعو علي بن حسن بن جمال التي ذكر فيها توصيفاً للقوارب وأسماء مالكيها(١١٨).

كتب المقيم إلى قاسم في ٢٥ رجب ١٣٠٦هـ/ ٨ مارس ١٨٨٩م يقول بأنه استوثق من مصادر متعددة بأنه قد أرسل «في الإعتداءات الراهنة ضد شيخ أبو ظبي قوارب وذخائر إلى خليج الكفرية وإلى سلع وهي مناطق تقع وراء النطاق المعترف له فيه بالسلطة». وطلب المقيم من قاسم تفسيراً لهذا الأمر. ورد قاسم في ١٧ ابريل برسالة طويلة جاء منها:(١١٩) «إن هذه المناطق تابعة لي كما ذكرت لكم آنفاً. وإنه لمن المعروف للجميع أن سبخة هي المنطقة الفاصلة بين قطر وبين الظاهرة وعليه فإن المناطق التي تلي السبخة في اتجاه قطر هي في حدود قطر. وأجد أنه من واجبي أن أرد، حتى باستعمال السلاح، كل تدخل في سلع والمناطق الأخرى التابعة لي»، ويؤكد قاسم للمقيم هذه الحقيقة بقوله: «أرجو ألا تميل مع الهوى. وإذا كنت تشك في صدق قولي فلك أن تسأل العدول الذين يعرفون حقائق الأمر، وسيتبين لكم من شهاداتهم أن الظاهرة تبدأ بعد سبخة. وعلى هذا فإنه لن يستقيم منطقاً قول القائلين بأن من يسكن سلع يسكن الظاهرة. هنالك حقيقة مؤسسة لامراء فيها وهي أن حدود عمان من قبلنا تبدأ في الظاهرة. إن زيداً هو الذي غزا أرضي وقتل أهلي واسترق عدداً من عشيرتي دون سبب».

ويذهب قاسم إلى القول بأنه قد ذهب إلى الظاهرة لتأديب المناصير ولمنع السلب الذي يقومون به براً وبحراً: «فكيف يغضب زايد على من قام بتأديب الجناة ويطلب منا ألا نغضب حين يغزو أرضنا؟ «ويؤكد خطاب قاسم للمقيم أنه سيقوم إلى أرض زايد لينتقم في أقرب فرصة سانحة ويطلب قاسم من المقيم أن يعدل فلا يتدخل في الأمر. وينكر قاسم أنه أرسل سلاحاً إلى تلك المناطق إنما أرسل مراكب تحمل مؤناً. ويبرر قاسم حملته على الظاهرة بأن أهل الظاهرة ارتكبوا بعض جرائم النهب والسرقة ضد بعض عشيرته، وأنه اتصل في هذا الشأن بزايد يطلب إليه معالجة الأمر، إلّا أن زايد رد بأن لا شأن له به و«طلب مني أن أتولى

معالجته بنفسي، هذه الخطابات معي الآن، وإذا أردت الإطلاع عليها فيمكنك ذلك». (١٢٠)

أرسل الوكيل في البحرين تعليقاً على خطاب قاسم يقول فيه أن قاسماً يدعي سلع ليخلص نفسه من المسؤولية «وينسى قاسم أنها تقع وراء العديد بمسافة يوم كامل». ويفند وكيل البحرين خطاب قاسم ويشجبه نقطة تلو أخرى، « إذا كان ذلك المكان تابعاً له فعلاً فلماذا ينكر أنه أرسل إليه القوارب؟»(١٢١)

يكتب المقيم لحكومة الهند يخطرها(١٢٢) بأن قاسم قد أرسل بحراً خارج حدود أرضه ذخيرة وسلاحاً، وذلك إلى المناطق الواقعة تحت سلطة شيخ أبو ظبي «لقد قررت حكومة الهند سلفاً أن العديد واقعة تحت سلطة شيخ أبو ظبي، وعليه فإن سلع التي تقع خلف العديد تابعة لنفس الشيخ أيضاً. وعليه أيضاً نخلص إلى أن قاسم قد استعمل البحر ليشن الإعتداءات ضد آل بني ياس ويغزو أرضهم». ويستمر المقيم فيقول: «بالرغم من أنه لا يوجد تعهد محدد من جانب الشيوخ الموقعين على الهدنة البحرية يلزمهم بعدم شن الحروب ضد بعضهم البعض بحراً إلّا أنهم يعرفون أن عملاً كهذا سيكون خرقاً لتعهدهم للحكومة البريطانية، ويمكن أن يعرِّضهم للعقوبات. وما دام الشيوخ المهادنون يلزمون أنفسهم بهذا الإلتزام الهام، فإنهم يتوقعون منا بطبيعة الحال أن نفرض حظراً مماثلاً على شيخ قطر». ويسترسل المقيم فيقول إنه «يعتقد أن حكومة الهند ربما ترى أنه ليس من الحكمة تحت وطأة الظروف الراهنة، أن نستخلص غرامة من قاسم لأن هذا يعني استخدام قوة اسطولية. بيد أني أعتقد أنه من المرغوب فيه أن تخولوني أن أنقل لقاسم باسم الحكومة البريطانية شجبها وعدم رضائها على ما قام به، وأن أخطره بأن تكراره لمثل هذا التصرف سيفضي به إلى إجراءات ذات طبيعة أكثر حدة. . إن حساسية وضع قطر تجعلني أطلب إلى الحكومة أن تصدر لي تعليمات محددة في هذا الصدد». وفي الحقيقة فإن حساسية وضع قطر كانت هي التي حدت بالمقيم أن يكتب في رجب ١٣٠٦هـ/ مارس ١٨٩٩م لحكومته يقترح بأنه على الحكومتين البريطانية والعثمانية أن تعملا سوياً لاسكات الشغب في تلك المناطق وتهدئة الأمر بين الشيخين قاسم وزايد: «وعليه أعتقد أن الطريق الوحيد لإحداث

الصلح هو عمل مشترك بين السلطات العثمانية والبريطانية، وهذا أمـر لا يمكن حدوثه إلّا بالإعتراف بالبدع تركية». (١٢٣) وعلى أية حال فقد أقرت حكومة الهند تغريم قاسم دون تجريمه، وعملت بعـد هذا عـلى تهدئـة أوار الخلاف. لم تكن سلطات الهند البريطانية في الخليج تسعى لاسكات الشغب بين الشيخين سلفاً لما لذلك من مردودات طيبة على سياستها في فصل المنطقة وتثبيت الفرقة وانشغال كل من المنطقتين بحروب الأخرى براً، وابتعادهما في هذه الحالة عن أحداث الشغب في البحار. أما الآن وقد امتد الخلاف من البر حتى البحر وأثار فيه الشغب فإنه يتطلب حسماً عاجلاً كما قد يؤدي أمر البر والخلاف فيه بين الشيخين إلى خلاف بين الحكومتين البريطانية والعثمانية. وبالرغم من أن هذا الأمـر يسير الحـل بالنسبـة للحكومة الأولى إلّا أنها لا تريد أن تخوض دولياً فيما يمكن حسم أمره محلياً. ويبدو أن الحكومة العثمانية التي لم تثبت سياستها في المنطقة على شيء محدد لم تر مانعاً في التهدئة ولم تعترض عليها بل تجاوبت معها كما أشرنا آنفاً، وخاطب والي البصرة كلاً من الشيخين في هذا الصدد.

لم تهدأ الأمور فوقع الاعتداء الثاني من زايد في شعبان ١٣٠٦هـ/ ٣٠ ابريل ١٨٨٩م ضد قاسم. كتب الأخير في /٢٣ رمضان/ ٢٣ مايو بهذا الخبر إلى الوكيل البريطاني في البحرين، وإلى المقيم في بوشهر، وادّعى أن زايداً قد تراجـع لأنه هزم: «ولو قدر لي أن قابلته ما كنت أترك أحداً من رجاله حياً. إنه رجل مهزوم وسيأسير إلى أرضه كما سار إلى أرضي سلفاً. وسينتهي الأمر ـ إن شاء الله ـ بأن يسلم الناس كافة من طغيانه.» (١٢٤) كما أكد قاسم للمقيم في خطاب لاحـق أن «سلع في حدود قطر» وأضاف بأن «البدو يجوسون في المنطقة حالياً دون وازع ولا رادع يجوبون سواحل قطر، وعليه فإني غير مسؤول عـما يقع للقـوارب في هذه الارجاء».

حاول بعض وجهاء المنطقة من أمثال محمد بن خاطر وسلطان بن سلامة في شعبان ١٣٠٦هـ /ابريل ١٨٨٩م أن يدفعوا شيخ البحرين للوساطـة بين زايـد وقاسم. واعتذر عيسى عن تلك المهمة بحجة أن الرجلين كليهما لم يطلبا تدخله في هذا الصدد(١٢٥) أما المقيم البريطاني فقد راقت له الفكرة ولهذا كلف عيسى في

رجب ١٣٠٧هـ/ مارس ١٨٩٠م بالقيام بهذه المهمة. وسار عيسى إلى قاسم، ورد قاسم الزيارة إلّا أن محاولات إحداث السلم بين الشيوخ قد باءت بفشل مريع ولم يكن هنالك من تحمس لها من الشيوخ.

ضبط العلاقة بين نجد وعمان

عبَّر المقيم البريطاني في الخليج عن رأيه منذ ذي الحجة ١٣٠٥هـ/ ٨ أغسطس ١٨٨٨م بأن حملة ابن رشيد التي يزمع القيام بها إلى عمان وساحلها بمؤازرة العثمانيين في الاحساء والشيخ قاسم آل ثاني في قطر ستكون خطيرة جداً، فالأحوال السياسية في عمان غير مستقرة. ويرى المقيم أن ابن رشيد يستطيع أن يجتاح عمان حتى يقف على سواحل المحيط الهندي. أبرقت حكومة الهند لمقيمها في الخليج بأنها قد رفعت أمر التحرك العسكري النجدي إلى وزير الهند وذلك حتى يعمل على تحذير الباب العالي «بأننا لن نحتمل أبداً أي تدخل تركي في تلك الارجاء». وقام المقيم من جانبه بتحذير الشيوخ المتهادنين يطلب إليهم عدم الدخول في الإضطرابات التي يتوقع حدوثها في المنطقة. وقد أبلغ الوكيل الوطني البريطاني بالشارقة هذا الأمر إلى الشيوخ جاء في رسالة الوكيل إلى المقيم بتاريخ أواخر ذي القعدة ١٣٠٥هـ/ ٤ أغسطس ١٨٨٨م: «فيما ذكرتم حسب الأمر صار عند خادمكم معكم ونحن نحسب أمركم بالشفاهة تحاورنا مع المشايخ المتعاهدين كما كيف (١٢٥ ـ أ) ورسمنا في خواطرهم عن المداخلة في ذلك الأبواب ويتجنبون في أتم الاحتياط»[١٢٦].

رد محمد بن رشيد على قاسم في نوفمبر يعلمه بوصول هداياه ويخطره استعداده لمعاونته ومعاضدته، كما كتب محمد بن رشيد إلى ناصر بن خليل وهو من أبرز شيوخ آل بني هاجر. جاء في خطاب ابن رشيد لناصر /المؤرخ في ٤ ذي الحجة ١٣٠٥هـ/ ١١ أغسطس ١٨٨٨م:[١٢٧] «من محمد بن رشيد إلى ناصر ابن خليل سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد ذلك من طرف قاسم اليوم صار حالنا وحاله واحدة وصار بينه وبين زايد هالجرا (١٢٧ ـ أ) فيه فالمستهيب (١٢٧ـ ب) صداقتنا يساعد قاسم على عوده ويفزع له وحنا (١٢٧ ـ ج) بدورنا متوجهين

لتلك الديارات وكل يجازا على قدر فعله إليّ (أي الذي ـ ملاحظة من الكاتب) يفعل زين ويساعد قاسم فهو صديق والي ما يفزع مع قاسم فلا هو صديق».

خاطبت الهند وزيرها الذي اتصل بوزير الخارجية البريطانية في ذي الحجة ١٣٠٥هـ/ ٢٣ أغسطس ١٨٨٨م شارحاً المسألة(١٢٨). وردَّ وكيل وزارة الخارجية في ٢٧ أغسطس بأن الوزير الماركيز سالسبري سيرسل في حالة موافقة الوزير كروس برقية إلى سفير جلالتها في الأستانة «لكي يحذر الباب العالي من أن الحكومة البريطانية لن تقف مكتوفة الأيدي في حالة محاولة السلطات التركية التدخل في شؤون عمان». (١٢٩) ويوافق كروس ويتصل مرة أخرى في ٢٩ أغسطس ١٨٨٨ بسالسبري يفيده بوصول برقية من المقيم إلى حكومة الهند يعبر فيها عن رأيه من أن هناك تحركاً عثمانياً وشيكاً في اتجاه عمان، وأن نجد آل رشيد ستقود الهجوم الذي ستسانده الاحساء وقطر. (١٣٠) ويضيف وزير الهند: «إنَّ لنا التزاماً مع فرنسا يقضي بوجوب احترام استقلال مسقط فإذا كانت معلوماتكم متطابقة مع ما نخشاه، أرجو أن تحذروا الباب العالي ضد أية محاولة للإعتداء على مسقط أو التدخل فيها. إن موقفنا ثابت وهو أننا نعترف بالسلطة التركية على الساحل في المنطقة الممتدة حتى القطيف ونثق في أنه يتحتم على الأتراك أن يمارسوا حقوق هذه السلطة ممارسة فعلية في داخل هذه الحدود المرسومة. أما فيما وراء ذلك فإننا نعتبر بأن الشيوخ في تلك المناطق مستقلون حيث أن لنا معهم ارتباطات ولهذا فإننا نعترض على محاولات مد السلطة التركية عليهم».

أبرق المقيم البريطاني في ٥ المحرم ١٣٠٦هـ/ ١١ سبتمبر ١٨٨٨م بأن التقارير تشير إلى أن ابن رشيد ينوي التحرك من نجد باتجاه عمان في ٢٢ سبتمبر. (١٣١) وردت سملا تسأل مقيمها «ما هو الأمر الذي يجب اتخاذه في رأيكم». (١٣٢)، وعبرت الحكومة في سملا عن رأيها من أنه «من الميئوس منه في الوقت الراهن زحزحة القوة التركية من البدع. وقد أرسلنا للوزير نخطره برأي نائب الملك الذي يقضي بتحذير الباب العالي من محاولته التدخل في شؤون مسقط» وأبرق المقيم معبراً عن رأيه بوجوب أن تعمل الحكومة في الهند بسرعة على الإعتراف بولاية فيصل بن تركي بن سعيد في عمان وذلك حتى يمكّنه الدعم

البريطاني من تجميع قواته لصد القوات المتحركة ضده. وعبَّر المقيم عن رأيه أيضاً من وجوب «أن نقيم اتصالاً مباشراً مع ابن رشيد». واعترف المقيم بأنه «لا يعرف بالضبط مدى ارتباط ابن رشيد بالعثمانيين».[١٣٣]

علم المقيم البريطاني بعدئذ من حكومته في ٢٠ سبتمبر بأن الباب العالي قد أكد للندن أنه لا يعتزم تحركاً كبيراً في اتجاه عمان، وأن إجراءات تدعيم الحاميات العثمانية في المنطقة قد قام بها والي بغداد لضبط التجاوزات بين القبائل العربية واقامة الأمن في المنطقة بين البصرة ونجد.[١٣٤] وأبلغت سملا بوشهر بأنها لن تستطيع في الوقت الراهن أن تعترف بالسيد فيصل في عمان، ومع ذلك فيمكن للمقيم أن يتصل به لينهي إليه وإلى الآخرين من رؤساء عمان ومشايخها أن يُسووا مشاكلهم ويكتلوا جهودهم لمواجهة الخطر المحدق[١٣٥].

أرسل هوايت White السفير البريطاني في الآستانة في المحرّم ١٣٠٦هـ/ أكتوبر ١٨٨٨م ردّه على رسالة وزارة الخارجية البريطانية جاء الرد:[١٣٦] «يبدو لي من خطابين لروبرتسون Robertson، الوكيل السياسي المساعد في البصرة، في ١٢ و٢٢ مارس من هذه السنة، أن نافذ باشا والي البصرة قد زار القطيف وساحل قطر بهدف أن يقيم الإجراءات اللازمة لمنع «القرصنة» في الخليج (العربي). وأنه قد أخذ تعهدات مكتوبة من قاسم بن ثاني في قطر، ومن محمد بن عبد الوهاب بن دارين، بحماية وسلامة السواحل التي تقع تحت سيطرتها كل على حدة، وأنه قد ترك مع قاسم آل ثاني قارباً بخارياً مزوّداً ببحارته ليستعمله في حراسة السواحل كما أقام نافذ مخازن للفحم في راس تنورة والبدع «أقام سعادته أيضاً من أجل مواجهة القرصنة وحفظ سلامة مياه الخليج مراكز عسكرية في ساحل البدع، وضع فيها ٤٠٠ من المشاة. وقد خرج هؤلاء بالفعل من البصرة ليقيموا في تلك المراكز. تقع هذه المراكز في قطر ورأس تنورة والبدع وهي مناطق تقع على مسافة كبيرة إلى الجنوب من القطيف ولكننا مع هذا، واستناداً على خطابكم، نجد أن هذه المناطق تقع خارج السيادة التركية». ويضيف خطاب السفير هوايت بأن هذه الإجراءات العثمانية قد تمّت تنفيذاً لرغبة حكومة جلالتها لضرب «القرصنة» على الساحل الغربي من الخليج. ولم يحدث ـ مدى علمي ـ احتجاج على هذا الأمر من قِبل حكومة

جلالتها سلفاً أو من الوكلاء السياسيين لبريطانيا في الخليج. ولهذا فإني أجد أنه من الصعوبة بمكان أن أنهي إلى الباب العالي بأن القطيف هي الحد النهائي والثابت الذي لن نسمح بعده بالامتداد لأي نفوذ تركي. سيرد الأتراك بأنهم قد احتلوا فعلاً مناطق إلى الجنوب من القطيف دون أن تثير حكومة جلالتها سلفاً ـ فيما اعتقد ـ أية اعتراضات». وطلب السفير هوايت في نهاية رسالته أن يطلعوه على الحدود التي تمتد إليها سيادة سلطان مسقط، وأن يوضحوا له عمّا إذا كان لذلك السلطان أية حقوق سيادة على العرب الذين يسكنون المنطقة الممتدة بين البدع وأبو ظبي.[١٣٧]

عبَّر السفير لحكومته عن عدم اقتناعه برأيها، ولكنه ـ مع هذا ـ نقل إلى الباب العالي في اليوم نفسه بأنه:[١٣٨] «قد نما إلى حكومة جلالتها عن طريق نائب الملك في الهند بأن هناك شائعات تشير لوجود تحرّكات عدائية من قِبَل شيخ جبل شمر في اتجاه عمان. وتشير هذه الشائعات التي لا يريد سفير جلالتها أن يصدّقها، إلى أن قوات تركية تتحرك من الأحساء وقطر لتساند هذا الغزو النجدي. وتحت هذه الظروف فإن سفارة حكومة جلالتها تشعر أن من واجبها أن تنقل هذه الشائعات إلى مسامع الباب العالي، وتلفت انتباهه إلى أن حكومة جلالتها قد التزمت سابقاً، كما التزمت فرنسا أيضاً، باحترام استقلال مسقط. ولهذا السبب، ولأسباب أخرى كذلك، فإن حكومة جلالتها لا يمكن إلاّ أن تهتم بكل محاولة من جانب السلطات التركية للتدخل في عمان أو الاعتداء عليها».

وقد أرسلت وزارة الخارجية رسالة السفير وتلخيصاً لها إلى وزير الهند لإبداء ملاحظاته.[١٣٩]

فوّضت سملا في أكتوبر مقيمها في الخليج العربي للعمل على الحفاظ على أمن البحر بالقوة، وخوّلته أيضاً حق إصدار الأوامر للسفن الحربية البريطانية في الخليج وتوجيهها «لمراقبة البحرين وموانئ الساحل المهادن».

بدأ المقيم بزيارة البحرين في الأسبوع الأول من أكتوبر وعرف من شيخها أخباراً غير مؤكّدة تشير إلى أن عمه محمد بن خليفة قد ذهب إلى حايل ليناصر ابن

رشيد في جهوده المريبة في عمان والساحل المهادن. وذهب المقيم بعد ذلك في ٨ أكتوبر إلى البدع في زيارته التي أشرنا إليها سابقاً. وتظاهر الشيخ قاسم بأنه لا يعرف من تحركات ابن رشيد العسكرية تجاه عمان شيئاً، ولكنه اعترف بأن بن رشيد يخطط للهجوم على شيخ ال بني ياس. ويعبِّر المقيم في رسالته لحكومته بتاريخ ١٥ أكتوبر عن رأيه في ابن رشيد حيث يقول بأنه «اكتسب وضعه الحالي بإهراق الدماء إن قتله أخيراً لأبناء سعود هو أمر لا يظفر برضاء الرأي العام في شبه **الجزيرة العربية غير أن هناك مَن يعزي انتصاره في نجد إلى أنه قائد موهوب، وربّما أدى هذا بالعرب إلى أن يغفروا له خطاياه الأخرى»**[١٤٠] ومع هذا لم يشك المقيم في جديّة قيام ابن رشيد بالحملة المزمعة. حذّر المقيم الشيخ قاسم من تدخّل ابن رشيد في أمور البحرين أو الساحل المهادن وعمان «فهذه الأماكن تحميها الحكومة البريطانية وأنها لن تسمح لأحد مهما كان شأنه المساس بالمصالح البريطانية والعمل ضد أهدافها».[١٤١]

رجع المقيم بعد هذا إلى بوشهر يستلقط الأخبار الخاصة بابن رشيد. ووصله من أحمد عبد الرسول الوكيل «الوطني» البريطاني في الشارقة ١٠ صفر ١٣٠٦هـ/ ١٦ أكتوبر ١٨٨٨م خطاب جاء فيه:[١٤٢] «.. وصلت خشب (١٤٢ ـ أ) من الكويت بلغنا من مجبل الذكير بأنه وصله كتاب عن طريق الكويت من زامل راعي (١٤٢ ـ ب) عنيزة الذي نسيب وصاحب لحسن بن مهنا راعي بريدة والكل هذا من أعمال القصيم وأن الخط تاريخه من قبل شهر والذي عرفه فيه بأن الأمير أخالف (١٤٢ ـ ج) معهم يعني بن رشيد وانه موعد جاسم بغزوة على عمان والحال هذا التعريف وطبعه يقضي بأن بن رشيد لم يتحرّك حال الآن من بلده». كما وصل المقيم خطاب من لنجه جاء منه:[١٤٣] «وصل طارش (١٤٣ ـ أ) مخصوص من عند جاسم بن ثاني من قطر مضمون جوابه أن وصوله مع الكتب عن طريق الكويت إلى جاسم بن ثاني وكذلك أخذ كتب من جاسم بن ثاني إلى الشيخ راشد بن مكتوم حاكم دبي وكتاب إلى الشيخ صقر حاكم الشارقة وكتاب إلى محمد بن علي النعيمي في البريمي ومضمون كتب المذكور من قول طارش أن دولة ابن رشيد إلى ٢٥ صفر ١٣٠٦هـ توصل قطر ويمشي على عمان إلى مسقط وجعلان والذي

يسلم الطاعة فهو في الأمان حالاً وإذا وصل دولة ابن رشيد إلى بر عمان ما يقبل بجواب (١٤٣ ـ ب) ولا هو في الأمان. وعرفه يرسل المأكل مع زانة (١٤٣ ـ ج) الحرب إلى الشارقة ودبي لأجل عساكره. وطارش المذكور مأمور أن بنفسه يسلم الكتب إلى حكام المذكورين ويأخذ منهم الجواب وكذلك جواب الطارش بأن قاسم آل ثاني مجد حد الاجتهاد في جميع العساكر وجعل على وكرة مايتين ركاب من هجين راشد وجماعته. ومنتظر وصول ابن رشيد وترك معاملة التجارية في ٩ صفر ١٣٠٦هـ. طارش المذكور في الكتب الذي عنده سافر في الأخشاب إلى بندر شارقة».

وجاء في خطاب أرسله سيد عمان فيصل بن تركي إلى المقيم البريطاني في ١٠ جمادى الأولى ١٣٠٦هـ/١٣ يناير ١٨٨٩م[١٤٤] «أمّا بعد فالمعروض على حضرة جنابكم العالي بعد أداء لازم الثناء والتحية إلى سعادة حضرتك البهية أنه قد ورد كتاب من الشيخ راشد بن مكتوم وبطيه كتاب وصل إليه من قاسم بن محمد بن ثاني، يتضمّن الأخبار والإنذار عن حركة ابن رشيد ومراده القدوم على الأطراف العمانية والمشهور أن الذي يغريه ويحرّكه إلى ذلك هو ابن ثاني المذكور الذي هو كثر الأراجيف عن حركة المذكور منذ أيام ولمّا تواردت الآن لزم رفعها إلى جنابك العالي لأن حقائقها لا تخفي عليكم ولكوننا معتمدين على الله ثم على حضرة السركار المعظّم ونجزم أنه بحلول نظركم العالي لا محدوب (؟) من ذلك ومأمولنا منكم هو الرجا فيكم ونتيقن أن عالي همتكم السنية سيتم لدفع مكايد هذا الباغي الذي ليس له غاية مرامه إلاّ الإفساد والضرر العام. . .» وأرسل المقيم رده إلى فيصل يخطره بوصول خطابه. «وأحاط علمنا بما بينتم فيه من أخبار الأمير ابن رشيد وحركات الشيخ جاسم بن ثاني ونحن نعطيكم اليقين بأن هذه المادة كائنة في بالنا. الحكومة الهندية ليست غافلة عن التدابير التي يظهر أثرها على كافة البلاد المتحابة لمسقط وعمان وقد حصل لنا الامتنان من إرسالكم ذلك الخبر إلينا. . .»

شغلت سملا ولندن وبغداد والآستانة بهذه الأخبار ولم يتحرّك ابن رشيد تجاه عمان. وعرف السفير البريطاني في الآستانة بأن العلاقة بين ابن رشيد والدولة العثمانية تقتصر على تبادل الهدايا والرسل. وأفاد السفير في خطابه في رمضان

١٣٠٦هـ/ مايو ١٨٨٩م بأن السلطان كان قد أرسل في السنة الماضية سفارة إلى ابن رشيد تحمل إليه الهدايا، وأن ابن رشيد قد ردّ بسفارة مماثلة وبهدايا أيضاً طالباً إلى السلطان أن يمكّنه من إدارة نجد كلها. ويضيف السفير بأن السلطان لم يستجب لأنه يسعى لإدراج نجد كلّها في الدولة العثمانية بحكمها حكماً مباشراً.(١٤٦)

لم يتمكن ابن رشيد من القيام بحملته لانشغاله بالحوادث في نجد والقصيم، كما أدرك قاسم آل ثاني ضراوة المقاومة البريطانية لهذا الأمر فانكفأ على مشاكله. وتمكّنت جهود الحكومة البريطانية في لندن التي حرّكتها حكومة سملا من أن تحصر العثمانيين في حدود الأحساء وبعض المراكز المبعثرة على الساحل، وتطورت المعاهدات البريطانية مع شيوخ البحرين والساحل المهادن، فأكّدت تحجيم القوة العثمانية وحصرها حتى لا تبلغ الساحل العماني أو تدلف إلى عمان أو تؤثر في البحرين.

كانت الحكومة العثمانية تدرك تماماً أنها ليست بالند الذي يناطح الحكومة البريطانية في البحرين أو غيرها. واشتكى العثمانيون في ١٨٩٢ ـ ١٨٩٣م من أن الاتصالات التجارية بين الساحل والبحرين صعبة جداً بسبب مواقف الشيوخ ومعاهداتهم مع الحكومة البريطانية. ورد أيرل أف كمبرلي Earl of Kimberly وزير الهند في جمادى الثانية ١٣١٠هـ/٣٠ ديسمبر ١٨٩٢م بأن المعاهدات التي عقدت أخيراً لا تحظر التعامل التجاري بين هؤلاء الشيوخ وبين العثمانيين أو أي قوى أخرى ولكنها تحظر إقامة وكلاء عن تلك القوى في تلك المناطق.(١٤٧) وأرسلت نسخ الاتفاقيات والتعهدات (فيما عدا تعهد /١٨٩٢م) إلى الباب العالي، ويبدو أنه لم يكترث أو يحتج. أمّا العمال العثمانيون في المنطقة فكانوا لا يعرفون الانضباط الإداري الذي تمارسه بريطانيا على عمالها في الخليج. ولهذا فنجد أنه حين قام قائم مقام القطيف بإصدار إعلان علّقه في أواخر صفر ١٣١١هـ/١٢ أغسطس ١٨٩٣م على أبواب المقاهي والحوانيت في الأحساء معلناً فيه أنه ليس من حق الحكومة البريطانية أن تصدر الأوامر لشيخ البحرين، ولا أن تعمل على حمايته لأن أرض البحرين عثمانية وأنه سيعامل أهلها معاملة الرعايا العثمانيين، اتصل

البريطانيون بالباب العالي وأرسل السفير نكلسون من الآستانة إلى وزارة الخارجية البريطانية في جمادى الثانية ١٣١١هـ/ ٢٩ ديسمبر ١٨٩٣م برقية تفيد بأن الباب العالي قد أرسل قبل أيام إلى والي البصرة لسحب الإعلان الذي أصدره القائم مقام في القطيف، كما أن حكومته وجّهت سلطاتها المحلية بأن لا تقحم نفسها في نقاش أو تفاوض أو نزاع في الأمور الخاصة بالبحرين.[١٤٨] وبهذا انتهى تدخل السلطات العثمانية الإقليمية في سياسة البحرين ومنطقة قطر وعمان لتصبح مسألة امبريالية تعالجها الآستانة ولندن مما يخرجها عن نطاق عملنا هذا.

الفصل الثالث

التطورات السياسية في الأحساء ونجد ـ ١٨٧١ ـ ١٨٩١م

فشل العثمانيون في التوافق مع الإمام عبدالله بن فيصل، وكان فراق بينه وبينهم. وسدّت الصحراء الحاجزة بين الهفوف والرياض الطريق على القوات العثمانية التي فقدت مسوّغ زحفها لمناصرة الإمام عبدالله فقصرت دون درب الرياض، فتقاعست في الهفوف تعاني من المرض وقلة الزاد والمؤن. وما عادت خزينة بغداد ونواحيها تحتمل وطأة نزيف المال المستمرّ تفرغه في الأحساء لتمد مخططات الدولة العثمانية في المنطقة بالنماء والازدهار. وعلى ذلك عمد العثمانيون إلى البقاء في الأحساء وملحقاتها، وإلى تنظيم الإدارة بالمنطقة بما يتّفق والظروف السائدة.

انغلقت نجد على نفسها حين سدَّت دونها دروب الأحساء والكويت على السواء. ولم يعد هناك أمل للقوى السعودية المتصارعة في قلب نجد للحصول على السلاح أو الدعم. أخذت نجد تعاني من ويلات الحروب، فكسدت التجارة وشغلت القبائل عن الزراعة والرعي والاستثمار، وانعدم الأمن وساءت الأحوال.

جهدت الفئات المتصارعة في نجد لتتصل بالعالم الخارجي لتصالح العثمانيين، أو لتستعين عليهم بالبريطانيين، وفشلت الجهود جميعها. كانت القوى السعودية تتصارع حتى إذا وهنت قواها تتهادن لتلتقط أنفاسها، وما يلبث القتال أن يثور تارة أخرى. كانت القبائل تنحاز إلى هذه الفئة من المتصارعين ضد الأخرى لتفيد من أسلاب تحصل عليها، أو تعمل على تسوية حسابات قديمة من الأحن والثارات. غدا حكّام الأقاليم السعودية يستظلون بالراية التي تحقّق لهم

الكسب الآني والطموح الشخصي. كان آل رشيد، المرتبطون بـالسعوديـين نسباً ومصاهرة، والذين كانوا دائماً عضدهم في الملمات، مثلهم مثل الآخرين، يساندون هذا النفر ضد الآخر. ناصر هؤلاء الإمام عبـدالله، ثم ناصروا الأمـير سعود، وعادوا يناصرون عبدالله مرة أخرى ليصبح في حايل اماما تحت التحفظ يحكمون من خلاله وباسمه الأرض السعودية عن طريق وكلائهم، ويستخلصون باسمـه زكاة مناطق عـمان. وحين تـوفي الإمام عبـدالله فقدوا المسـوّغ، وكان التنـاقض الصريح الذي انتهى بسقوط الدولة السعودية الثانية. حارب ابن رشيد الإمام عبد الرحمن الذي لم تكن مصادره الشحيحة في المال والسلاح تمكّنه من النصر بينما كان آل رشيد بإمارتهم المستقرة نسبيـاً يظفـرون بالإمـدادات من المؤن والسلاح والعتـاد والتجارة عن طريق علاقاتهم الطيبة بحاكمي الكويت وقـطر وقتها ورضـاء الدولـة العثمانية.

إدارة سنجق نجد

حين وفد العثمانيون إلى ساحل الأحساء وكانوا يقومون بعملياتهم في القطيف بدأوا يشيرون إلى المنطقة بسنجق نجد وهذا التعريف كما دلّت الأيام اللاحقة، تعريف يفتقر إلى الدقة. عينّ العثمانيون متصرفاً للأحساء مقرّه الهفوف تتبعه ثلاثة أقضية هي: قضاء القطيف، وقضاء الأحساء، وقضاء واحة الأحساء. أمّا قطر فقد كانت تابعة لولاية البصرة من خلال قضاء القطيف. كان على والي البصرة أن يعينّ متصرّف الأحساء، كما يفترض أن يعينّ المتصرّف بدوره قائم مقام القطيف. كما وُجد في المنطقة، بطبيعة الحال، قائد عـام للجند. وكـان درك سنجق الأحساء يتألّفون من أربعة بلوكات من الفرسان، وبلوكين من المشاة، وهم يمـثلون الطابور الرابع لولاية البصرة.

أصبح نافذ باشا أوّل متصرّف عثماني لنجد. وحين أراد العثمانيون سحب قواتهم النظامية وعملوا على تنظيم الإدارة في الأحساء عهدوا بالمنطقة إلى بزيغ بن عريعر، شيخ بني خالـد، الذي عيّنـه والي البصرة في صفر ١٢٩١هـ/ مـارس ١٨٧٤م متصرّفاً على الأحساء. وقد وفد ناصر باشا، شيخ المنتفق، إلى الأحساء

بنفسه لإعلان بزيغ متصرّفاً.[1] يقول الوكيل السياسي البريطاني عن بزيغ أنه ليس بالرجل الكفء المؤهل لشغل هذا المنصب القيادي. ويرى الوكيل البريطاني أن كلّ مؤهلات هذا الرجل تكمن في علاقة المصاهرة التي تربطه بناصر باشا الذي له بدوره علاقات واسعة مع رديف باشا. وزاد من مشاكل بزيغ أن أمر تعيينه لم يلق قبولاً من أعيان المنطقة وشيوخها فأرسلوا الاحتجاجات والالتماسات ضد هذا الإجراء. واستغلّ ناصر باشا نفوذه لدى العثمانيين فنكّل بالمحتجين وسجنهم. ولا شك في أن هذا العمل ـ مع بداية عهد التنظيم العثماني للإدارة في المتصرفية ـ قد زاد الطين بلّة وأثار الكثير من المشاكل للعثمانيين في المنطقة.[2] وعينّ العثمانيون، إلى جانب بزيغ، أحمد باشا قائداً للقوات، وخضر أفندي قائم مقام في القطيف.[3]

تقرّر نتيجة لتحوّل الأحساء للإدارة المدنية أن تسحب من الهفوف جميع القوات النظامية على أن يوكل أمر الدفاع عنها إلى بعض «الجندرمة» الذين يعيّنون لهذا العمل من أهل المنطقة. وعلى ذلك عادت إلى بغداد أربع كتائب من المشاة. كانت تلك القوات في حالة بائسة نتيجة للظروف القاسية التي واجهتها في تلك المنطقة لمدة أربعة عشر شهراً متّصلة. وقد قدّرت التقارير خسائر القوات العائدة في الرجال وفي الذخيرة بما يتراوح بين ١٥٪ و٢٥٪ من قوّتها وعتادها. وساد اعتقاد بأن سعود بن فيصل سيتحرك ليتمكن من قضاء الأحساء بعد أن خرج من قبضة العسكريين العثمانيين المجهدة إلى يد بزيغ الواهية إلاّ أن شيئاً من هذا لم يحدث.[4] ويرى المقيم البريطاني في الخليج العربي أن أهم الأسباب التي جعلت العثمانيين يسحبون قواتهم من المنطقة تكمن في أن المكان موبوء، وغير ملائم صحياً، كما أن تكاليف الاحتفاظ بالجند النظاميين كانت أثقل من أن تتحمّل الخزينة أعباءها. وقد رأت السلطات العثمانية في العراق العثماني أن وجود «جندرمة» من الأهالي مع بزيغ يعملون كشرطة لحفظ النظام، هو أمر مناسب وأقل تكلفة من سواه.[5] ولسنا بحاجة إلى القول بأن همة العثمانيين قد فترت لمساندة أمر غزو نجد بخاصة بعد أن أعفي مدحت باشا من ولاية بغداد.

أطلق والي بغداد في خريف هذه السنة سراح عبد الرحمن بن فيصل الذي

أشعل بعدئذ ثورته في الأحساء. وجاء ناصر باشا لقمع الثورة بجنود عثمانيين ما إن أنهوا مهمتهم حتى عادوا باتجاه الساحل متراجعين إلى القطيف ومنها بحراً إلى بغداد.(٦)

عيّن العثمانيون ناصر باشا والياً على المقاطعة الساحلية التي تضم البصرة وتوابعها بما في ذلك متصرفية نجد. وخشي الكثير من الشيوخ المهادنين مغبّة تولي عربي من شيوخ المنطقة منصباً رفيعاً كهذا، وشعروا بأن هذا الأمر سيجعل مهمة العثمانيين في استقطاب القبائل في المنطقة وما جاورها أمراً ميسوراً، وكتبوا بذلك إلى المقيم البريطاني.(٧) وكان ناصر باشا قد أقال حال وجوده في الأحساء بزيغ من منصب المتصرفية وأقام ابنه مزيداً أميراً عليها.(٨) وحين غادر ناصر باشا إلى البصرة ترك مع ابنه مزيد حوالى ٩٠٠ من الجنود النظاميين. واستمرّ مزيد في منصبه حتى عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م حيث تلاه سعيد بك الذي لم يعمر في المنطقة كثيراً فخلفه سعيد باشا ١٢٩٣ - ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٦ - ١٨٧٧م.(٩)

أكتسب سعيد باشا شهرة حسنة كإداري ناجح، وعمل فترة تولّيه المتصرفية لكسب ثقة الأهالي، كما هاجم قلعة لبطن من بطون العماير كانت تنهب منطقة القطيف، وأخذ سعيد باشا من شيوخ العماير رهائن لضمان حسن سلوكهم. ولم يجد في فترة متصرفيته تحدياً إلاّ ما كان من أمر الهواجر الذين كانوا يجنحون إلى تحدّي سلطته أحياناً. وكان عزله في ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م نتيجة لفضيحة ثم لطرد ولي نعمته عبدالله باشا والي البصرة الذي كان قد عيّنه متصرفاً للأحساء.(١٠)

خلف سعيد بك، الذي تلا مزيداً في المتصرفية سلفاً، سعيد باشا، وأصبح متصرفاً للمرة الثانية في المحرم ١٢٩٧هـ/ ديسمبر ١٨٧٩م. غادر هذا المتصرف البصرة في ١٢٩٧هـ/ مايو ١٨٨٠م إلى ساحل الأحساء في البنجاب (Penjab) السفينة البريطانية، وطلب هذا المتصرف إلى روبرتسون (Robertson) قبطان السفينة المذكور أن يوصي المقيم البريطاني روث به خيراً!(١١) وانقضت فترة سعيد بك في متصرفية نجد بنجاح اكتسب به سمعة الإداري الناجح.

خلف الحاج عبد الغني باشا، سعيد بك، على متصرفية الأحساء في عام

١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م وتصف التقارير البريطانية هذا الباشا بأنه متهوّس ضعيف الإدراك. ولعلّه من الطريف أنه أرسل من الآستانة خصيصاً ليملأ هذا المنصب. وفي خريف هذه السنة ١٨٨١م قامت جماعات من العجمان بالهجوم على الأحساء لأخذ حاميتها على حين غرّة. ردّ القائد العسكري العثماني الهجوم، وقتل عدداً كبيراً من تلك المجموعة، وأسر ابن منيخر، وركان، وهما اثنان من أبرز شيوخهم. وقد حمّل قائد الفرقة المتصرّف تبعة هذا الهجوم متّهماً إيّاه بالغفلة والتقصير. والجدير بالذكر أنه في السنة الثانية من حكم عبد الغني باشا تقرّر ضم إقليم الأحساء وغيره من الأقاليم التابعة لولاية البصرة إلى ولاية بغداد مرة أخرى.[١٢] وعُزل عبد الغني باشا من منصبه الذي خلفه عليه سعيد باشا للمرة الثانية وذلك في عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م. إتّبع سعيد باشا سياسته التصالحية القديمة[١٣] واتّخذ له أصدقاء خاصة من أهل العلم والشعراء.

يبدو أن السياسة التصالحية للعثمانيين كانت في أحسن حالتها سياسة ضاغطة بخاصة فيما يخص الجباية. جاء في تقرير في ربيع الثاني ١٢٩٩هـ/ فبراير ١٨٨٢م لقائد السفينة الحربية البريطانية ودلارك (woodlark) أن العثمانيين قد بدأوا يجبون رسوماً من كل السفن والمراكب التي تمرّ بدارين في طريقها للقطيف، كما تُجبى رسوم من نوع آخر على كل المركبات التي تغادر القطيف بحراً حيث يجب عليها أن تستخرج من القطيف جوازاً تدفع عليه رسوماً قدرها روبيّتان، ومن يغفل ذلك يغرّم في دارين ست روبيات أو أكثر. نشط هذا المتصرف في جمع المال. طلب سعيد باشا من ملاك بساتين التمور القريبة من القطيف التي كانت تنتج فيما مضى ٢٠٠٠ وزنة من التمر، ولا يزيد إنتاجها بعد أن تدهور الإنتاج نظراً لحالة الاضطراب السائدة عن ٥٠٠ وزنة، أن يدفعوا الرسوم على أساس حساب الإنتاج القديم. عانى أهل المنطقة ضغطاً اقتصادياً عنيفاً، وقدّموا الالتماسات إلى الأحساء لإعادة النظر، وبدأت المنطقة تموج بتيارات تحتية من الثورة المكبوتة. كتب وكيل البحرين البريطاني بأن باشا الأحساء يجمع المال بكل الطرق الممكنة دون النظر في شرعية جبايته، وأنه يصرّ على تحصيل كل المتأخرات ولا يقبل عذراً، واتهمه بالرشوة كذلك. كما قال الوكيل أيضاً بأن المتصرف قد سجن أمين خزينة الأحساء

بعد أن حرّض بعض الأهالي على التبليغ عن تجاوزاته المالية، واتّهم الوكيل المتصرف بأنه قد أقدم على ذلك لتسوية حسابات قديمة مع هذا الرجل.(١٤)

أمّا قائم مقام القطيف، فقد جمع في عهد هذا المتصرف كل تجار المنطقة وتحدّث معهم في شأن الرسوم المفروضة على رؤساء قرى المنطقة، وطلب إليهم أن يؤدوا متأخراتها. وتملّص التجار من هذه المهمة التي لا علاقة لهم بها فاتهمهم القائم مقام بالعمل على تهريب رؤساء القرى إلى خارج الأحساء. خرج الحاكم بعد هذا في ستين جندياً يجر مدفعاً إلى قرية من قرى القطيف فوجد القرية خاوية على عروشها. وعلى هذا أرسل باخرة حربية لتجوب مياه القطيف لتقبض على كل فرد وتتحقّق من هويته على أن لا يغادر إلّا بعد أن يحصل على جواز مغادرة بعد دفع رسوم قدرها ثلاث روبيات.

كانت النتيجة هروب الكثير من أهل هذه القرى إلى البحرين رغماً عن الحصار البحري العثماني غير المحكم لساحل الأحساء. كتب الوكيل السياسي البريطاني في البحرين في ١٦ ربيع أول ١٢٩٩هـ/ ٥ فبراير ١٨٨٢م إلى المقيم روث يخطره بوصول بعض سكان هذه القرى إلى البحرين بواسطة مراكب الصيد، وأضاف بأنه علم منهم بأنه هنالك دفعات أخرى من المهاجرين في الطريق. وعبّر الوكيل عن مخاوفه من أن يلاحقهم باشا الأحساء أو قائم مقام القطيف إلى البحرين ويطلبهم من الشيخ. وأفاد الوكيل البريطاني أن بعض هؤلاء اللاجئين سيتوجهون إلى البصرة وبغداد لتقديم الشكاوى والالتماسات. وفي خطاب آخر له في ٢٦ ربيع أول ١٢٩٩هـ/ ١٥ فبراير ١٨٨٢م يسرد الوكيل السياسي سر غضب القائم مقام المفاجىء فيقول بأن قائم مقام القطيف كان قد طلب إلى رئيس إحدى القرى أن يشرف على رعاية بعض بساتين التمور العائدة إلى الحكومة من أملاك آل سعود. وطلب الأخير بدوره إلى بعض أهل القرية أن يقوموا بهذا العمل دون مقابل، فأهمل هؤلاء، ولم تعط الأشجار إلّا ١٠٪ من الإنتاج الذي كان عليه الحال سالفاً. وكان القائم مقام قد أقام حساباته على الإنتاج السابق،وكانت المشكلة. ويضيف خطاب الوكيل بأن أصحاب البساتين الخاصة لم يعانوا كثيراً فقد استطاعوا عن طريق الرشوة أن يخلصوا أنفسهم من غضب المحصّلين.

كتب سعيد باشا إلى أهالي منطقة القطيف رداً قاسياً على التماساتهم التي وجهوها له طالباً إليهم العمل بسرعة على الالتزام بأوامر القائم مقام الذي يقوم في هذا الصدد بتنفيذ أوامر المتصرّف لتسوية حسابات الحكومة وتحصيل مستحقاتها، وهدّد بأن هروبهم إلى البحرين لن يغني عنهم شيئاً.(١٥) وفي سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م فصلت أقاليم البصرة بما فيها الأحساء فصلاً نهائياً عن بغداد وأصبحت ولاية مستقلة(١٦) مما زاد في الاضطراب المالي والإداري.

خلف نزيه بك، سعيد باشا في صفر ١٣٠٣هـ/ نوفمبر ١٨٨٥م وسار على سياسة سلفه حتى سلّم المتصرفية في جمادى الثانية ١٣٠٣هـ/ مارس ١٨٨٦م لصالح باشا. وفي أيّامه بني السرداب الموجود في قصر الكويت في الهفوف.(١٧) في ١٨٨٧م جاء رفعت باشا خلفاً لصالح، وظل رفعت على خلاف مع قائده العسكري الذي كان يسيء معاملته ويسبّه علناً فيما يقال. وخلال مدة حكمه قام نافذ باشا، والي البصرة، بزيارة للقطيف والعقير،(١٨) وانتهت متصرفية رفعت في جمادى الثانية ١٣٠٦هـ/ يناير ١٨٨٩م حيث عيّن عاكف باشا ليملأ هذا المنصب. بدأ عاكف باشا عهده بإجراءات قصد منها تثبيت السلطة العثمانية في الأحساء وقطر التي ذهبت هيبتها لسوء الإدارة، واختلاف الإداريين، وتفشي السرقة والرشوة، وازدهار كل ضروب الفساد الأخرى. حقق رفعت مع قائم مقام القطيف وطرده من منصبه، كما حقّق في الكثير من قضايا السرقات وحكم فيها، وأوقف الشغب الذي يحدثه بعض الأهالي في البحار. وأقام عاكف في ١٨٨٩م الحاميات في رأس تنورة والبدع، ووضع فيها رجالاً لمراقبة السواحل وضبطها. وأنشأ عاكف باشا شرطة من الهجانة جعل لها نقاطاً عسكرية ثابتة في مدينة الهفوف وعلى الساحل أيضاً. وقد استطاع عاكف أن يقيم سبع نقاط من هذا النوع أغنت عن «الشرطة الراكبة» التي كانت تصحب القوافل. وحاول الباشا إقامة نقاط ثابتة للجمارك في دارين، كما حاول تعمير الزبارة والعديد.

جهد عاكف باشا في مد أسلاك البرق بين القطيف وبعض المناطق الأخرى، واستخلص قسراً تكاليف هذا المشروع من المواطنين. واستمر هذا الباشا يؤدّي

مهام منصبه حتى شوال ١٣٠٨هـ/ مايو ١٨٩١م حيث حل محله سعيد باشا للمرّة الثالثة متصرفاً للأحساء.(١٩)

حاول سعيد باشا أن يخفف من سياسة سلفه التعسفية، وأن تسود روح التصالح علاقاته مع البدو، فأعاد إلى رؤسائهم المعاش الذي كانوا يتقاضونه من الحكومة، والذي كان سلفه قد أمر بوقف صرفه. وسار سعيد باشا على سياسة وفاق وتهادن، وعمل على التحقّق من إجراء العدل، وتنظيم الإدارة، وتدعيمها بالمدنيين والعسكريين. ويفيد تقرير صادر عن وكالة البحرين بأنه ـ انطلاقاً من هذه السياسة ـ فقد عُيِّن موظفون جدد في إدارة القطيف والعقير وقطر. وأمن البحر في المنطقة الخاضعة للسيادة العثمانية إلاّ من بعض تجاوزات من قبيلة بني هاجر قرب القطيف، أمّا الطرق التي تربط بين العقير والأحساء فقد أصبحت آمنة تماماً في عهد هذا المتصرّف. وأفاد تقرير من شيخ البحرين صادر في جمادى الثانية ١٣١٠هـ/ديسمبر ١٨٩٢م بأن إدارة الأحساء قد فرضت رسوماً على القوارب البحرانية التي تغشى المنطقة.(٢٠)

زار والي البصرة في ربيع الثاني ١٣١٠هـ/ أكتوبر ١٨٩٢م المنطقة حيث وصل إليها في سفينتي مدفعية من البصرة حتى نزل القطيف. وقد صحب الوالي معه فيلقاً من المشاة. وفي العقير اعتقل الوالي القائم مقام وأرسله مصفداً إلى الأحساء، وعيّن قائم مقاماً آخراً في مكانه. وكان هذا القائم مقام متفائلاً، فأصدر حال تعيينه بياناً جاء فيه أن جزر البحرين وعمان من توابع الدولة العثمانية، كما قام بتوزيع الأعلام العثمانية على قوارب البحرين التي وُجهت لرفضها. وخشيت حكومة الهند من هذه المعمعة السياسية والعسكرية في الأحساء، وعبّرت للندن عن مخاوفها من أن توجه القوات العثمانية المرافقة لوالي البصرة لغزو البحرين، وأبرقت لندن بأن الباب العالي أنكر مجدّداً كل مخطط له على تلك الجزر. ويبدو أن هذه القوات قد جاءت إلى المنطقة لضرب بعض القبائل لسطوها على قافلة من قوافل التجارة.(٢١)

كان العقير هو ميناء المنطقة الوحيد الذي ترد إليه السلع من الهند وفارس

والبصرة وعمان وغيرها، والذي تُحمل إليه صادرات الأحساء من التمور وغيرها.

تبعد الهفوف عن العقير مسافة يوم وليلة بسير القوافل. نظمت السلطات العثمانية في هذه الفترة حراسة هذه القوافل، وكانت ترسل مع كل قافلة قوة عسكرية تحميها من غوائل البدو، كما قرّرت لخروج القوافل من الأحساء يوماً معيّناً كل أسبوع.(٢٢) وتفيد التقارير الواردة إلى المقيمية البريطانية في الخليج في ذي القعدة ١٣٠٩هـ/ مايو ١٨٩٢م أن إحدى هذه القوافل كانت في طريقها من الأحساء إلى القطيف فهاجمها بدو المناصير(٢٣) وبنو هاجر وآل مرة في يوم ١٤ مايو وتمكنوا منها رغم أنها كانت مخفورة بخمسة وعشرين جندياً عثمانياً. استولى هؤلاء من تجار القافلة على مبلغ خمسين ألف روبية نقداً، كما تمكنوا من نهب سلع قدّرت قيمتها بما يربو على عشرين ألف روبية، كما تمكنوا من السطو على أربعين من الحجاج كانوا في صحبة تلك القافلة. وفرّ أولئك الأعراب بعد أن خلفوا وراءهم ١٥ قتيلاً، و١٠ جرحى، وساروا بنهبهم إلى قطر ليبيعوه هنالك. وحين وصلت قوات الباشا إلى المنطقة قامت بشن غارات على مواطني تلك القبائل ولكنها لم تظفر بطائل. ونظم الوالي بعد هذا حرساً من العرب المحليين لمصاحبة القوافل، وأشار على المتصرّف أن يستبقي هذه القوة في الأحساء ليستعملها ضد مَن يحاول الخروج على السلطة أو العبث بالنظام.

تجوّل والي البصرة في المنطقة فسار في رجب ١٣١٠هـ/ فبراير ١٨٩٣م في صحبة جنوده الذين أتى بهم من البصرة، و٣٠٠ فارس أتوا عن طريق الكويت، وقصد إلى البدع. وكان الوالي قد أصدر تعليماته لسفينتي المدفعية أن تبحرا إلى هنالك وتكونا في انتظاره. ورجع والي البصرة من البدع فزار القطيف في طريقه إلى البصرة. وقد اهتم الوالي والمتصرّف بالرأي العام في المنطقة فحين اشتكى أهل القطيف من القائم مقام أقاله الوالي من منصبه في المحرم ١٣١١هـ/ يوليو ١٨٩٣م وأرسل بدله آخر هو رؤوف أفندي الذي تسلّم مهام منصبه في رجب ١٣١١هـ/ يناير ١٨٩٤م وقد اشتهر الأخير بدأبه ونشاطه.(٢٤)

لم تنقطع اضطرابات البدو رغم هذه الإجراءات وقد تسبّبت الخلافات التي

قامت في ذي الحجة ١٣١٠هـ/ يونيو ١٨٩٣م بين عرب بني هاجر وآل مرة والمناصير في تعويق طرق التجارة. وعلى ذلك اضطرّ المتصرف إلى إضافة حرس نظامي إلى حرس القبائل الذي يكلّف بحراسة القوافل. وفي شعبان ١٣١١هـ/ فبراير ١٨٩٤م سطا بعض عرب الدواسر على قافلة في طريقها من الهفوف إلى القطيف ونهبوها ولكنهم ردوا المنهوبات حين علموا بأن أحد أفراد قبيلتهم كان من الحرس المكلفين بحماية القافلة.(٢٥)

استقال سعيد باشا من منصبه في شوال ١٣١١هـ/ أبريل ١٨٩٤م وخلفه إبراهيم باشا الذي انتدب من الحديدة خصوصاً ليملأ هذا المنصب. أثقلت الضرائب في عهد هذا المتصرف كواهل الأهالي. أصرّ المتصرف على جباية الأموال في مواقيتها. وزاد الأمر سوءاً الانخفاض الذي طرأ على قيمة الفضة والذهب وقتها. وخرج بعض الأعيان إلى البصرة يشكو الحالة الاقتصادية المتردية في الأحساء. وتكوّنت لجنة خاصة للنظر في هذا الأمر ولم تصل إلى قرار يخفّف ضائقة المواطنين الاقتصادية. وبدأت أفواج المهاجرين من الأحساء تتوجه منذ رجب ١٣١٢هـ/ يناير ١٨٩٥م إلى البحرين، وقد بلغت أعداد أول فوج منهم حوالى ١٣٠ رجلاً. كما تفيد التقارير بوصول أعداد متزايدة في فبراير. وأصدر المتصرف في مارس بياناً جاء فيه أن «الأحوال الاقتصادية في طريقها إلى التحسّن، وأن السنة التالية ستشهد تقدّماً اقتصادياً مطّرداً. كما قام الباشا بعدّة إجراءات لتحسين الوضع المالي منها طرد جابي الضرائب في القطيف. وبدأ البعض يعود من البحرين إلى وطنه انتظاراً للإصلاحات المالية والإدارية الموعودة.

سار الباشا بجنده في حملة على العجمان الذين تلكّأوا في دفع العشور. وشكا العجمان بأنهم لن يستطيعوا أن يدفعوا لأنهم تعرّضوا لغزو من مطير حديثاً أضعف من مقدرتهم المالية، كما أفادوا بأن الغارة التي شنّها محمد بن رشيد أخيراً قد أنهكت مصادرهم الاقتصادية تماماً. وقام الباشا، يساعده العجمان، وبعض قبائل أخرى، بالهجوم على مضارب مطير، واستولى على عدد من سوائمهم.(٢٦)

جاء سعيد باشا متصرفاً للمرة الرابعة خلفاً لإبراهيم باشا في العام ١٨٩٦م،

واستمر في منصبه حتى أعفي في نهاية عام ١٩٠٠م. كتب جاسكن الوكيل السياسي البريطاني في البحرين في ٢١ رمضان ١٣١٨هـ/ ١١ يناير ١٩٠١م بوصول سعيد باشا إلى الجزيرة بعد أن أقيل من منصبه كمتصرف للأحساء وأشار إلى أنه اضطر للبقاء في البحرين لفترة لأن باخرة البصرة قد تحرّكت في يوم وصوله نفسه. زار جاسكن سعيد باشا المتصرّف السابق للأحساء في ٦ يناير «للتحية والمجاملة ولاستجلاء بعض المعلومات بالطبع». عرف جاسكن من الباشا أنه تولّى متصرفية الأحساء ثلاث مرات قبل هذه المرة، كما قام بخدمة حكومته كمتصرف في مناطق متعددة من العراق التركي. ويردّ جاسكن أمر طرد المتصرف من الخدمة للمؤامرة التي حاكها ضده قائد القوة العسكرية في الأحساء الذي وصفه سعيد بأنه «تركي جاهل لا يتعاطف مع العرب المحليين». قال وإن هذا الأمر كان محك الاختلاف بينهما. ويصف تقرير جاسكن سعيداً بالتواضع لأنه ليس «من أصل تركي» فهو عربي من بغداد!. ويعتقد سعيد بأن قائد القوة قد اتّهمه لدى الآستانة بأنه لم يعمل على وقف الاتّجار بالسلاح في المنطقة، وأن الأهالي قد أصبحوا مسلحين بأسلحة تضارع أسلحة القوة العثمانية المحلية التي ستجد منهم مقاومة عنيفة إذا حاولت العمل ضدهم. وفي يوم ٨ يناير ردّ الباشا الزيارة لجاسكن، وتحدّث في العلاقة الطيبة التي تربط بين الحكومتين، وسأله جاسكن عمّا تردّد من أن الدولة العثمانية قد أعطت لشركة ألمانية حق امتياز لصيد اللؤلؤ في مناطق بعينها من الخليج. وردّ الباشا بأن أصل هذه المسألة يعود إلى تسع سنوات سابقة حين قدمت شركة ألمانية تطلب امتيازاً إلّا أن طلبها قد رفض «لأنه ليس لتركيا حق شامل في أي ساحل من سواحل صيد اللؤلؤ، كما أن العرب سيقاومون كل عمليات صيد اللؤلؤ التي تجري بشكل علمي». عبّر الباشا في هذه الزيارة عن اعتقاده بأن وجود جنود عثمانيين نظاميين في حاميات الأحساء وقطر هو خطأ شنيع ترتكبه الدولة وذلك نسبة للصعوبات الأيكولوجية التي تعترض هؤلاء ويعتقد الباشا أنه من الأنسب أن توكل مهمة الأمن إلى عدد من «الهجانة» المحليين لكي يتم للحكومة بهذا العمل حريّة التحكّم في حجم أفراد هذه الفرقة حسب الضرورة، كما ستكسب الحكومة حرية تشكيل القوة من القبائل الموالية لتزيد في ولائها. وعبّر الباشا عن اعتقاده بأنه يمكن

ضبط العرب المحليين بهذا الأسلوب، ويتمّ بذلك تحجيم القوة العثمانية النظامية العاملة في المنطقة.[٢٧] وهكذا كـان دأب الإداريين العثـمانيين، لا شيء لـديهم يخفونه عن الإداريين البريطانيين.

خلف سعيد باشا على متصرفية الأحساء القـائدُ العسكـري الذي اختلف معـه ، وبقي ذلك القـائد في منصبـه حتى جمـادى الثـانيـة ١٣١٩ هـ / سبتمبـر ١٩٠١م، ثم عُينً طالب باشا ابن نقيب البصرة لمتصرفية المنطقة. ولم يصل طالب إلى مقر وظيفته إلاّ في ربيع الثاني ١٣٢٠هـ/ يونيو ١٩٠٢م، فتولّى تصريف مهام المتصرفية[٢٨] في هذه الأثناء توفيق بك، أحد العسكريين.

قام المتصرف الجديد بإجراءات لضبط متصرفيته منهـا إقالـة قائـد القوات العسكرية في الأحساء حين كثرت الشكاوى ضده من أهل الأحساء، ومن الشيخ قاسم قائم مقام قطر.

كانت منطقة الأحساء في الفترة ١٣٢٠ ـ ١٣٢١هـ/ ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣م تموج بالاضطرابات. ولم يكن خط القوافل بين العقير والأحساء آمناً حيث هاجم عرب المنطقة في فترات متقطعة خلال هذه الفترة ثلاث قوافل، وتمكّنوا منها ونهبوا وقتلوا الكثير من أفرادها.[٢٩] ولعلّ خبر القافلة التي تركت العقير في ١٩ محرّم ١٣٢٠هـ/ ١٩ أبريل ١٩٠٢م يدلّنا على مدى الاستهتار الذي وصلت إليه قبائل المنطقة في تعاملها مع السلطات العثمانية. طلب زعماء آل مرّة وزعماء بني هاجر من السلطات العثمانية زيادة في معاشاتهم، ولم يجابوا إلى ذلك فبيّتوا أمراً، وهاجموا هذه القافلة في فهدية.[٣٠]

كان لهذه القافلة حـرس مشكـل من حوالى ١٢٠ من الفرسـان، و٨٠ من الـرديف، و٣٠ من المشاة وبـالرغم من هـذا استطاع آل مـرة، والصفـران من العجمان، وعرب بني هاجر، أن يهاجموا هذه القافلة المسلّحة ويقضوا على رجالها تماماً حتى أن مَن نجا من القتل من أفرادها أصبح أسيراً. أراد العرب أن يقايضوا بهؤلاء الأسرى الحكومة على سجنائهم في الأحساء.[٣١] وخرج طالب النقيب، بعد أن وصلته الإمدادات العسكرية من بغداد، وأغار على فريق من آل مرّة وهم على

ماء يسمى الزرنوقة، وقتل منهم، ونهب مواشيهم وعاد بها إلى الأحساء. وبدأ طالب يتخذ من الإجراءات الأمنية ما أرهب به القبائل وأصبحت القوافل بعد هذا تسير آمنة من العقير إلى الأحساء ومعها حرسها من رجال القوافل المختلفة ومن الجند النظاميين(٣٢).

عزل طالب النقيب في ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م ليحلّ محله لفترة وجيزة فائق بك الذي طرد من منصبه في نوفمبر ١٩٠٤ ليحل مكانه آخر هو محمد نجيب أبو سهيل. وفي عهد هذا المتصرف اتّسعت دائرة الاضطرابات التي بدأها العجمان منذ عام ١٨٩٥م على طرق التجارة. وشاركت قبائل آل مرّة والقبائل الأخرى في الاضطرابات، واتّسع نطاقها حتى شمل كل المنطقة التي يسيطر عليها العثمانيون وامتدت الاضطرابات في يونيو من ذلك العام حتى أغلقت طريق نجد الكويت ولهذا تقدّم ابن رشيد يطلب إلى حكومة الأحساء تأمين طرق التجارة لانقطاع التجار عن نجد والقصيم، وأعلن عن رغبته في ملاحقة هذه القبائل وإعادة السلم إلى المنطقة في حالة عدم تمكّن الحكومة العثمانية من هذا الأمر.(٣٣) وقد استمرّت حالة الاضطرابات هذه تلف المنطقة في دوّامة لا تهدأ حتى تمكّن الأمير عبد العزيز ابن عبد الرحمن الفيصل من الأحساء. وقد توالى على متصرفية الأحساء في الفترة الأخيرة من العهد العثماني في الأحساء عدد من المتصرفين لم يتمكنوا من السيطرة على الأحداث ولم يكن لهم همّ سوى إثراء أنفسهم.

كان في الأحساء مؤسسات دستورية كمجلس اللواء، ومجلس القضاء، ومجالس القرى، ولكنها كانت مؤسسات صورية عاجزة عن الأداء الصحيح. نظمت الأعمال الحسابية، وجعل لها محاسب جي، وقامت وظائف أخرى مثل مدير التحريرات، ومأمور النفوس، ومدير الناحية، والسنجق، والقاضي، والمفتي، والمختار، ومجالس لهؤلاء وأولئك جميعاً. كانت كل تلك المجالس والمناصب تفتقر إلى الضبط، وما كان الكثير من الأهالي وغيرهم يصلون إليها إلاّ بعد دفع الرشاوى والأتاوات. بل إن المسؤولين أنفسهم ما كان يمكن لهم أن يحافظوا على مواقفهم إلاّ بالرشوة والمحسوبية.

لم تكن الإدارة العثمانية في الأحساء إدارة ناجحة. ولعلّ فشلها يعود جزئياً إلى أسباب تتصل بالحكومة العثمانية وإدارتها العجوز التي عفا عليها الزمن، ويعود بعضها إلى المتصرفين أنفسهم، والموظفين العاملين في المنطقة. كما يعود قدر كبير منها لظروف المنطقة البيئية والعوامل الطبيعية والتركيب السكاني. أمّا أصل الفشل فيعزى إلى انعدام الهدف، أو قل إلى عدم وضوح الهدف الذي احتلّت الدولة العثمانية الأحساء لأجله ومحاولة الانتشار غير المبرمج إلى قطر والبحرين. فهل احتلّت الدولة المنطقة لتعود بها إلى طاعة الإمام عبدالله، أم لتحفظ الأمن في المنطقة المجاورة للحرمين الشريفين، أم لتصيب من مواردها التي ما كانت تكفي أهلها، أم لتحقيق طموح بعض الولاة وغيرهم، أم لتسوية حساب قديم بين الدولة العثمانية والسعوديين، أم لكل هذا وذاك؟ هذا ما لا نعرفه، ولكننا نعرف أن السلطات العثمانية كانت تجهله أيضاً. وعلى ذلك لم يدرك المتصرفون الهدف من الإدارة والحكم. ولعلّه من العسير أن نتناول هذه العوامل تفصيلاً فليس هذا مكانها ولكننا مع ذلك نستطيع أن نورد بعض الملاحظات على ضوء ما أوردناه هنا.

لم تعتمد الدولة في تعيينها للمتصرفين الكفاءة أو العلم ولا المكانة القبلية أو الوجاهة الاجتماعية. وبالرغم من أن الكفاءة الشخصية والعلم هما جناحا النجاح في إدارة الدولة العصرية إلاّ أننا حين نفترض الأسوأ ونخرج بالدولة العثمانية في هذا الوقت عن هذا الإطار نرى أنها لم تستفد في المنطقة من المكانة القبلية ولا الوجاهة الاجتماعية في الإقليم. تهيّأت لهذه الدولة فرص كثيرة للاستفادة من آل سعود المتنازعين على الإمامة ولكنها لم تسطع أن تفيد من خدماتهم إنما أهدرت طاقتها هباء حين حاربتهم وأدخلت المنطقة في أتون يغلي بالمشاكل. لم تحاول تلك الدولة أن تفيد من الإمام عبدالله الذي وثق فيها ودعاها وأرسل لجندها الأدلاّء الذين ساقوهم عبر دروب المنطقة بل استعدته ولم تؤمن روعه ليعود إليها. كما أنها لم تفد من الأمير سعود حين خطب ودها، وتجاهلت الإمام عبد الرحمن حين وفد إليها في الأحساء بعد هزيمته في المليدة. إستعانت الدولة العثمانية ببزيغ من بني خالد في منطقة كانت لبني خالد إلاّ أن تلك القبيلة لم تكن في هذا الوقت أقوى عنصر في سياسة الأحساء، كما استعانت في إدارتها بشيخ من شيوخ المنتفق ليس له

جذور قبلية قوية في المنطقة، وليس له من سنّه أو خبرته ما يؤهّله لهذا المنصب، وولدت بذلك تخوّفاً عاماً من أن تمدّ قبيلة مجاورة سلطتها ونفوذها على المنطقة. ولم تستعن الدولة بقاسم آل ثاني صاحب النفوذ الكبير بين القبائل، بخاصة بني هاجر، استعانة كاملة بل اكتفت به قائم مقام في قطر، ولم تعمل لمساندته حتى في وظيفته تلك. ونستطيع أن نقول ـ دون أدنى قدر من التردّد ـ إن قاسماً كان من أكثر الشيوخ في المنطقة إخلاصاً وصبراً على كل المشاكل التي أنزلتها به الدولة، ولم يجد منها الدعم الذي كان يمكن أن يعود على الإدارة بالقوة وحسن السياسة.

تميّزت سياسة الدولة العثمانية في الأحساء بعدم الاستقرار حيث نجد تبدّلاً دائماً للوجوه في منصب المتصرفية. ويبدو أن هذا الاضطراب الإداري كان نابعاً من سوء اختيار السلطات العثمانية للمتصرفين الذين يعينون لهذا المنصب لعلاقتهم مع مراكز القوى التي تملك حق تسمية المرشح لهذا المنصب في الآستانة أو في بغداد، وكثيراً ما كانت مراكز القوى في هذه الدولة مضطربة غير مستقرّة وانعكس هذا بالتالي على إدارة الأحساء. لم تكن هناك مؤسسات دستورية تحكم العلاقة بين والي بغداد أو البصرة وبين متصرّف الأحساء كما انعدمت الضوابط التي تحكم العلاقة بين المتصرف وقائد القوة العسكرية الموجودة في المنطقة حيث يستطيع كل منهما بعلاقته الشخصية مع مراكز القوى في عاصمة الخلافة أو في بغداد، أن يقصي الآخر عن موقعه. أمّا إذا لم يحدث ذلك فكثيراً ما يحدث اختلاف بينهما في وجهات النظر فيعصى القائد العسكري أمر المتصرف بالخروج لتأديب بعض القبائل، أو يخرج القائد العسكري من تلقاء نفسه لضرب قبيلة ما. وتسبّبت هذه الأمور في فوضى إدارية شلت أجهزة الإدارة في المنطقة عموماً. وينسحب عدم استقرار السياسة الإدارية في الدولة على معاملتها لشيوخ القبائل في هذه المنطقة. تركت علاقات المتصرف مع القبائل دون ضوابط في أيدي المتصرفين. كان بعض المتصرفين يعطي الشيوخ المعاشات، والبعض الآخر يزيدها أو ينقص منها بينما أوقف بعضهم هذه المعاشات تماماً.

نخلص إلى أن الدولة كانت مسؤولة في الأساس عن الفشل الإداري في المنطقة لعدم وجود مؤسسات ضابطة أو قوانين محدّدة تحكم الإدارة. ولم تكن

للدولة فلسفة معيّنة أو أهداف ثابتة واضحة تعمل الإدارة في خدمتها فقد كان الأمر كله مغامرة غير محسوبة العواقب زادت في اضطراب المنطقة وانشغل المواطنون بالأحداث عن السعي في الأرزاق.

أمّا الأسباب المتعلقة بالمتصرفين وبالموظفين والجند العثمانيين فهي كثيرة ومتعددة. نجد بعض المتصرفين يوصي قائد سفينة بريطانية ليزكيه عند مقيم الخليج البريطاني، ومتصرفاً آخراً يخوض في سياسة دولته مع وكيل سياسي بريطاني، وليس أدلّ على هذا من إحساس هؤلاء المسئولين بالصغار. وينعكس هذا الإحساس على تصرفاتهم الشخصية فكم من المتصرفين اتّهم بالرشوة واستغلال المال العام لمنفعته الشخصية. كان أغلب هؤلاء يسعون إلى جمع المال لتسيير شؤون الإدارة وشؤونهم الخاصة غير عابئين بوجوه جمعه حيث يطلب البعض من الأهالي أن يؤدّوا ضريبة تخصّ بعضاً آخراً ويمسكونهم بجريرتهم. أدّت سياسة المتصرفين المالية إلى إفقار المنطقة وإفلاسها وهجرة الكثير من المواطنين إلى البحرين حيث حلّوا في منطقة يسيطر عليها النفوذ البريطاني ووجدوا فيها من الأمن على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم ما لم يجدوه في منطقة يفترض أنها تابعة لخليفة المسلمين. ويضاف إلى هذا الإفلاس الأخلاقي الذي ميّز الكثير من المتصرفين، ذلك التناقض بين الإحساس الغامض الذي يربطهم بمشاعر الرابطة الإسلامية مع دولة الخلافة والإحساس الآخر الذي يجرّهم إلى عرقهم دون التعاطف مع دولة الخلافة التي سدرت بدورها في مجال الطورانية. فحين تقع التناقضات نتيجة لغياب الضوابط يعتذر بعضهم بأن حقّه قد هضم لأنه ينتمي إلى هذا العرق أو ذاك. وحين نزيد إلى هذا الشعور القوي عند العرب والترك في المنطقة الفساد الأخلاقي العام الذي سمح به المتصرفون حتى أصبحت القطيف والهفوف وبعض القرى الأخرى وكأنها ماخور كبير، لتبيّنا ضعف الوازع الديني عند هؤلاء وهو العنصر الذي عصف بالإدارة تماماً. كان في القطيف وحدها ثمانون حانوتاً لبيع الخمور، وسبعون منزلاً للمومسات قرب السوق، كما تفيد التقارير الراجعة إلى عهد متصرفية إبراهيم باشا.[٣٤] كما تفيد تقارير المقيمية البريطانية حين قبضت على الباخرة التجارية سنبي (Sinpe) المسجلة تحت العلم البريطاني اعتقاداً منها بأنها تحمل مواد حرب

للدولة العثمانية وحاميتها في الأحساء بأن الباخرة لم تكن تحمل إلّا مؤناً وعدداً من العاهرات اللائي جيء بهن من بغداد ليستقرّن في القطيف.(٣٥) فأي ولاء يستطيع أن يحمله المسلمون في المنطقة لإدارة هذا شأنها خاصة وأن المواطنين كانوا قد اعتادوا سلفاً على الإدارة التي كان الإسلام النقي من الشوائب أهم محرّكات ولاتها. ولا يعكس هذا الانحلال الأخلاقي في اعتقادنا سوى روح المتصرفين ولا نستطيع أن نحمل وزره للدولة.

كانت الظروف البيئية والعوامل الطبيعية والتركيب السكاني وما إليها من العوامل الخاصة بأيكولوجية المنطقة تتطلب الجندي الذي يؤمن بالجهاد والاستشهاد، وكيف للجندي أن يؤمن بما كفر به القائد؟ ممّا لا شك فيه أن طبيعة المنطقة بسهولها الصحراوية المترامية، وبحرِّها اللافح، ورطوبتها القاتلة، لم تكن تصلح لإقامة جند نظامي من غير أهل المنطقة فيها لفترات طويلة خاصة إذا لم يكن هنالك وازع يدفع هؤلاء الجند للبقاء. كانت أخبار الكوليرا والحميات المختلفة وغيرها من أمراض المنطقة المستوطنة والطارئة في ذلك الوقت كثيرة ومتواترة. إنتشرت الكوليرا في الجند العثماني حال وصوله رأس تنورة غازياً باسم السلطان. ونستطيع بعدئذ أن نتتبع أخبار الكوليرا والحميات في الكثير من التقارير اللاحقة. ويمكن في هذا الصدد أن نشير إلى التقرير الوارد في صفر ١٣١١هـ/ أغسطس ١٨٩٣م، الذي يفيد بانتشار الكوليرا في القطيف، وبأن معدّل الوفيات، في المدينة كان في خلال هذا الشهر يتراوح بين ١٥ ـ ٢٠ شخصاً في اليوم، وارتفع قبل أن تنقشع حدة المرض إلى ٥٠ ـ ٦٠ شخصاً في اليوم الواحد.(٣٦) وحاول الكثير من الولاة في المنطقة محاربة المرض بالنظافة فاهتموا بكنس الشوارع ورشها بالماء، كلّما استدعى الأمر ذلك. ولا شكّ في أن هذا الإجراء قد خفّف من حدة الأمراض وساعد على الحد من خطورتها. غير أننا لم نسمع عن مستشفى واحد أقامه العثمانيون لعلاج المواطنين في المنطقة.

لم تكن الأوبئة وحدها هي المسؤولة عن المتاعب التي سبّبتها البيئة للأتراك وعانت المنطقة من سنوات جدب وشح زادت في مشاكل القبائل فزادوا في مشاكل العثمانيين، وزادت حدة النهب والسلب ومهاجمة الحواضر. كما عانت الحاضرة

بدورها، وضعف اقتصادها، وأكل المواطنون ما لا يخطر على بال بشر. وكان لهذه الندرة انعكاساتها على معسكرات الجند وتمويناتهم التي كانت غالباً ما تأتي معلبة فاسدة من العراق.

كان انقسام المنطقة بين عدد من القبائل المتنافرة التي لا يجمع بينها ـ عادة ـ هدف مشترك من أهم الأمور التي أدّت إلى سوء الإدارة. ولم يحاول العثمانيون أن يجدوا هدفاً مشتركاً يجمعون حوله هذه القبائل. ونتجرأ لنقول أنهم قد زادوا الشقاق حدة حين عمل بعض المتصرفين بالاستعانة بقبيلة ضد قبيلة أخرى.

وكان الانتشار غير الهادف تجاه قطر والبحرين وغيرهما من المشيخات من أهم الأمور التي قصمت ظهر الإدارة العثمانية في الأحساء، وأقعدتها عن تحقيق غاياتها.[٣٧] زرعت الإدارة البريطانية في الخليج العقبات أمام الإدارة العثمانية في الأحساء وكانت الإدارة البريطانية تعمل في تناغم مع رئاستها المتمثلة في حكومة بومباي التي تمتثل لأوامر حكومة الهند التي تعمل بدورها بوحي من إرادة الحكومة في لندن، كل ذلك ضمن إطار مرسوم، وهدف محدد لا غموض فيه ولا لبس.

اتصال الأمير سعود بالبريطانيين

بعد معركة «البرة» بين سعود وعبدالله في ١٧ جمادى الأولى ١٢٨٨هـ/ ٣ أغسطس ١٨٧١م التي حاز فيها سعود نصراً مؤزراً على أخيه[٣٨] حاول سعود أن يتّصل بالبريطانيين في الخليج علّه يظفر بتحالفهم ضد العثمانيين. كتب سعود في جمادى الثانية ١٢٨٨هـ/ سبتمبر ١٨٧١م إلى المقيم البريطاني في الخليج العربي يشكو من التحرّكات العثمانية فوق مياه الخليج. واحتجّ سعود لدى المقيم بأن حماية السلام فوق البحار هو شأن من شؤون الحكومة البريطانية ما فتئت ترعاه. وانتهى خطاب سعود إلى طلب وساطة الحكومة البريطانية بينه وبين الحكومة العثمانية. أحال المقيم الخطاب إلى حكومة بومباي التي أيّدت وجهة النظر هذه وعلّقت على الخطاب بأن هذه الحملة بتحركها بحراً تقلل من النفوذ البريطاني في المنطقة. وأكدت حكومة بومباي على ضرورة العمل لإنجاز هذه الوساطة لما في ذلك من

مردودات سياسية وأمنية. فهذه الحملة قد وفدت المنطقة بحراً فأفسد بذلك كل النظام التهادني الذي تعتمد عليه بريطانيا في إدارتها للخليج. «فالقبائل لن تفهم لماذا يحظر عليها أن تقوم بعمليات بحرية صغيرة ويسمح في الوقت نفسه للأتراك بحملة كالحملة الراهنة». ورأت حكومة بومباي أنه في حالة أن يرفض العثمانيون الوساطة فعلى البريطانيين أن يتّصلوا بسعود ما دام يسعى للتشاور معهم، ويرغب في قبول نصائحهم. وعبّرت حكومة الهند عن قبولها لرأي حكومة بومباي وأحالت الخطاب إلى وزيرها في لندن.(٣٩) ولم تتحمس حكومة لندن لاتّخاذ قرار في هذا الصدد، فسعود قوة تمتد فوق رمال الجزيرة العربية امتداداً قد يصل حتى وسطها، ولا تريد الحكومة البريطانية مفارقة سياستها التي تقوم على عدم التدخل في التعقيدات السياسية القائمة في البر.

رجع الإمام عبدالله بعدئذ إلى الرياض التي أصبح عليها عمّه عبدالله بن فيصل نائباً عنه، واستقبلته المدينة استقبالاً حسناً. وكان سعود في هذه الفترة على تخوم قطر مع قوة صغيرة من البدو. ويبدو أن كلا الأخوين المتنافسين قد وهنت قواه، وكان بحاجة إلى الدعم حيث بدأت نجد تخرج عن قبضتهما بعد أن انفرط عقد النظام والأمن الذي أقامه والدهما الإمام فيصل. ولم يكن أي منهما يستطيع التعامل بمفرده مع العثمانيين الذين سيطروا على الأحساء ودروب التجارة ممّا زاد في الضائقة الاقتصادية والمعاناة التي تعتمل في قلب نجد.

سار البعض بالصلح بين الأخوين. عزف عبدالله على نغمات الصلح فتجاوب معه سعود، وبدأ الرجلان يعدّان العدة أولاً لتسوية حساباتهما مع العثمانيين. غير أن سوء الظن وعدم الثقة وبعض المرجفين من الشيوخ أفسد تلك الخطة التي قبرت تماماً في صفر ١٢٨٩هـ/ مايو ١٨٧٢م حين هاجم الإمام عبدالله بعض القبائل الموالية لسعود في منطقة شمر، وازدادت بالتالي قوة عبدالله بينما تضاءلت قوة سعود.(٤٠)

حدثت اتصالات أخرى للصلح بين الأخوين في شعبان ١٢٨٩هـ/أكتوبر ١٨٧٢م. وتشير بعض الروايات بأنهما قد التقيا فعلاً في اجتماع ضم كل إخوانهم

وأقربائهم وشيوخ جبل شمر وبعض الشيوخ الموالين. تعاهد الرجلان على نسيان الماضي بكل مآسيه والعمل يداً واحدة ضد العثمانيين، وبدأ العمل العسكري الذي كان آل مرّة والعجمان يعملون فيه تحت راية سعود. ولم يلبث عبدالله أن أفسد الأمر مرة أخرى حين هجم على قبيلة العجمان الموالية لسعود، وجدد بذلك العداء القديم. ووجد سعود أن لا مندوحة له من التفاوض مع السلطات العثمانية في الأحساء فكتب إلى السلطات البريطانية يطلب وساطتها في أمر هذه المفاوضات.(٤١)

جهود الأمير سعود من أجل الإستقرار واتصالاته بالعثمانيين والبريطانيين

خاطب سعود في ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م السلطات العثمانية في الوصول إلى صلح. وصاغت السلطات العثمانية، نكاية في عبدالله، اتفاق صلح تعترف بموجبه بسعود حاكماً على نجد شريطة أن يتكفل بتسديد كل التكاليف المالية التي خسرها العثمانيون في حملتهم هذه، وأن يتعهد بأداء مبلغ سنوي يربط إلى الحد الذي كان يدفعه والده، وأن يعتبر نفسه تابعاً لحكومة السلطان، وألاّ يحاول أن يمد سلطته إلى ساحل الخليج العربي، وأن يرسل اثنين من أبنائه ليظلا رهينتين في بغداد لضمان التزامه بسريان الإتفاق. وطلبت السلطات العثمانية إلى سعود أن يفد إلى الأحساء في حالة قبوله لهذه الشروط لتوقيعها وستناط به، في هذه الحالة، كل سلطات أبيه على أرضه، وسيتقاضى من الدولة معاشاً سنوياً. واشترط العثمانيون مهلة ستة أشهر بعد توقيع الإتفاق لإنفاذ سريانه وذلك حتى يستوثقوا في هذه الفترة من أن سعود قد ترك كل فكرة له في المقاومة، وأصبح يخدم الحكومة العثمانية باخلاص. وتبودلت الرسل بين سعود والسلطات العثمانية في الأحساء، واستقر الرأي على أن يفد سعود إلى الأحساء لتوقيع الإتفاق. ولم يقدّر لهذا الإتفاق أن يتم حيث سدت أزمة الثقة القائمة بين الجانبين الدرب دون ذلك، وسرت الشائعات بأن العثمانيين سيقبضون على سعود حال وصوله إلى الأحساء. وقويت شكوك سعود حين قبضت الدولة على شيخ قبائل العجمان الموالي له. وانتهى أمر الإتفاق حين استدعي

الفريق نافذ باشا من الأحساء وعين آخر بدلاً منه.(٤٢)

عـاد سعود ليتصـل بالسلطات الـبريطانيـة مرة أخـرى، فكتب إلى المقيم البريطاني في الخليج في أوائل ربيع الثاني ١٢٨٩هـ/ ٢٢ يونيو ١٨٧٢م خطاباً جاء فيه: «سبق لحكومتكم أن طلبت منكم اخطاري بأن الصداقة القائمة بيني وبين الحكومة البريطانية هي صداقة وطيدة ثابتة الأركان، وأنا من جانبي لا أشك في ذلك قط. إن أسس الصداقة التي تربط بيننا من قديم الزمان كانت تقوم عـلى قاعدتين أولاهما قاعدة الصداقة المجردة، والأخرى أن أرضي ظلت أبداً حصينة منيعة من جانب البحر لا يحدث فيها أي تدخل. لقد عرفت بأنكم الأقوياء في البحر، وأن البحر يطيعكم، ولا يستعصي عليكم. ولهذا فلم أهتم بأمر المنطقة الساحلية عندما كنت أحكم أرضي في نجد، وأهملت القيام بكل تنظيم من شأنه تقوية دفاعات الساحل، حيث كنت على اعتقاد من أنكم تراقبون كل التحركات في البحر، وأنه لن يأتينا خطر من تلك الأرجاء. وعليه أرجو أن تحرصوا عـلى سياستكم تلك وحماية الشؤون الواقعـة تحت سيطرتكم. ونـدرك من جانبنـا أن المسـاعدة والحـرص على مصـالح العبـاد هي من شيمكم». ولم يتلق سعود من السلطات البريطانية إلا رد مجاملة لا يقدم في أمره ولا يؤخر.(٤٣)

لم ييأس سعود من أمر تسوية خلافاته مع الدولة العثمانية وذلك حين تبين له أن الحكومة البريطانية سوف لن تسعى له بالدعم ولا بالوساطة. ولهذا طلب سعود من الحاج أحمد خان، أحد وزراء مسقط السابقين، وكان مقيماً وقتها في بوشهر، أن يكون رسوله إلى بغداد. واتصل الحاج أحمـد خان بـالمقيم البريـطاني في بوشهـر وعرض عليه خطاب سعود الذي يخولـه هذا العمـل. وكنتيجة لنصيحـة المقيم الـبريطاني، اتصـل الحاج أحمـد أولاً بالقنصـل العثـماني في بـوشهـر الـذي قـام بالاتصالات اللازمة مع والي بغداد الذي رحّب بالمهمة. غادر الحاج أحمد بوشهر في ٢٩ ربيع الثاني ١٢٨٩هـ/ ٥ يوليو ١٨٧٢م في صحبة القنصل العثماني الذي أكد للمقيم البريطاني جدية الحكومة العثمانية في الوصول إلى اتفاق مع سعود. وفي البصرة أكد العامل العثماني للحاج أحمد تفاؤله بنجاح المهمة استناداً «على رغبـة الحكومة العثمانية الجادة في الوصول إلى تفاهم مع الأمير سعود».(٤٤)

وصل الحاج أحمد إلى بغداد، وأبرق للمقيم البريطاني بأنـه قد وصـل إلى أسس لقيام السلم مع الوالي، وأنه سيرجع للأحساء لكي يعرضها على الجانب السعودي. وكانت حكومة الهند قد ابرقت لمقيمها في الخليج ألا يتدخل البتة في أمر هذه الوساطة.

غادر الحاج أحمد بغداد يحمل من واليها إلى سعود خطاباً بحسن النوايـا. وصل المبعوث إلى القطيف في باخرة عثمانية، وسار من هنالك إلى الأحساء، وقابل متصرفها الذي كتب بدوره إلى سعود الذي كان على مشارف الأحساء طالباً إليه الحضور لإتمام الإتفاق المزمع، أو أن يعين ـ في حالة تعذر حضوره ـ مكاناً للقاء.

تدل تقارير المقيم البريـطاني على اعتقـاد بأن سعـود يرغب دون شـك في الوصول إلى تسوية تمكنه من التفرغ لشؤونه الأخرى، وأن العثمانيين من جانبهم تحدوهم رغبة جادة للخروج من مأزق تلك الحملة التي برهنت عقابيلها على عدم جدواها. ولم يصدق ظن المقيم إذ أن سعود أظهر ترددا في وضع نفسه في قبضة العثمانيين. أرسل الحاج أحمد من الهفوف إلى سعود عدة رسـائل دون جـدوى: وأخيراً أرسل سعود سفارة برئاسة ابن عمه فهد بن عبدالله (فهـد بن صنيتان) واعتذر عن الحضور لأنه يريد أن يهاجم الخرج حتى يؤمن موقفه تجاه عبدالله. وفي الأحساء وجد فهد معاملة كريمة من السلطات العثمانية، ولم يرض ابن صنيتان، نيابة عن سعود، بشروط العثمانيين، كما لم يوافق الباشا على ما يزمعه سعود من حرب الخرج في هذه الفترة التي كان يعتقد أنها يجب أن تكون فترة تهادن.[٤٥]

يبدو أن سعود كان يعمل لكسب الوقت والتيقن من نوايا العثمانيين الحقيقية فأرسل إلى الأحساء سفارة لاحقة برئاسة أخيه عبد الـرحمن يصحبه فرحان ابن خيرالله بشروط جديدة لم يقرها العثمانيون. وعلى هذا قام الحاج أحمد بسفارته الثانية بصحبة عبد الرحمن بن فيصل وآخرين. وقد غادرت هذه المجموعة ميناء القطيف إلى بغداد في يوم ٢٢ شعبان ١٢٨٩هـ/ ٢٤ اكتوبر ١٨٧٢م، ووصلت في نفس هذا الوقت إلى بغداد سفارة من الإمام عبدالله للعمل على كسب ود العثمانيين، والوصول إلى اتفاق معهم لافساد خطة أخيه سعود.[٤٦]

في شوال ١٢٨٩هـ/ ديسمبر ١٨٧٢م قصد سعود الخرج حيث كان الإمام عبدالله بن فيصل قد ضبطه بعد رجوعه إلى الرياض وجعل في المنطقة أخاه محمد وعمه عبدالله بن تركي، وجنّد من أهل ضرما جنداً لمواجهة تحركات سعود. وكانت الدلم مقراً ومركزاً لسعود بن فيصل(٤٧) عرفها وخبر أهلها منذ أن كان أميراً عليهم في حياة أبيه. أقبل سعود بجنود كثيرة من العجمان، والدواسر، وأهل الجنوب، ونال الدعم من ابن قنيان، والعجالين، والهزاني، وأهل الحوطة، وفتحت له تلك البلاد أبوابها، واستطاع سعود أن يأسر عمه عبدالله بينما فرّ محمد إلى أخيه في الرياض.(٤٨)

قام سعود في محرم عام ١٢٩١هـ/ فبراير ١٨٧٤م بحملة كبرى على ضرما، وتمكن منها، وقسم أموالها بين رجاله. ثم سار بعد ذلك إلى حريملاء، وتمكن منها بعد مقاومة عنيفة. ثم يمم صوب الرياض وخاض معركة الجزعة ضد قوات أخيه. صارت الهزيمة على عبدالله فالتجأ إلى بدو قحطان المقيمين في منطقة الصبيحية. واستقر سعود في الرياض، وأرسل إلى الأقاليم يحث رؤساءها للقدوم عليه لمبايعته.

لم يرض متصرف الأحساء من سعود هجومه على الخرج ثم الرياض دون إذن منه خاصة وأن ظروفه كانت قد تحسنت بالمقابلة مع ظروف أخيه. فقد كان معه العجمان في حين خسر أخوه كثيراً بهجومه في ذي الحجة ١٢٨٨ هـ / مايو ١٨٧٢ م على آل شامر بالقرب من عليا(٤٩) ومناصبته العداء للعجمان.

أدارت هذه الانتصارات رأس سعود، كما يقول تقرير من الوكيل السياسي البريطاني في بغداد، وأنسته سفارته. فأرسل يهدد المتصرف بأنه سيهاجم الأحساء فوراً إذا لم يسرع باخلائها. وقد تأكد تقرير الوكيل السياسي البريطاني في بغداد بخطاب أرسله سعود إلى المقيم البريطاني فيما بعد يحمل هذا المعنى. كما عرف المقيم أيضاً أن محمداً بن فيصل يسعى بالصلح بين أخويه ولكن عبدالله، برغم ضعفه العسكري الواضح، رفض الدخول في الصلح، واختار أن يبقى لاجئاً عند حدود الكويت. وبالطبع كان لهذا الوضع انعكاساته الخطيرة على مساعي السلام. اعتقلت السلطات العثمانية عبد الرحمن بن فيصل رسول سعود وعاملته بقسوة،

وحددت اقامته في بغداد، وقطعت عنه المعاش الضئيل الذي كان يمكن أن يعيش عليه. ولم تستبق السلطات العثمانية فرحان بن خيرالله. أما فهد بن صنيتان وكيل سعود في الأحساء فقد تم نفيه إلى بغداد، واتصل سعود بالمقيم البريطاني مرة أخرى في ذي الحجة ١٢٨٩هـ/ فبراير ١٨٧٣، يخطره بهذا التصرف من جانب العثمانيين طالباً إليه حضّ حكومته للتدخل. وقد أشارت الهند لمقيمها بالالتزام بعدم التدخل، وأن ينهي هذا الأمر إلى سعود بطريقه لبقة حتى لا يضايقه الأمر.(٥٠) ولم يقنع سعود برد المقيم اللبق وخاطبه مرة أخرى في ٦ محرم ١٢٩٠هـ/ ٦ مارس ١٨٧٣م بخطاب يدل على إدراك كامل من سعود لأسس السياسة البريطانية في الخليج. يقول الأمير سعود للمقيم ما سبق أن قاله سابقاً وكرره من أنه لم يهتم آنفاً بتقوية دفاعات الساحل نتيجة لثقته في أن البريطانيين يحرسون البحار، ويحظرون كل تحركات عسكرية فيها، ويعملون على حماية السواحل من الاضطرابات، وأن من مهام السركار «أن يساند من يضار في تلك النواحي، أن البحر هو من المهام الموكلة بالمقيم، وقد اعتمدت على ما سبق أن أعلنه المقيم من أنه لن يوافق أبداً على أي عمل من شأنه إثارة الاضطراب فوق البحر، وأنه يساند الذين يلجأون إليه حين يضارون من تلك النواحي لأنهم يوكلون مسؤوليات حفظ الأمن فيها على عاتقه.». ولما لم يتلق سعود رداً على رسالته هذه أيضاً أردفها برسالة أخرى مؤرخة في ٢١ ربيع الأول ١٢٩٠هـ/ ١٨ مايو ١٨٧٣م إلى المقيم بيللي في بوشهر، وكان بيللي قد غادر الخليج وقتها. وقد وردت في هذه الرسالة الحجج التي استعملها سعود مراراً وتكراراً. «لقد استلمنا منكم سابقاً عدة رسائل تؤكدون لنا فيها سهركم على استتباب أمن البحار. واعتماداً على ذلك نمت آمناً في حمايتكم وحماية السركار. وحدث أن هاجمتني الحكومة (العثمانية) من البحر، وقد كتبت لكم في وقتها رسالة بهذا المعنى، وطلبت إليكم أن تشيروا علينا بالرأي. وقد فهمت من ردودكم المتواترة أنكم تقدرون أهدافنا، وتعملون لتحقيق مصالحنا، وأنكم ستردون علينا حينما تتوصل الحكومة إلى رأي محدد. ولاشك أنكم تدركون تماماً أن جميع أهل النواحي هناك (الساحل) يعرفون أن حماية أمن مياه الخليج تقع عليكم، وهي من مسؤوليتكم واعتماداً على

هذه الحقيقة لا يجوز أن تبقوا صامتين هامدين لا تتدخلون في هذا الأمر. وعليكم أن تتصلوا بهم (العثمانيين) ليقدموا تفسيراً لما أقدموا عليه بشأن اثارتهم للاضطراب في البحار».[٥١] وردت حكومة الهند التي أحيل إليها هـذا الخطاب عـلى المقيم بالانابة في الخليج تبلغه برأي الحكومة وبأن «سعادة الحاكم في مجلسه قد أُخطر بأن سعود بن فيصل ليس عضواً في التعهدات البحرية، وأنه لم يتلق سلفاً من الحكومة البريطانية أية تأكيدات بحمايته، وعليه فهو غير مستحق للحماية» وطلب الحاكم إلى المقيم في الخليج بالانابة أن يكتب له تقريراً بعلاقـات سعود مـع المقيمية، وأن يتحرى البحث فيما إذا كان هنالك أي قول أو فعل ربط بين الحكومة البريطانية وبين سعود، في أي وقت من الأوقات، بشكل مباشر أو غير مباشر. وأخطرت الهند مقيمها بالانابة أنه في حالة عدم وجود هذه الإرتباطات فعليه أن يـرد على سعود رداً عاماً يخطره فيه بأنه قد أخطأ حين اعتقد بأن الحكومة البريطانية تعهدت بأن تدافع عنه بحراً، وأن يعبر له عن أمل الحكومة البريطانية في أن يصل الأمير إلى تفاهم مرضٍ مع الدولة العثمانية. وقد جاء في تقرير المقيم بعدئذ «أن سعـوداً ليس طرفاً في الإتفاقيات البحرية، ولم تتعهد الحكومة البريـطانية بحـمايته، وأن دافعـه ربما كان ذلك الأمل الغامض الذي يعترى الشيـوخ أمثالـه في المناسبـات المماثلة». ورد المقيم على سعود كما أشير عليه. وكتب سعود مرة أخرى بأنه يدرك ذلك تماماً، ولكنه أراد كسب صداقة الحكومة البريطانية وحسن نواياها. وكان من رأي الحاكم العام في مجلسه هذه المرة أن سعوداً إذا أشار مجدداً بوجود مثل تلك الارتباطات مع الحكومة البريطانية، وحسن نواياهـا. فعلى المقيم في الخليج أن يوضح له الأمور بشكل يزيل كل أثر لسوء الفهم الحالي ويمنع احتمالات أي سوء فهم مستقبلاً.

بعثة الإمام عبدالله بن فيصل في بغداد

في الوقت الذي وصلت فيه سفارة الحاج أحمد الثانية التي يصحبه فيها عبد الرحمن بن فيصل وصلت سفارة أخرى من عبدالله بن فيصل برئاسة عبده ووزير

أبيه محبوب بن جوهر. وكانت الدولة العثمانية وولاتها في بغداد، فيما يبدو عازمين على إناطة الحكم في المنطقة إلى عنصر عربي. وحين تعثرت المفاوضات مع كل من سعود وعبدالله أعطي الحكم في الأحساء لبزيغ بن عريعر شيخ بني خالد بضمان من صهره ناصر باشا شيخ المنتفق.(٥٣)

إطلاق سراح عبد الرحمن بن فيصل

ظل عبد الرحمن بن فيصل أسيراً في بغداد حتى عـام ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤م. ويبدو أن الأحوال السياسية في نجد ظلت على ما هي عليه من ركود. اطلق سراح عبد الرحمن بأمر من الباب العالي شخصيـاً، ربما بتـدخل من السفـير البريـطاني في الأستانة الذي خاطبه الوكيل السياسي البريطاني في بغداد في هذا الصدد، كما أطلق بعدئذ فهد بن صنيتان، وسار الرجلان في جماعة قليلة من أتباعهما إلى البحرين.

عرف عبد الرحمن من أهالي المنطقة المـترددين على البحـرين أن القوم في الأحساء قد سئموا حكم بزيغ الذي طغى في المنـطقة وبغى، وأنهم مستعـدون للثورة لا ينتظرون إلا قيادة أحد من آل سعود.

أجرى عبد الرحمن اتصالاته مع شيوخ الساحل ثم غادر البحرين بعد هذا، متجهاً إلى العقير. وانتظمت تحت رايته في مجاورة العقير قوات الثورة فقادها إلى الهفوف. وفي الهفوف وجد الأمير عبد الرحمن استقبالاً شعبياً حافلاً وانتظم له الأمر فيها في رمضان ١٢٩١ هـ / اكتوبر ١٨٧٤ م، دون مقاومة كبيرة بعد أن هزم الجندرمة. ووجـد بزيـغ أن لا أمل يـرتجى من المقاومـة فـأغلق عـلى نفسـه ومعـاونيـه القلعـة وقبع ينتظر المدد.(٥٤) تفيد برقية من الوكيل السياسي البريطاني في العراق العثماني بتاريخ أواخر شوال ١٢٩١هـ/ ١٢ ديسمـبر ١٨٧٤م وأخرى لاحقـة من المقيم البريطاني في الخليج بأن الاضطرابات قد عمت منطقة الأحساء، وتحرك فيلق مشاة من البصرة في اتجاه الأحساء. وتضيف برقية المقيم أن الإمام عبد الرحمن استطاع أن يقطع خطوط الإتصالات العثمانية كلها بين القطيف والأحساء، وأن أربعاً من

السفن الحربية العثمانية المحملة بالجنود تمخر الآن في طريقها إلى الساحل.(٥٥)

طلب رديف باشا إلى ناصر باشا بن راشد بن سامر السعدون أن يرسل إلى الأحساء حالاً ٣٠٠٠ فارس، وأن يتقدم في كتيبة من المشاة إلى الأحساء بحراً. وانتشر الذعر بين جماعات عبد الرحمن، ووقعت الخلافات بين القبائل، ووقعت المشاكل بين بطون العجمان، وتفرق رأيهم عندما علموا باقتراب وصول الجنود العثمانيين، وهربوا من معسكر عبد الرحمن».(٥٦) وصلت قوات ناصر باشا، ودخل بجنوده بلد الهفوف ونهبوه وأباحوه لثلاثة أيام ذاق فيها أهل المنطقة الوبال وقتل منهم عدداً كبيراً.(٥٧) وخرج عبد الرحمن ليلحق بأخيه سعود في الرياض. وذاقت الهفوف الويل بالرغم من اعتراض الضباط العثمانيين على رأي ناصر الذي أراد كما قال أن يجعلها مثلاً لكل من تحدثه نفسه بالثورة مستقبلاً. وتشتت أهل الأحساء في الخليج حتى بلغ بعضهم إلى مسقط حيث نجد رسالة من الوكيل السياسي البريطاني مايلز (Miles) في مسقط إلى المقيم روث يخطره بوصول مجموعة من اللاجئين من الأحساء ينتظر أن تتلوها مجموعات أخرى.(٥٨)

وفاة سعود بن فيصل

كتب المقيم إلى حكومته بوفاة سعود بن فيصل في ١٨ ذي الحجة ١٢٩١هـ/ ٢٥ يناير ١٨٧٥م.(٥٩) خلّف سعود من الأبناء أربعة هم سعد ومحمد وعبدالله وعبد العزيز.(٦٠) واجتمع رأي الأمير عبدالله مع أبناء أخيه سعود على المصالحة والاعتراف له بالإمامة ولكنهم انقلبوا عليه لصالح أخيه عبد الرحمن خاصة وأن بعض الفقهاء والعلماء النجديين لم يكونوا راضين عن عبدالله لما قام به من الإستعانة سابقاً بالعثمانيين، ولما جرّه هذا الأمر - في رأيهم - من الوبال على البلاد وعلى العباد. وعلى هذا بايع أهل الرياض عبد الرحمن إماماً عليهم.(٦١) وكان عبدالله بن فيصل، وأخوه محمد أنذاك في بادية عتيبة.(٦٢)

كتب الإمام عبد الرحمن إلى المقيم البريطاني في الخليج العربي، وإلى وكيل الأنباء في البحرين ينهي إليهما بأنه قد اختير إماماً بعد وفاة أخيه سعود، وأن

الرياض مقر حكمه حالياً. ويشير المقيم إلى الإعتقاد بأن عبد الرحمن على علاقة وفاق مع جميع أفراد أسرته عدا ما كان من أمر أخيه عبدالله الذي لا يزال معتصماً مع النفر القليل من أتباعه في الصحراء. ورد المقيم على الإمام عبد الرحمن رداً عاماً، وأقرت حكومة الهند مقيمها على ما قام به طالبة إليه باسم الحاكم العام في مجلسه أن يبتعد تماماً عن كل اتصالات مع الإمام الجديد.(٦٣)

نشط عبدالله ومعاونوه في السعي لتجديد البيعة. كاتب عبدالله رؤساء بلدان نجد في هذا الشأن، وبعث أخاه محمداً إليهم. قدم محمد إلى شقرا وبايعه أهل الوشم، ثم سار إلى ثرمدا. وبلغت أخباره الإمام عبد الرحمن فقام من الرياض في جمع من أهلها وأهل الخرج، وأهل الحوطة، وعصبة من العجمان، ومطير، وسبيع، وحاصر محمداً في ثرمدا. وبعد عناء شاق استقر الأمر بين الأخوين على الصلح، على أن يسلم محمد إلى الإمام عبد الرحمن خيله وسلاحه. ونفذ الصلح. وأقام عبد الرحمن في ثرمدا عدة أيام، ثم رحل منها في مجموعة من رجاله إلى الدوادمي حيث كانت قبيلة عتيبة وقادتها يخططون للهجوم على المكان. وجرت بين هؤلاء وبين عبد الرحمن موقعة كان النصر فيها لعتيبة، وعلى هذا رجع الإمام عبد الرحمن إلى الرياض.(٦٤)

عبدالله بن فيصل إماماً

كان عبد الرحمن زاهداً في الامامة إلا أنه أرغم على قبولها على ما أسلفنا. ويبدو أن أبناء سعود المتحالفين في هذا الوقت مع عمهم عبد الرحمن قد سببوا له الكثير من المشاكل وقتلوا أخلص أتباعه فهد بن صنيتان (عبدالله بن ابراهيم بن عبدالله بن محمد بن سعود). وتفرق نتيجة لهذا الحادث بعض آل سعود فخرجوا من الرياض. ووجد الإمام عبد الرحمن الذي قبل الإمامة سابقاً لإزالة الشقاق أن الخرق قد اتسع على الراقع. ونصح الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ الإمام عبد الرحمن بالتنازل عن الولاية لأخيه. وما زال به يحسن له الأمر حقناً لدماء المسلمين، وجادله بأن عبدالله هو الأكبر سناً والأقدم في الولاية.(٦٥) فتنازل عبد الرحمن لعبدالله، ولم يرض أبناء أخيه سعود بذلك فانقلبوا عليه. فخرج عبد

الرحمن من الرياض ولحق بأخيه عبدالله في البادية وبايعه. وتعاهد الرجلان على العمل لاسترداد الملك الضائع، واجتمعت لعبدالله قوة كبيرة. وتفيد التقارير البريطانية في شعبان ١٢٩٢هـ/ سبتمبر ١٨٧٥م بأن عبدالله قد استولى على الرياض كما أكدت تقارير شوال ١٢٩٢هـ/ نوفمبر ١٨٧٥م بأن كل قبائل نجد قد عاضدت عبدالله وساندته فيما عدا العجمان، وأنه قد جرى مجلس صلح ضم عبدالله وعبد الرحمن ومحمداً إلى جانب أهل الحل والعقد، وأن الإمام عبدالله قد تحدث في الجمع حاثاً إياهم على وحدة الكلمة: «لو حل بيننا الإتفاق بدل الشقاق لما خرجت الأحساء والقطيف من أيدينا إلى أيدي العثمانيين». وهكذا بدأت الرياح تهب في شراع عبدالله من جديد.(٦٦)

كتب الإمام عبدالله حين استولى على الرياض إلى مزيد حاكم الأحساء يعلمه بالخبر، مضيفاً بأنه من أتباع الدولة العثمانية، وأنه لم يقم بالثورة ضدها، أو الخروج عليها، إنما كان للظروف التي أحدثها بعض أخوانه دخل فيما جرى. ورد مزيد مرحباً بولاء عبدالله، مشترطاً عليه أن يعمل على معارضة أخيه عبد الرحمن ابن فيصل وأبناء أخيه سعود، والقيام بشخصه إلى الأحساء لتأكيد الولاء. ومضى مزيد في مجهوداته حتى علم بقيام الصلح بين آل سعود فأوقف كل اتصالاته بعبدالله. كما يقال أيضاً إن عبدالله بعث بخطابات إلى والي بغداد، وإلى ناصر باشا شيخ المنتفق، يعلمهما فيه بأنه قد استولى على الرياض.(٦٧)

لم تستقر الأحوال لعبدالله، وما كان يمكن لها أن تستقر. فسنوات الخلاف الحافلة بالفتن، وانشغال القبائل بتسوية الأحن، وسنوات الجدب التي نزلت بالبلاء والمحن، قضت على الاقتصاد السعودي. كسدت الزراعة، وبارت التجارة التي انسدت دروبها من الأحساء والكويت، وخرجت الزعامات القوية عن سلطة عبدالله وراحت تتحدى أوامره جهاراً غير عابئة به، وظلت خلافاته مع أبناء أخيه سعود تعلو وتخفت. اتحد هؤلاء مع عبدالله أحياناً وحاربوا لاعلاء رايته، واختلفوا معه أحايين أخرى وقاتلوه قتال المستميت، وكانوا كثيراً ما يستعينون بالخرج وأهله.

عبدالله بن ثنيان

ظهر على مسرح الأحداث في أواخر ١٢٩٦هـ/ أواخر ١٨٧٩م عبدالله ابن عبدالله بن ثنيان آل سعود، وهو ابن عبدالله بن ثنيان الأمير التاسع لنجد الذي حكم فترة وجيزة في عام ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م.

كتب المقيم البريطاني روث في ذي العقدة ١٢٩٦هـ/ اكتوبر ١٨٧٩م بأن عبدالله بن ثنيان الذي ظل يقيم في البصرة منذ ثلاثة أعوام يسعى للحصول على أمر عثماني يعين بموجبه حاكماً على الأحساء، وأنه سيسير إلى الاستانة حتى يظفر برضاء الحكومة لتسميته «أميراً لنجد» و«حاكماً للأحساء» نظير زكاة كبيرة يؤديها بعدئذ، خاصة بعد أن تفرج الحكومة له عن نصيبه من أملاك آل سعود التي صادرها العثمانيون في الهفوف والقطيف. وصل ابن ثنيان إلى بوشهر حيث قابل المقيم روث وناقشه في مشروعه الطموح الذي بناه على معرفته من سلطات البصرة العثمانية بأن الباب العالي يعمل على وجود صيغة تفاهم مع آل سعود ليخلص نفسه من الوضع الذي آلت إليه السلطة في الأحساء والقطيف وتبعات هذا الأمر. وطلب ابن ثنيان إلى روث أن يطلب إلى حكومته التدخل، عن طريق السفير البريطاني لدى الدولة العثمانية، لكي تساند هذا الأمر وتؤازره.(٦٨)

خرج ابن ثنيان من بوشهر بحراً حتى وصل إلى جدة. وخاطب ابن ثنيان من جدة المقيم روث في بوشهر يطلب، مرة أخرى، أن يستغل السفير البريطاني في الاستانة نفوذه لدى الباب العالي، للعمل على تعيينه في نجد والأحساء. وشرح ابن ثنيان للمقيم الفوائد الجمة التي ستصيبها الحكومة العثمانية حين تخلص نفسها من مشاكل المنطقة، والفوائد التي يعد بها البريطانيين حين يصبح حاكماً. وعبر ابن ثنيان عن أمله بأن الحكومة البريطانية ستتكفل له بالتمويل اللازم إذا احتاج إلى تمويل.(٦٩)

اتصل ابن ثنيان بالقنصل البريطاني في جدة المدعو زهراب (Zehrab) وسلّمه وثيقتين إحداهما عن تاريخ نجد، والأخرى عبارة عن تقرير يسرد فيه خلافات الأميرين عبدالله وسعود وذلك بهدف نشرها في الصحافة البريطانية.

ادّعى ابن ثنيان في هذا التقرير بأن أبناء الإمام سعود قد سلّموا الأمر لعمهم عبدالله على كره منهم لأنهم قصّر لا تناط بهم الإمامة. واتّهم ابن ثنيان عبدالله بأنه «وهابي يعارض حزب سعود الذي كان يسعى لطرد الأتراك من ساحل الأحساء، والعمل على تشجيع التجارة، ومدّ جسور الاتصالات مع الأمم الأخرى، والظفر بمساندة الإنكليز وحمايتهم» وأوضح ابن ثنيان لزهراب أن «النجديين الذين خرجوا للتجارة مع الهند والأمم الأخرى قد أصبحوا مستنيرين، وكانوا الحزب المساند لسعود، وهم طائفة قوية ومؤثّرة تسعى للحماية البريطانية». وجادل ابن ثنيان بأنه من المستحسن أن تسحب الحكومة العثمانية قواتها التي تحتل مناطق مبعثرة في الجزيرة العربية لأن النجديين سيعملون على إجلائهم بالقوة إذا رفض العثمانيون الانسحاب سلمياً. وادّعى ابن ثنيان بأن الانفتاح الذي يسعى إليه مع الدول الأخرى «سيكسر حالاً التعصّب الذي لا تحسد عليه سمعة أهل نجد». وعلق زهراب في رسالته إلى حكومته «بأن هناك صحوة خطيرة في العالم الإسلامي وهي حركة تتمخض عن متاعب جمة» وأشار زهراب أنه من الأجدى للحكومة البريطانية أن تعمل على توجيه تلك الحركة وأن يكون لها صوت قيادي في هذه الأرض التي تحكم اتجاهات المسلمين وعرّف هذه الأرض بأنها الجزيرة العربية بما فيها اليمن والحجاز وتهامه. ورأى زهراب في حركة ابن ثنيان هذه حركة «قومية». ولكن «إلى أي حد يمكن أن تكون خدمة آمال نجد وتطلعاتها بواسطة الحكومة البريطانية أمراً مفيداً لمصالح بريطانيا؟ هذا سؤال يخرج عن دائرة اختصاصي».(٧٠)

خرج ابن ثنيان من جدّة إلى القاهرة، ونزل في أحد القصور الخديوية، والتقى بالقنصل البريطاني مالت (Malet) في مصر مرتين وتفاوض معه في أمر تطلعاته. أرسل مالت إلى لندن يطلب تعليماتها للتعامل مع هذا الأمير وفقها. وأرسلت لندن في شعبان ١٢٩٧هـ/ يوليو ١٨٨٠م تستشير الهند، وعبّرت الهند عن رأيها في وجوب عدم التعامل معه، أو العمل على استعداء العثمانيين في أمر كهذا.(٧١)

زار ابن ثنيان دمشق بعد هذا في شعبان ١٢٩٧هـ/ يوليو ١٨٨٠م. وكتب القنصل البريطاني المساعد في دمشق في ١٥ شعبان ١٢٩٧هـ/ ٢٢ يوليو ١٨٨٠م

عن عبدالله بن ثنيان بأنه «لم يعطني الانطباع بأنه يناصر أي فريق من الفرقاء المتنازعين في نجد، وأنّه يعمل انطلاقاً من أهدافه الشخصية لكي يصبح، برضاء الحكومة العثمانية أو بغيره، حاكماً على الأحساء، كما أنه يتطلّع إلى إمارة العارض بعد وفاة عمه». ويضيف القنصل المساعد في دمشق محللاً الوضع في الجزيرة العربية فيقول بأن الآراء تذهب إلى أن ابن رشيد هو أقوى الرجال في نجد حالياً، وأنه القائد الذي سيحقق التطلعات «القومية» و«الوطنية» في وسط شبه الجزيرة العربية. ويشجب القنصل المساعد هذا الرأي حيث يقول «لقد كتب كثيراً في الصحافة الأوروبية عن «الحركة الوطنية» في الجزيرة العربية ولكن لا أجد الشواهد على هذا بخاصة وسط القبائل البدوية التي تسكن مناطق الحدود السورية والتي يقال إنّها تأثّرت بهذه الآراء أو ما يشبهها. إنّ المعارك والنزاع والقتال لا زال يسود علاقات هذه القبائل كما هي العادة المتأصلة فيهم. كما أن هذه القبائل تخضع تماماً للسلطة التركية حين يعبرون الحدود إلى سوريا. ويشير هذان العاملان إلى أنه سيمضي وقت طويل قبل أن تجمع بين هؤلاء وحدة عمل أو هدف مشترك». ويشجب القنصل المساعد في دمشق مسألة القومية والوطنية بالرغم من معرفته «أن الجزيرة العربية كلّها قد باتت معادية لحكم السلطان وليس هذا بسر. ولا أعتقد أن ثمة شك أبداً في بعث الخلافة من جديد في شخص شريف مكة، وأن هذا الأمر يناقش في بعض الأوساط بصورة جادة وربما تجري محاولة قريبة لتنفيذه». (٧٢)

وصل عبدالله بن ثنيان إلى الآستانة في رمضان ١٢٩٧هـ/ أغسطس ١٨٨٠م وقدم طلبه ليحكم نجد للسلطان، واتخذت الحكومة البريطانية قراراً بأن لا يكون لها شأن بهذا الطلب وصاحبه. ولم يسمع أحد عن مشروعات ابن ثنيان مرة أخرى.

كان هذا آخر ما نعرفه عن اتصالات آل سعود الخارجية.

إختلف أبناء فيصل وأحفاده وتنازعوا حتى قال قائلهم:

فحتى متى هذا التواني عن العلا ... كأنكم (و) ممن حوته المقابر
وأموالكم منهوبة وبلادكم ... تبوّأها بالرغم منكم أصاغر

وأشيــاعكم في كـل قــطر وبلدة اذلا حيـارى والـدمـوع مـواطـر
وأطفــالكم هلكى تشتّت شملهم وسـاءت له حـال إذ الجد عـاثـر
ممــالككم قـد قسمتهــا ملوكهــا وأنتم لهم أحـدوثة ومسـاخـر(٧٣)

إمارة جبل شمر

نزلت قبيلة طي اليمنية في منطقة جبل شمر منذ عهد سحيق، واستمرت تسيطر على تلك المنطقة حتى كـانت الحروب التي أحـدثها اللخميـون من أهل اليمن، وانتصر فيها القائد النجدي كليب بـن وائل شيخ تغلب في حوالى عام ٥٠٠م. كانت طيء ـ رغم أنها قبيلة يمنية ـ في هـذه الحروب إلى جـانب ربيعة النجدية، وعاضدتها، وانتصرت لها. وحين قتل جساس كليباً استعرت الحروب التي تسبّبت في تغيّرات مهمة في الخريطة السكانية لوسط شبه الجزيرة العـربية، واستقرّت في هذه المنطقة جمـاعات من بني تغلب وبني عبس وهـوازن. وتعاون المستقرون الجدد مع السابقين من طيء، ونشأ من هذا التجمع ما سمّي بشمر. وحين انبلج فجر الإسلام تسرّب بعض من شعاعه في المنطقة. وظلّت النصرانية تعيش في بعض أسر شمر حتى عهد مروان بن الحكم الذي بعث إليهم قوة شتّتها أهل شمر، فارتدّت على أعقابها. وما لبثت المنطقة أن تحوّلت تدريجياً إلى الإسلام، ولكنهم تـردّوا بعد ذلـك إلى نوع من الهمجيـة الدينيـة التي تنحـدر إلى درجـة الوثنية،(٧٤) وكان هذا حالهم عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد.

كانت قصة دخول منطقة جبل شمر في طاعة الدولة السعودية الأولى هي نفس القصة النمطية لدخول الكثير من الأقاليم الأخرى في طاعة تلك الدولة. حيث تم التحالف بينهم وبين أمراء الأحساء ضد الدرعية في محاولة للإبقاء على المصالح القبلية والمحلية خلافاً لما سعت إليه الدعوة السلفية من الوحدة تحت راية التوحيد. فحين تنكّر أهل القصيم على الدولة، فيما عدا أهل بريدة والرس والتنومة في عام ١١٩٦هـ/ ١٧٨٢م وأقبل سعدون بن عريعر لمناصرتهم كان عربان جبل شمر ضمن العاملين في حشود سعدون. وثبتت بريدة بقيـادة حجيلان بن حمـد

وقاومت لأكثر من خمسة أشهر وتفـرّق العرب عن سعـدون فترك البلدة وانحـاز عنها.[٧٥] وعلى النمط نفسه أيضاً نجد الرد العسكـري السعودي عـلى القبائـل المناوئة الذي غالباً ما يأتي في السنة اللاحقة لإثارة تلك القبائل للعدوان. ففي عام ١١٩٧هـ/ ١٧٨٣م نجد الأمير سعود يغير على المستجدّة «الزرع المعروف عنـد جبل شمر». وبالرغم من أن الأمير أغار على الصهبة من عربان مطير، إلاّ أنه استباح بذلك حرم بادية شمر واخترقه بجنوده.[٧٦] وفي عام ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م حين تقضى ملك بني خالد أو كاد بعد اختلافهم وفرار سعدون إلى الدرعية، وحين بدأت الأقاليم المختلفة تحس وطأة الدولة الناشئة، قام حجيلان بن حمد إلى منطقة الجبل حتى بلغ بقعاً بالقرب من حائل، وتمكن من قافلة لأهل الجبل كانت قادمة من البصرة وسوق الشيوخ،[٧٧] وأعاد حجيلان الكرة مرة أخرى في ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م. ويبدو أنه قد أصبح لدولة التوحيد في المنطقة مناصرون ممّا أتاح لحجيلان أن يبقى هناك «مدة أيام وليال». ويبدو أن الكثير من أهل المنطقة قد دخلوا في طاعة الدرعية[٧٨] عن إيمان بالدعوة أو حفاظا على مصالحهم في عدم عداء تلك الدولة التي اشتدّت شوكتها وقوي عودها. وقد وجد هؤلاء القوم في الحملة التي سيّرها الشريف غـالب بن مساعـد بقيادة أخيـه عبد العـزيز إلى نجـد في عام ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م الفرصة في الخروج على السعوديين وعاضدوا حملة الشريف. وحين انصرفت حملة الشريف قافلة إلى الحجاز كان ردّ الفعل السعودي سريعاً إذ لحق الأمير سعود في آخر ذي الحجة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م بتلك البوادي في الماء المعروف بالعدوة وهو «مزروع لشمر قرب حائل» فنازلهم ووقع بينهم قتال شديد، وقتـل الكثير من رجـالهم منهم قائـدهم مسعود الملقّب حصـان إبليس، وسمرة المشهور رئيس العبيات من مطير وغيرها». وأعادت البوادي في حينها بقيادة مسلط بن مطلق الجربا الكرة بفرسان شمر. ومُني هذا الجمع بهزيمة قاصمة حتى إن جنود سعود ساروا في أثرهم «يومين يأخذون الأموال ويقتلون الرجال. وحاز سعود جميع الغنائم، الإبل أحد عشر ألف بعير، والغنم أكثر من مائـة ألف»[٧٩] ويبدو أن منطقة الجبل قد دانت تماماً بعد هذه الموقعة حيث لم يرد ذكـر لمقاومة شمر في السنة التالية (١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م) حين قام سعود بجنوده إلى ناحية جبل شمر لتأديب

بعض عربان مطير وحرب وغيرهم النازلين على الماء المعروف بالشقرة قرب جبل شمر. (٨٠)

دخلت منطقة جبل شمر في هذه الفترة بزعامة شيوخها من آل علي في طاعة الدولة السعودية. وظهرت حائل في هذه الفترة كعاصمة لإقليم الجبل لتوسطها الإقليم ولثرائها النسبي. آمنت المنطقة بمبادئ الدعوة السلفية(٨١) حتى إننا نجد أن الإمام عبد العزيز قد أمر أهل الجبل وأميرهم محمد بن علي في ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م أن يسيروا مع أهل الوشم والقصيم إلى دومة الجندل في غزوة يحمل راية عبد العزيز فيها محمد بن معيقل أمير الوشم. (٨٢) وليس أدل على الامتثال لأمر الغزو ما يشير إلى تبعية المنطقة لأمر الدولة السعودية وانقيادها لها.

عبدالله آل رشيد

ينتمي عبدالله بن علي بن رشيد إلى عشيرة آل جعفر، وهم أعلى عشائر شمر منزلة، وأنبلها مكاناً، وأرفعها عماداً. وينتمي إلى هذا الفرع أيضاً أسرة آل علي الذين كانت بيدهم السلطة قبل آل رشيد. ويبدو أن عبدالله كان ثرياً، ذا مقدرة فائقة وشجاعة نادرة، فتطلّع للحكم والرئاسة في منطقته حيث كانت أسرته من الأسر الرفيعة الشأن في حايل نفسها، كما كان له صيت قوي وعلاقة مباشرة مع البدو في المنطقة. أحدث عبدالله في أعقاب الحملة المصرية التركية في حائل انقلاباً في السلطة كانت نتيجته لصالحه، وتمّت له السيطرة على مدينة حائل حيث عاضده عشيرته الأقربون وأصدقاؤه الكثيرون، غير أن قرية قفار القريبة من حائل ثبتت في ولائها لآل علي. وكانت قفار لا تقل ثراء ولا شأناً من حائل. وبدأت المقاومة التي انتهت لغير صالح عبدالله فطرد ونفي عن المنطقة في عام ١٨١٨ أو ١٨٢٠م. سار عبدالله في مجموعة من أقاربه إلى الجوف ولم يجدوا مَن يعاضدهم فانقلبوا إلى وادي السرحان حيث استقروا هناك لفترة. وهناك هاجمتهم مجموعة من بدو عنزة، أعداء شمر التقليديين وقتها، وقتلوا كل المجموعة فيما عدا عبدالله الذي اعتقد القوم أنه ذبح إلاّ أنه نجا، وأنقذته قافلة كانت في طريقها إلى دمشق حيث بقي حتى تماثل للشفاء. والطريف في الأمر أن المأثورات الشعبية تسند نجاته لبعض «الكرامات»

حيث بدأ جرحه يلتئم بفعل بعض الجراد، كما ظللته الطيور من لفح الشمس، حتى مرّت به تلك القافلة في طريقها إلى دمشق. رجع عبدالله بعد هذا إلى الجزيرة العربية حيث التحق بخدمة الإمام تركي، وأصبح أحد أصدقائه الذين يعتمد عليهم. وتشير مصادر أخرى إلى أن مسيره إلى نجد كان من بغداد، وليس من دمشق، أو ربّما من دمشق عن طريق بغداد. وعلى العموم فقد كان عبدالله من العقيلات وهم تجار وجنود اعتادوا السفر إلى تلك الأرجاء.

كان عبدالله بن رشيد أبرز قائد في الحملة التي أرسلها الإمام تركي إلى الأحساء في عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣١م بقيادة ابنه فيصل. وحين اغتيل الإمام تركي في ذلك الوقت بواسطة مشاري بن سعود، كان عبدالله بن رشيد من أبرز المناضلين لرد الملك إلى أهله. واحتال ابن رشيد في دخول الحصن عن طريق سويد ابن علي أمير جلاجل السابق الذي كان في الحصن مع مشاري. كتب سويد من الحصن إلى عبدالله بن رشيد خارجه خطاباً جاء فيه: «وبعد أنا رجل مغلوب على أمري والآن أيش عندكم لي ولأني أنا أعرف الذي أنا انسَويه والجواب يجي به الخادم فيضعه في الحبل الذي يلقاه متدلي».(٨٤) عرض عبدالله بن رشيد الخطاب على فيصل بن تركي الذي تساءل عمّا يصبو إليه سويد فترجم عبدالله بن رشيد رغبته التي تعتمل في نفسه منذ أن طلب الرياسة في قومه فقال ابن سويد إنه «يريد رياسة بلاده تكون له ولولده من بعده، وأن يكون له يد عندك. فقال اضمن له ذلك وزيادة».(٨٥) وخاطر عبدالله بن رشيد بنفسه وتسلّق الحصن في اليوم الحادي والعشرين من بدء الحصار وتمكّن منه. ويبدو أنه نال بعد ذلك بدعم فيصل بغيته في أن تكون إمارة الجبل فيه وفي أبنائه من بعده. وبهذا بدأت قبضة فيصل تنفرج عن تلك المنطقة.

توليته الإمارة

لم ينل عبدالله بن رشيد الحكم في شمر بمرسوم الإمام فيصل فقط إذ يبدو من خلال المصادر المحلية والأجنبية (٨٦)، التي بين أيدينا أنه دخل في نزاع طويل

مع الأمير السابق عبدالله بـن علي الذي خرج بعد أن أحس بضعف موقفه يطلب دعماً خارجياً من العراق أو المدينة المنورة أو بريدة التي دخلت وقتها في يد الأتراك المصريين. غير أن عبيد بن رشيد تمكن منه وقتله، وقتل الكثير من أهله وأنصاره. وفر البعض من وجه عبيد، ومنهم عيسى بن عبيدالله. أما عبدالله ابن رشيد فقد اتفق أنه كان مع خورشيد في المدينة يطلب دعمه، فلما علم بانتصارات أخيه عبيد عاد إلى حايل. وحين عينت السلطات المصرية التركية في نجد عيسى بن عبيدالله حاكماً للجبل وأرسلت معه بعض الجنود لتنفيذ تلك المهمة، رأى عبدالله بن رشيد - فيما يبدو - عدم جدوى المقاومة، أو لعله آثر أن يثبت حسن نواياه لحكام نجد الجدد، فانسحب وأتباعه إلى ابن رخيص في جبة. دخل عيسى والجند الذين معه إلى حائل، وأصبح حاكماً لمنطقة جبل شمر في محرم ١٢٥٣هـ/ ابريل ١٨٣٧م. وحين أدى الجند مهمتهم وخرجوا إلا ثلة منهم من المنطقة، لم يستقم الأمر لعيسى الذي وجد معارضة - بادىء ذي بدء - في قفار. وسرعان ما استشرت هذه المقاومة حتى اضطر عيسى للهرب في ذي القعدة ١٢٥٣هـ/ فبراير ١٨٣٨م ودانت المنطقة لعبدالله بن رشيد. وتتبع عبيد بن رشيد من تبقى من أفراد أسرة آل علي ولاحقهم في القصيم واستأصل جذورهم.

خلافاته مع القصيم

لم تكن القصيم على وفاق مع إمارة آل رشيد فقد جمع بين القصيم وقبائل عنزة التفاهم المشترك ضد إمارة آل رشيد. وعجت هذه المنطقة بالنزاع والخلاف في فترة وجود الإمام فيصل في منفاه بمصر. جرت في بقعا في جمادى الأولى ١٢٥٧هـ/ يونيو١٨٤١م الواقعة العظمى، والحادثة الكبرى بين أهل القصيم وأتباعهم من عربان عنزة، وبين عبدالله بن علي بن رشيد وأتباعه من عربان شمر وحرب وغيرهم، «وقتل في هذه الوقعة من أهل القصيم قريب ثلثمائة رجل»، ومنهم ابن عبد العزيز آل عليان أمير بريدة، ويحيى بن سليم أمير عنيزة، وأخوه. وحاولت القصيم أن ترد في السنة التالية حيث قام عبد العزيز العليان، وعبدالله بن سليم، بحملة في اتجاه حائل، ولكنها تقاعست دون ذلك وتراجعت.[٨٧]

وصل فيصل من منفاه في مصر بعد أن أطلق سراحه بوساطة بـريطانيـة وكانت إمارة الجبل المنطقة الأولى التي سألها الدعم ووجده. وحين تحرك فيصل في ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م مدعوماً بقوة ابن رشيد وجد الجمع مساندة من أمير عنيزة، ربما رغبة منه في دعم فيصل، كما وجد مقاومة من أمير بريدة، موجهة بطبيعة الحال ضد عبدالله بن رشيد.

أعان الأمير عبدالله بن رشيد فيصلاً بنفسه، وبقبيلته، وبأخيه عبيد الذي قام بدور رئيسي في هذه الحملة. وحين دخل فيصل الرياض كان عبيد هو رسوله إلى ابن ثنيان في حصنه. وتشاء الظروف أيضاً أن يدخل عبيد الحصن بالحبل،[٨٨] شأن أخيه من قبله حين كانت فتنة مشاري، لا فرق إلا أن الأخير تسلقه خلسة بينما تسلقه عبيد بموافقة ابن ثنيان الذي خشي من أن يفتح الباب فتتدفق منه رجال فيصل إلى الحصن. وحين استسلم ابن ثنيان، أوكل فيصل أمر حبسه لعبيد إلى حين.[٨٩]

تزوج الإمام فيصل من نورة ابنة عبدالله بن رشيد. وخشيت القصيم من أن تؤدي هذه المصاهرة إلى انحياز الإمام إلى آل رشيد في الخلافات المستعرة المتواترة بين المنطقتين فعملوا على قتل ابن رشيد غيلة، ثم ما كان بعد ذلك من المشاكل بين الإقليمين. وتدخل الإمام فيصل حين بعث باثنين من رجاله هما فرحان، وابن سبيت، للتحقيق مع أهل القصيم. ولم يرض ابن رشيد تلكؤ أهل القصيم في حل المسألة مع الرسولين فأرسل أخاه عبيد وحسم الأحداث لصالحه. وغضب الإمام لهذا العمل غير المأذون فاسترضاه عبدالله واعتذر له بقصيدة يذكّره فيها بولائه له واخلاصه من أجله،[٩٠] وشفعت له هذه القصيدة. ولكن الحادث ـ على أية حال ـ كان البداية في طريق تجاوزات آل رشيد على حقوق آل سعود.

طلال بن رشيد

توفي عبدالله بن علي بن رشيد في جمادى الأولى ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م.[٩١] مخلفاً ثلاثة أبناء هم طلال، ومتعب، ومحمد.[٩٢] آل الحكم في المنطقة لـطلال

الذي سار سيرة أبيه في العمل من أجل بناء أسرته وازدهار حائل.[٩٣] وقام عبيد بتولي قيادة المعارك كما كان شأنه في عهد أخيه، فقاد حملة ضد خيبر، واستولى عليها، ودخلت في طاعة آل رشيد.[٩٤] وقاد طلال بنفسه اغارة ناجحة في ١٨٥٥م ضد تيماء وما جاورها، وأغار على الجوف، وشرد الأسرة الحاكمة فيها. وقاد هو وعمه عبيد الغزوات على البدو حتى اطاعوا، وغدت منطقته آمنة. وبدأت حائل فترة نمو اقتصادي، وأقرت بوجود جماعات لا تلتزم بمبادىء الشيخ محمد بن عبد الوهاب، كما أقر طلال بتبعيته للسلطان العثماني، حيث كانت خطبة الجمعة تقرأ باسم السلطان.[٩٥] ولم يكن السلطان يحظى بشيء آخر من هذه المقاطعة إلا ما كان من بعض الهدايا أحياناً.

حين زار لويس بيللي الرياض في ١٨٦٥م وذكر لنا القبائل التي تتبع الإمام فيصل تبعية مباشرة لم يذكر قبيلة شمر ضمن هذه القبائل ذات التبعية المباشرة إنما قال: «إن قبائل جبل شمر تدفع الزكاة للإمام، وتتلقى منه الدعم العسكري ساعة الحاجة.[٩٦] أما البسام فيذكر أن العلاقة بين آل رشيد وآل سعود في هذه الفترة كانت «علاقة صداقة»، وأن القصيم كانت الحدود الفاصلة بين الإمارتين. ويزيد سالدانها (Saldanha) دون أن يذكر الأدلة ـ أن القصيم دخلت في حوزة آل رشيد في عهد طلال، وأن الإمام فيصل قد وافق على هذا الأمر على مضض،[٩٧] ويضيف بأن ما يؤديه طلال إلى الرياض لم يكن زكاة، إنما كان ذلك الأمير يسير سنوياً إلى الرياض بهدايا من الخيل العتاق.

أحس طلال في عام ١٨٦٧م بعلة، واستدعي له طبيب فارسي من بغداد اخطره بأنه سيشفى بعد ذهاب عقله، فجن جنونه، ولم يحتمل ـ كما يقول دواتي ـ نظرات الشفقة التي ستلازمه، فأرسل حينئذ رصاصة اخترقت صدره لتنهي حياته (٩٧ ـ أ). وخلّف طلال عدة أبناء هم بندر، وبدر، وسلطان، ومصلط، ونايف، وعبدالله، ونهار[٩٨].

متعب بن رشيد

خلف متعب أخاه طلالاً، ولم يدم حكمه سوى سنة ونصف حيث تآمر عليه

بندر وبدر، أبناء أخيه طلال، وقتلاه في ١٨٦٨م ثم اعتذرا لعمه عبيد الذي شاخ وقتها، فرد عليهم: «ما فللتم إلا عضدكم ولا قللتم إلا عددكم»(٩٩)

بندر بن رشيد

اعتلى بندر سدة الإمارة في شمر ولكنه لم يعمر كثيراً حيث علق به دم عمه فأرداه. كان محمد بن عبدالله بن رشيد حين قُتل أخوه متعب في مهمة في الرياض فقرر الإقامة في كنف الأمير عبدالله اتقاء شر أبناء أخيه. وما لبث الإمام أن تدخل، فأحدث صلحاً بين أفراد تلك العائلة، ورجع محمد ليصبح أميراً لقافلة حج بغداد. وقد تمكن محمد بن عبدالله بعدئذ من قتل بندر، واستعان بحمود ابن عبيد في قتل من تبقى من أبناء طلال.(١٠٠)

محمد بن رشيد

وصلت أسرة آل رشيد في عهده إلى ذروة مجدها. كان الرجل، كما يقول داوتي، دموياً عنيفاً يحكم بالسيف تلك الجماعات من العرب التي ما كان لها أن تدخل تحت امرته إلا بعد أن حركها بالذعر.(١٠١) خاض محمد إلى سدة الحكم دماء أبناء أخيه، واتبع أساليب قاسية أربكت العرب الذين اضطروا للقول بأن أساليبه القاسية جعلته قوياً وناجحاً. وكان من دواعي حظه أن أسرة آل سعود كانت وقتها منشقة على نفسها، وبهذا أصبح محمد أقوى أمراء نجد طُرا. يقول داوتي أن محمد بن رشيد يستطيع أن يجمع ٢٠٠٠ مقاتل من حايل، و ١٣٠٠ من البدو، كما كانت له ٤٠٠ من الخيل المسوّمة(١٠٢) وامتدت حدوده في الشمال حتى عرب الرولة في شمر الشمالية، وإلى حدود الظفير الذين كانوا اصدقاءه وحلفاءه، وإن لم يكونوا تابعين لدولته. ووصلت حدوده في الجنوب إلى مسافة ١٠٠ ميل تقريباً من المدينة المنورة. وكان طريق الحج السوري هو حدوده الغربية. أما حدوده الشرقية فقد امتدت في ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م حتى بريدة التي استولى عليها ابن رشيد في ذلك العام.(١٠٣)

حاول محمد بن رشيد في بداية عهده أن يرد حملة عثمانية سارت تجاه الجوف ولكنه هزم، واضطر في ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م للخضوع للشروط التي أملاها العثمانيون. وصار محمد بن رشيد بموجب تلك الشروط يدفع ١٥٠٠ مجيدي عن الجوف للسلطان، كما وافق على اقامة حامية عثمانية وقائم مقام في تلك المنطقة. وفي ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م سلم الجنود العثمانيون الجوف إلى ابن رشيد لتأخر رواتبهم المتواتر،[١٠٤] وأصبح محمد بهذه الصفة أحد القادة العسكريين للحكومة العثمانية ومن ضباطها.[١٠٥]

قدم في ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م إلى الإمام عبدالله بن فيصل رؤساء بريدة السابقون من آل عليان وهم: عبدالله بن عبد المحسن آل محمد، ومحمد ابن عبدالله بن عرفج، وحمد بن غانم، وابراهيم بن عبد المحسن بن مدلج آل عليان، يشكون من أن آل مهنا قد أجلوهم من بريدة. وكان هؤلاء يحملون معهم خطاباً من زامل بن عبدالله آل سليم، أمير عنيزة، يساند فيه دعوى آل عليان، ويطلب إلى الإمام أن يناصرهم، ووعد بالدعم والمساندة من جانبه كي تخرج بريدة عن أيدي آل أبي الخيل. وحين سار الإمام إلى بريدة استنصر حسن بن مهنا، محمداً بن رشيد. خرج ابن رشيد من حائل بجنوده ومعه بادية حرب، وشمر، وهتيم، وبني عبدالله، وسار قاصداً بريدة. وتدخل البعض بالصلح، وحالوا دون وقوع القتال، ورجع الإمام إلى الرياض.[١٠٦] أما ابن رشيد، فقد أقام في بريدة عدة أيام ثم رجع إلى حايل. وربما كان هذا هو أول تمرد سافر من ابن رشيد الذي كان حتى هذه الحادثة يعترف بتبعية اسمية لآل سعود ولا يعاديهم بشكل فاضح. وكانت هذه على العموم، نقطة البداية لسيطرة آل رشيد التامة على القصيم.(١٠٦ ـ أ)

نهاية الدولة السعودية الثانية

كتب الوكيل السياسي البريطاني المساعد في العراق العثماني في ذي الحجة ١٢٩٦هـ/ نوفمبر ١٨٧٩م بأن محمداً بن سعود بن فيصل قد احتل الخرج الذي كان عبدالله قد أخرجه منها في ابريل من تلك السنة مع أخوته وأتباعه. ولم يعمر

أبناء سعود في الخرج كثيراً إذ نزل عبدالله عليهم بعد اغارة ناجحة على عرب مطير، وتمكن منهم على حين غرة، وأتى بمحمد بن سعود أسيراً إلى الرياض. كما تفيد تقارير المقيمية البريطانية في ربيع الأول ١٢٩٧هـ/ مارس ١٨٨٠م بأن عبدالله قد صالح أبناء أخيه الذين ارتضوا إمامته، وانضموا تحت قيادته. وتفيد التقارير البريطانية عن شهر أغسطس بأن عبدالله وأبناء أخيه لا يزالون على وئامهم، وأن أبناء سعود يحكمون منطقة الخرج، والحوطة، والحريق، والافلاج، وغيرها من تلك النواحي، وأن لهم الكثير من الأتباع من العجمان، وآل مرة، وقبائل وادي الدواسر، وأن محمداً وعبد الرحمن أبناء فيصل في الرياض يؤازران أخاهما الذي توفي إثنان من أبنائه بالجدري، وتبقى له من أبنائه تركي الضرير(١٠٦ ـ ب) وغدا جلياً أن آل سعود باتوا يعملون يداً واحدة من أجل اجلاء العثمانيين عن الأحساء. وجاءت الأخبار في شهر نوفمبر بأن العمل ضد الأحساء قد فشل لتقاعس شيوخ العجمان عن التحالف.(١٠٧) وعموماً لم تستمر المهادنة بين الإمام عبدالله وبين أبناء أخيه كثيراً ومكّنت الفتنة في البيت السعودي لابن رشيد أن يمد سلطته على قبائل نجد المتاخمة لإمارته. دخلت المجمعة في حماية محمد بن رشيد الذي كان لا يزال من الناحية الأسمية خاضعاً لآل سعود. حاول الإمام عبدالله أن يستعيد المجمعة في ١٢٩٩هـ/ خريف ١٨٨٢م في جنود كثيرة من سدير، والعارض، والوشم، وسارت معه بادية عتيبة. واستنجد أهل المجمعة بمحمد بن عبدالله بن رشيد الذي استنفر بادية شمر، وحرب، وبني عبدالله، وسار من حائل في حشود كبيرة حتى وصل بريدة. وهناك وجد ابن رشيد، حسن بن مهنا في جمع كبير من أهل القصيم. وحين تحرك الزحف تراجع الإمام عبدالله إلى الرياض، ووصل عبدالله بن رشيد إلى المجمعة، وعيّن فيها سليمان بن سامي من أهل حايل أميراً من قبله، وعاد ادراجه إلى حايل (١٠٨)

دخل محمد بن عبدالله بن رشيد بعد هذا في مراسلات مع أبناء سعود في الخرج يحرضهم للانحياز إليه في قتال عمهم عبدالله، أو أن يتركوه له ليتعامل معه ويبقوا على الحياد. ودارت في الوقت نفسه المراسلات بين الإمام عبدالله وأبناء أخيه ليستعين بهم ضد كلّ الخارجين. وتمّ التصالح بين أبناء سعود وعمّهم مرة أخرى

في جمادى الأولى ١٣٠٠هـ/ مارس ١٨٨٣م حيث اعترفوا بإمامته، كما اعترف الإمام بمحمد ابن أخيه سعود قائداً لجيوشه، وأصبح محمد بن سعود بن فيصل القائد العسكري بينما تركت الشؤون الإدارية في يد الإمام عبدالله الذي أقعده المرض فترة طويلة عن تولي قيادة الجيوش بشخصه.(١٠٩)

أصبح واضحاً أن القبائل الرئيسية في المنطقة التي كانت تساند التجمع السعودي هي عتيبة، وقحطان، ومطير، وآل صبيح، والسهول، والدواسر، والعجمان، وآل مرة، بينما كانت قبائل شمر، وحرب، ومنطقة بريدة، هي القبائل المناصرة لابن رشيد. واستمرّت المناوشات والحروب بين الجانبين بعد هذا، ولم ينل أي منهما نصراً مؤزراً.(١١٠) ثم رجحت كفة ابن رشيد في وقعة عروى في ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م بين محمد بن سعود بن فيصل من جانب وبين ابن رشيد وحسن بن مهنا من جانب آخر، ومعركة أم العصافير في سهل الحمادة شمال أشيقر في ٢٨ ربيع الآخر ١٣٠١هـ/ ٢٥ فبراير ١٨٨٤م،(١١١) وقد قوّت نتائج أم العصافير من أمر محمد بن رشيد، وأضعفت عبدالله بن فيصل الذي انفرجت قبضته عن سدير، والوشم، لصالح ابن رشيد.

لم يستمرّ الوئام بين الإمام ومحمد ابن أخيه كثيراً، وحدث سوء تفاهم أدّى بمحمد بن سعود أن يترك عمه ويتراجع إلى الخرج. وبهذا انقسمت القبائل الموالية للسعوديين وازداد الإمام ضعفاً، بينما كان ابن رشيد يزداد قوة وعنفاً. هاجم ابن رشيد في رجب ١٣٠٢هـ/ أبريل ١٨٨٥م عشيرتين من العجمان كانتا تنزلان على ماء شمال الأحساء وأوقع بهما الهزيمة، ونهب خيولهما ومتاعهما عقاباً لهما عن مهاجمتهما لبعض العشائر الداخلة في حلفه. وسار العجمان في أثر ابن رشيد واستردوا بعض سلبهم.(١١٢) وربما لم يرضَ العثمانيون من ابن رشيد هذا العمل لمجاورة العجمان لمنطقة حكمهم المباشر وعولج الأمر بما اتّفق.

بدأت الاتصالات بين العثمانيين وابن رشيد تزداد روابطها، فأرسلت له دار الخلافة في ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م هدايا قيّمة. وربّما كان ذلك الإجراء تمهيداً للبعثة العثمانية التي أتت إلى حائل في شعبان ١٣٠٣هـ/ مايو ١٨٨٦م بهدف أن تقيم فيها مسجداً ومدرسة. قابل ابن رشيد البعثة العثمانية بكل الحفاوة ولكنه لم يمكنها من

أهدافها. [١٣] ويبدو أن سعي العثمانيين للأمير ابن رشيد كان نابعاً من معرفتهم ببدء صعود نجمه، إذ تدل التقارير في عام ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م أن لابن رشيد قوة تصل إلى حوالى ٢٠٠٠ فارس، و١٥٠٠ راجل وراكب على الهجن، وأن التعبئة العامة لا تستغرق منه زمناً، كما أن لـه أربعة مـدافع ميـدان، وحوالى ١٠٠٠ بندقية. [١١٤] وكان هذا عتاداً لا يستهان به في عهد السلاح الأبيض في الجزيرة العربية.

جاءت الأخبار في عام ١٣٠٣هـ/ أكتوبر ١٨٨٥م بأن أبناء سعود وهم محمد وسعد وعبدالله قد ساروا في حشودهم من الخرج إلى الرياض التي تمكّنوا منها، وألقوا القبض على عمهم الإمام وسجنوه. [١١٥] وكتب محمد بن سعود إلى شيخ البحرين يخطره بأنه قد أصبح أميراً على نجد، كما خاطب شيوخ عمان بخطابات مماثلة. [١١٦] وكتب محمد بن سعود أيضاً إلى ابن رشيد يطلب إليه سرعة سحب عماله من القصيم وسدير، وهدّده وتوعده كما كتب محمد إلى أهل الأحساء بأنه سيفد إليهم حال استقرار أموره ليخلصهم من العثمانيين. [١١٧] ولم يهنأ محمد بن سعود بهذا الانتصار طويلاً. أظهر محمد بن عبدالله بن رشيد السخط على هذا العمل، وراح يقطف ثمار الخلاف، فكتب إلى رؤساء الحواضر يسفه ما قام به أبناء سعود، ويدعو إلى نصرة الإمام (١١٧ ـ أ). وسرعان ما تكاثر القوم خلف «قميص عثمان» وزحفوا بالحشود إلى الرياض في أوائل ١٨٨٨م. وقد أصاب محمد بن رشيد في هذه الغزوة مساندة عثمانية جادة، وكان معه مدفع كبير أعطاه له العثمانيون. عرف أهل العارض بأن المقاومة غير مجدية، [١١٩] وعلى مشارف الرياض تلقّى ابن رشيد وفداً من أهل المدينة برئاسة عبد الرحمن بن فيصل. وتمّ الاتفاق على عهد أمان لأبناء سعود بن فيصل على أن يغادروا المنطقة إلى الخـرج، وإطلاق سراح عبدالله الذي سمّي إماماً مرة أخرى، وعلى أن يسير الإمام عبدالله ليكون في حمى ابن رشيد في حايل، وأن يتولى حكم الرياض محمد بن فيصل نائباً عن الإمام يساعده وكيل معين من قبل ابن رشيد. [١٢٠] وقد سمّى ابن رشيد أحد أخواله، وهو سالم السبهان، (١٢٠ ـ أ) كوكيل معيّن من قبله في المنطقة. [١٢١] ولمّا كان ابن رشيد، بصفة اسمية على الأقل، نائباً في حكم المنطقة عن الدولة العثمانيـة فقد

كتب بأخبار انتصاراته هذه إلى السلطان وعبرت الآستانة عن ابتهاجها بهذا النبأ. (١٢٢)

كان ابن السبهان، ربّما بتوجيه من ابن رشيد، يتحينّ الفرص للقضاء على أبناء سعود في الخرج لأنهم باتوا يشكّلون عنصر المقاومة السعودية. شكا بعض أهل الخرج إليه خلافاً مع أبناء سعود فذهب سالم إلى الخرج بحجة حسم الخلاف، وحسمه في ذي الحجة ١٣٠٥هـ/ أغسطس ١٨٨٨م بعد خمسة شهور من تعيينه على الرياض، وذلك بقتل محمد (غزلان) وسعد وعبد الله. (١٢٣) ولم يبقَ من أبناء سعود سوى عبد العزيز (١٢٣ ـ أ) الذي كان في زيارة لعمّه الإمام عبدالله في حايل. (١٢٤) وكان محمد بن سعود مشهوراً بالشجاعة والإقدام، وأحبّه لصفاته هذه أهل نجد كثيراً، واحترمه حتى الأعداء منهم، ولهذا لم يصدق البدو خبر مقتله وظنوا أنه هرب. (١٢٢) ولم يرض الكثير من النجدين من ابن رشيد ووكيله هذه المسألة. وبهذا بدأت المشاعر تحن إلى آل سعود. واتقى ابن رشيد هذه الغضبة بأن عزل سالم السبهان عن حكم الرياض وجعل مكانه فهاد بن رخيص. (١٢٦)

سمح محمد بن رشيد للإمام المتحفظ عليه بالرجوع إلى الرياض وذلك نظراً لسوء صحته، فقام في صحبة أخيه عبد الرحمن إلى الرياض، وتوفي الإمام بعد فترة وجيزة من بلوغه عاصمة ملكه. (١٢٧) ويبدو أن ابن رشيد قد عينّ محمد بن فيصل أميراً على الرياض كما يفهم من رواية ضاري الرشيد حين يقول: (١٢٨) «وحين بلغ ابن رشيد وفاة الإمام كتب حالاً إلى محمد بن فيصل على أنك أنت الأمير في الرياض، وأن فهاد ورجاجيلنا يأتون إلاّ أن بغيت يبقون فهم تحت أمرك. واستمرّ محمد على ذلك سنة ونصف، وقد تزوّج زوجة أخيه المذكورة وتوفي». ولا يستقيم هذا الأمر مع المصادر الأخرى التي لم تذكر خلافة لمحمد المذكور، وربما حكم محمد لفترة وجيزة إلى جانب وكيل ابن رشيد. ويبدو أن الأمير عبد الرحمن بن فيصل كتب إلى ابن رشيد يذكّره بوعده في نيابة وكيله سلفاً عن الإمام عبدالله عندما كان بحايل. وطلبَ عبد الرحمن عزل فهاد، فعزل ابن رشيد فهاد، وعينّ مكانه سالم السبهان مرة أخرى. (١٢٩) ويبدو أن الأمير عبد الرحمن قد توجّس من ابن السبهان الذي لا زالت يداه ملطّختين بدماء أبناء سعود، وربما شكّ بأن هذا الرجل أُرسل

إلى الرياض في مهمة مماثلة. ألقى عبد الرحمن وآل سعود الذين كانوا في الرياض القبض على السبهان وسجنوه ولم يقتلوه وذلك لوجود عدد من أفراد أسرة آل سعود في بلاط آل رشيد. وتمكّن عبد الرحمن بهذا في عيد الأضحى ١٣٠٧هـ/ ٢٨ يوليو ١٨٩٠م من الرياض. وانحاز زامل بن عبدالله بن سليم في عنيزة، وحسن ابن مهنا في بريدة لعبد الرحمن بن فيصل، وعاضدته منطقة القصيم على إطلاقها.(١٣٠) ويبدو أن ابن رشيد تغلّب عليهم بالدهاء وبالوعود حين سار في طريقه إلى الرياض إذ لا تثبت المراجع وقوع معارك في القصيم. وصل محمد بن رشيد إلى أسوار الرياض، وحاصرها أربعين يوماً، وقطع جملة من نخيلها. ولمّا أعجزته الرياض طلب الصلح،(٣١) فخرج إليه وفد مكوّن من محمد بن فيصل، والشيخ عبد الله ابن عبد اللطيف رئيس القضاة، والشيخ حمد بن فارس، وعبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل (الملك بعدئذ).(١٣٢) وتمّ الصلح على أن تظلّ الرياض في سلطة آل سعود، وعلى أن تدخل الوشم وسدير وتوابعهما في طاعة ابن رشيد، بالإضافة إلى القصيم التي كان يسيطر عليها سلفاً، ومنطقة جبل شمّر إمارته الوراثية. وأضيف إلى ابن رشيد إقليم الخرج الذي عهد بإمارته لأحد رجاله.(١٣٣) وحين تمّ الصلح كتب الإمام عبد الرحمن، كما كتب عبدالله بن رشيد به إلى متصرف الأحساء. دافع محمد بن رشيد في خطابه عن عبد الرحمن بن فيصل، ونفى ما أشيع من أن الإمام يخطط لغزو الأحساء. وجاء في خطاب عبد الرحمن بأن العلاقة مع ابن رشيد طيبة، وأن كليهما تابع لحكومة السلطان.(١٣٤)

رجع ابن رشيد إلى حايل دون أن يبر بوعوده فيما يبدو لأهل القصيم بل قام بتعيين حسين بن عسّاف أميراً على الرس التي كان يحكمها أمير من قبل حسن ابن مهنا فخرج إليه حسن بن مهنا في أهل بريدة، وزامل السليم في أهل عنيزة، واستنفر ابن رشيد قبائله وعشائره.(١٣٥) حقّق أهل القصيم انتصارين غير مؤثرين على ابن رشيد في القرعا والشقة، ثمّ حقّق ابن رشيد بعدئذ انتصاراً حاسماً على هذا الجمع في المليدا في ١٣ جمادى الأولى ١٣٠٨هـ/ ٢٤ ديسمبر ١٨٩٠م.(١٣٨) وبهذه الموقعة ضعفت القصيم تماماً. وقد قُتل في هذه المعركة زامل وابنه وابن اخته. أمّا حسن بن مهنا فقد أُصيب ببعض إصابات ورحل إلى عنيزة حيث قابل

عبدالله بن عبد الرحمن البسام ليشفع له عند ابن رشيد. وتعهّد ابن رشيد بعد الوساطة بحبسه دون قتله، ورفض العفو المطلق عنه، «لأني لقيت له مكاتيب بينه وبين عبد الرحمن آل فيصل فيهن مواعيد علي». (١٢٧)

كان عبد الرحمن الفيصل يزحف في حشد كبير لإنقاذ القصيم من المصير الذي يبيّته لها محمد آل رشيد. وحين وصل إلى الخفس بلغه خبر موقعة المليداء فتراجع إلى الرياض، وتفرّق جنده فخرج من الرياض قاصداً بادية العجمان، واستولى الأمير محمد بن رشيد بعدئذ على بادية نجد كلّها. (١٣٨) وفرّ عبد الرحمن إلى الصحراء. أمّا ابن رشيد فقد سار إلى الرياض، وأزال سورها وحطّم تحصيناتها وجعل فيها محمد بن فيصل أميراً من قبله، وانقلب بعد ذلك إلى إمارته في حايل. (١٣٩)

يبدو أن عبد الرحمن قد ذهب إلى قطر عند قاسم بن ثاني. وليس من المستبعد أن يكون قاسم قد اتّصل في شأنه مع المتصرّف عاكف باشا إذ نجد خبر الإمام عبد الرحمن بعد هذا في الأحساء. ونزل عبد الرحمن في عين نجم في جمادى الثانية ١٣٠٨هـ/ يناير ١٨٩١م وأوفد عاكف باشا إلى الإمام عبد الرحمن مفاوضاً اسمه زخور عازار، وهو طبيب لبناني. ولم يكن لزخور ما يقدّمه سوى شروط العثمانيين البالية التي تجاوزتها الأحداث. طلب زخور إلى الإمام عبد الرحمن أن يعمل على استرداد الرياض، وأن يعترف حينئذ بسيادة الدولة العثمانية، ويؤدّي لها الزكاة. رحل عبد الرحمن بعد أن يئس من العثمانيين إلى قطر، وأقام عند قائم مقامها الشيخ قاسم بن ثاني لمدة شهرين. (١٤٠) حتى اتصل به متصرّف الأحساء يدعوه للقدوم إليه مرة أخرى. رجع عبد الرحمن إلى الأحساء وأقام في فريق النعاثل حتى تم الاتفاق بينه وبين المتصرّف على أن يقيم في الكويت، وخصّصت له الدولة العثمانية معاشاً سنوياً. (١٤١)

وحين توفي محمد بن فيصل في الرياض في ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م، (١٤٢) لم يبقَ لآل سعود فيها ما يحدث عنهم سوى تاريخ أسلافهم الذي رسموه على جبين تلك البلدة.

الفصل الرابع

عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل يستخلص القصيم

حين بدأ عبد العزيز بن سعود يوحد أرضه، ويعيد بناء الأسرة السعودية في نجد، ركز جهوده بعد استخلاص الرياض على منطقة الخرج والدلم وما تلاها من النواحي في جنوب الرياض، وذلك حرصاً منه ـ على ما نعتقد ـ على عدم استعداء الدولة العثمانية، ولتجنب مواجهتها ما أمكن الحال. لم يكن عبد العزيز ـ كما سنرى ـ خارجاً على الدولة العثمانية، ولكنه كان يطلب حقاً مضّيعاً. وكانت الدولة العثمانية تساند عبد العزيز بن متعب بن رشيد، ولهذا كان التناقض مع الدولة الذي سعى ابن سعود جاهداً لحله سلمياً بالوسائل الدبلوماسية، ولم يكن ابن رشيد الذي استعدى القبائل فخرجت من يده، قوة يخشى بأسها. لم يسع ابن سعود لابن رشيد في القصيم حيث حدود العراق العثماني، وانتظره في منطقة الرياض عله يسعى إليه. وبالفعل أفلح ابن سعود في جر ابن رشيد إلى الرياض، فالخرج والدلم، وأطال في خطوط امداداته، وأنهك جنده، في أرض معادية، فرجع ابن رشيد بالهزيمة.

حين ثبتت هذه المناطق لابن سعود باتت الخطوة التالية إلى القصيم أمراً محتوماً. وفي القصيم حدثت المواجهة العسكرية بين ابن رشيد المدعوم بألوية الدولة، وابن سعود المدعوم بالرأي العام. كسب عبد العزيز بن سعود في ميادين الحرب والدبلوماسية، وخلصت له القصيم بعد مفاوضات والده الإمام عبد الرحمن مع السلطات العثمانية. شلّ هذا الوضع الجديد كل خطط مبارك، شيخ الكويت،

وكانت بداية جفوة. غير أن المصالح المشتركة بين مبارك وعبد العزيز ظلت أقوى من المشاعر الشخصية، والمكاسب المؤقتة، والخطط المرحلية.

كان عبد العزيز يحتاج إلى المؤونة والذخيرة والسلاح والاتصال بالعالم الخارجي، وكانت الكويت نافذته إلى ذلك كله. وكان مبارك يحتاج الحماية من هجمات الشيوخ الأقوياء والقبائل التي تجاور مشيخته. وداهن كل من الرجلين الآخر لتحقيق أهدافه. ورغم ذلك بدأ عبد العزيز بن سعود اتصالات أخرى من خلال قاسم آل ثاني ليكسر الإحتكار الكويتي لشريان السلاح والمؤن إلى دولته الناشئة. وزاد هذا من حدة قسوة الجفوة في نفس مبارك فراح يُعرِّض بعبد العزيز بن سعود كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. وفي هذا الوقت انتهى أمر القصيم التي دخلت في دولة ابن سعود سلماً وحرباً بعد انسحاب الجنود العثمانيين. وحين كانت محاولات شريف مكة لاستخلاص المنطقة من ابن سعود، وحين كان ارتداد الشريف إلى الحجاز على النحو الذي سنذكره، ثبتت لعبد العزيز السيادة في القصيم تماماً.

اضطراب الوضع السياسي في الكويت

حين كان السفير البريطاني في الاستانة يناقش شؤون قطر مع الحكومة العثمانية في ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م اعترف بالكويت أرضاً عثمانية كما هو الواقع فعلاً. لم تستلفت الكويت نظر الحكومة البريطانية في الهند ولا في لندن. وحين قام بعض العرب في منطقة الكويت في ٣٠ ربيع الأول ١٣١٣هـ/ ١٩ سبتمبر ١٨٩٥م بالهجوم على هاربيسا(Harpisa) البغلة التي ترفع العلم البريطاني، وكان على المنطقة أن تؤدي الغرامات التي يفرضها المقيم البريطاني في هذه الأحوال، كان من رأي كلكتا الذي أدلت به في شعبان ١٣١٤هـ/ فبراير ١٨٩٧: «يبدو أنه من الأفضل لنا أن نضع مسؤولية أعمال شيخ الكويت على الحكومة التركية».[١] وفي ٢١ شوال ١٣١٤هـ/ ٢٤ مارس ١٨٩٧م نجد مذكرة من وزارة الهند إلى وزارة الخارجية البريطانية فيما يخص هذا الحادث جاء فيها ما يلي: «إذا كان الماركيز سالسبري (وزير الخارجية) يميل للإعتراف بالسيادة التركية على الكويت فإن اللورد

هاملتون (وزير الهند) يرى أن يطلب إلى الأتراك دفع التعويض، أما إذا كان يرى أن حاكم الكويت مستقل، فيبدو لنا أنه من المستحسن أن نوجه له انذاراً عنيفاً، ونخطره بأننا سنضطره لتحمل مسؤولياته مستقبلاً إذا لم ينته اتباعه عن الهجوم على بغلات الرعايا البريطانيين».(٢) لم تكن الهند حتى هذه الفترة تهتم بما يجري في الكويت، أو تأبه لوضعها القانوني فيما إذا كانت مستقلة بذاتها أم تابعة للسيادة العثمانية. فهي لا تخشى خطراً دولياً من تلك الناحية، ولهذا كان كل همها بالنسبة للكويت أن تظل ساكنة هادئة تحترم العلم البريطاني المرفوع على السفن والقوارب المبحرة في شط العرب والخليج العربي، وذلك حتى لا تؤثر هذه الهجمات في النظام التهادني الذي يحكم مياه الخليج. وكما يظهر من حادث القارب هاربيسا فإن الأمور بدأت تهتز في الكويت، وكان لهذا الإضطراب سبب.

كانت الكويت في هذه الفترة من نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تشهد تغيراً في السلطة الحاكمة محلياً، حيث أطاح مبارك بن الصباح بأخويه محمد وجراح وقتلهما. وخرج أبناء القتيلين يعملان لاسترداد السلطة، وإدراك الثأر، والمطالبة بحقوقهم في الوراثة التي غمطها إياهم عمهم. وراحوا في سبيل ذلك يستعينون بالعثمانيين وولاتهم في البصرة، وبقاسم آل ثاني في قطر، وبإبن رشيد في حايل، وبالسلطات البريطانية في العراق العثماني،(٢ ـ أ) لا يستثنون قوة اقليمية أو دولية إلا جهدوا في الحصول على دعمها لمساندتهم. وأدت هذه التحركات إلى تغييرات كبيرة في الخارطة السياسية في المنطقة. كانت حكومة كلكتا في الهند وراء الأحداث تلاحقها، وتقيم سياستها بما يتفق ومواكبتها. لم تكن سياسة الهند في هذه الفترة إلا سياسة وقتية تستجيب للواقع، وتخطط لما هو قائم باستمرار، وتحاول أن تدفع لندن إلى ما تريد. لم تتميز سياسة الهند بالثبات، إنما كانت كثيرة التغير والتقلب، وكان هذا التذبذب في سياسة الخليج مؤشراً دقيقاً على المتغيرات التي تعتري المنطقة. ولم تكن حكومة لندن، وخاصة وزارة الخارجية البريطانية، سعيدة بالمنعطفات السياسية التي تقودها إليها حكومة الهند. فسياسة لندن سياسة استراتيجية طويلة المدى، تضع في اعتباراتها مسائل كثيرة من التحالفات الدولية، والتحالفات المضادة، وموازين القوى العالمية حيث كانت تتعامل مع الكرة الأرضية على

استدارتـها، وتدور في فلك سياساتها، وترى في الاختلال أمراً جللاً، وفي التغيير الذي لا يقوم على حسابات دقيقة أمراً خطيراً. أما سياسة الهند فكانت ترى العالم كله في الهند، لا يهمها من شؤون العالم شيئاً، وإذا تعارض العالم مع الهند فهو وشأنه.

اتصلت الهند، مأذونة من لندن، بـوالي بغداد العثـماني، للتحقيق في أمر القارب الهندي. وفي هذا اعتراف كامل بالكويت عثمانية الهوية والولاء. حدث هذا في أواخر عام /١٨٩٧م/ وحين طلب مبارك الحماية البريطانية في شوال ١٣١٤هـ/ مارس ١٨٩٧م، اندهشت حكومة الهند لهذا الطلب الذي لم تقابله بالرفض التام. وتحرّت الهند في حالة الكويت ووضعها. ووصلت إلى أن الكويت «ليست تحت الحماية التركية، إلا أنها بصفة فعلية تحت النفوذ التركي». أمـا سالسـبري الذي أحيل له طلب الشيخ مبارك بعد موافقة مبدئية من وزارة الهند، فقد ثبت على رأيه بأن «حكومة صاحبة الجلالة لا تريد أن تتدخل في شؤون تلك المشيخة بأكثر مما هو لازم لضـمان السلم العـام في الخليـج». جـاء هـذا الـرأي في ربيـع الثـاني ١٣١٥هـ/سبتمبر ١٨٩٧م [٣] تأكيداً لما ورد قبل ذلك في يوليو من ذلك العام، حين أرسل المقيم البريطاني إلى حكومته يفيد بأن الشيخ يوسف الإبراهيم، نصير أبناء القتيلين، قد هاجم الكويت في ٣٠ يونيو ورد على أعقابه. وكان من رأي سالسبري في هذه المناسبة «أنه إذا لم يتدخل الشيوخ المهادنون، وإذا لم تقع حوادث قرصنة، فلا شأن لنا بما يجري. أضف إلى ذلك أنـه بالـرغم من أننا لم نعتـرف بالحماية التركية على الكويت، فإن هنالك شكاً في أننا نستطيع إنكار ذلـك»[٤]. وبالرغم من هذا كله أرسلت بوشهر جاسكن، مساعد المقيم، إلى الكويت، في نهاية سبتمبر، ليقابل مبارك ويحمله مسؤولية الإعتداء على السفن التي ترفع العلم البريطاني. وجرى في اللقاء استعراض مسألة أبناء أخويه القتيلين الذين يساندهم يوسف الإبراهيم. وأبدى مبارك رغبته في أن يتوسط عيسى، شيخ البحرين، لحل هذه المسألة التي يعتقد مبارك أن يوسف الإبراهيم هو مؤججها، حيث ظل أبناء القتيلين يسكنون في الكويت فـترة بعد هـذا الحدث حتى استهـوتهم «مؤامرات» يوسف الإبراهيم. وقال مبارك إنه مستعد لشروط التسوية جميعهـا بشرط أن لا

يعيش أبناء أخويه القتيلين في الكويت حتى لا يحاولوا إدراك ثأرهم منه. وطلب مبارك الحماية البريطانية مرة أخرى. وكان رأي جاسكن: «أن مبارك قد استنزف مجهوداته للإعتراف به من قبل الأتراك، تلك المجهودات التي كلفته شططاً كثيراً، ولم تفده في الإعتراف به حاكماً على الكويت»، وبالرغم من هذا أوصى جاسكن بأنها فرصة هيأها مبارك ويجب أن تهتبل. وعدّد جاسكن أسباباً كثيرة تدعو لذلك.(٥) وكرر مبارك طلبه مرات ومرات. وأصاب طلبه المساندة الجادة من موظفي الهند في الخليج، والمساندة الفاترة من حكومتي بومباي وكلكتا، وعدم الإكتراث من وزير الهند بلندن، والرفض القاطع من وزارة الخارجية البريطانية.
وحين ظهرت في بداية عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م الإهتمامات الروسية بالكويت، إلى جانب الإهتمامات الألمانية المسرحية فوق ظهر العثمانيين، راحت الهند تدق بعنف على لندن محذرة. وتحرك سالسبري، في نهاية عام ١٨٩٨م حركة المدفوع لأمر لا يرغبه، وقرر أن «فرض الحماية على الكويت، والذيول المتصلة بهذا الأمر، هو أمر يتعلق أساساً بما تراه حكومة الهند، وذلك لأن مسؤولية التنظيمات الخاصة بتأكيد تلك الحماية، والحفاظ عليها، وضبط الشيخ، وما ينجم عن ذلك هي أمور تخص تلك الحكومة.» ووصل سالسبري إلى أنه يمكن لحكومة الهند أن تسبغ حمايتها على الكويت بشرط ألا يكلف هذا الأمر أعباء مالية أو إدارية غير مستساغة، وفي هذه الحالة فقط فإنه مستعد لأن يساند هذه الخطوة دبلوماسياً.(٦) تلقت الهند هذا الرأي وأسرعت حكومته بعقد اتفاق تعهد مع مبارك في ١٠ رمضان ١٣١٦هـ/ ٣ يناير ١٨٩٩م، (٧) ولما ينقضي شهر واحد على موافقة وزير الخارجية. وكان دفاع الهند عن الكويت بعد هذا صادقاً. ففي خلال شهر واحد من ابرام الإتفاق كانت الحكومة البريطانية مستعدة لاستعمال القوة ضد التدخل العثماني في الكويت. كما حذرت الحكومة البريطانية من خلال مقيمها في الخليج، إبن رشيد في رجب ١٣١٨هـ/ نوفمبر ١٩٠٠م بأنها لن تسمح بأي هجوم على الكويت. واستطاعت حكومة الهند في فترة وجيزة أن تلوي ذراع لندن للموافقة على خططها في الكويت، ولبست الكويت دثار الحماية البريطانية، بينما كان شيخها يتصل بالعثمانيين كذلك حتى لا يتدخلوا لصالح أبناء أخويه القتيلين.(٨)

كانت البصرة، التي تسيطر على السياسة العثمانية في الكويت، تحت ولاية حمدي باشا الذي حاول أن يناصر أبناء القتيلين، ورفع أمرهم للباب العالي. واستطاع مبارك بالرشوة، وبعلاقته مع نقيب البصرة أقصاء حمدي عن الولاية التي صارت لمحسن باشا في خريف عام ١٨٩٩م. وحسنت علاقات مبارك بالعثمانيين، وبدأ يمارس دوره قائم مقام عثمانياً على الكويت، بينما أصبح يوسف الإبراهيم في نظر الباب العالي مجرماً لما قام به من تهديد لأراضي الكويت. جاء حمدي باشا إلى العراق مرة أخرى والياً على بغداد. ويبدو أنه كان متعاطفاً مع أبناء القتيلين الذين كانوا يقيمون في الزبير.(٩) وكان هذا من الدوافع التي اسرعت بمبارك وكويتة لحظيرة البريطانيين، فوّقع معهم الإتفاق على الرغم من أنه كان يحمل رتبة القائم مقام من الدولة العثمانية، ويتقاضى منها معاشاً سنوياً قدره ١٥٠ كارة من التمر (١/٢ ١ طن). وحتى بعد أن وقّع مبارك الاتفاق مع البريطانيين ظل يتقاضى راتباً شهرياً من العثمانيين عن وظيفته كقائم مقام قدره ٢٨٠٦ قروش شهرياً. وقد عرف القنصل البريطاني هذا الأمر من كشف الرواتب في ولاية البصرة لعام ١٨٩٩، وكتب به لحكومته. (١٠) وقبل نهاية العام عرف العثمانيون بأن مبارك قد خرج عن قبضتهم ليستقر في حماية بريطانيا.

عبد العزيز بن سعود في الكويت

كان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل يقيم في هذه الفترة المضطربة من تاريخ الكويت مع أبيه عبد الرحمن وأسرته قريباً من الحاكم في الكويت. وحين بدأت الاضطرابات بين نجد التي يحكم فيها ابن رشيد، وبين الكويت، كان من الطبيعي أن ينحاز ابن سعود إلى مبارك ضد عدوهما. وحين عزم عبد العزيز على الخروج إلى نجد لم يكن له من رصيد إلاّ ايمانه بربّه، وبتاريخ أسرته الحافل، وبعزم الشباب الذي لا ينثني، ورصيد آخر لا يحسد عليه وهو وزر الشيخ مبارك. كان مبارك في مستنقع النفوذ الانكليزي، وعبد العزيز في صف مبارك. ولهذا خلصت الدولة العثمانية، كما خلص ابن رشيد، إلى أن عبد العزيز يقف في المعسكر البريطاني. نجد هذا واضحاً في خطاب الإمام عبد الرحمن(١١) الفيصل إلى الوكيل

السياسي البريطاني في الكويت المؤرخ في ١٠ جمادى الثانية ١٣٢٢هـ/ ٢١ أغسطس ١٩٠٤م حين يقول «لأن توصياة بن رشيد مع أوادمه الذي يرسلهم لولدنا عبد العزيز والي بلادينا والينا إنه ماشي بعسكر السلطان يقتلون رجالنا ويستولون على النساء والبلدان لأن آل سعود يبون يدخلون الإنجليز في نجد هذا وصاياه إلى عامة عموم الناس. . .». ونقطع من جانبنا، اعتماداً على الوثائق، بأن الأمير عبد العزيز لم يظفر بأية مساعدة مالية أو عينيّة من البريطانيين أو سواهم من القوى الأجنبية، إلّا عشيّة الحرب العالمية الأولى حين كان حياده مفيداً لبريطانيا. إشترت بريطانيا ذلك الحياد الذي خدم به عبد العزيز قضيّته حيث التقت مصلحته مع مصلحة بريطانيا. كان هذا الاعتقاد الخاطىء هو الذي دفع بالدولة العثمانية لإلقاء ثقلها في كفّة ابن رشيد. ولا ننسى بالطبع الإرث التليد في العلاقات العثمانية السعودية، الذي عصف بالدولة السعودية الأولى، والطارف الذي كان سبباً في سقوط الدولة السعودية الثانية.

بداية الاضطرابات بين نجد والكويت

خرج يوسف الإبراهيم ليستقرّ في الهند فترة ثم جاء إلى الجزيرة العربية وقصد إلى حايل حين عرف بأن الدولة العثمانية قد اتّصلت بالأمير محمد العبدالله ابن علي بن رشيد ليتوسط في أمر الخلاف بين مبارك وأبناء أخويه.(١٢) ولم يحدث تقدّم في الأمر. توفّي محمد الرشيد في ٣ رجب ١٣١٥هـ/ ٢٧ نوفمبر ١٨٩٧ وتولّى الإمارة عبد العزيز بن متعب الرشيد. وتجمع كل مصادرنا ومراجعنا أنه كان فارساً لا يهاب، قاسياً لا يرحم، واثقاً لا يهتم. قيل إن أول خطابه إلى أهل نجد، بعد أن دفن عمه محمد بن عبدالله، بأنه ليس لديه لهم إلّا الحافر وصنع الكافر، أي الخيل والأسلحة النارية.(١٣) ونجد في بعض المصادر الموالية تماماً لآل رشيد ذكراً لعبد العزيز بن متعب حيث يصفه «بأنه كان عنيداً لا يستشير أحداً، واثقاً في شجاعته وتصميمه، فتفرّق عنه الأنصار».(١٤) سعى مبارك إلى هذا الرجل بالحرب حتى لا يتبنّى قضية الإبراهيم، وكان هذا هو السبب المباشر. أمّا الأسباب الأخرى فكثيرة ومتّصلة تختص بنزاعات القبائل المختلفة التي تتبع هذا الطرف أو

ذاك، والاحتكاكات بين القوافل التجارية وأهل البادية. كان النزاع بين القبائل في العراق العثماني وقبائل نجد الشمالية وشمر من الأمور المتواترة، كما كانت حايل ظهيراً للكويت حيث كانت تجارتها تجري حتى تلك المناطق بالاختلاف والائتلاف. وزاد وجود الإمام عبد الرحمن وأبنائه في الكويت من حدة الخلافات. ويبدو أن ما أحدثه عبد العزيز بن متعب في نجد من سياسة مغايرة لسياسة عمّه التي كان للتهادن فيها فسحة وبرحة، وللدهاء فيها مكان ومرام، قد ألّبت على ابن رشيد القبائل، وأثارت ذكرى الأمن على الأعراض والدماء والأموال التي حقّقها السعوديون لات استتباب حكمهم، فراحوا يتّصلون بالإمام عبد الرحمن يطلبون ظهوره في نجد مخلصاً من ابن رشيد.

بداية الانطلاقة السعودية

بدأت الاضطرابات في المنطقة، والاضطرابات لا تولّد إلّا الاضطرابات. أرسل راتسلاو في ٣٠ رجب ١٣١٨هـ/ ٢٢ نوفمبر ١٩٠٠م إلى دي بنسن (De Bensen) بأن الاضطرابات التي لفّت شبه الجزيرة العربية في فترة الشهور الثلاثة الماضية، كانت من تخطيط مبارك وبمؤازرته. يشير راتسلاو بأن مبارك حالياً في وضع يستطيع أن يتحدّى فيه عبد العزيز بن رشيد، أقوى شيوخ الجزيرة العربية طراً. ويشرح راتسلاو وضع مبارك فيقول إنه يتمتع بميناء مفتوح يهيّئ له الإمدادات من السلاح ومن الذخيرة، وأنه قد سيطر بشكل كامل على محسن باشا، والي البصرة بالإضافة إلى أنّه يعتقد بأن بريطانيا قد ضمنت وضعه، وستعمل على حمايته، ولن تسلّمه للهزيمة أبداً. وعلى هذا قام مبارك يتحدّى وقَبِل ابن رشيد التحدي.[١٥]

يشير راتسلاو بأن الإمام عبد الرحمن الفيصل السعود قام بغزوة على القبائل الواقعة في أطراف نجد التابعة لابن رشيد ثم تراجع، وكانت حركته تلك بمساعدة من مبارك. وقام في الوقت نفسه تقريباً السعدون باشا، شيخ قبائل المنتفق، بإغارة على بعض القبائل المتعلقة بنجد. وكان هذا أيضاً بوحي من مبارك وبمساندة منه. وكان مبارك يجهز - في هذا الوقت - قواته في الكويت استعداداً للطوارئ والعمل السريع ضد ابن رشيد شيخ نجد. ولم يكن الوالي يرضى من مبارك هذه

التجهيزات العسكرية، وأرسل إليه السيد طالب نقيب البصرة لتهدئة الوضع.

لاحق ابن رشيد السعدون وحدثت بعض المناوشات، إلّا أن السعدون، حين وصل إلى الأراضي التابعة لولاية البصرة، لم يشأ ابن رشيد أن يقتحم تلك المناطق عسكرياً. ولهذا أبرق ابن رشيد للوالي من سوق الشيوخ يشكو تجاوزات السعدون، ويطلب ردّ كل الغنائم التي سلبها. لم يلاحق الوالي السعدون، واعتذر بأن الأخير قد لجأ إلى المستنقعات، ووعد بالعمل على ملاحقته. ولم يكن السعدون حينئذٍ في الحقيقة إلّا عند تخوم الكويت، وعلى هذا هدّد ابن رشيد بأنه سيهاجم الكويت، أرض مبارك التي تهيّئ السلاح والدعم ضد نجد. كان مبارك قد حسم أمره فسار في حشوده لملاقاة ابن رشيد، فأرسل له محسن باشا طالباً النقيب ليرده، وحين وصل طالب إلى الكويت وجد أن مبارك قد غادرها. جهز محسن باشا بعثة أخرى أرسلها إلى ابن رشيد مشكّلة من طالب النقيب وعلي البسام وكيل ابن الرشيد في البصرة، لردّ ابن رشيد الذي كان في هذا الوقت في بادية السماوة. أمّا مبارك فقد كان في الصقرية مع قوات سعدون. كانت قوات مبارك وسعدون أكثر عدداً من قوات الأمير ابن رشيد، كما كان الوالي قد استنفر القوات العثمانية للعمل لفض الاشتباك. وعلى هذا لم يجد ابن رشيد إلّا أن يستجيب لرجاء الوالي ويتراجع. وتدنّت سمعة عبد العزيز بن رشيد لهذا الأمر في أوساط القبائل. تراجع مبارك ثمّ زار الوالي الذي أعطاه وساماً مجيدياً من الدرجة الثانية كان السلطان قد بعث به إليه في مناسبة سابقة، وهنا رجع إلى الكويت في ٢٦ رجب ١٣١٨هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٩٠٠م.[١٦] واعتقد الباب العالي أنه سيطر بهذا على اثنين من كبار زعماء الجزيرة العربية، ذلك بالرغم ممّا نقله أوكنور، السفير البريطاني في الآستانة، في ١٠ ذي الحجة ١٣١٧هـ/ ١٠ أبريل ١٩٠٠م «عن رفض بريطانيا السماح للعثمانيين بوضع مركز جمارك في الكويت، أو السماح بالمشاريع الألمانية أن تخلّ بالوضع الراهن فيها».[١٧]

في اليوم التالي للقاء السفير أوكنور مع ناظر الشؤون الخارجية العثماني وإبلاغه بهذا الأمر أرسل السلطان مبعوثاً إلى السفير البريطاني برسالة جاء فيها أن السلطان يعتقد بأن ناظر الخارجية قد أساء الفهم لأنه لا يستطيع أن يصدّق أن

حكومة صاحبة الجلالة ترغب في أن تتدخّل وتقيّد حرية العمل العثماني في اتخاذ الإجراءات التي تريد اتّخاذها في أراضيها». إن صاحب الجلالة (السلطان) يدرك عمق المصالح البريطانية في الخليج، ويدرك رغبة حكومة جلالتها في عدم السماح لأيّة قوة أجنبية بالتدخّل في دروبها للهند، لهذا فإن حكومة جلالته ستوقف بالقوة المسلحة أي إجراء من أية قوة أجنبية تسعى للإضرار بالمصالح البريطانية». وردّ السفير بأن ناظر الخارجية «قد أساء فهم لغتي، وأن مصالحنا المشتركة والعلاقات بين الدولتين ستزدهر إذا لم نفتح للشكوك باباً». وكرّرت ما قلته لتوفيق باشا (ناظر الخارجية: مؤكداً أكثر من ذي قبل بأنه ليس لحكومة جلالتها أية نوايا عدوانية في تلك المناطق، وأنّه ينبغي على الحكومة العثمانية ألاّ تثير المشاكل دون ضرورة. وأضفت بأن علاقة حكومة جلالتها بالكويت هي علاقة صداقة، ولهذا فهي ستلفت انتباهنا بالتأكيد ويهمنا ألاّ يقوم أي عمل عدائي ضد تلك المنطقة. وقد تجنّبت أن أناقش موضوع السيادة على الكويت لأننا لن نربح شيئاً من إثارة هذه المسألة ما لم تكن هناك ضرورة. وأضفت أن المسألة التي تناولتها مع ناظر الخارجية هي مسألة تعيين مدير للميناء وليس تعيين قائم مقام في الكويت. . .». ولعلّ في هذا إشارة إلى تخبّط السياسة العثمانية وعدم التنسيق بين السلطات المحلية في ولاية البصرة وبين العاصمة. وأكّدت بريطانيا مرة أخرى في ١٥ جمادى الأولى ١٣١٨هـ/ ٩ سبتمبر ١٩٠٠م بأنها لا تريد للوضع الراهن في الكويت أن يختل، كما قاومت الباخرة الحربية البريطانية بيرسيوس في ١٠ جمادى الأولى ١٣١٩هـ/ ٢٤ أغسطس ١٩٠١م محاولة إنزال عسكري عثماني في الكويت. وفي المحادثات اللاحقة استطاع السفير البريطاني في الآستانة أن يقنع حكومة الباب العالي بأن الاضطرابات في تلك المنطقة ليست في صالح أي من البلدين ووصل معها إلى تفاهم جمادى الثانية ١٣١٩هـ/ أكتوبر ١٩٠١م وفحواه أن تمتنع الحكومتان عن التدخل في الصراع القائم في المنطقة وصولاً لهدوء شامل يخدم مصالح الطرفين.

وقد تكرّر الإنكار البريطاني للسلطة العثمانية في الكويت كثيراً وقد تخرجنا متابعته من موضوعنا. ويهمنا من ذلك أن عبد العزيز بن عبد الرحمن وأهله الذين انطلقوا من الكويت يحملون راية توحيد نجد كانوا يجدون كل المقاومة من

السلطات العثمانية لأنهم انطلقوا من الكويت التي مالأ شيخها البريطانيين. وخشي العثمانيون من أن يتمكن حاكم الكويت من مد نفوذه وبالتالي النفوذ البريطاني، إلى نجد وما جاورها. وقد فات الساسة العثمانيين، في اعتقادهم هذا، أمران مهمان ما كان يجب تناسيهما. أول هذين الأمرين هو أن السياسة البريطانية لم تكن تسعى لنفوذ في نجد، حيث لن تعود عليها تلك الأرض بفائدة استراتيجية أمنية أو مالية، وعليه كانوا مثلهم مثل الحكومة العثمانية يعارضون الامتداد السعودي في نجد حتى لا يجر معه امتداد نفوذ للكويت التي تعهدوا بحمايتها وأرادوا «ضبط» شيخها حتى لا يتدخل في مسائل نجد. والأمر الثاني الذي فات العثمانيين هو أن ابن سعود الذي انطلق فعلاً من الكويت إلى نجد، لم يكن يعمل لحساب الكويت، فجذوره في نجد عميقة ممتدة، ولم يكن لمبارك في نجد إلّا مصلحة عارضة ضد غريمه يوسف الإبراهيم الذي لجأ إلى حايل. وعلى هذا فإن علاقة ابن سعود بمبارك لم تكن علاقة تبعية، إنّما كانت علاقة تحالف، والتقاء مصالح. وحين حقّق مبارك بعض أهدافه من خلال ابن سعود في إضعاف خصمه أمير نجد، ولم يكن ابن سعود قد حقّق أهدافه بعد من إقامة مجد أسرته في نجد، زاد التناقض بين ابن سعود وابن الصباح، وكان تناقضاً خطيراً كما سنعرف فيما بعد.

لم تهدأ الأمور بين الكويت ونجد بالتسوية العثمانية حيث كان مبارك يخشى من تحركات ابن رشيد الدائمة ونفوذ يوسف الإبراهيم الذي قد يطيح بآماله التي حقّقها بالتضحية بأخويه، فما بال سيفه يقصر دون الإبراهيم وابن رشيد؟

كانت الظروف مهيّأة لمبارك حيث كان معه في الكويت الإمام عبد الرحمن ابن فيصل الذي استدعاه شعبه في نجد فلبى النداء.

كتب المقيم كمبال إلى حكومة الهند في ٢١ ذي القعدة ١٣١٨هـ/ ١١ مارس ١٩٠١م بأن شيوخ وأعيان عنيزة وبريدة والزلفى قد كتبوا إلى ابن سعود (عبد الرحمن) بمعاناتهم على يد ابن رشيد، وطلبوا ظهوره إليهم. وأفاد التقرير بأن مبارك قد تحمّس للأمر وأرسل لهم فوراً بعض أعيان هذه المناطق الخارجين على سلطة ابن رشيد والذين كانوا لاجئين إلى الكويت عنده، كما أفاد راتسلاو، القنصل البريطاني في البصرة، منذ أوائل ذي القعدة ١٣١٨هـ/ مارس ١٩٠١م

بأنه عرف سلفاً من شيخ المحمرة بأن نجد قد ثارت على ابن رشيد، وأرسل شيوخها يستدعون الإمام عبد الرحمن ليتولى قيادة الثورة.[١٨]

خرج مبارك وعبد الرحمن من الكويت في ١ رمضان ١٣١٨هـ/ ٢٢ ديسمبر ١٩٠٠م واجتازا، بعد فترة توقّف في حفر الباطن، الدهناء والصمان ووصلت الحملة في ٢٣ شوال/ ١٢ فبراير ١٩٠١م إلى مجاورة القصيم التي كانت تنوء تحت ثقل إدارة ابن رشيد. وخرج عبد العزيز بن سعود إلى الرياض ليفتح جبهة قتال أخرى خلف صفوف ابن رشيد، وتمكّن عبد العزيز بن عبد الرحمن من الرياض، ولم يتمكن من قلعتها.

يبدو أن أولى خطوات مبارك وعبد الرحمن في نجد كانت موفقة حيث قابلتهما القبائل في القصيم بالولاء وأصهر الشيخ مبارك إلى سلطان الدويش لتقوية موقفه السياسي والعسكري بقبائل مطير،[١٩] وأحسّ ابن رشيد بحرج موقفه فلم يلجأ إلى النزال مباشرة وزاد في حرج موقفه انكشاف خططه السياسية والعسكرية لمبارك حين قبض الأخير على مبعوثين لابن رشيد كانوا في طريقهم بخطابات لقاسم ابن ثاني يطلب فيها الدعم. سدّت دروب الكويت دون ابن رشيد فأراد أن يجد المنفذ الذي يزوّده بما يحتاج إليه من خلال موانىء قاسم. لم تعد الطرق التي تقود إلى حايل من الكويت أو العراق العثماني آمنة. كان لابن رشيد قافلة في الزبير كما جاء في خطاب المقيم بتاريخ غرة ذي القعدة ١٣١٨هـ/ ١٩ فبراير ١٩٠١م «لم تستطع في مدى الشهرين الماضيين أن تفارق إلى حائل بسبب عدم أمن الطريق». كما يفيد هذا الخطاب أيضاً بأن الحجاج لم يسافروا براً لسوء الحالة الأمنية وقد سافر أكثرهم عن طريق البحر.[٢٠]

أرسل مبارك في ١٨ فبراير إلى الشيخ جابر ابنه الذي تركه على الكويت بأن أبناء حمود بن رشيد قد قدموا إلى معسكره طالبين الصفح والصلح، معتذرين بأن «ابن رشيد دخل في حربكم دون أن يشاورنا نحن أبناء عمومته. ونرى أن أحقية حكم حايل يجب أن تكون لنا بعد محمد بن رشيد». وقبل «والدكم» مبارك اعتذارهم، واشترط عليهم شروطاً لم يقبلوا بها، فخرجوا من معسكره، ورفضوا

التحالف معه. ويبدو أن الأمور قد ازدهرت في معسكر مبارك إلى الحد الذي جعله يرسل إلى ابنه جابر مرة أخرى في غرة ذي العقدة/ ١٩ فبراير خطاباً جاء فيه «لقد سلمت لي نجد قاطبة دون معارضة، فأرسلت عبد العزيز (إبن عبد الرحمن) حاكماً للرياض، واقمت حكاماً من قبلي على المدن الأخرى. لازلت في معسكري في مواجهة القصيم انتظر قدوم السعدون، وحين يصل (بقواته) سنتوجه إلى حائل. عرفت الآن أن ابن رشيد على مسيرة ثلاثة أيام من حائل فاراً من وجهنا، وحين يصل الشيخ سعدون في ٢٢ فبراير سنتوجه إلى حائل».(٢٢) ما لبث ابن رشيد أن نظّم عشائره، ووقعت بينه وبين مبارك والجماعات الأخرى المعارضة لابن رشيد موقعة الصريف في ٢٧ ذي القعدة ١٣١٨هـ/ ١٧ مارس ١٩٠١م، وانكسر مبارك ومن معه. وعاد مبارك قافلاً إلى الكويت التي بلغها في ٣١ مارس.(٢٣)

جاءت أولى الإشارات التي تفيد بانكسار مبارك ومن معه من الجماعات السعودية والفئات الأخرى المعارضة لابن رشيد من البصرة حيث وصل خطاب من ابن رشيد للبسام، وكيله في البصرة، يفيد بهزيمة مبارك وتشتت جنده، وانهى ابن رشيد لوكيله بأن مباركاً قد لاقى حتفه في هذه المعركة. وفي خطاب آخر أرسله ابن رشيد لمحسن باشا، وإلى البصرة، وصل بعد يوم من خطاب البسام، ابلغ ابن رشيد الوالي أنه قد هزم جماعات مبارك وشتتها، وأنه لم يفعل سوى ما يمليه عليه واجب الدفاع عن أرضه وممتلكاته. ويعبر القنصل راتسلاو عن رأيه بأن ابن رشيد لن يهاجم الكويت رداً على حملة مبارك هذه إلا بالتفاهم مع العثمانيين، وبعد الحصول على مساندتهم.

وتشير التقارير إلى أن العثمانيين لم يشتركوا في معركة الصريف ضد مبارك، وأن الضابط العثماني والخمسين جندياً الذين كانوا مع ابن رشيد على مدى الشهرين السابقين لهذه المعركة، كانوا قد انسحبوا ووصلوا إلى البصرة قبل أسبوع من وقوعها.

وصل مبارك إلى الكويت في ١١ ذي الحجة/ ٣١ مارس وكتب من هناك إلى والي البصرة خطاباً لم يشر فيه إلى المعركة إنما انهى إلى محسن باشا بأنه قد تراجع

عن نجد امتثالاً لأوامر السلطان. أما عبد الرحمن الفيصل والسعدون فلم يصلا إلى الكويت إلا في ٥ أبريل، فقد سار الإمام إلى الرياض ليسحب ابنه عبد العزيز منها. ولم يبق الإمام في الكويت طويلاً حيث تركها في صباح اليوم التالي إلى حدود نجد لتجميع حشوده من رجال القبائل لمواصلة الكفاح.(٢٤)

يروي مبارك خبر المعركة لكمبال، المقيم البريطاني في الخليج، فيقول إنه لم يقم بها اعتباطاً ولكنه قد نظّم لها، وأعد للأمر عدته. يقول مبارك، ولا دليل عندنا لقوله، بأنه قد وصل حتى العارض والى الرياض نفسها، وتلقى من القبائل البدوية التي تقيم في تلك المناطق النجدية وعوداً بالمعاضدة والمساندة، وأن شيخي بريدة وعنيزة قد وعداه بالدعم والتأييد. ويشير مبارك بأن عدد جنوده قد تجاوز ٥ر٠٠٠ رجل، وكانت أعداد البدو في معسكره كثيرة ويرد مبارك هزيمته إلى البدو المرافقين له الذين انقلبوا عليه ونهبوا رجاله. ويروي مبارك بأن شيخ بريدة قد وصل في ٤٠٠ فارس بعد أن انجلت المعركة، وأن ابن رشيد لاحقه، وشتت رجاله، وقتله، وفرض على بريدة ٣٠ر٠٠٠ ريال غرامة. ويدعي مبارك بأنه خسر حوالي ٢٠٠٠ من رجاله منهم حمود أخو الشيخ، وخليفة بن عبدالله الصباح ابن أخيه، بينما يقدر خسارة ابن رشيد بأربعمائة قتيل. وأعرب المقيم البريطاني عن رأيه من أن العثمانيين يشجعون النزاع فإذا امتد مبارك إلى الداخل تبنوه، وإذا قتل انفتح أمامهم طريق الكويت.(٢٥)

كان على ابن رشيد أن يرد على حملة مبارك وخرج إليه في جموع كبيرة من أهل الحاضرة والبادية بعد انتهاء فترة القيظ ولكنه لم يصل إلى مدينة الكويت التي كان قد اطبق عليها فعلاً وذلك خشية السفن البريطانية التي احتشدت على ساحل الكويت. واضطر أبن رشيد أن يرجع بعد أن نازل بعض القبائل على مشارف الكويت ونال منها ولكنه تراجع بعدئذ ولم يرض العثمانيون تلك الحماية البريطانية على شيخ الكويت، وعملوا على إزالته عن المشيخة، وعارضهم البريطانيون بالوسائل الدبلوماسية وغيرها.

استنجاد ابن رشيد بالعثمانيين ورد الفعل البريطاني

بدأ بعد هذه الفترة تعاون عثماني نجدي حيث نجد اعتباراً من رمضان ١٣١٩هـ/ نهاية ديسمبر ١٩٠١م ابن رشيد في ولاية البصرة على اتصال مستمر بالوالي والمشير. وأدت الأوامر بتقديم إمدادات ضخمة له، كما صدرت تعليمات الاستانة بمنحه معونات مالية كبيرة من خزانة البصرة. وصدر في نفس الوقت أمر بمنع تصدير البضائع من البصرة إلى الكويت. وكان واضحاً بأن عملاً مشتركاً بين القوات الحكومية العثمانية وابن رشيد سيقوم حالاً ضد مبارك. ولهذا اتخذت السلطات البريطانية استعداداتها للتعاون في الدفاع عن المدينة، وتم تحصين قلعة الشيخ في الجهرة وصدر في شوال ١٣١٩هـ/ أول يناير ١٩٠٢م أمر من بومباي للسفينتين فوكس (FOX) وبيرسيوس لكي تلحقا بسفنكس وبومبي ورد برست وهي السفن التي كانت موجودة أصلاً عند ساحل الكويت ومزودة بمدافع إضافية للطوارىء وهنا اضطر ابن رشيد للتراجع، ربما لخوفه من هذه الإجراءات أو لأن العثمانيين قد خشوا مغبة ما سيحدث فنصحوه بالتراجع.[٢٦] وظلت المشكلة قائمة ثم تفاقمت حين وجد مبارك نفسه محصوراً في الكويت تحت حماية البوارج البريطانية حيث حرّم عليه قادتها الخروج إلى مسافة أبعد من المدى الذي تصل إليه مدافع سفنهم، كما كانت السلطات العثمانية له بالمرصاد لو تقدم فيما وراء ذلك. وكان ابن رشيد، وكذلك القبائل الموالية له، يغير على أطراف الكويت خارج مدى المدافع البريطانية. ولم يجد مبارك من يكسر طوق الحصار هذا سوى الأمير عبد العزيز الذي يمكن له أن يتعامل دون أي قيد أجنبي مع ابن رشيد. فخرج عبد العزيز إلى نجد مرة أخرى وبدأ يشن الغارات على القبائل في مجاورة الأحساء، ووصلت غاراته إلى القبائل في قلب نجد في محاولة منه لجذب نظر ابن رشيد واستدراجه بعيداً عن الكويت إلا أنه لم يفلح. وحين وجد الأمر كذلك سار إلى الرياض وتمكن من مرقبها في شوال ١٣١٩هـ/ ٥ يناير ١٩٠٢م، وغنم فيها بعض الأسلحة التي أعانته في جهاده الطويل. ابتهج الناس بمقدم عبد العزيز، كما يقول شكسبير،[٢٧] وانحاز إليه صراحة أهل نجد الجنوبية بينما سانده سراً أهل شمال نجد وفي خلال سنة واحدة من فتح الرياض استطاع ابن سعود أن يكسب الكثير

من القبائل والمدن، وبدأ يستعيد لآل سعود مجدهم الغابر. أما مبارك فلم يكسب شيئاً كثيراً حيث ظل ابن رشيد يشاغب الكويت من الحفر، ويقال أنه استهان بأمر ابن سعود، وبقيت الكويت لهذا على حالها من الحصار. والحقيقة أن ابن رشيد كان يقيم استراتيجيته على أنه حين يسيطر على الدروب بين الكويت والرياض ويقطع على عبد العزيز خط الإمدادات سيضطر عبد العزيزللإنسحاب.

اتصل ابن رشيد بوالي البصرة في ذي الحجة ١٣١٩هـ/ مارس ١٩٠٢م يطلب إليه [٢٨] أن تعاضده السلطات ضد ابن سعود الذي خرج من الكويت حتى أتى نجد وتمكن من الرياض. ولم يجد ابن رشيد مساندة فعالة من الوالي حيث أن عبد العزيزكان قد اتصل أيضاً بالوالي في البصرة يخطره بما أقدم عليه، ويعبر عن ولائه للسلطان، ويدعو له بطول العمر.[٢٩] وكان على الباب العالي أن يقرر ما يمكن عمله، وكان الباب العالي متردداً كعادته غير حاسم.

خرج عبد الرحمن الفيصل وعائلته من الكويت إلى الرياض في ٢ صفر ١٣٢٠هـ/ ١١ مايو ١٩٠٢م مصحوباً بشيوخ العجمان وآل مرة بعد أن دخلت هاتان القبيلتان كافة تحت أمرته.[٣٠]

كتب عبد الرحمن، حال مفارقته الكويت، إلى المقيم البريطاني، كمبال، يعلمه بخروجه إلى الرياض، وبأن «كل تلك الأرض قد آلت - بحمد الله لنا». وشرح عبد الرحمن للمقيم كيف استولى ابن رشيد على أرضه ظلماً وعدواناً، وأن استيلاءه عليها كان بدعم الدولة العثمانية، وانحياز ضباطها المحليين لصف ابن رشيد. وبعد أن يعبر عبد الرحمن لكمبال عن رأيه في حكم ابن رشيد الذي طغى وتجبر وظلم، يثبت رأياً سياسياً عظيماً حيث يقول: «إن الطغيان أمر مكروه وأنه يجب على الحاكم أن يتحلى بالعدل والإحسان، فالطغيان حباله قصيرة». وانتهى خطاب عبد الرحمن إلى المقيم إلى: «أرجو من الله أن أجد منكم المساعدة ضد هؤلاء الذين ظلموني». وذكّر الإمام عبد الرحمن كمبال بأنه حين زار القنصل الروسي في بوشهر الكويت على السفينة الحربية فارياج (Varyag) وحين اتصل به عارضاً مساندته ودعمه، رفض عبد الرحمن الأمر، وأنه أنهى لذلك القنصل أنه لا

يحتـاج إلى أية مسـاعدة، فهـو واثق بإذن الله من نصره لاسـترداد حكمـه عـلى أرضه. [٣١]

علق كمبال على هذا الخطاب في ١٥ صفر ١٣٢٠هـ/ ٢٣ مايو ١٩٠٢م بأن ثبات عبد العزيز بـن عبد الرحمن « طيلة هذه الفترة في الرياض ينبىء عن انتصار نهائي للأسرة الوهابية. . يبدو أن عبد العزيز رجل مختلف». ويزيد كمبال بأن أمر المساعدة المطلوبة ضد الدولة العثمانية هو من الأمور الامبريالية المتصلة بالسياسة العالمية ويخرج عن دائرة اختصاصه. ولهـذا أحال الـطلب إلى الهند التي أحـالته بدورها إلى لندن. [٣٢]

جاءت الأخبار بأن ابن رشيد سيهاجم الرياض حالما تسمح لـه الظروف المناخية بذلك، وأنه قد نال وعداً من السلطان بأن يدعمه ببعض المدافع، ولا يزال في انتظار الوعد. ويقول خطاب راتسلاو إلى السفير اوكنور بأن ابن رشيد يبعث دعاية كثيفة بأن عبد العزيز في صف الإنكليز «الكفار»، وأن هذه الدعاية غير المؤسسة على حقيقة، قد أصابت نجاحاً. [٣٣] ونجد في برقية من حكومة الهند إلى وزيرها هملتون Hamilton في لندن بتاريخ ١١ ديسمبر ما يفيد بأن ابن سعود قد هزم في نوفمبر ابن رشيد في الدلم. [٣٤] كما نجد تقريراً بتـاريخ ٢٧ شعبـان ١٣٢٠هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٩٠٢م من القائد البحري كورتورايت (Cortriyht) إلى دروري (Drury) آمر الادميرالية في الشرق بأن عبد العزيز قد لاقى ابن رشيد في الدلم في معركة اسفرت عن مقتل ٢٥٠ جندياً من جنود ابن رشيد، وأن ابن رشيد انسحب في اتجاه شمالي غربي، ولاحقه عبد العزيز يجد في المسير وراءه لمدة خمسة أيام يجمع الغنائم الوفيرة من الخيول والجمال. ويشير التقرير إلى أن ابن رشيد ربما كان في القصيم حالياً، وأن مبارك الصباح قد ابتهج لهذا النصر «لأن العثمانيين يعرفون أن عرب نجد سيساندون الكويت». وعليه فإن قوة موقف الرياض تعني قوة في موقف الكويت. وكان التعاون بين الرياض والكويت في هذه الفترة في ذروته. ويفيد هذا التقرير بأن محمد بن عبد الرحمن الفيصـل كان في الكـويت أخيراً، وغادرها في ٦ نوفمبر. [٣٥]

انسحب ابن رشيد إلى الحفر مرة أخرى لكي يسـوي مشكلته مـع مبارك

أولاً، وليكون قريباً من قاعدة حكمه ثانياً، وليقطع خطوط الإمدادات السعودية ثالثاً. وبقي شيخ الكويت في حصاره المضروب عليه من قبل البريطانيين والعثمانيين وابن رشيد. وحين طلب مبارك من البريطانيين أن يمدوه بمدفعين يدافع بهما عن نفسه ضد ابن رشيد، خشي البريطانيون من أن يقوم مبارك باستعمال المدفعين ضد ابن رشيد، ويزيد في التعقيدات السياسية، ويجرهم إلى السياسة القبلية في وسط الجزيرة. لهذا طلبت منه السلطات البريطانية أن يظل داخل حدود الكويت، وسيتولون الدفاع عنه ما التزم باتفاق ١٨٩٩.(٣٦) وهكذا وجد مبارك نفسه في المصيدة البريطانية لا يحير منها فكاكا. وكان ابن رشيد يتقدم على الكويت من مركزه في الحفر ويتقهقر عنها بأمر العثمانيين. ويبدو أنه لم يكن يريد أن يخالف العثمانيين أو يخرج بصورة سافرة عن قبضتهم، لأنه يدرك سلفاً أن مبارك قد كسب دعم البريطانيين، فإذا لم يكسب هو دعم القوة الدولية الأخرى في المنطقة فإنه، كقوة إقليمية، سيخسر كثيراً. ولم يكن ابن رشيد يعرف بأن السفير البريطاني في عاصمة الخلافة كان هو المسيطر على مقاليد الأمور في هذه المنطقة وذلك من خلال حكومة الباب العالي التي لم تكن لها في نجد والخليج أهداف أساسية واضحة وثابتة وضوح وثبات أهداف السياسة البريطانية. لم يكن بد لابن رشيد من أن يتعلق بالمعسكر العثماني، على علاته، خاصة بعد أن رفضت بريطانيا التعامل معه حين طلب بواسطة وكيله في البصرة الحماية البريطانية، فلم تسبغ عليه.

أصبح ابن رشيد كالجمل المعرور يتخبط هنا وهناك. أغار على عريبدار الكويت، ثم أغار على سبيع في الدهناء، ثمّ على عتيبة قرب الأرطاوية، ثم على أطراف الكويت، وضيّق عليها الخناق مرة أخرى.(٣٧) ولما كان مبارك مقيّدا لا يستطيع الخروج إلى ابن رشيد فقد طلب إلى عبد العزيز بن سعود أن يفكّ عنه الحصار المضروب عليه.

تدلّ التقارير الراجعة إلى هذه الفترة بأن ابن سعود كان في ١ ذي الحجة ١٣٢٠هـ/ ١ مارس ١٩٠٣م في بعض المناطق الفاصلة بين الأحساء والكويت يرغم بعض المنشقين على الطاعة، وحين وصله نداء مبارك سارع بالزحف إلى الكويت التي بلغها في ٢٦ ذي الحجة/ ٢٦ مارس. وارتدّ ابن رشيد أمام تقدم عبد العزيز

عن حدود الكويت متظاهراً بالتراجع إلى حايل. وقام ابن سعود في الفترة من ٢ محرّم ١٣٢١هـ حتى ٩ منه/ ٣١ مارس - ٧ أبريل ١٩٠٣م يخوض المعارك ضد القبائل الموالية لابن رشيد. هزم ابن سعود في هذه المعارك قبيلة عبدة، وقتل شيخها ابن جابر، كما هزم بعض بطون مطير، وقتل من شيوخها عميش وفيصل الدويش وعبدالله الدعيع وكثيراً غيرهم.(٣٨) وانجلى الخطر الذي كان يهدد الكويت.

راوغ ابن رشيد حين أشاع بأنه منسحب إلى حائل فقد استدار إلى الرياض التي بلغها في ليلة ٤ محرّم ١٣٢١هـ/ ٣ أبريل ١٩٠٣م وحاصرها لثلاثة أيام لم يصب منها طائلاً حيث دافع عنها الإمام عبد الرحمن وبنوه، وخسر ابن رشيد في الأموال والرجال. وحين علم ابن رشيد بأن عبد العزيز بن سعود يقاتل في القصيم غادر الرياض مسرعاً الى تلك المناطق، ولكنه لم يجد ابن سعود الذي كان قد خفّ بدوره لنجدة الرياض.(٣٩)

أدرك ابن رشيد حرج موقفه حيث لم يعد يحصل عن طريق ميناء الكويت على المؤن والذخيرة الضرورية لاستمرار حكمه في نجد. وكان ابن رشيد يعرف كما يقول لوريمر(٤٠)، أن الكثير من رعاياه قد سئم حكمه لما ساده من قسوة وجشع وسوء إدارة، واعترف للعثمانيين صراحة بأنه لم يعد يستطيع أن يواجه الموقف وحده. وبدأ ابن رشيد يتّهم في خطاباته للباب العالي الحكومة البريطانية بالتخطيط لإقامة علاقات وثيقة مع عبد العزيز بن سعود في حين كان عبد العزيز بن سعود في هذه الفترة، يحقّق الانتصارات في القصيم. سار ابن سعود في ربيع الثاني ١٣٢١هـ/ يوليو ١٩٠٣م من الرياض إلى شقرا وعسكر بالقرب من الزلفى حيث لحق هناك بشيوخ القصيم السابقين ليستعين بهم ضد عدوّه.(٤١)

تمكّن الأمير عبد العزيز، حتى نهاية عام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م من استعادة نفوذ السعوديين في العارض وسدير والوشم والحوطة والمحمل.(٤٢) وغدا موقف ابن رشيد حرجاً حين تطلّع عبد العزيز إلى القصيم التي فتحت ذراعيها مرحبة به. أبرق ابن رشيد في ١٩ شوال ١٣٢١هـ/ ٧ يناير ١٩٠٤م إلى الباب العالي برقية جاء منها: «أرسلنا لكم الرسل ومعهم هدايا متواضعة للحكومة العليا، وأبلغناكم

بأننا لم نقم بإثارة الاضطراب بين الشيخ مبارك الصباح وبين أقاربه والمعتمدين عليه، ولم نحرضهم ليلجأوا إلينا، إلاّ أنهم لجأوا إلينا لأنهم أصدقاؤنا. وبما أننا من رعايا السلطان المخلصين فإن أصدقاءنا هم أصدقاء الخليفة كذلك. لم يصغ مبارك باشا لمقترحاتنا ولم يرد لهذه الجماعة المنكوبة ممتلكاتها. وتجرأ على رجالنا فذبحهم ونهبهم، وهذا أمر يحط من سمعتنا، ويذهب بهيبتنا وسط القبائل. ونستطيع أن نعاقب مبارك ونمسك به ونسلمه إلى السلطات العثمانية، ولكنّنا قد أمسكنا عن ذلك انتظاراً لأوامر السلطان. أعطى مبارك حالياً دليلاً جديداً على ارتباطه بالبريطانيين وخضوعه لهم، ونحن مقتنعون بأنه يسعى لعقد اتفاق معهم، وسيعطونه مدفعاً وذخيرة. وعلى الحكومة أن تلتفت لما يمكن أن يحدثه هذا من أثر في هذه المناطق».(٤٣) وتنتهي برقية ابن رشيد إلى: «أن هدفنا سيادة السلام والأمن، وحماية طرق الحج، وتأكيد إخلاصنا للدولة العلية، وحماية هيبتنا ومجدنا من أن يزول. أمّا مبارك فيعمل على عكس هذا بخاصة في نجد وتوابعها. إنّه من واجبنا أن نحمي أرض الكعبة المشرّفة من كافة تحرّكات التمرد والثورات. أرجو أن تخطرونا بالخطوات الواجب اتّباعها في هذا الصدد...».

وقد عبّر السفير البريطاني أوكنور في برقيته بتاريخ ذي الحجة ١٣٢١هـ/ فبراير ١٩٠٤م إلى الوزير الماركيز لانسدون (Lansdowne) عن اعتقاده بأن السلطان سيتردّد كثيراً في إصدار أمر بالمساعدة المطلوبة لتشجيع الاضطرابات في منطقة عامرة بالاضطرابات حالياً. واستند في اعتقاده هذا إلى أن السلطان لم يرد حتى الآن على برقية ابن رشيد. وعبّر السفير عن اعتقاده بأن مشاكل السلطان العثماني متزايدة وسط القبائل في الحجاز، كما أن جزءاً كبيراً من المنتفق قد تمرّد عليه وأعلن العصيان. «أمّا متصرّف نجد فقد اضطر أن يخرج من الأحساء وذلك للوضع الذي خلقه بنفسه وسط الشيوخ».(٤٥) وردّت الحكومة البريطانية على السفير أكنور بأنها ترى أن على الباب العالي أن لا يساعد أمير نجد (ابن رشيد) لأن في قوته خطراً على الكويت. «ربما تذكرون بأن الحكومتين التركية والعثمانية قد وصلتا في أكتوبر ١٩٠١م، في الوقت الذي كانت فيه المنطقة تغلي بمشاكل قبلية متفاقمة، إلى وجوب أن تعمل حكومة جلالتها نفوذها لدى مبارك لإثنائه عن كل

تدخّل في المنطقة وأن على الحكومة العثمانية بالمثل أن تحاول من جانبها تثبيط أمير نجد عن الحروب. ولهذا أرجو أن تجد فرصة مناسبة لتذكر الحكومة التركية بهذا التعهد، وتنهي إليها أن الحكومة البريطانية قد قامت حالياً بتحذير مبارك مرة أخرى عن المشاركة في أية حركة تؤدي إلى اضطراب، ولهذا فإنّه من حق هذه الحكومة أن ترى الأتراك يبذلون كل محاولاتهم الجادة لمنع أمير نجد من التدخل في الاضطرابات التي ستعود بالخطر على السلام في المنطقة بأسرها».(٤٦)

ظلّت حكومة الهند تتابع الوضع في الجزيرة العربية بدقة بالغة حيث كانت تلك الحكومة في أيدي عصبة برئاسة كيرزن كانوا يخشون أي أثر لروسيا القيصرية في هذه المنطقة التي كان لروسيا فيها مخططات، كما كانوا يريدون الإبقاء على المنطقة برمّتها بعيدة عن رياح التأثير الدولي مهما كان منشؤها. ولهذا كانت أحداث نجد من أهم أسباب رحلة كيرزن إلى الخليج العربي، ولهذا أيضاً لاحقت فورت وليام المقيم بالإنابة في الخليج العربي كمبال منذ ١٨ شوال ١٣٢١هـ/ ٦ يناير ١٩٠٤م تقول بأنها: «تريد أن تعرف بالضبط مجرى الأحداث في نجد، وفي الرياض بصفة خاصة». وتساءلت: «هل تظنون أنه من الحكمة أن نرسل ضابطاً أوروبياً إلى عاصمة السعوديين لجمع المعلومات؟».(٤٧) وأضافت البرقية بأن حكومة الهند «تعلم أن الطريق بين القطيف والرياض محفوف بالمكاره، فهل يمكن أن نرسل بعثة من الكويت إلى الرياض بضمان من شيخ الكويت على سلامتها؟. عليك، إن لم يكن لديك اعتراض على قيام هذا الضابط، أن تتصل بشيخ الكويت تسأله عن أمن الطريق. وهل يوصي بأن يسافر هذا الضابط متنكراً أم في بزّته الرسمية؟».(٤٨) وأرسلت نسخة من البرقية إلى لندن التي ردّت في فبراير محذّرة من توثيق العلاقات مع نجد، وحظّرت على حكومتها في الهند إرسال ضابط إلى تلك المنطقة إلّا بموافقة مسبقة من لندن.(٤٩) أما كمبال فقد رد بأن العثمانيين سيمنعون أي ضابط بريطاني من السفر عن طريق الأحساء إلى نجد. أمّا شيخ الكويت فقد أكّد لكمبال بأن الطريق آمن، وأنه ليست هناك صعوبة في أن يقوم بريطاني بزيارة الرياض، وأنّه مستعد لتنظيم هذا الأمر مع الأمير عبد الرحمن بن فيصل. وادّعى مبارك بأن هذا الضابط يستطيع السفر في بزّته الرسمية دون أن يجد اعتراضاً، وأنّه

سينظّم له المرافقين بقيادة أحد أبنائه. ويضيف التقرير بأن هذه الفكرة قد راقت لمبارك تماماً.(٥٠) ويبدو أن مبارك قد وجد في البعثة المقترحة حلاً لعزلته حيث اعتقد بوصول الدعم البريطاني إلى نجد عن طريق الكويت، وأنّه يستطيع بذلك أن يجد سبيله إلى نجد ليحقق طموحاته فيها. كان مبارك يمنّي نفسه بأن يصبح سيّداً على نجد يعيّن حكامها من قِبَله.(٥١) أمّا المقيم كمبال فيعتقد بأن ابتهاج مبارك لهذه الزيارة المزمعة يرجع إلى «ما يعتقده من أن الحكومة البريطانية ستتدخل لتقدّم الدعم لأصدقائه، ذلك بالرغم من أن الضابط الذي سيذهب إلى هناك سيذهب من أجل جمع المعلومات فقط، ولن تكون له هناك أية مهمّة سياسية. بالطبع لن يصدق مبارك هذا وسينظر لهذه المهمة كما سينظر لها ابن سعود أيضاً، بأنها تهدف لخدمة مصالحهما. وبما أن هذه الزيارة لن تتم سراً، فإن الأتراك وابن رشيد سينظرون إليها على ضوء هذا أيضاً».(٥٢) ويوصي المقيم بعدم قيام البعثة لأن الفترة التي سيقضيها المبعوث في الرياض لن تمكّنه إلّا من جمع معلومات عامة شاملة. «أمّا إذا رأت الهند ضرورة للبعثة فعلى المبعوث أن يزور الرياض وحائل أيضاً، وأن يبقى في المنطقة لفترة طويلة». وأضاف المقيم بأن ابن سعود قد أسّس سلطته في الرياض تماماً، وفي كثير من المناطق المتاخمة لها، وأن قوة ابن رشيد تتناقص، وقوة ابن سعود في تزايد، وأوصى المقيم كمبال بأن يكون للهند «وقع أكبر في شؤون نجد والمسائل الخاصة بالرياض».(٥٣)

عمليات الأمير عبد العزيز في القصيم

بدأ الأمير عبد العزيز في هذه الفترة يناوش ابن رشيد في القصيم، كان ابن رشيد قد أرسل ماجد بن حمود بن رشيد في ٤٠٠ رجل لحماية عنيزة، كما أرسل حسين بن جراد في ٣٠٠ رجل إلى جهة السر، وانحدر هو إلى ناحية العراق ليستنفر قومه شمر.(٥٤) وفي ٢٦ ذي الحجة ١٣٢١هـ/ ١٥ مارس ١٩٠٤م أبرق كرو (Crow) القنصل في العراق العثماني إلى السفير في الآستانة بأنه قد وردت إلى الكويت خطابات تؤكّد بأن عبد العزيز بن سعود قد هاجم ابن جراد الذي هو من أقرباء ابن رشيد(٥٥) في ٢٠ ذي الحجة ١٣٢١هـ/ ٩ مارس ١٩٠٤م وتمكن منه

وتؤكد الروايات بأن ابن جراد قد قتل في ٤٠٠ من أتباعه، وأن رايته قد أرسلت إلى الكويت، وأن عبد العزيز قد غنم ١٥٠ جملاً و١٠٠٠ ريال، كما تشير الأحداث إلى أن عبد العزيز يخطّط الآن للاستيلاء على القصيم (عنيزة وبريدة التابعتين لآل رشيد).(٥٦) وكان من نتيجة «وقعة ابن جراد» أنها قسمت قبيلة حرب المقيمة بين السر والقصيم فانحاز قسم منها إلى آل سعود بعد أن كانت كلها تابعة لآل رشيد.(٥٧) أبلغت وزارة الهند في ٢١ أبريل ١٩٠٤م وزارة الخارجية بهذه البرقية التي تفيد بهزيمة ابن جراد.(٥٨)

خرج عبد العزيز في ذي القعدة ١٣٢١هـ/ فبراير ١٩٠٤م إلى عنيزة وبريدة في حشود يتقدّمها جماعة من آل السليم رؤساء عنيزة، وآل مهنا رؤساء بريدة، الذين فروا من طغيان ابن رشيد. دانت عنيزة لعبد العزيز في ٥ محرّم ١٣٢٢هـ/ ٢٢ مارس ١٩٠٤م، وهزم فهيد السبهان وكيل ابن رشيد هناك، التقى عبد العزيز في اليوم التالي بحشود ماجد بن حمود، وشتتها، وهرب ماجد إلى حايل.

جاء في رسالة لعبد العزيز إلى مبارك الصباح بتاريخ ١٠ محرّم ما يلي:(٥٩)
«... أرسلنا لكم رسالة مع خادمكم مهدي نطلعكم فيها بأننا نزمع القيام بحملتنا هذه. تقدّمنا على ماجد، وكان نازلاً في منطقة هملان في عنيزة، وبفضل الله ثم بمساعدتكم بلغنا إلى العشوزية في فجر يوم الثلاثاء ٤ محرّم، ومكثنا في ذلك المكان مع أهل القصيم الذين كانوا يرافقوننا طيلة ذلك اليوم. وفي هذا الأثناء أرسل أهل عنيزة الذين هم في ركابنا إلى أهلهم ليبلغوهم سراً بوصولنا. وفي الساعة الرابعة من الليل تجهزنا وسرنا إلى عنيزة. وكنّا في الساعة الثانية من الليل قد أنخنا في الحميدية قرب المدينة، وتركنا أهل القصيم للمراقبة في القرى وساعدهم الله فدخلوا إلى المدينة، وقتلوا فهيد السبهان وجماعاته الذين كانوا معه كما حاصروا عائلة يحيى وخدمهم وبعض الرجال الذين كانوا مع فهيد في القلعة. وبعد صلاة الفجر، أرسلنا عليهم عبدالله بن جلوى ومعه ١٠٠ رجل من أهل الرياض ليساعدوه، أمّا نحن فتقدمنا إلى ماجد، وعندما رأينا الفرسان رفع الله أيديهم عنا، وساعدنا على اختراق صفوفهم، وقتلنا من رجالهم ٣٧٠ رجلاً منهم عبيد الأحمد الرشيد. وأعاد الله لنا أقرباءنا من آل سعود الذين كانوا أسرى عند

أولئك القوم، وهم: سعود بن عبد العزيز، وسعود بن محمد، وفيصل بن سعود. ولم نخسر سوى رجلين من البدو. ثم رجعنا بعد ذلك إلى أصدقائنا فوجدناهم قد استولوا على القلعة، وقتلوا يحيى والذين معه، وأخلوا بيت البسام، وبفضل الإله هربوا جميعهم مع ماجد. واستولينا على ١٥ جملاً، و٧ مهرات، وغنمنا كل ما تركوه من أسلحة وخيام ومعدات. كل ذلك بفضل الله ثم بمساعدتكم. وفي هذا الوقت وفد إلينا كل أهل بريدة، وكذلك رؤساء قرى القصيم على إطلاقهم، مبتهجين بسماع هذه الأخبار. لقد جاء هؤلاء من الرس (؟) (Ras)، كما هرب مزمل (Mezmil)، واستوطنا هذه الأماكن. أمّا آخر أخبار ماجد، فإنه ترك بريدة في ميمنته، وهرب لا يلوي على شيء. نفكّر في الهجوم على بريدة بإذن الله، وما النصر إلاّ من عند الله. نرسل لكم سلطان أبو الخيل بهذه الأخبار، وسيطلعكم على ما نريد قوله لكم شفاهة...». وسارت جموع عبد العزيز بعد هذا إلى الزلفي، بدعوة من أهلها، وتمكّن من البلدة إلاّ أن أميرها عبد الرحمن بن ضبعان، المعيّن من قِبَل ابن رشيد، أغلق عليه القصر، وراح يقاوم لشهرين. وحين لم تصله نجدة من أميره سلّم القلعة لعبد العزيز، وخرج منها وجماعته سالمين.[٦٠] وفي ١٣ أبريل كتب أوكنور لسالسبري بأن عبد العزيز يقود العمليات في القصيم ضد أمير نجد، وأن شيخ الكويت يساعده في ذلك. وعليه فإن الحكومة العثمانية «ربّما لا تكون راغبة، والحالة هذه في تقديم أية تنازلات فيما يخص جزيرة بوبيان وذلك ماداموا مقتنعين بأن مبارك يساند عبد العزيز ضد ابن رشيد في عملياته في نجد».[٦١] ويبدو أن الحكومة العثمانية قد يئست تماماً من الشيخ مبارك الصباح المحسوب على عبد العزيز، ولهذا بدأت تفكّر تفكيراً جاداً في مساندة ابن رشيد. ويبدو هذا واضحاً في رسالة السير أوكنور إلى لانسدون في ١٣ ذي العقدة ١٣٢١هـ/ ٣٠ يناير ١٩٠٤م التي جاء فيها أن مبارك الصباح قد أرسل برقية إلى الصدر الأعظم يفيد بأن أحد موظفي الهند المهمين (يقصد كيرزن) قد زار الخليج «في رحلة ترفيهية»، وأنه قد استقبله كما تقتضي رتبته العالية. وأعلن مبارك في نهاية برقيته بأنه «سيبقى خادماً مخلصاً للخليفة». وعرف السفير أن الحكومة العثمانية لم تهتم بهذه البرقية «لأنهم تبيّنوا أنهم قد فقدوا الكويت».[٦٢] ويقول السفير بأن أمر

عزل مبارك عن قائم مقامية الكويت لم يعد وارداً حالياً حيث أدركت الحكومة العثمانية عدم جدواه.

اهتمام هندي بحوادث نجد

كان اهتمام الهند بالوضع السياسي في نجد كبيراً، أما اهتمام بريطانيا فلم يتعد لجم حكومة الهند وكبح جماح كيرزن لئلا يتدخل في شؤون الجزيرة العربية التي تحاول لندن تهدئتها بالطرق الدبلوماسية مع الأستانة. كتب النائب كيرزن إلى جون برودريك (Brodrick) وزير الهند في ١٠ محرم ١٣٢٢هـ/ ٢٦ مارس ١٩٠٤ م تقريراً عن الوضع السياسي في الجزيرة العربية بدأه فيه بسرد للعلاقات السعودية البريطانية في عهد عبدالله بن فيصل وقيام اتفاق ١٨٦٦م. «ومنذ الإحتلال التركي للأحساء انقطعت صلتنا بالبيت الوهابي. وليس لدينا الآن أية اتصالات بأي من الحزبين الكبيرين في الجزيرة العربية. إن مشاريع الخطوط الحديدية عابرة الأقطار التي استحدثت أخيراً، والتي تربط بين البحر الأبيض والخليج، وما يقوم به الأتراك من تشييد لخط حديد الحجاز بنشاط وهمة، ذلك الخط الذي يعتقد أن فرعاً منه سيمر بنجد ليربط الحجاز بالأحساء، يستوجب أن تكون لدى البريطانيين اتصالات بنجد[٦٣]. ويشير كيرزن بعدئذ إلى أن سلطة العثمانيين في المنطقة قد بدأت تخبو تدريجياً، وأن النفوذ الأجنبي سيسري من خلال الخطوط الحديدية في تلك المناطق، «مما يرغمنا أن نأخذ دوراً أكثر نشاطاً في أمور وسط الجزيرة العربية» ويشير كيرزن بعد هذا إلى اللقاء الذي تم بين عبد العزيز بن سعود وقباطنة الباخرتين انفريت (Infret) وبويرين (Boyarin) حين كان عبد العزيز في الكويت في مارس ١٩٠٣، ومما قد يجره ذلك من تدخل روسي في شبه الجزيرة العربية، ومدى الضرر الذي سيلحق بالسياسة البريطانية من جراء ذلك ويخلص كيرزن إلى ضرورة اقامة علاقات وثيقة مع المنطقة «خصوصاً في حالة نجاح عبد الرحمن آل سعود، رئيس الطائفة الوهابية، في تأسيس حقه وفرض سيطرته على المنطقة، وهو أمر غير بعيد الإحتمال..»[٦٤]

التدخل العثماني والمتابعة الهندية

بدأ العثمانيون العمل فدخلوا في صف ابن رشيد خوفاً من امتـداد مبارك والسلطة البريطانية من ورائه إلى نجد، خاصة وأن كل الدلائل تشير إلى أن نجاح عبد العزيز بن سعود في المنطقة قد تحقق بالسـلاح الذي يمـر عن طريق مينـاء الكويت،(٦٥) وبدعم مبارك ومعاضدته. جاءت أخبار الدعم العثماني لابن رشيد من المقيم البريطاني في العراق العثماني نيومارش (Newmarch) في برقية له بتاريخ ١٠ صفر ١٣٢٢هـ/ ٢٥ ابريل ١٩٠٤م جاء فيها أن ابن رشيد «يقيم حالياً في بادية السماوة على الفرات، وستتحرك ٤ فيالق من المشاة قوة كل فيلق منها ٦٠٠ رجل لتدعم ابن رشيد، وستلحق به في السماوة». كما خصص العثمانيون ٤٠٠٠ ليرة لمجهودات ابن رشيد الحربية، وزودوه بـ ٨٠٠ بندقية مارتيني، وألف بندقية ماسورة، و ٦٠٠ر٠٠٠ طلقة وأفاد نيومارش كذلك أن بغداد قد أرسلت منذ ثلاثة أيام إمدادات النقود والأسلحة والذخيرة. كما أفادت هذه الرسالة بأن التخطيط يجري لدعم ابن رشيد بثلاثة مدافع جديدة وصلت من الأستانة لتوها، وكذلك ثلاثة مدافع ميدان، وأن رجال المدفعية يتدربون عليها حالياً.(٦٦) وحين وصلت هذه البرقية إلى سملا حولتها في ١٣ صفر/ ٢٨ ابريل إلى وزيرها معلقة عليها بأنه «يجب تحذير الأتراك من التدخل في شؤون نجد حتى لا تضطر الحكومة البريطانية للقيام بالخطوات اللازمة في تلك الأقاليم لحماية المصالح البريطانية».(٦٧) أما السفير البريطاني في الأستانة فقد تأخر في إرسال الخبر إلى حكومتـه حيث أبرق في ٢٩ ابريل بأن العثمانيين ـ كما يقول شيخ الكـويت ـ قد أعـدوا العدة لمسـاعدة ابن رشيد، ومده بالمال والسلاح والذخيرة، وأنهم يعدون العدة للقيام من السماوة إلى عنيزة في أوائل مايو. وتشير البرقية إلى «أن مبارك سيرسل مـالاً ورجالاً إلى ابن سعود، كما سيكلف البعض بردم الآبار في طريق الحملة، وسيعمل جاهداً على مساندة ابن سعود «ولكن من الصعوبة إثبات ذلك».(٦٨) وعلى هذا أرسلت وزارة الهند في ٥ مايو إلى وزارة الخارجية تنهي إليها أن المقيـم في الخليج سيؤكد على شيخ الكويت مرة أخرى بأن لا يزج بنفسه في التعقيدات الناجمة عن الصراع في نجد. «ويرى الوزير بردريك أن يتصل الوزير لانسدون بالخارجية التركية يذكرها بتعهد

أكتوبر ١٩٠١». [٦٩] وقد تم تحذير مبارك عن طريق المقيم في الخليج وتأتي الأخبار مرة أخرى من السفير البريطاني في الأستانة في ٤ مايو مؤكدة استيلاء ابن سعود على عنيزة وبريدة « وأنه الآن في المنطقة حول حايل» [٧٠] . ولعل السفير بنى ذلك على البرقية التي ارسلها القنصل ديفي (Devy) من جدة في ٢٢ ابريل والتي جاء فيها [٧١] أن ابن سعود قد «هاجم القصيم (عنيزة) بقوة مشكلة من ٥٠٠٠ شخص، واستولى على بريدة ومنطقتين أخريين سقطتا له على التوالي. إن انصاره يبلغون أكثر من نصف سكان عنيزة. . . التي سقطت في ٥ محرم ١٣٢٢هـ/ ٢٢ مارس ١٩٠٤م وأنه دخل المدينة دون مقاومة تذكر. . وعندما استولى ابن سعود على عنيزة كتب للشريف بأخبار انتصاره، وأرسل الرسالة بيد رسول خاص قُبض عليه في المدينة (المنورة)، وأرسل مغلولاً إلى مكة (المكرمة). . أخذ ابن سعود لقب أمير نجد. . يشاع بأن الأتراك سيرسلون قوات إلى نجد لمساعدة ابن رشيد لرأب تصدع سلطته. وقد علمت من مصدر موثوق به أن أحمد راتب باشا، والي الحجاز، لا يرتاح لابن رشيد، وعليه فإنه لن يعمل بحماس للوقوف إلى جانبه» أما كرو قنصل البصرة فقد كتب إلى أوكنور في ٢٧ ابريل بوجهة نظره التي جاء فيها: [٧٢] «لاشك أن الحكومة العثمانية ستدعم ابن رشيد في وجه ابن سعود، وذلك لضرب التوسع الوهابي، ولمحاولة الإمساك بزمام الأمور في داخل الجزيرة العربية بقوة أكثر من ذي قبل». وأفاد كرو بأن القوات العثمانية قد سارت من بغداد والبصرة والعمارة والناصرية والنجف لتعسكر في السماوة على الفرات، «وذلك بهدف المسير مع الأمير إلى عنيزة لاجلاء ابن سعود عن الأماكن التي سيطر عليها أخيراً. ويرد القنصل دعم مبارك لابن سعود إلى أن الأول يسعى لمد نفوذه في القبائل المجاورة التي غدت حالياً موالية له تحمي قوافل تجارته المتجهة إلى داخل الجزيرة العربية، وأضاف كرو بأن عبد العزيز قد طلب إلى مبارك أن يعمل على ردم الآبار بين السماوة والقصيم، وأن يدعمه بالمال والرجال. ويشير القنصل إلى أن مصالح ابن سعود متطابقة مع مصالح مبارك فإذا تغلب العثمانيون في نجد فإن ذلك سيؤثر على الكويت التي هي عبارة عن «جيب غير معروفة حدوده داخل الأراضي العثمانية، وستنحسر حدودها كثيراً، وسيخسر مبارك سلطته وسط القبائل» [٧٣] .

أرسلت تعليمات لانسدون إلى اوكنورفي ١٠ مايو تطلب إليه أن ينهي إلى الباب العالي، «أن التفاهم الذي توصلت إليه الحكومتان في رجب ١٣١٩هـ/ اكتوبر ١٩٠١ يقضي بأن يبذل الطرفان كل جهدهما لمنع التعارك بين أمير نجد وشيخ الكويت. ولا نجد في التفاهم المشار إليه ما يدل بأن لأي من الحكومتين الحق لمنع التعارك بين أمير نجد وبين ابن سعود. لقد قامت الحكومة البريطانية أكثر من مرة بجهود لحفظ الأمن في ذلك الجزء من الجزيرة العربية وذلك بمحاولاتها لمنع شيخ الكويت من التدخل، حتى بشكل غير مباشر، في الصراع القائم. ولهذا تأسف الحكومة البريطانية لقيام الحكومة التركية من جانبها بتقديم مساعدة فعالة في تلك المسائل القبلية. سيقوم المقيم بابلاغ شيخ الكويت مكرراً بالتزام الحياد التام وذلك نظراً للظروف التي شرحناها سابقاً». (٧٤) وانتهت برقية لانسدون إلى اكنور بوجوب تبليغ وجهة النظر هذه لحكومة الباب العالي. «وتكرر نصيحتنا له، وتعبر عن أمل الحكومة البريطانية الجاد بأن لا تقوم الحكومة التركية بأي عمل يزيد من سوء الأحوال المضطربة في تلك المنطقة في الجزيرة العربية حيث الاستقرار لازم لخدمة الحكومتين البريطانية والعثمانية». (٧٥)

كانت الإستعدادات تجري في السماوة لتجهيز الحملة العثمانية على نجد، وسعى السفير اوكنور إلى ناظر الخارجية العثمانية وأبلغه رسالة الحكومة البريطانية. وتنتهي البرقية التي أرسلها أوكنور إلى الوزير، يعلمه بما تم في اللقاء، إلى القول: «لم استعمل كلمات محددة لكي أقول (لناظر الخارجية العثمانية) بأن الحكومة البريطانية تطلب إليهم عدم مساعدة الأمير (ابن رشيد) ضد الوهابي ابن سعود الذي يهدف إلى هزيمة حائل ليؤسس من جديد للأسرة الوهابية في وسط الجزيرة العربية، وأن هذه النتيجة ستكون لها عواقبها في المستقبل القريب، وستجعل من نفوذنا الذي ينمو مع الأيام ويتزايد أمراً مزعزعاً غير مضمون»(٧٦)

ولعله من الطريف أن نلاحظ هذا التناقض بين السياستين العثمانية والبريطانية. نجد أن العثمانين يساندون ابن رشيد ضد ابن سعود لخشيتهم من امتداد النفوذ البريطاني إلى وسط شبه الجزيرة العربية، بينما تخشى السياسة البريطانية من انتصار الأمير عبد العزيز بن سعود لما لذلك من زعزعة لنفوذهم في الكويت

التي يريدون أن يحافظوا على نفوذهم فيها. ولهذا لم تكن جهود البريطانيين في منع الحملة العثمانية على نجد كبيرة، إذ لم يكن يهمهم من أمرها شيئاً سوى أن تظل الكويت بعيدة عن الاضطرابات، ويظل مبارك في قبضتهم، وذلك لما أصابته منطقته أخيراً من أهمية استراتيجية بالمشاريع الدولية التي بدأ التخطيط لها في المنطقة.

أبرق مونهان (Monhan) القنصل البريطاني بالانابة، في أواخر ربيع الأول ١٣٢٢هـ/ أول يونيو ١٩٠٤م بأنه علم من مصادر موثوق بها أن ٤٠٠٠ جندي عثماني ومعهم ١٢ مدفعاً في منطقة السماوة كانوا يعسكرون على بعد ساعات من معسكر ابن رشيد. وأفاد أن هذه القوة قد تحركت في ٣٠ مايو ربما إلى نجد». (٧٧) وأفادت الأخبار اللاحقة بأن متصرف الديوانية قد حرك قواته إلى السماوة في ٢٥ يونيو، وأن ناظر المالية العثماني قد أبرق بضرورة مساهمة المتصرفيات بتكاليف الحملة المزمعة، حيث ستدفع الديوانية ١٥٠٠ ليرة، وتساهم البصرة بأربعة آلاف ليرة، وتدفع ولايتا بغداد والموصل ٤٠٠ ليرة عن كل منهما كما يمكن سد العجز في النفقات في حالة الضرورة القصوى بمبلغ ١٢٠٠ ليرة تؤخذ من ثلاث متصرفيات أخرى. (٧٨) وقد قال أحد شهود العيان لقنصل البصرة أنه شاهد قوة عثمانية كبيرة في ٣٠ مايو في عين سالم، وهي على مسيرة يومين من السماوة وأول مرحلة في الطريق إلى نجد توجد فيها مياه وآبار. كما يقول هذا الشاهد أن ابن رشيد سطا على بعض عرب العقيلات، وسخر جمالهم لخدمة الحملة، وأن أعداد العرب المرافقين للحملة تصل إلى ٧٠٠٠، وأن رجال الحملة قد بدأوا يعانون شدة القيظ.

كانت حكومة الهند أكثر التصاقاً بالأحداث في نجد، وأكثر تعلقاً من حكومة لندن بمراقبة الأمور هنالك، وذلك لما لتلك الأحداث من انعكاسات على الكويت التي تتولى الهند شؤونها، وتدفع خزانتها كل التكاليف المادية الخاصة بإجراء السياسة الأمنية لحكومة الهند. ولهذا حاولت حكومة الهند، وألحت تلك الحكومة في محاولاتها منذ بداية هذا القرن، على تعيين وكيل سياسي بريطاني في الكويت. وثبتت حكومة لندن ثباتاً قاطعاً على رفض أدنى خطوة تقرب الهند من التعامل مع

نجد، أو توثق العلاقات في المنطقة، ووصل هذا الرفض القاطع إلى المقيم في ٨ يناير ١٩٠٤م. وفي ٢٣ مايو، في ظروف تبلور الحملة العثمانية إلى نجد، لم يرض اكنور، حين استشير، بوجود وكيل بـريطاني في الكـويت ليراقب المـد العثماني، ويعمل على ضبط الشيخ. قرر اوكنور أنه «لا يعرف من أين يضغط على الباب العالي ليوقف امداداته إلى ابن رشيد، ومع ذلك فالوقت الراهن يتطلب أن نثبت على الوضع الحالي لمنطقة الكويت، وننتظر ما تأتي به الأيام». بدأت وزارة الهند، مع تحرك الحملة العثمانية، في الإقتناع جزئيـاً برأي حكـومة الهنـد، ودافعت في خطابها بتاريخ ٢ يونيو لوزارة الخارجية البريطانية عن وجهـة نظر الهنـد، حيث طالب الوزير برودريك زميله لانسدون وزير الخارجية بالتحرك السريع لمواجهة ما يقوم به العثمانيون في نجد، وأن يحاول وقف الدعم العثماني لابن رشيد. كما علق هذا الخطاب أمر تعيين وكيل سياسي في الكـويت «انتظاراً لـملاحظات الحكـومة التركية في مسألة دعمها لابن رشيد» . ورد ساندرسون، وكيل وزارة الخـارجية البريطانية، في ٢١ يونيو بأن الأمر قد أحيل إلى أوكنور. وأرسل ساندرسون لوزارة الهند بكل المراسلات المتبادلة بين الوزارة والسفير، وعبرفي نهاية رسالته على موافقة الوزير لانسدون على ارسال «وكيل سياسي بريطاني إلى الكويت لكي يعمل على الحد من تجارة السلاح في ذلك المكان».(٧٩) ولعل هذا يؤكد تأكيداً لا مجال فيه للشك بأن الحكومة البريطانية لم تكن تهتم بما يجـري في نجد إلا للحفـاظ على سياستها في الكويت، أو بتعبيرهم، «لأن نجد جارة الكويت». فهم لا يريدون الاضطرابات في مجاورة الكويت، ولا يهتمون إن كان حكمها في يد ابن سعود، أو ابن رشيد. ولهذا نرى أن السياسة البريطانية تعمل في اتجاهين يقودان إلى نتيجة واحدة، وهي استقرار المنطقة حتى لا تتزعزع قبضتهم على الكويت. كان الإتجاه الأول هو محاولة منع الحكومة العثمانية من مساعدة ابن رشيد وهو اتجاه يزيد في قوة ابن سعود، أما الإتجاه الثاني الذي سار جنباً إلى جنب مع الأول فهو محاولة منع وصول السلاح لميناء الكويت الذي كان يزود ابن سعود بالسلاح، وهو اتجاه يخنق قوة ابن سعود. وفي هذا الإطار تقرر تعيين وكيل سياسي في الكويت وكانت تعليماته تقضي بالعمل على استلقاط أخبار نجد، وضبط الشيخ حتى لا يتدخل في النزاع

الذي يلف نجد، ومحاربة تجارة السلاح. وبالرغم من أن كل هذه الأمور تضر بمصالح ابن سعود إلا أنهم لم يسعوا إلى ذلك عمداً. ما كان ذلك إلا نتيجة لعدم اهتمام الحكومة البريطانية، كما قررنا سابقاً، بنتيجة الأحداث في نجد. تعينّ نوكس وكيلاً سياسياً بريطانياً في الكويت، وقبل أن يستقر تماماً في منصبه كتب في ١٣٢٢هـ/ ٤ يوليو ١٩٠٤م إلى الإمام عبد الرحمن الفيصل: (٨٠) «أرجو أن أكتب إليكم لأفيد بأن حكومة الهند قد عينتني وكيلاً سياسياً لها في الكويت وأني أقيم حالياً في منزل صديقنا مبارك الصباح. لا أعرف حتى الآن شيئاً عن رغباتكم، وأرجو أن تبيت واثقاً أني حين اطّلع عليها، سأنقلها بحذافيرها من خلال المقيم في الخليج إلى حكومة الهند التي ستولي هذه الرغبات كل ما تستحقه من اهتمام.» وهنا نلاحظ أن الوكيل السياسي قد بدأ مهمته فور وصوله في استلقاط أخبار نجد من مصادرها. غير أن لهجة الخطاب أوحت إلى الشيخ مبارك، وإلى الإمام عبد الرحمن على السواء، بأن بريطانيا ستعمل إلى جانب آل سعود بعد أن انحازت الدولة العثمانية بصورة واضحة إلى معسكر ابن رشيد. وبهذا انعقدت آمال الإمام عبد الرحمن على بريطانيا.

البكيرية

خرجت الحملة العثمانية ـ كما رأينا ـ في ١٦ ربيع الأول ١٣٢٢هـ/ ٣٠ مايو ١٩٠٤م من السماوة صوب نجد. وقبل أن تصل إلى مسرح الأحداث أخذت أعدادها في التناقص نتيجة لانتشار الأمراض بين رجالها، ولهروب البعض منهم لشعوره بأنه مساق إلى ما لا شأن له به. وكان من المتعذر إنقاذ بريدة لأن الوقت قد فات(٨١).

وفد ابن ضبعان إلى ابن رشيد وجماعاته وهم يتقدّمون تجاه بريدة فعاتب ابن رشيد أميره «ونتف لحيته ولعن حيّه وميّته». واعتذر الأمير بأنه قد ثبت حتى ابتلي بالجوع، فاضطر إلى التسليم. سارت القوات العثمانية حتى نزلت القرعا تريد بريدة. أخلى ابن سعود بريدة وسحب أميره صالح الحسن بن مهنا.(٨٢) ووصلت الأخبار في أوائل يوليو بأنه قد وقعت في ١ ربيع الثاني ١٣٢٢هـ/ أواخر يونيو

١٩٠٤م معركة في البكيرية، إلى الجنوب الغربي من عنيزة وبريدة، وأن ابن رشيد استطاع بمساعدة القوات العثمانية أن يهزم قوات ابن سعود، وأن يضع في البكيرية حامية مؤلفة من ١٦٠ من البدو. وتفيد الرسالة أيضاً بأن ابن رشيد قد انحاز إلى الخبرا وذلك حتى يستعد لمهاجمة الرس، وان ابن سعود لا يزال في منطقة البكيرية والخبرا. وتعبّر السلطات البريطانية في الخليج عن رأيها في الأحداث فتقول: «الحقيقة أنه ليس بإمكان ابن سعود أن يثبت أمام الجنود والمعدات التركية، ولكن يبدو أن له قوة كافية ليضيّق الخناق على تلك القوة، ويقطع خطوط الاتصال بين مراكزهم ونقاطهم العسكرية». كما أفادت الرسالة بأن بعض القوات العثمانية ستتحرّك من المدينة المنوّرة في اتجاه نجد، «وهذا أمر غير مؤكّد».[٨٣] ونقل مبارك إلى الوكيل السياسي البريطاني بأن الإمام عبد الرحمن قد أنهى إليه أنه في حالة تقدّم قوات عثمانية أخرى من المدينة المنوّرة فإن ابنه عبد العزيز لن يستطيع المقاومة في القصيم، «ولكن حين تنسحب هذه القوات فسيكون له حينئذ شأن آخر مع ابن رشيد». وطلب عبد الرحمن إلى مبارك أن يمهد له الاتصال بالحكومة البريطانية.

أرسل الإمام عبد الرحمن رسالة إلى الوكيل البريطاني في الخليج يعلمه بوصول رسالته التي تفيد بتعيينه وكيلاً سياسياً بريطانيا في الكويت، والتي طلب فيها الوكيل إلى الإمام أن يعلمه بأخبار نجد وموقفهم منها. جاء في خطاب الإمام[٨٤] «... عنّا نحمد الله بخير وفي أبرك الساعاة وصلنا مشرفكم العالي لمؤرخ شهر جماد أول ١٣٢٣ وأمرتم أن حظرتكم العالية شرفتم الكويت ومقيمين خير مقدّم إنشاء الله وأننا نعرض لكم كلّما جارى علينا لا بأس». ويستمر خطاب عبد الرحمن ليطلب الحماية البريطانية لأن العثمانيين قد سعوا لحرب السعوديين في صف ابن رشيد، وكان على السعوديين أن يستعينوا بالقوة الأخرى المناظرة. «نحن يا محب مَن استنجدنا بحركاة ابن رشيد وترغيبه الترك بالممشا على أوطاننا. أنا عرضت بتاريخ شهر صفر ١٣٢٢ للباليوز خليج فارس وعندي معلوم ومتيقن عندي أننا تحت حمايتكم لأننا جنبنا الغير ولا قبلنا مراسلتهم الآن نحن نحب طرفكم عن غيركم وداخلين على الدولة البهية القيصرية دخالة عن الترك وتعرظهم أوطاننا وممالكنا نجد ولاّ ابن رشيد ماله أهمية عندنا وابن رشيد أوصل العسكر إلى أطراف

بلدان القصيم وهو معهم. الله سبحانه وتعالى ما وفقهم وأبعدناهم وولدنا عبد العزيز وأهالي نجد عموماً قاتلوهم. والتنقص؟ والمضار من فضل الله على ابن رشيد وعسكر الترك الآن طاردينهم عن ممالكنا لاكن هذا دولة الترك ونحن مانقابل دولة...» وهنا نجد أن عبد الرحمن يطلب الحماية البريطانية ليس لمواجهة ابن رشيد ولكن لأن ابن رشيد قد انحاز لمعسكر معيّن فبدأ ابن سعود يبحث عن المعسكر المضاد ليلتجئ إليه، خاصة بعد أن علم أن هناك نجدة عثمانية تستعد للتحرّك من المدينة المنورة في اتجاه نجد: «إلّا أنه بلغنا أيضاً أن الترك مجهزين عسكر من المدينة فإننا إذا ما نشوف منكم مساعدة منع عسكر الترك عنا بوجه السرع ما لنا استطاعة إلى محاربة دولة... نشوف لنا شوفة» كان الإمام عبد الرحمن يريد من الحكومة البريطانية أن تكف يد العثمانيين عنهم. ولم تسع الحكومة البريطانية إلى التدخل الجاد ولكنها كانت تريد أن تعرف الأنباء حتى تستطيع أن تقيم سياسة سليمة تحافظ بها على مصالحها في الكويت. وعلى هذا كتب المقيم البريطاني في الخليج كوكس (Cox) إلى الوكيل البريطاني في الكويت نوكس، بأن لا يشجع ابن سعود «حتى نستبين الخطوات التي تعتزم منا الحكومة القيام بها. أكتب ردك عليه لتبلّغه فقط بوصول خطابه، واطلب منه أن يكون على اتّصال بك إذا رغب منك شيئاً أو كانت له أخبار جديدة لا تدخل معه في شيء ملزم حتى نتعرف على آراء الحكومة في هذا الصدد».(٨٥) وعليه كان خطاب نوكس إلى عبد الرحمن المؤرخ في ٢٤ جمادى الآخر/ ٥ سبتمبر ١٩٠٤م خطاباً فارغاً جاء فيه(٨٦) «... في أبرك الساعات وصل إلينا كتابكم العزيز المؤرخ ١٠ج ٢ ١٣٢٢هـ وفي حالة وصوله بكم السرعة أرسلنا إلى أبو شهر لحضرة ميجر كاكس قنسل وجنرال الدولة القيصرية دام إقباله وبالتأكيد طلبنا منه إعادت تكرار لمطلب جنابكم مرت ثانية با السرعة عند الدولة الفخيمة القيصرية كونوا بالاطمئنان أننا دائماً نسر بوصول أخبار من جنابكم السارة ودمتم سالمة ومحروسين».(٨٧)

انجلت الأمور في هذه الفترة عن نصر لعبد العزيز ولهذا بدأت اتصالات آل سعود بالعثمانيين بدلاً من الإنكليز حيث كانت هناك روابط تشدّهم إلى العثمانيين، رغم تجاهل العثمانيين لتلك الروابط، وتحدّيهم فوق هذا للحق الذي اكتسبه

السعوديون حين استخلصوا المنطقة لهم بعد أن جمعوا أمرها قبل قرن من الزمان أو يزيد قليلاً على دعوة التوحيد والاتحاد.

الشنانة وقصر ابن عقيل

ظلّ عبد العزيز بعد معركة البكيرية في القصيم يناوش ويداور ويحاور ولكنه لم يستطع أن يواجه في حرب مكشوفة. بدت الأمور للمراقبين قاتمة حتى اعتقد البعض أنه سيخلي المنطقة وربّما يرجع إلى الكويت مرة أخرى. وبالرغم من أن الشيخ مبارك قد أرسل قافلة إلى الرياض من الإمدادات قوامها ٢٠٠ بعير، وكان بها ٤٠٠ بندقية، وكمية من الذخيرة،(٨٨) إلّا أن مواجهة قوات العثمانيين ومدافعهم الثقيلة كانت تتطلب أكثر من ذلك كثيراً، كان ابن رشيد في الشنانة قرب الرس، فأغار ابن سعود على البكيرية والخبرا وتمكن منها في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٢٢هـ/ ١٣ يوليو ١٩٠٤م، ونال من حامية ابن رشيد في البكيرية، وانسحب عائداً إلى الرس وبدا النصر قريباً. يقول أحد البدو المسنين(٨٩) «وقد كان في معسكر عبد العزيز في الرس في أواخر شهر أغسطس ١٩٠٤م» إن عبد العزيز لا يزال في الرس يحاصر الشنانة التي يوجد بها ٧٠٠ جندي عثماني غير مسلحين تسليحاً كاملاً، وأن الشنانة قرية مهجورة ليس بها منازل ولا زرع إنما هي أطلال وخرائب ممّا زاد في معاناة الجنود العثمانيين الذين يتساقطون يومياً بفعل المرض والأوبئة والعوامل البيئية التي زاد الحصار من حدّتها. أمّا ابن رشيد وجنوده فيعسكرون إلى الجنوب قليلاً من المنطقة التي تقع فيها التحصينات العثمانية، وأنهم يصيبون الإمدادات من قرية النبقية القريبة منهم. يقول هذا البدوي أيضاً: «إن جيش عبد العزيز كثيف كثير العدد يبلغ أكثر من ١٠،٥٠٠ رجل من المشاة، و٢٨٠٠ من الفرسان، وأنه يعسكر إلى الشرق من الشنانة ويغلق على قوات ابن رشيد الطريق إلى عنيزة وبريدة، ولا يمكن لابن رشيد وجيوشه الانسحاب إلى حايل عن ذلك الطريق. أمّا الطريق إلى الشمال فيغلقه عرب عقيل الذين يبلغ عددهم حوالى ٥٠٠ من المشاة، وهم يسدون على ابن رشيد الطريق إلى حائل شمالاً، ولن يبقى على هذا لجيوش ابن رشيد طريق للانسحاب إلّا طريق الجنوب

أو الغرب، وأفاد البدوي أن الانسحاب من أي هذين الطريقين غير وارد لعدم موالاة القبائل في تلك المناطق لابن رشيد خصوصاً طريق الغرب (طريق مكة)».[٩٠]

تحرّك ابن رشيد في ١٦ رجب/٢٠ سبتمبر من الشنانة إلى جهة غير معلومة، وكان الاعتقاد أنه يريد التراجع إلى حائل. يقول الشيخ مبارك نقلاً عن جهات مسؤولة إن ابن سعود قد فاجأ ابن رشيد والجنود في خلال يوم مسيرهم الثاني في قصر ابن عقيل حيث وقعت معركة كبيرة قتل فيها ٥٥٠ من الجنود العثمانيين و٣٣٠ من قوات ابن رشيد.[٩١] وبقي ابن سعود في المنطقة ليومين ينقل الغنائم التي أصابها هناك، وأرسل ثلاث رايات من رايات المهزومين إلى الكويت ليبشر بالنصر.[٩٢] ويروي مبارك أن ما تبقّى من الجنود العثمانيين قد هاموا على وجوههم في الصحراء، وأنهم اختاروا أن يموتوا جوعاً وعطشاً بدلاً من أن يموتوا بالسيف. ويضيف مبارك بأن ابن سعود قد طلب منه النصيحة فيما إذا كان من المستحسن أن يتّصل بالعثمانيين شارحاً الأمر أم يبقى بعيداً عنهم. وطلب مبارك إلى نوكس الوكيل السياسي البريطاني أن ينصحه في هذا الأمر. ورد نوكس بأن «حكومته لم تخوله بشيء في هذا الصدد، لهذا فمن المستحسن أن يقرّر ابن سعود بنفسه في شؤونه ويتبع من أمره ما يتمشى وخدمة مصالحه وأهدافه».[٩٣] وقد تبنّت الهند هذا الرأي تماماً إذ ردّت بأن على نوكس أن لا يتدخل أبداً. «ولا حتى بالمشورة مع مبارك في الأمور المتصلة بنجد، على أن لا تقوده هذه السياسة إلى الاعتقاد بأن حكومة الهند تريد أن ترى الأتراك وقد أسسوا لأنفسهم في هذا الجزء من الجزيرة العربية».

إذا تجاوزنا رواية مبارك عن موقعة قصر ابن عقيل حيث عدد القتلى عنده، كما يقول القنصل البريطاني في البصرة مبالغ فيه، فهناك رواية أخرى مستقاة من بعض الخطابات التي أرسلها ابن سعود والتي استولى عليها العثمانيون في البصرة.[٩٤] عرف العثمانيون من هذه الخطابات ومن استجوابهم للرسل أن ابن رشيد قد شدّ رحله مغادراً الشنانة في ١٧ رجب ١٣٢٢هـ/ ٢١ سبتمبر ١٩٠٤م وسار برجاله وبالقوات العثمانية وبثلاثة مدافع أو أربعة لضرب قلعة قريبة من

الشنانة هي قلعة ابن عقيل التي كان يسيطر عليها شيخ بريدة الذي يوالي ابن سعود. ظهر ابن سعود بحشوده من الرس لمساندة قلعة ابن عقيل. وحدثت معركة هرب بعدها ابن رشيد ربّما إلى حائل، وتشتتت الحامية العثمانية في كل اتجاه. كان للمفاجأة أثرها الحاسم في الهزيمة. أصاب ابن سعود غنائم كثيرة من الجمال والخيول وغنم مدفعاً كذلك. أمّا القتلى فكانوا على ما يستشف من هذه الرواية ١٣ رجلاً فقط من جانب ابن رشيد والعثمانيين، عشرة من عرب ابن رشيد، وثلاثة من الجنود العثمانيين. ولم يكن هناك أسرى حيث انشغل جنود ابن سعود بجمع الغنائم عن الأسرى. كان عنصر المفاجأة وراء نصر ابن سعود، كما كان للحالة المعنوية السيئة التي انحدرت إليها نفسيات الجنود العثمانيين، والإنهاك الذي طرأ عليهم، والسخط العام الذي آلوا إليه أثر قاتل على ابن رشيد وجنوده. وتتطابق هذه الرواية مع الرواية التي وصلت إلى القائد العام في بغداد من ابن رشيد.[٩٥] وفي ظنّنا أن الخبر المؤكد عن عدد القتلى من الجانب العثماني يمكن أن نجده في خطاب الإمام عبد الرحمن إلى والي بغداد، وهما الطرفان المعنيان بصفة مباشرة، حيث يقول:[٩٦] «فقد العسكر ٢١٠ قتلى، وخسروا ستة مدافع صارت إلى أهل نجد، وقد أصدر ابني عبد العزيز أمره بأن تترك هذه المدافع في البكيرية».

الإمام عبد الرحمن يتصل بالعثمانيين

خلصت القصيم لعبد العزيز، ورأى الإمام عبد الرحمن أن يخاطب السلطات العثمانية في البصرة والآستانة علّه يستطيع بالتفاوض أن يحقن دماء المسلمين، ويكفي الله المؤمنين القتال. جاء من خطاب الإمام:[٩٧] «إن أسرتي عرفت منذ القدم بالطاعة للدولة، والولاء لإمام المسلمين غير أن بعض المتآمرين حزموا أمرهم مع الطاغية ابن رشيد، وتقولوا علينا بالأباطيل. وحين علمت بذلك كتبت لوالي البصرة، وللقصر السلطاني، ولقائد الجيوش لكي يعدوا تقريراً وافياً في هذا الشأن ويبعثوا به إلى السلطان لإثبات ولائنا. إلّا أن ابن رشيد وجماعته قد استطاعوا أن يحتالوا على الحكومة فأتوا بالقوات إلينا، وكان هذا ضد ما نتوقع، ولم نستطع، بادئ ذي بدء أن نصدّق هذا الأمر. ثم وصل ابن رشيد والقوات

الحكومية قرب البكيرية، ولمّا رأى أهل نجد والقصيم هذا الأمر حزموا أمرهم، وهبّوا هبة رجل واحد، وشمّروا للحرب كي يدرأوا عن أنفسهم ما يكنّه لهم ابن رشيد بخططه التي تسعى إلى استئصالهم. لقد هاجمهم ابن رشيد، وكان ابني عبد العزيز مع أتباعه هنالك، فاستعد، وتراجع أمام قوات الحكومة، وطلب من القبائل مهاجمة جماعة ابن رشيد فقط. ولمّا رأى ابن رشيد أنه قد حوصر تراجع إلى منطقة القوات الحكومية، وكانت معركة هزم فيها ابن رشيد تماماً». وبعد أن ينعي عبد الرحمن إلى الوالي جنوده يقول: «إننا نؤكد إخلاصنا وولاءنا للدولة وقد حاول عبد العزيز السعود بشكل دائم ومستمر أن يتصل بقادة القوات الحكومية ويستوثق من رغباتهم، وأن يبرق للقصر، إلّا أن ابن رشيد كان دائماً يتعرّض للرجال ويخيفهم. وقد استولى على كل الخطابات والبرقيات وذلك بعد المعركة التي وقعت في ٢٦ ربيع الآخر ١٣٢٢هـ/ ١٣ يوليو ١٩٠٤م. وظلّ ابن رشيد على دأبه هذا فسار بأتباعه وبالقوات ضد أهل القصيم وأخذ في تضييق الخناق عليهم. وفي ١٧ رجب ١٣٢٢ هوجم ابن رشيد، وهزم تماماً، وقتل الكثير من أتباعه، وقد تمّ الاستيلاء على خيامه ومؤنه وكل ما يملكه، ولا أعتقد أنه بمستطيع أن يرفع رأسه مرة أخرى. وفي هذا الحادثة منع ابني عبد العزيز وأقاربنا الآخرون الذين كانوا معه سكان نجد المسلمين من مضايقة القوات الحكومية. ولكن بما أنهم كانوا في الجبهة نفسها التي كانت بها قوات ابن رشيد فإنهم لم يرتاحوا في القصيم. وإني مقتنع بأن مغادرتهم للقصيم ترجع إلى دسيسة دبّرها ابن رشيد وأحكمها، لأنّنا نعرف أنه لا السلطان ولا وزراؤه يرضون لأتباعهم أن يُتَحَرّش بهم: إننا نطلب إليكم أن تقبلوا طاعتنا التي بذلناها لكم فيما قبل، وحتى الآن، وأن ترفعوا إلى السلطان تقريراً في شأن حالتي، وأني مستعد لتقديم أية خدمة تطلبها الدولة، وأضمن صادقاً أمن الطرق والحجيج. أرجو أن تقبلوا ولاءنا ولا تتركونا لليأس، فإن اليأس يقود إلى ارتكاب الجرائم. كما أرجو إليكم أن تدفعوا معاشي الذي تأخر لعدة شهور كما أفيدكم بأن المدافع الكبيرة التي كانت مع القوات هي حالياً مع أهل نجد، وستبقى في حوزة ابني وسأبقى في انتظار تعليماتكم...».(٩٨)

رد الفعل العثماني على الهزيمة

بدأت سلطات البصرة العثمانية تجهز لاعتداء آخر، وأعلنت الولاية فتح باب التبرعات للمجهود الحربي، وأحدث الوالي بالإنابة فكري باشا ضغطاً أدبياً اضطر كل مسلمي البصرة «بما فيهم أصدقاء ابن سعود» للتبرّع، كما تبرّع بعض اليهود الأثرياء، وبعض النصارى، تراوحت تبرّعات الأهالي بين ٣ ـ ٣٠ ليرة. «وجمعت مدينة البصرة حوالى ٤٠٠٠ ليرة، ويقـدّر مونهان قنصـل البصرة بالإنـابة، بـأن التبرّعات ربما تصل إلى ٧٠٠٠ ليرة من ولاية البصرة وحدها.[٩٩] وفي الكويت تدنّت أسعار الليرة العثمانية وانحدرت من ١٤،٢ روبية لليرة إلى ١٣،١٥٦. وقيل إن السبب في ذلك وفرة الليرات التي غنمها البدو من ابن رشيد وجماعاته والجند العثماني. كما وصل بعض البدو مع تجار بريدة وعنيزة وهم يحملون ملابس الجند العثماني وخيامه.[١٠٠]

في الآستـانة جنّ جنـون الحكومـة فأرسـل الصدر الأعـظم في ٨ شعبـان ١٣٢٢هـ/ ١٧ أكتوبر ١٩٠٤م بأمر إلى ناظر داخليته ينهي إليه أن السلطـان قد وافق على قيام قوة كبيرة إلى القصيم تقدّر بعشرين فرقة نظامية غير الرديف «تسير من معسكرات القسطنطينية وسوريا وعدن والعراق والمدينة المنـوّرة». وأشار إلى طريقة نقل القوات والذخيرة والشركات الناقلة للجنود [يلاحظ أنها شركـة ليود (Lloyed) البريطانية][١٠١] وتجهيز المـدافع، وأنـواعها، وعـدد البغال المصـاحبة للحملة لنقل المؤ ن والمدافع، «على أن تنزل قوات القسطنطينية بذخيرتها في بيروت ثم إلى سوريا حيث تطرق طريق الحجاز إلى معان ثم العقبة حيث ترحل بالسفن إلى ينبع ومنها إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة في طريقها إلى القصيم». ويبدو أن الأمر قد دخل طور التنفيذ حيث يفيد هذا القرار المصالح العثمانية المعنية: «بأن ما أثبتناه لكم قد أملاه ناظر الحربية الذي أصدر تعليماته العاجلة في هذا الصدد. وعليكم أن تتخذوا الإجراءات التي تقع في دائرة اختصاصكم. ودلّت التقاريـر الـلاحقة عـلى أن الحكومـة العثمانيـة ماضيـة في تخطيـطها، كـما يقول مـاونسل (Mounsel) الملحق العسكري في السفارة البريطانية في الآستانـة،[١٠٢] لإرسال دعم لقواتها في داخل شبه الجزيرة وذلك من أجل استعادة هيبة القوات العثمانية

بعد أن هزمها ابن سعود. وأشار ماونسل إلى أن بعض القوات ستتحرك من حلب إلى دمشق وبيروت ثم إلى معان فالعقبة فالمدينة المنوّرة، كما سترسل قوات أخرى من بغداد والعراق عموماً، ويفيد هذا التقرير أن ناظر الحربية العثماني قد أنهى إلى ماونسل في ٧ نوفمبر بأنه ربما يؤجل إرسال القوات، أو ربّما تلغى الفكرة نهائياً لأن ابن سعود أرسل إلى السلطان يعبّر عن ولائه، ويعلن خضوعه، ويرجو أن تنظّم الأمور بينه وبين الدولة بشكل سلمي. «ولكن بالرغم من هذا ربما تقوم الحكومة بإرسال ٤ ـ ٦ فرق من حلب إلى المدينة المنوّرة». كما عرف المحلق العسكري البريطاني بأن قوات العراق لا زالت مسلّحة ببنادق المارتيني العتيقة وهو السلاح المتوفر إلى حد ما لابن سعود».[١٠٣] ولهذا قد تقرّر أن يرفع العثمانيون كفاءة سلاحهم، فجهزوا ٤٠،٠٠٠ بندقية ماسور لترسل إلى العراق، كما يعدّد ماونسل بعد ذلك أعداد المدافع وأصنافها «والتي حزمت الآن وجهّزت في انتظار إرسالها بحراً في أقرب وقت إلى البصرة».[١٠٤]

وفي الحقيقة لا نستطيع أن نجزم بأن ما أورده ناظر الحربية العثماني للملحق العسكري في السفارة البريطانية من أن إجراءات هذه الحملة قد تأخّرت نتيجة لخطابي الإمام عبد الرحمن إلى دار الخلافة، وإلى والي البصرة، بل نميل إلى رفض ذلك. كان الإمام عبد الرحمن قد اتّصل بالعثمانيين قبل هذه المعارك مراراً مبدياً الولاء، ولم يلق الترحاب. ولا نجد سبباً واحداً يجعل الدولة تقف في صف ابن رشيد منذ البداية ضد عبد الرحمن إذ لم يكن ابن رشيد، كما تفيد عملياته العسكرية في العراق العثماني سلفاً، بالتابع المخلص للحكومة العثمانية. ونعتقد ـ كما قلنا سلفاً ـ أن الدولة العثمانية دخلت إلى جانب ابن رشيد لخوفها من التحالف بين السعوديين والشيخ مبارك الصباح، وما قد يجرّه هذا التحالف من امتداد للنفوذ البريطاني إلى الداخل. ولا بدّ أن العثمانيين قد عرفوا بالمساندة والدعم من مبارك للسعوديين في صراعهم الأخير ضد القوات العثمانية الرشيدية المشتركة، وتيقّنوا من أن الارتباط بين مبارك وآل سعود قد وصل إلى ذروته. ولهذا نعتقد أن تحوّل العثمانيين كان له سبب آخر، ونرجّح بأن الدولة العثمانية قد فكّرت في نبذ ابن رشيد لجنوحه وتآمره ضد القوات التي أرسلت لنجدته. نجد برقية من نيومارش إلى أوكنور

مؤرّخة في ٢٩ صفر ١٣٢٢هـ/ ١٠ أغسطس ١٩٠٤م تفيد بأن عثمان باشا[١٠٥] قد أرسل برقية من المدينة المنورة إلى الباب العالي يـرد فيها فشل الحملة إلى ابن رشيد. تفيد هذه البرقية أن ابن رشيد اختلف مع الأميرالاي قائد حملة نجد التي أرسلت لمساعدته ضد آل سعود حيث اختلفا في تنفيذ الخطة. فبينما رأى الأميرالاي أن تسير قوات ابن رشيد أمام الحملة، رأى ابن رشيد أن تتقدّم هذه الحملة قواته. وحين اختلف الرجلان دبّر ابن رشيد مقتل قائد الحملة ثم أمر البمباشي رمضان أغا، الثاني في القيادة، بأن يتولى قيادة الجند العثماني، ويسبق بهم حشود شمر. وحين كانت الحرب مع ابن سعود، وكانت المفاجأة التي أربكت الجميـع، قتل عرب ابن رشيد ١٠٠ من الجنود العثمانيين وأصابوا ٩٠ آخرين. وكان البمباشي رمضان أغا، وهو ضابط بسـلاح المدفعيـة، و١٩ ضابـطاً عثمانيـاً آخر من بـين القتلى[١٠٦]. ويشير القنصل إلى أن الوالي يتكتّم على هذه الأخبار جداً ولا يريد لها أن تذاع. ويؤيد تقرير آخر أرسله المقيم البريطاني المساعد في كربلاء هذه الروايـة حيث أفاد بأن ابن رشيد قد وضع القوات العثمانية في المقدّمة وجعل قواتـه من خلفهم، وحين وقعت الموقعة انسحب برجاله هارباً من خلف الجيش تاركاً الجنود العثمانيين في مواجهةالسعوديين. ولم يكن أمام الجند إلاّ الحرب والقتال، فهم لا يعرفون طرق المنطقة ليتقهقروا كما تقهقر حليفهم. وبهذا حارب الجند حتى قتلوا أو وقعوا في الأسر. ويشير هذا التقرير أيضاً إلى أن «أمير عال» الحملة وضابطاً آخر قد لقيا حتفهما في الجبل على يد ابن رشيد.

وفي اعتقادنا أن هذا هو السبب الذي جعل الدولة العثمانية تفكّر جدياً في أن ترفع يدها عن ابن رشيد وتستكشف إمكانيـة التوافق مـع خصمه الـذي أعلن الطاعة والولاء، ولم يكن قرار الدولة العثمانية بالدخول في مفاوضات سلم مع ابن سعود بالأمر السهل. ولهذا، وبالرغم من اتخاذهم القـرار، إلاّ أنهم عملوا على إرسال قوة من المدينة المنوّرة إلى القصيم، وبـقـي نـاظر الحربية العثماني حتى ١١ رجب ١٣٢٢هـ/ ٢٠ سبتمبر ١٩٠٤م، يؤكد قيـام هذه الحملة من المـدينة إلى القصيم رغم الصعوبات الطبيعية التي ستلاقيها في المنطقة. ويبدو أن العثمانيين قد عملوا على أن تتمّ مفاوضاتهم مع ابن سعود تحت مظهر من مظاهر القوة.[١٠٧]

زار والي بغداد في ١٣ شوال ١٣٢٢هـ/ ٢٠ ديسمبر ١٩٠٤م نيومارش قنصل بغداد البريطاني. وعرف نيومارش من الوالي أنه سيتولى بنفسه قيادة الحملة إلى القصيم، وأن قوة الحملة ربّما تصل إلى ٧٠٠٠ جندي سيأتي نصفهم من المدينة المنوّرة ويأتي الآخرون من اليمن بالإضافة إلى القوة التي ستصحبه من ولاية بغداد. وأسرّ الوالي إلى القنصل بأن الحكومة سترسل قوات من أضنة إذا استدعت الحاجة ذلك. وعبّر الوالي عن اعتقاده بأن قواته كافية لضبط الموقف. وقال الوالي بأن ابن رشيد قد كتب إليه، وكذلك ابن سعود، وذلك حين علم الرجلان بأخبار الحملة، وعبّر كلا الرجلين عن رغبته في السلم والدخول في طاعة السلطان. وناقشه نيومارش في شأن الإمدادات للحملة فقال الوالي إنه وجنده سيعتمدون على المعلبات و«البسكويت»، وإن المنطقة، خلافاً لسمعتها، بها الكثير من الضأن.(١٠٨) ولم تجد محاولات نيومارش اللاحقة في إقناع الباشا بصعوبة تنفيذ ما تزمعه الحكومة العثمانية.

المفاوضات العثمانية السعودية

أبلغ الشيخ مبارك نوكس في ٣ سبتمبر بأن الباب العالي قد أرسل لوالي البصرة يستشيره في شأن المسألة بين ابن سعود الذي صار نجمه إلى صعود وابن رشيد الذي صار حظه إلى أفول، وأخطره بأن ابن رشيد طلب الدعم والمساعدة. عرف مبارك بهذا الخبر من أغا الغفير، وكيل الملاحة الفارسية، وهو من أوثق الموثوق بهم عند الوالي، ويُعتبر بمثابة مستشار سري له. وقيل بأن الوالي رأى بعد استشارة السيد رجب، نقيب البصرة، وأغا الغفير، أنه من المستحسن أن يُعينّ ابن سعود حاكماً لنجد. ولهذا طلب الوالي إلى الغفير والنقيب أن يتّصلا بمبارك لينصح ابن سعود كي يكتب إلى والي بغداد معبّراً عن الولاء، معتذراً بأنه لم يحارب الدولة إلّا لأن رجالها كانوا في صف عدوّه، وأنه أجارهم بعد ذلك. وأن ينهي إليه أيضاً أنه على أتمّ استعداد لتنفيذ رغبات الدولة، ولهذا فهو لا يجد مسوّغاً لبقاء الجند في نجد، ويتعهّد بأن يوصل هؤلاء الجند بأمان إلى الجهة التي يشار إليه بها. وأكد الوالي أنه في هذه الحالة سيعينّ ابن سعود حاكماً لنجد «تحت الحماية العثمانية ولكن

دون تدخّل عثماني بالرجال ولا بالإداريين».[١٠٩] كما قال مبارك بأن الباب العالي قد قبل رأي والي البصرة. ورد نوكس على مبارك بأن اهتمام الحكومة البريطانية بنجد هو اهتمام هامشي، وبأن كل ما يهمها في المنطقة هو أمر استقلال الكويت، وعليه فهي لا تحتمل ظهور عدوّ مؤثّر عند أبوابها، «وأن على مَن يحكم نجد ألّا يكون أداة بيد العثمانيين أو غيرهم لإثارة اضطراب لمبارك». وعبّر نوكسَ عن رأيه أيضاً من أن ابن سعود سيظل يطلب المساعدة حين يحتاجها من حليفه وصديقه مبارك وسيلتجيء له في كل محنة.[١١٠] لم يوافق مبارك نوكس على تحليله وقال بأن العثمانيين حين يفرضون سيطرتهم على نجد سيمتصونها، وأضاف بأنه لا يثق في تصرفات ابن سعود حين يتصل بالعمثانيين «فهو مجرّد بدوي يكون اليوم مع هذا وغداً مع ذلك»، وما زال الشيخ يكرّر هذه العبارة مراراً. . .[١١١] وينتهي الخطاب بالقول بأن مبارك «وليس هذا بسرّ قد مدّ ابن سعود، ولا يزال يمدّه بالمؤن والذخيرة أسبوعياً». ويعبّر الكاتب الخاص بمبارك بأن مبارك «يسكب المال في نجد كما تُسكب المياه». ولاحظ نوكس أن الشيخ مبارك يعتمد في قوّته على البدو يمدّهم بالمال والسلاح ليدرأوا عنه الخطر، كما لاحظ أنه حين يكتب للعثمانيين يعبّر عن نفسه «بحاكم الكويت وشيخ قبائلها».[١١٢] ونستطيع أن نشير هنا إلى بداية الانكسار في علاقة مبارك بابن سعود حيث بدأ نجم الأخير في الصعود ولم يحقّق مبارك من طموحاته إلّا اليسير.

ويفيد تقرير من محمد حسين القنصل البريطاني في جدّة أن ابن سعود قد أرسل في هذا الوقت لشريف مكّة يخطره بأنه لا يزال على ولائه للسلطان العثماني، وأن ما وقع منه سلفاً ضد القوات العثمانية لم يكن بإرادته لأن الجند كانوا في صف ابن رشيد. وعبّر ابن سعود عن رغبته في ردّ كل الغنائم التي استولى عليها من العثمانيين سلفاً. كما طلب ابن سعود إلى الشريف أن يكون واسطته في الخطابات التي يبعثها إلى السلطان.[١١٣]

من هنا بدأ التغيّر الواضح الذي ميّز العلاقات اللاحقة بين مبارك وابن سعود. أدرك مبارك أن خططه قد انهارت تماماً، فدعمه لابن سعود، كان بطبيعة الحال، لمنفعة كما قرّرنا سابقاً. كان الشيخ مبارك يسعى بدعمه هذا إلى ضرب ابن

رشيد، وإسكات يوسف الإبراهيم، وإحداث سند له يفكّ عن الكويت عزلتها. وحين يدخل ابن سعود إلى معسكر العثمانيين ويكون في صفهم، فصوت الثأر لن يصمت وسيظلّ يلاحقه والقبائل لن تأتمر بأمره من خلال ابن سعود، ولن يحقّق السيادة في نجد كما كان يأمل، وسيظلّ في القفص البريطاني الضيق الذي زجّ نفسه فيه. أمّا ابن سعود فلربما يجد في الأحساء وقطر متنفساً له عن الكويت. ولهذا فقد بدأ مبارك يرسل نغمات الصلح إلى ابن رشيد في حايل ويتّصل بأمراء القصيم يحرضّهم ضد ابن سعود.

عرف نوكس في ١٨ نوفمبر من الشيخ مبارك بأن الإمام عبد الرحمن أرسل برقية إلى السلطان عبّر له فيها عن ولائه وإخلاصه وأكّد أنه تابع للسلطان مستعدّ لإجابة مطالبه، وأن ما حدث من عداء كان بتدبير من ابن رشيد «الذي من طبعه العداء». وردّ الباب العالي، كما عرف مبارك من والي البصرة، في يوم ١٢ نوفمبر يقبل اعتذار الإمام ويخطره بأنهم سيرسلون ضابطاً إلى القصيم لإتمام الصلح. كما قال مبارك أيضاً إن العثمانيين يرغبون دخوله في مشروع الصلح. وأضاف بأن كل هذا ربّما كان غير مؤكّد.[١١٤] وتتأكّد هذه الأخبار حين يصل إلى مبارك في ٢٣ ديسمبر خطابان أحدهما له والآخر لابن سعود من والي البصرة. وقد أرسل مبارك خطاب ابن سعود في حينه إلى الرياض. يقول مبارك إن العثمانيين يعملون على تعيينه حاكماً على نجد، كما جاء في خطابهم له «أمّا خطابهم لابن سعود فلم يرد فيه ذكر لشيء».[١١٥] ويضيف مبارك بأن الوالي يريد أن يجتمع به وبابن سعود في سفوان في خلال ثلاثة أسابيع. ويشكّك مبارك في أن ابن سعود سيذهب إلى هناك أو أن الاجتماع سينتهي إلى شيء ذي أثر. وأفاد بأنه لن يذهب لمقابلة الوالي إلاّ إذا رغب ابن سعود في مقابلته. كما أخطر الشيخ نوكس بأن القوات العثمانية التي جمعت في السماوة قد سرّحت، وأن العثمانيين ما عادوا يفكّرون في الحرب.[١١٦]

يقول مونهان في برقيته بتاريخ ٢٢ شوال ١٣٢٢هـ/ ٢٩ ديسمبر ١٩٠٤م إن والي البصرة قد استدعى قبل حوالي شهرين ابن سعود إلى البصرة للمفاوضات، ويضيف بأن عبد الرحمن الفيصل قد قام في ٢١ رمضان ١٣٢٢هـ/ ٢٨ نوفمبر

بإرسال برقية إلى الباب العالي تعبّر له عن الولاء والإخلاص، وتعتذر عمّا سلف من أمور ما كان لها أن تكون لولا مساندة الدولة لابن رشيد ضد صاحب الحق الشرعي. ودعم الإمام عبد الرحمن هذه البرقية بأخرى أرسلها الشيخ قاسم آل ثاني كذلك يشهد على ولاء السعوديين للدولة. وعبّر القائم مقام قاسم بأن أهل نجد ما عادوا يوافقون على أن يكونوا تحت حكم عبد العزيز بن رشيد، «وأن الرأي العام القبلي والحضري في المنطقة يقف صامداً مع ابن سعود لا يتزحزح عنه» وعبّر القائم مقام عن اعتقاده بأن إرسال حملة عثمانية ضد ابن سعود ربّما تُخرج نجد من قبضة السلطان لتصبح كالكويت، لأن أهل المنطقة لا يريدون ابن رشيد، وآل سعود يطالبون بحقهم المدعوم بالرأي العام، وربّما جرّ هذا الوضع إلى أن يستعين آل سعود بقوة أخرى لتدعيم تطلعاتهم المتولدة من تطلعات المنطقة بأسرها.(١١٧)

يقول تاونلي، مستشار السفارة البريطانية في الآستانة، إنّ السلطان قد بدأ يعيد النظر في أمر إرسال هذه الحملة.(١١٨) ويرى تاونلي بأن العسكريين ربّما نصحوا السلطان بعدم جدوى هذه الحملة، وأنّهم ربّما أشاروا له بأن كل الحملات التي أُرسلت إلى نجد سالفاً بما في ذلك حملة إبراهيم باشا الناجحة في ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م قد تراجعت عن نجد ولم تستقرّ بها. لم يكن رأي السلطان قد استقرّ بعد على قرار، وحين وصلته من شريف مكّة برقية تفيد بوجوب العمل لوقف تعدّيات ابن سعود حتى لا تبلغ مكّة المكرّمة قرّر السلطان حالاً إرسال حملة بقيادة فيضي باشا من بغداد إلى نجد. وكان لاتّهام الشريف حسين لابن سعود بأنّه يتلقّى دعماً ومساندة وتحريضاً خارجياً أبلغ الأثر في اتخاذ هذا القرار. ولا نرى ضرورة في أن نكرّر ما أوردناه سالفاً من أن ابن سعود لم يتلقّ حتى هذا الوقت أي دعم أو مساندة من أيّة قوة دولية، وأن اتّهام المساندة الخارجية قد لحق به نتيجة لانطلاقه من الكويت حيث النفوذ البريطاني الذي بدا قوياً في هذا الوقت، وتعالى هادراً لا يقبل من العثمانيين مساومة أو مقاومة. ربّما عرف ابن سعود بأن ارتباطه بمبارك قد جرّ عليه هذا الاتّهام، ولهذا نراه يتّصل بقاسم، ويوثق علاقته معه، كما اتّصل في هذا الوقت بفائق باشا متصرّف الأحساء ونال ثقته ودعمه حتى إن المصادر ترد طرد فايق باشا من متصرفية الأحساء في نوفمبر ١٩٠٤م، إلى اتهامه بأنه يرسل المؤن

والإمدادات إلى ابن سعود،[119] وأن تعيين نجيب بك متصرفاً للأحساء بدلاً من فائق كان لتشديد الحصار على ابن سعود.

كتب تاونلي إلى وزير الخارجية لانسدون في شوّال ١٣٢٢هـ/ يناير ١٩٠٥م، بأن السلطان لا يزال عند تصميمه القوي على إرسال حملة تساند ابن رشيد ضد ابن سعود. وأنّ الحملة ستعمد إلى احتلال كل المدن والمراكز الرئيسية في نجد وسواحلها واعتقال كافة الرؤساء والمشايخ وترحيلهم إلى الآستانة.[120]

أبرق مونهان، القنصل البريطاني في البصرة إلى تاونلي (Townley) بتاريخ ١٨ ذي القعدة ١٣٢٢هـ/ ٢٣ يناير ١٩٠٥م بوصول مبعوث سعودي إلى والي البصرة يطلب إليه أن يتمّ الاجتماع المزمع في صفوان على حدود الكويت. كما أفاد القنصل بأن الوالي قد أبرق إلى الآستانة بهذه الرغبة ويطلب موافقتها على بدء المفاوضات. وعبّر القنصل عن اعتقاده بأن الاجتماع ربّما يتم في الفاو، كما يرغب الوالي، أو أية منطقة أخرى قريبة من مدينة البصرة.[121]

أبرق الإمام عبد الرحمن في ٢٣ ذي القعدة ١٣٢٢هـ/ ٢٨ يناير ١٩٠٥م إلى السلطان العثماني يعبّر عن ولائه له، ويتبرّأ عن كل اتصال مع الأجانب، ويشتكي من أن السلطات العثمانية المحلية تحاول أن تظهره بمظهر المعادي للسلطان، الخارج عن سلطته وذلك تحقيقاً للمصالح الذاتية لهذه السلطات. ويتجرّأ عبد الرحمن ليذكر للسلطان بأن رسل ابن رشيد يذهبون إلى دار الخلافة «بالدنانير» التي يعمي بريقها ضعاف النفوس فيعملون على تحريك غضب السلطان عليه. وذكّر الإمام عبد الرحمن ببرقيته، وبرقية قاسم آل ثاني، قائم مقام قطر، في ٢٨ نوفمبر ١٩٠٤م التي تعبّر عن الولاء وأنهى برقيته بأنه يقبل «بحكم السلطان فيه».[122]

بدأ اجتماع صفوان في ٢ ذي الحجة ١٣٢٢هـ/ ٦ فبراير ١٩٠٥م بين والي البصرة والإمام عبد الرحمن بحضور الشيخ مبارك. وقد أبلغ مبارك الوالي بأنه لا شأن له بما يجري في نجد، وأنه قد حضر إلى صفوان تلبية لندائه ولمرافقة عبد الرحمن الفيصل. واستأذن مبارك منصرفاً ليعطي الفرصة للوالي لتسوية مسألته مع عبد الرحمن. وأصرّ الوالي بأن يشهد مبارك الاجتماع، ويدلي برأيه فيما يعنّ له،

فاضطر مبارك للبقاء رافضاً الإدلاء بأي أمر.[١٢٣]

أرسل الوالي بعدئذ في طلب ابن سعود الذي وصل إلى مكان الاجتماع وعرض مسألته من أنه وأصدقاءه قد قدّموا التماسات للسلطان لينظر في أمر ابن رشيد وطغيانه، ولم يستلموا ردّاً، ولهذا اضطروا أن يأخذوا القانون في أيديهم فزحفوا على ابن رشيد وهزموه. وكانت النتيجة أن عاد المهزوم في ركاب جنود الدولة، وقطع السبل على كل الرسل الموفدين برسائل من آل سعود إلى السلطان. وبهذا لم يتمكّن آل سعود من الحصول على إنصاف من الدولة، فاضطروا اضطراراً لمنازلة ابن رشيد وجنود الدولة الذين معه. وأضاف الإمام بعد هذا بأنه قدم حالياً مسرعاً لتلبية نداء الوالي حين أمره الوالي بالقدوم. وأكّد الإمام بأنه لن يسمح تحت أي ظرف من الظروف لابن رشيد كي يتدخل في شؤون نجد، وأنه سيحاربه حتى إذا جاء بالجنود العثمانيين وأقرّ الإمام بأنه لا يريد أن يحارب الدولة العثمانية، ولا يريد أن يقاومها «ما لم تناصر ابن رشيد ضده وضد أتباعه». وأنهى حديثه بأنه «ليس لكم حق ولا مصلحة في بلادنا، وأتباعنا لا يستسيغون وجود جنود بين ظهرانيهم».[١٢٤] وردّ الوالي بأنه سيرفع الأمر إلى الآستانة، وأرسل الوالي في اليوم نفسه برقية طويلة للباب العالي ذكر فيها ما دار في هذا اللقاء تفصيلاً.

رجع الوالي مرة أخرى لاستئناف المفاوضات في ١٤ فبراير، وأبرز برقية من الآستانة تجري شروطها على النحو التالي:[١٢٥]

- ليس لابن رشيد أن يتدخّل في شؤون نجد.
- يدخل الشيخ مبارك طرفاً في هذه التسوية.

يقول مبارك لنوكس بأنه أنهى إلى الوالي رغبته بألّا تكون له أية علاقات بأهل نجد وإن كان لا يمانع من أن تستمر علاقاتهم التجارية مع بلاده. وأضاف بأن تدخّله سابقاً في الأمر قد جلب عليه النقمة، وأن اسمه قد أصبح يتردّد في الصحف بدعوى أنه ينقل المال والأسلحة والمؤن الإنكليزية إلى نجد «بالرغم من أن هذا الأمر غير صحيح على الإطلاق».[١٢٦] وأضاف مبارك «بأنه أنهى إلى الوالي بأنه يصرّ إصراراً جاداً بألّا يكون له أدنى اتصال بسياسة نجد، وسيكون هذا اللقاء

آخر عهده بهـا، وحين ينتهي هذا اللقاء سيسير في درب، ويسير عبد الرحمن في درب آخر، وأنه يأمل لعبد الرحمن أن يتفوّق على عدوّه ابن رشيد، فعبد الرحمن صديقه». ويـدّعي مبارك في حـديثه بـأنه قـال للوالي بأنّـه لن يدخـل في مظلّة العثمانيين، وأنّه لن يفارق البريطانيين حتى لو أعطي البصرة بما حوت، «لقد طلبتم محالاً فإني لم أحضر هنا إلاّ لمرافقة ابن سعود، وقد كلّفني هذا الشيء الكثير الذي بذلته رخيصاً كدلالة على شعور الصداقة التي تربطني بكم. إني لم أقم بأي شيء يتعارض وأهداف حكومتكم. أمّا الإنكليز فهم الذين يحمون أملاكي وقواربي. فإذا انحزت لكم فإن أتباعي لن يساندونـي، وسيتركونني، وينحـازون دوني إلى الإنكليز». وسأل نوكس بعد هذا مباركاً عن أمر الجنود العثمانيين الذين سيذهبون إلى نجد. وأجاب بأن عبد الرحمن قد رفض إقامة جنود في الرياض، وبأن الدولة سترسل جنوداً إلى عنيزة وبريدة، وأن الأوامر قد صدرت بالفعل إلى مشير بغداد ليذهب إلى بريدة وينظّم إدارتها، ولكنه رفض متعلّلاً بالمرض. هذا ونجد تلخيصاً لهذه المفاوضـات في خطاب الـوكيل نـوكس للمقيم كوكس في ١١ ذي الحجـة ١٣٢٢هـ/ ١٥ فبراير ١٩٠٥م «أحضر الوالي أمراً من القسطنطينية يعيّن ابن سعود بموجبه حاكماً لنجد نيابة عن الحكومة التركية وذلك على أن تضع الحكومة المذكورة لها جنوداً في القصيم تكون لهم علاقات رسمية مع ابن سعود. وسيظلّ ابن سعود والجنود كلّهم في خدمة السلطان، ولن يكون لابن رشيد بعد هذا أي دخل بشؤون نجد».[١٢٧]

لم تكن بريطانيا بعيدة عن هذه المفاوضات حماية لمصالحها في الكويت وخشية من التدخّل الفرنسي والروسي في شؤون شبه الجزيرة العربية حيث بدا واضحاً أن هاتين الدولتين تسعيان منفردتين ومجتمعتين لإقامة علاقات مع ابن رشيد. كانت بريطانيا تراقب مفاوضات صفوان عن طريق مبارك مراقبة المشارك، ولكنها كانت في الوقت نفسه تغل يد الشيخ مبارك في أن يكون له شأن فيها أو مصلحة. كما طلبت بريطانيا إلى وكيلها في الكويت ألاّ يتّصل بابن سعود أبداً: «لا تسْعَ إطلاقاً للاتّصال بابن سعود، ولا تقابله إلاّ إذا سعى بنفسه إليك ولم تستطع أن تتجنّب اللقاء إلاّ باستعدائه». كانت هذه أوامر كوكس لنوكس.[١٢٨] أمّا أوامر لندن للهند

لبوشهر لوكالة الكويت فقد وصلت في ١٩ ذي القعدة ١٣٢٢هـ/ ٢٤ يناير ١٩٠٥م بأن «وزير الخارجية البريطاني يذكّر حكومة الهند بأن تقصر كل نفوذها ومصالحها على الساحل فقط، وعليه يجب تحذير مبارك تحذيراً قوياً بأن لا يزجّ بنفسه في شؤون نجد، وأنّنا في هذه الحالة لن نسعى إلى مساندته».(١٢٩) وطلب المقيم كوكس إلى الوكيل نوكس أن يعد خطاباً يذكر فيه مبارك بما التزم به سلفاً من الثبات في تصرفاته بشكل قاطع على ما يشير به نائب الملك في الهند. كما طلب المقيم إلى وكيله نوكس مرة أخرى بألّا يجتمع بابن سعود إطلاقاً إلّا إذا جاء إلى الكويت وسعى بنفسه للمقابلة «ووجدت ألّا مفرّ من ذلك. وعليك حينئذ ألّا تعبّر له عن أية فكرة، ولا تشير عليه بأدنى رأي، ولا تتحدث مع الشيخ مبارك في أي شأن من الشؤون الخاصة بابن سعود أبداً».(١٣٠) وقد نقل نوكس هذه الأخبار إلى الشيخ مبارك يوم ٢٦ يناير، ولقد «تحمّل الشيخ وطأة هذا الخبر بشكل مقبول».(١٣١) أمّا ابن سعود فقد كان أكثر زهداً من حكومة الهند في لقاء مبعوثيها. كان هدفه واضحاً وهو استعادة آل سعود لنفوذهم السابق في وسط شبه الجزيرة، وفي نجد خاصة، «فإذا أقرّ له العثمانيون بذلك فماله يسعى للبريطانيين الذين تبيّن له سلفاً أنهم زاهدون في التدخّل». ولهذا لم يسع الإمام عبد الرحمن إلى الوكيل البريطاني ولم يهتم بأمره. أمّا كوكس فقد كتب إلى مبارك بعد اجتماع صفوان ليؤكد عدم تدخله في مسائل نجد، وذلك في ٣٠ ذي الحجة ١٣٢٢هـ/ ٧ مارس ١٩٠٥م في خطاب جاء فيه: «(١٣٢)... كثير صرنا مسرورين حين وصولنا لما لاحظناه، مكاتيب جناب العاليجا، المفخّم القبطان ناكس المشعرة منه انعقاد المجلس في صفوان ومن جهة مناسبة السلوك الذي كما بلغنا جنابكم أجريتموه في ذلك المحضر نعني أنكم استقمتم شاهداً عدلاً به بدون حيف وميل وتجنبتهم عنه الدخول في مواد ابن سعود وأمور سياسة نجد وجنابكم ذو فطانة ودراية. وتلاحظون العواقب. إنّنا إنشاء الله ما نغفل نرفع هذه المواد للدولة البهيّة القيصرية الأنكليس وبلا شك حينما يبلغ مسامع الدولة المعظّم إليها هذا الخبر منّا هو يكون موجب غاية الاستحسان والسرور حيث إنّكم أجريتم على وفق نصيحة الدولة المذبورة...».

الوجود العسكري العثماني في القصيم

تفيد أخبار صفر ١٣٢٣هـ/ أبريل ١٩٠٥م بأن أربع فرق قد وصلت إلى القصيم قادمة من المدينة المنوّرة،[١٣٣] كما كانت قوات فيضي باشا قد تحرّكت من النجف في ٩ فبراير في طريقها إلى القصيم عبر بادية السماوة.[١٣٤]. وتفيد التقارير بأن تموينات الحملة غير كافية وجمالها هزيلة. دخلت قوات المدينة المنوّرة التي تضمّ ٧٥٠ رجلاً إلى بريدة يوم ٨ صفر ١٣٢٣هـ/ ١٥ أبريل ١٩٠٥م وإلى عنيزة بعدها بثلاثة أيّام. ووضع في كل حامية ١٠٠ جندي أو أقل، ورفع العلم العثماني، وعزف السلام الحميدي، وقسمت نجد بعد ذلك تقسيماً إدارياً على الطريقة العثمانية المعتادة فأصبحت بريدة قضاءً يتولّاه القائم مقام صالح بن حسن، وجعلت عنيزة مديرية مديرها عبد العزيز بن سعود. ولكن العلاقات بين هذين المسؤولين لم تكن محدّدة في ظاهر الأمر على الأقل، فلم يكن بوسع أهل المنطقة أن يعرفوا ما إذا كانت هذه الأقسام الإدارية تابعة للبصرة أو المدينة المنوّرة، غير أن المسؤولين العثمانيين كانوا يعتقدون بأنها تابعة لولاية البصرة. كما كان مفهوماً أيضاً أن نجد الجنوبية قد أصبحت قضاء تابعاً لولاية البصرة عن طريق ابن سعود.[١٣٥] جاء إلى القصيم الفريق صدقي باشا وأحمد فيضي باشا بجيوشهما، واستدعت الأحداث أحمد فيضي إلى مكان آخر، وبقي صدقي برجاله في القصيم فأقام معسكره في الشيحية، كما ترك في عنيزة وبريدة بعضاً من رجاله. ولم تنته الخلافات فاستمر عبد العزيز، بمساعدة أخيه محمد، يغير من قاعدته في القصيم على حرب وفرع بني عبدالله من قبيلة مطير، كما كان ابن رشيد يغير من قاعدته في الكهفة على القبائل الموالية لابن سعود.[١٣٦]

أخطر مبارك نوكس بأنه قد وصله في يوم ٢٩ ذي الحجة ١٣٢٣هـ/ ٢٤ فبراير ١٩٠٦م خطاب من ابن رشيد يعبّر فيه له عن الصداقة والود ويتمنّى فيه العودة إلى العلاقات الحميمة، التي كانت تربط بين الأسرتين على أيام عمه ووالده من قبله، وأنّه قد ردّ على ابن رشيد بأنه رجل محب للسلام، ويسعى للهدوء وأنه يسعى للصداقة معه بشرط أن يلتزم ابن رشيد حدود أرضه، ولا يتجاسر على جيرانه، وأن تكون رغبته في السلام رغبة جادة، وأنهى الشيخ مبارك لنوكس

بمشروعٍ للسلام يرى أن تطبيقه يفيد جميع الأطراف وينهي حالة الحرب السائدة.

يقوم المشروع على أربع نقاط:(١٣٧)

- أن تصبح الكهفة وحايل وأراضي بدو شمر خالصة لابن رشيد.
- أن تصبح نجد ووادي الدواسر خالصة لابن سعود.
- أن تصبح الكويت بالإضافة إلى عنيزة وبريدة وسدير والوشم وإدارة القبائل في تلك المنطقة خالصة له. (لمبارك).
- أن يقوم تحالف ثلاثي يجمع هذه القوى المختلفة.

وبالرغم من أن نوكس قد لاحظ أن تلك قسمة ضيزى إلاّ أنه عاد يسأله عن موقف العثمانيين من هذه المسألة وأجابه الشيخ بأنهم لن يرضوا بها.(١٣٨) ولا يستدعي الحال التعليق بأن مثل هذه المشاريع كانت تزيد في حدة التحالف القلق بين مبارك وابن سعود.

روضة مهنّا

جاءت الأخبار في ٩ ربيع الأول ١٣٢٤هـ/ ٢ مايو ١٩٠٦م من الوكيل البريطاني كرو في البصرة إلى أوكنور في الآستانة تفيد بمقتل عبد العزيز بن رشيد في روضة مهنا في ١٧ صفر ١٣٢٤هـ/ ١١ أبريل ١٩٠٦م. وتشير هذه الأخبار بأن ابن سعود قد داهم ابن رشيد الذي كان عائداً من غزوة له على بعض العرب التابعين لآل سعود، وأن ابن رشيد قد أخذ على حين غرّة، قتل مع ابن رشيد ٤٠٠ من أتباعه، كما جرح ٢٠٠، ولم يخسر ابن سعود من رجاله سوى ١٩.(١٣٩) كما تفيد أخبار الآستانة بأن أمين السلطان قد بعث ببرقية في يوم ٢٩ أبريل إلى متعب بن رشيد يبلغه أسف السلطان على مقتل والده، وأنه سيعمل على معاقبة الجناة.(١٤٠) وأبلغ السلطان متعباً بأنه قد أصدر «إرادة سلطانية» بتعيينه في مكان والده، وأن الراتب والمميزات الأخرى التي كانت تعطى لوالده سلفاً ستعطى له أيضاً. وكان رأي والي البصرة أنه يجب اعتقال ابن سعود ومحاسبته على هذا الأمر غير أن الباب العالي لم يتبنّ هذا الرأي، وردّ حدوث هذه الاضطرابات إلى سوء

الإدارة العثمانية المحلية وذلك كنتيجة لتدخّل العسكريين في الشؤون المدنية.(١٤١)

أما حسين، القنصل البريطاني في جدة، فقد كتب إلى أوكنور في ١٠ ربيع الأول هـ/ ٣ مايو بأنه قد وصلت برقية إلى أحمد راتب باشا في ٢٦ أبريل من المدينة المنوّرة تفيد بأن عبد العزيز بن رشيد قد قُتل في ٢٥٠ من أتباعه في موقعة ضد ابن سعود.(١٤٢)

وصل مبعوثان من ابن سعود بعد يومين من هذا الحادث بخطابين إلى شريف مكّة والوالي جاء في الخطابين، كما عرف القنصل في جدة من «مصادر موثوق بها»(١٤٣) أن ابن رشيد قد أغار على قافلة تخص بعض القبائل التابعة لابن سعود كانت تحمل تموينات وأرزاقاً من بغداد للقوات العثمانية في القصيم، وقد تمكّن ابن رشيد منها ونهبها. ويبدو أن ابن رشيد لم يكن يعرف بوجود ابن سعود في المنطقة، وإلاّ ما قام بنهب تلك القافلة، فعدد الرجال الذين كانوا معه لم يكن كافياً لمنازلة ابن سعود. هرب قائد القافلة إلى حيث كان ابن سعود واستنجده، فسار معه حتى لحق بابن رشيد في الليلة التالية، وأدركه ورجاله في واد صغير يغطّون في نومهم. أخذت المفاجأة رجال ابن رشيد الذين استيقظوا وجلين هلعين، وفرّ أكثرهم يطلب النجاة. وثبت مع ابن رشيد، الذي لم يحاول الهرب، فئة قليلة صبّ عليهم رجال ابن سعود النار صبّاً. وانتهى الأمر في دقائق معدودات. ويسترسل حسين إلى القول بأن ابن سعود أعلن نفسه بعد ذلك «حاكماً للمشرق» ثم أرسل الخطابات التي تفيد بمقتل ابن رشيد إلى الاستانة، وإلى الولاة في بغداد والبصرة والحجاز. وقد غادر المبعوثان المذكوران المرسلان من ابن سعود الحجاز إلى ينبع يحملان خطاباً إلى خديوي مصر. ويضيف حسين بأن الوالي في الحجاز وشريف مكة قد استقبلا النبأ بارتياح، وأهديا لمبعوثي ابن سعود خلعاً.(١٤٤)

إجلاء الجنود العثمانيين عن القصيم

إستدعي صدقي باشا القائد العام للقوات العثمانية في نجد إلى بغداد، وغادر إلى هناك في شهر رجب ١٣٢٤هـ/ أواخر أغسطس ١٩٠٦م وسلّم المنطقة

إلى سامي باشا الذي كان قد تعينّ قائداً عسكرياً ومتصرّفاً مدنياً. سار سامي من المدينة المنوّرة في ٥٠٠ جندي ومعه مدفع واحد حتى استقرّ في القصيم، وبقي مع صدقي هناك لحوالي عشرة أيام قبل أن يغادر صدقي إلى العراق.(١٤٥) خطب صدقي باشا في أهل القصيم قبل أن يفارقهم موصياً بجنوده خيراً. وكان ممّا قاله: «إنّ القوة العسكرية التابعة لنا هنا غير كافية لاحتلال القصيم احتلالاً مؤثّراً. إنّكم في الحقيقة أكثر عدداً وتسليحكم لا يقل بحال عن تسليح قواتنا، فإذا تجرّأتم وقتلتم ٥٠٠ من رجالنا فسنرد ربّما بقتل ٢٠٠ فقط بقوتنا الراهنة. ولكن أحبّ أن أنصحكم بأن نجد كخيط من القطن، والحكومة العثمانية كشريط من المطاط. لن تستطيعوا أن تستعيضوا بقتلاكم آخرين، ولكن الدولة العثمانية تستطيع أن تستعيض بهذا العدد أضعافه أضعافاً من أقاليمها وسيمتد الشريط ليشمل القصيم كلّه. وإنّي أنصحكم بتحمّل تبعات الوضع الراهن لأنه أنسب لكم من تحمّل تبعات أكبر».(١٤٦)

وفي لقاء بين صدقي باشا والقنصل البريطاني في البصرة عرف ذلك القنصل أن عدد القوات العثمانية في نجد والقصيم يصل إلى حوالى ٢٥٠٠ جندي. ويقول القنصل إنّه عرف سلفاً من البدو أن القوات العثمانية في القصيم مثقلة بالمشاكل والهموم، وقلّة الأزواد، وتأخير المرتبات حيث لم يستلموا شيئاً لأشهر متتالية، وأن صدقي باشا قد اقترض ٢٠٠٠ ليرة عثمانية ليصرّف بها أمور الحامية.(١٤٧)

يقول صدقي بأن ابن سعود قد أقنع أهل بريدة للتوقيع على مضبطة ضد صالح بن حسَن بن مهنا يشكون فيها من طغيانه، ومن ثمّ أقال ابن سعود صالح بن مهنا الذي كانت علاقته بصدقي طيّبة، ولكنه لم يتدخّل في الأمر لأنه بالرغم من أن صالح بن مهنا قد تعينّ قائم مقام إلّا أن الآستانة لم تكن قد اعتمدت التعيين بعد. وقد علّق صدقي باشا في هذا اللقاء مع القنصل البريطاني بأن عبد العزيز بن رشيد كان مقاتلاً صحراوياً لا يحسن إلّا القتال، أمّا ابن سعود فهو دبلوماسي الصَحراء، يظهر براعة في التعامل مع الغير.(١٤٨) وأشار صدقي إلى معاهدة الصلح التي وقعت بين ابن سعود ومتعب بن رشيد، ورأى أنها لن تستمر طويلاً لأن طموح متعب وتطلّعه لاكتساب الشهرة ومحاولة السير بخطى أبيه

ستدفعه إلى القيام بعمل ما ليحقق ذاته، وسيشتعل فتيل العداء قريباً. ويعرب القنصل البريطاني بعد هذا عن رأيه بأن العلاقة بين ابن سعود وصدقي كانت طيّبة حيث زاره ابن سعود عدّة مرّات. كما يؤكد القنصل أن القوات العثمانية في المنطقة تعاني من مصاعب جمّة في الإمداد والتموين.(١٤٩) وقد عبّر نوكس أيضاً في مذكرة له، بأن الصلح الذي وقع بين ابن رشيد وابن سعود بمبادرة من الشيخ مبارك سوف لن يعمر طويلاً لأن أسباب النزاع لا تزال قائمة، وولاء القبائل لا يزال غير محدّد، «وسيكون مصدر دهشة لنا إذا استمرّت هذه الهدنة لفترة طويلة».(١٥٠)

قام الأمير الصغير متعب بأعمال طيّبة ليكسب ثقة تابعيه. ألغى الضرائب القبلية، وبدأ يدفع المعاشات السنوية لشيوخ القبائل، كما صار يدفع الرواتب للعاملين في خدمته، وقدّم متعب الصدقات لمستحقيها كما كان دأب جده سابقاً. وكان أبوه قد خفّض هذه المخصّصات أو ألغاها واعتمد على القوة المحضة والاستقلال بالأمر حتى إنّه ما كان يوقر أحداً أو يرعى له منزلة. أعاد الأمير الصغير سيرة جدّه في استشارة الشيوخ والأعيان من أهل المنطقة الذين أخلصوا له النصيحة، وبدأ قومه ينتظرون منه الكثير لتحقيق آمالهم وتطلعاتهم. إستغل متعب عهده بإخضاع الهتيم والشررات في المنطقة بين تيماء والجوف، كما هاجم في رجب ١٣٢٤هـ/ أغسطس ١٩٠٦م عرب مطير النازلين في القصيم الموالين لابن سعود وغنم منهم جمالاً وأبقاراً.(١٥١) وبهذا لم يحافظ متعب على اتّفاق السلم مع ابن سعود، وبدأت المشاكل تفرخ من جديد.

يبدو أن العلاقات بين سامي وابن سعود لم تكن على ما يرام حيث بدأ سامي فور وصوله باستدعاء عبد العزيز إلى معسكره، ورفض عبد العزيز هذا الأمر. وتمّ اللقاء أخيراً بعيداً عن معسكر سامي في منطقة بين الشيحية وبريدة. ويبدو أن أهم الموضوعات التي نوقشت في هذا اللقاء هي ضرورة إقامة قلاع في بريدة وعنيزة لاستقبال حاميات عثمانية دائمة، وإطلاق سراح القائم مقام صالح ابن حسن بن مهنا. وقد اعتذر ابن سعود عن المطلبين متذرّعاً بأن العثمانيين قد سبق وأقرّوا على أنفسهم بأن لا تزيد حاميتهم في أي من بريدة وعنيزة عن ١٠٠ جندي، كما أهمل ابن سعود المطلب الثاني.(١٥٢) وبدأ عبد العزيز يقيم الصعاب

أمام سامي فرفض تجار عنيزة أن يبيعوا لرجال الحامية العثمانيين شيئاً متعللين بنقص المواد. وحين كانت الإبل العثمانية المحمّلة بالإمدادات عائدة في الليل إلى معسكرها هاجمها بعض البدو وقتلوا عدداً من رجالها.(١٥٣) وبهذا ازداد موقف العثمانيين في القصيم سوءاً، وازدادت قوة عبد العزيز، وغدت كلمته المسيطرة والمسموعة رغم وجود القوة العثمانية.

تشير التقارير الواردة إلى الكويت من نجد في ذي القعدة ١٣٢٤هـ/ ديسمبر عام ١٩٠٦م بأن عبد العزيز بن سعود يقيم في بريدة في حشوده المسلحة، وأن هناك مجموعة من الجنود العثمانيين يصل عدد أفرادها إلى حوالى ٥٠ جندياً يعسكرون في بريدة، و٣٠ في عنيزة، وليس في المنطقة ممثلون مدنيون للسلطة العثمانية، وأن القوة العثمانية تقيم في الشيحية على مسيرة خمس ساعات إلى الشمال الغربي من بريدة، وأن عددهم الذي كان أساساً حوالي ٢٥٠٠ قد أصبح الآن حوالى ٦٠٠ بعد أن بدأ العثمانيون أخيراً في سحبهم تدريجياً، وأن للقائد العثماني في المنطقة ٨ مدافع فقط وتشير هذه المذكرة إلى أن الأمور في القصيم قد صارت إلى تحسّن حيث لم يفرض العثمانيون ضرائب على أهلها، كما ساد الأمن المنطقة، وبدأت القوافل تسير من الكويت إلى القصيم دون اعتراض.(١٥٤) ومن جهة أخرى نجد أن الصورة في حايل قاتمة حيث عبّر الشيخ مبارك بأن متعب بن رشيد ليس لديه القوة لإثبات ذاته في الوقت الراهن ولا حتى في حائل نفسها، حيث يسيطر حمود بن عبيد، عم متعب، على المدينة. ويقال بأن حمود موتور لأنه فقد في الحوادث الأخيرة أربعة من أبنائه هم ماجد، وسالم، ومحمد، وعبيد، ولم يبقَ له إلاّ ثلاثة أبناء هم: سلطان الذي خرج مغاضباً لأسرته، وأقام في الجوف، وأخذ من هناك يتراسل مع الشيخ مبارك، وسعود وفيصل اللذان يقيمان مع أبيهما في حايل. ويرد الشيخ مبارك اكتساب حمود لتلك السيطرة في حايل إلى أن عبد العزيز ابن متعب لم يكن في السنوات الست الأخيرة من حياته يقيم في حايل لأنه كان يجوب الصحراء بشكل دائم لا يقرّ له قرار. ويقول مبارك بأن حايل قد تآكلت وهجرها أهلوها، ولم يبقَ فيها من السكان سوى جنود ابن رشيد. باع سكانها منازلهم وأملاكهم حيث لم يجدوا فيها وسيلة لكسب العيش.

لم يعمّر متعب بن عبد العزيز في الإمارة كثيراً فقد اغتاله إخوانه وأبناء عمومته أبناء حمود بن عبيد. تآمر سلطان، وسعود، وفيصل، على متعب فأردوه قتيلاً. وأصبح الملك في ٢٣ ذي القعدة ١٣٢٤هـ/ يناير ١٩٠٧م في حايل لسلطان الذي لم ينعم به سوى تسعة أشهر. وخشي آل سبهان على سعود بن عبد العزيز من أن تصيبه مؤامرات حمود بن عبيد، وتظاهر حمود السبهان بالمرض وخرج بسعود ليقيم في المدينة المنوّرة.[١٥٦] حاول سلطان أن يحدث مع ابن سعود صلحاً ثم تآمر عليه في بريدة في وقت كانت القوات العثمانية قد غادرت المنطقة أو كادت.

تشير التقارير الواردة في ١٣٢٤هـ/ سبتمبر ١٩٠٦م عن وضع الجنود العثمانيين في المنطقة وتصفه بأنه مزرٍ وأنهم في ضائقة شديدة. حصرت القوة نفسها في الشيحية في معسكرها لا يخرج رجالها إلّا نادراً. وكان الجنود بل والضباط يهربون كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فهناك نقص في الإمدادات، وفي الأدوية. وقد ذاق أفراد الفرقة طعم الجوع وقاسوا ويلات الأمراض.[١٥٧] ويشير التقرير إلى أن الأوساط الشعبية في المنطقة غير راضية عن العثمانيين «بل تكرههم» كما يشير التقرير أيضاً إلى وجود حوالي ٥٠ جندياً عثمانياً بقيادة كول أغاسي في بريدة، ومثل هذا العدد أيضاً في عنيزة. ويضيف «يسعى العرب إلى إجلاء الترك والحصول على حريّتهم». ويستمر التقرير ليعدّد مساوئ الإدارة العثمانية والرشوة المتفشّية ثم يستعرض الوضع المعيشي في القصيم فيقول بأن البقول مرتفعة الأسعار جداً في القصيم وفي جبل شمّر كذلك، وأن أثمانها تبلغ خمسة إلى ستة أضعاف أثمانها في الفرات وذلك لأن كمياتها في المنطقة محدودة. وتتحدّث المذكرة عن حقول القصيم فترى أنها غير نشطة «فالحقول تروى بواسطة آبار يجرّ منها الماء بواسطة الجمال، وهي حيوانات لا تطيق هذا النوع من العمل فيصيبها الهزال من جرّائه في مدى شهرين، وتصبح غير مؤهّلة للعمل، فتباع بما يقدر بخمس ثمنها الأساسي». ويقول التقرير بأن الأرض صالحة للزراعة، ولكن المشكلة الأساسية تكمن في الري ولهذا وجد أنه من الأسهل والأرخص استيراد الحبوب وذلك بالرغم من أن أجر العامل في العراق أعلى منه في القصيم، وبرغم تكاليف النقل. ويشير التقرير إلى وجود بعض الماكينات لرفع المياه، ولكن الكيروسين الروسي يباع بزيادة ٢٠٪ من

سعره في الكويت، كما لا يوجد فنيون لتشغيل هذه الماكينات.(١٥٨) هذا بالرغم من أن الحالة في القصيم أكثر ازدهاراً وأبلغ أمناً منها في حائل التي أخذت تضمر بالحروب والاختلافات والاضطرابات.

أدّت الظروف القاسية في المؤن والإمدادات إلى أن يبيع بعض الجنود ذخيرته وسلاحه ليحصل على ضروريات الحياة. ولّما أدركت الدولة العثمانية صعوبة الوضع قرّرت في خريف عام ١٩٠٦م تخفيض قوّتها هناك(١٥٩) تخفيضاً أدّى في النهاية إلى سحبها تماماً إلّا ما كان من وجود قوة رمزية في عنيزة.

قام سامي في ١٥ رمضان/ ٣ نوفمبر ١٩٠٦م بحوالي ١٢٠٠ من الجنود السوريين من معسكره في الشيحية، وأخذ معه ١٥ مدفعاً، واتّجه صوب المدينة. كتب ابن سعود لمبارك بأن الأميرالاي الموجود حالياً في معسكره سيرحل في أول شوّال إلى العراق ومعه ٣ مدافع. ويقول خطاب ابن سعود أن العثمانيين يعملون على استبقاء قوة من ٢٠٠ رجل، ولكنه احتج على ذلك، وعاضده أهل القصيم. وتقرّر الإبقاء على قوة رمزية مشكّلة من ٢٥ رجلاً في بريدة، و١٥ رجلاً في عنيزة. كما أنهى ابن سعود إلى مبارك بأنه قد أقنع ثمانين من الضباط العثمانيين ليوقّعوا له على تقرير يشهد بموالاة ابن سعود للسلطان، وإخلاصه له، وأنه قد أعانهم خلال فترة وجودهم بكل ما يملك ليمكّنهم من الحصول على ما يحتاجون إليه، وأن معاناة القوة العثمانية في المنطقة كانت بسبب فقر المنطقة عموماً، وجوّها المردي، وشح المياه، وعدم الإمدادات التي تكفي لاستهلاك هذه القوة.(١٦٠) وبهذا استطاع دبلوماسي الصحراء، بعد أن أقنع صدقي باشا سلفاً بعدالة قضيته التي يحارب من شأنها، أن يقنع الضباط بولائه وأن يستخلص منهم وثيقة تكون شاهداً له لا عليه. ويبدو أن الشواهد قد أقنعت العثمانيين بعدم وجود أدنى اتّصال بين ابن سعود والبريطانيين خاصة بعد أن تحقّق والي البصرة من ذلك من مبارك وغيره. يقول مبارك بأن والي البصرة سأله عن العلاقة بين ابن سعود والبريطانيين وردّ مبارك بأن «البريطانيين لا يريدون نجداً».(١٦١) ولهذا، ولّما جاءت به الأحداث بعد ذلك، أصبح والي البصرة ينظر إلى ابن سعود كامتداد للوجود العثماني في المنطقة وفي هذا التاريخ أو بعده بأيّام يكتب نوكس بأن فيلق بغداد الذي كان في القصيم قد مرّ في

٧ ذي القعدة ١٣٢٤هـ/ ٢٢ ديسمبر ١٩٠٦م قرب الكويت في طريقه إلى العراق التركي، وبأن منطقة القصيم قد تركت في أيدي بعض العرب المحليين الذين هم عثمانيون بما أنيطت بهم من ألقاب» لكنهم في الحقيقة يخشون ابن سعود أشدّ من خشيتهم للسلطان «الـذي لم يبق لـه إلاّ أقـل من ١٠٠ جنـدي في بـريـدة وعنيزة». (١٦٢)

جهود الشيخ مبارك

وصل المدعو ناصر، أحد أقرباء أمير حائل، إلى الكويت في مهمة لتوضيح أحداث حائل الأخيرة لمبارك. أخطر المبعوث الشيخ مبارك بمقتل متعب بن عبد العزيز بن رشيد وأخويه، وبأن سلطان بن حمود الذي أصبح أميراً على حائل قد بعثه إلى الكويت ليسأل مبارك المشورة وليعبّر عن الصداقة. (١٦٣) وطلب سلطان، أمير حائل، في خطابه إلى مبارك أن يسعى لإلحاقه بالحماية البريطانية. وأنهى هذا الشيخ في خطابه لمبارك بوجوب التعامل مع هذا الأمر بسريّة خشية العثمانيين الذين يبدو أنهم قد انحازوا تماماً لابن سعود، وخصّصوا له راتباً. أمّا هو فقد اتّصل بالباب العالي، ولم يجد منه دعماً مالياً أو مساعدة مقنعة. (١٦٤) وبالطبع رفضت الحكومة البريطانية طلب ابن رشيد للحماية. ويبدو أن العثمانيين لم يرضـوا هذا الانقلاب الأسري في حائل خاصة في هذا الوقت الذي تركّزت فيه جهودهم في المنطقة في جنوب الجزيرة العربية. ولهذا لم يهتموا بسلطان حاكم حائل الجديد.

زار مبارك الفاو في ربيـع الثاني ١٣٢٥هـ/ مـايو ١٩٠٧م وهنـالك التقى بأركان حرب القوات العثمانية في العراق بارتو باشا. وطلب بارتو إلى الشيخ أن يدله على أمثل الطرق لقيام علاقة طيّبة بين العثمانيين وقبائل المنطقة، وكان بارتو يحمل ثبتاً بأسماء كل قبائل المنطقة. يقول مبارك لنوكس بأنه قد زرع العقبات أمام بارتو. (١٦٥) ونعرف من مبارك بأن مطيراً كانت في صف ابن سعود، وكذلك سبيع والسهول، كما تواليه أيضاً قبيلتا العجمان والخوالد وهما من قبائل الأحسـاء التي يحكمها العثمانيون بشكل مباشر. أمّا الظفير وقبائل منطقة الزبير فهي تابعة لخالد آل عون، وعتيبة تابعة لشريف مكّة بيد أن شيوخها قد أصبحوا عريبدار (يسكنون

الدور) وفي هذا اللقاء طلب مبارك إلى نوكس ـ دون إذن من ابن سعود ـ أن يعمل على أن تمدّ بريطانيا حمايتها على نجد «لأن ذلك أصلح وأنسب». واستدرجه نوكس متساءلاً: «هل تريد أن يعود الأتراك إلى نجد مرة أخرى، ويسير الجنود البريطانيون إلى نجد لقتالهم؟» وردّ مبارك بأن «سمعتكم كافية لردعهم». ويستغرب نوكس من مبارك هذا الإصرار على الحماية البريطانية على نجد. وأعرب نوكس في هذه المناسبة عن اعتقاده من أن مبارك يرى بأن أسرة ابن رشيد قد حُجِّمت بما فيه الكفاية، وأن ابن سعود قد علا شأنه ممّا أخرجه بالضرورة من يد مبارك، وأن كلاً من ابن رشيد وابن سعود لا ينظران بارتياح للنفوذ الذي أصابه مبارك ضد الصبحة من مطير. ويعتقد نوكس أن مبارك يسعى لدقّ إسفين بين ابن سعود والعثمانيين. «فحين تظهر مسألة الحماية هذه، وتكون أمراً متواتراً، فإن القوات العثمانية ستعود مرّة أخرى لمساندة حائل، وتقف إلى صف سلطان بن رشيد، وتقوي من زنده، وتثور الاضطرابات من جديد بينه وبين ابن سعود، ثم تنهك القوتان مرة أخرى.»[١٦٦] ويقدّم نوكس تفسيراً آخر «للنغمات الرتيبة المتكررة التي يرسلها مبارك برغبة عبد الرحمن الفيصل الدخول في الحماية البريطانية»[١٦٧] بأن الشيخ ربّما اعتقد بأن «الإنكليز سيسعون إلى إصلاح الأقدار في وسط شبه الجزيرة، ويهزمون الأتراك، ويطردونهم نهائياً، ويقيمون الحاميات في القصيم. وهو، في هذه الحالة، واثق من قدرته ومهارته على امتطاء الإنكليز كما يمتطي صهوات جياده».[١٦٨]

وجد الشيخ مبارك أن ابن سعود بانحيازه للعثمانيين الذين وثقوا فيه قد أفسد عليه كل خططه في التوسع، وكان مبارك يخشى، في الوقت نفسه، من ازدياد قوة آل رشيد، فالمسائل التي أثارت الخلاف لم تنته بعد. ولهذا عمل مبارك على إحداث توازن في علاقته بالطرفين، عرف مبارك بخروج فيصل الدويش وقبيلة مطير على عبد العزيز وأنّهم أغاروا على المجمعة دون أن يكون هنالك مبرّر لهذا الأمر. كما عرف الشيخ مبارك بأن أهل بريدة قد تآمروا مع سلطان الرشيد ضد عبد العزيز ابن سعود، واقترحوا عليه أن يدفعوا له الزكاة فقط ولا شيء فوق هذا. وفي الحقيقة لم تكن أخبار نجد للأسبوع المنتهي في ٢٠ رجب ١٣٢٥هـ/ ٢٨ أغسطس

١٩٠٧م في يوميات مكتب المقيم تبشّر بخير أبداً. وجد مبارك فرصته حين حلل الوضع، وأنهى إلى نوكس بأن تأزّم الأمور في المنطقة سيقود إلى تدخّل العثمانيين في القصيم بجنودهم. أرسل مبارك عبد العزيز الحسن من أهل طريفة القريبة من بريدة يدعو مطيراً لالتزام الهدوء، كما طلب إلى ابن سعود أن يلتزم منطقته في نجد، وطلب أيضاً إلى سلطان أن يبقى في حائل دون حراك، وأشار بأن تبقى القصيم مستقلّة عن جميع الأطراف، على أن يضمن مبارك بنفسه استقلالها.(١٦٩) وقد أراد مبارك بفك الاشتباك هذا أن يحقّق رغبته في السيادة على القصيم. ولم ترض سملا من مبارك هذا الرأي، فأبرقت إلى بوشهر تطلب إليها تحذير مبارك مجدداً ألّا يقحم نفسه في شؤون نجد، وألّا يعمل على ضمان ما يقول به من استقلال القصيم، «وعلى كوكس أن يُذكّر مباركاً بأن منطقة القصيم لا تزال تابعة للعثمانيين».

ثبات أمر عبد العزيز في القصيم

بدأت جماعات ابن رشيد تتزايد، واستطاع آل رشيد في رجب ١٣٢٥هـ/ سبتمبر ١٩٠٧م أن يمدوا في علاقاتهم من خلال الشيخ صالح المزيني وكيلهم في الجوف حتى دروز جبل حوران يدعونهم إلى الصداقة والتحالف.(١٧٠) ويبدو أن تزايد قوة سلطان كانت موجة عاتية صمد لها ابن سعود حيث نجده في ديسمبر من هذه السنة يرسل للشيخ مبارك ليقول له بأن مطيراً قد عادت إلى حظيرة ابن رشيد، وأن أهل بريدة قد خذلوه، ويطلب ابن سعود إلى مبارك أن ينصحه ويوجهه.(١٧١) ويبدو أن ابن سعود أراد بهذا أن يستكشف خطط مبارك حيث كان الصراع الخفي قد بدأ بين الرجلين. ولا يعقل، والحالة هذه أن يطلب ابن سعود من مبارك توجيهاً. ولم يكن مبارك في موقف الموجّه حيث وافق الوزير مورلي في أكتوبر ١٩٠٧م على تعليمات حكومة الهند بتحذير مبارك بعدم التدخّل في شؤون نجد، وأوصى الوزير جراي (Grey) بالرفق في التحذير حتى ينتهي أمر الاتفاق الخاص بتأجير بندر الشويخ.(١٧٢) وردّ مبارك على سفارة سلطان آل رشيد السالفة الذكر بأنه لا شأن له بأحداث المنطقة، أمّا ردّه لابن سعود فلم نقف عليه.

عموماً لم تستقر الأمور لسلطان بن رشيد طويلاً إذ غدر به أخوه سعود بن

حمود. كما لم تستقر الأمور لسعود بعده، حيث قامت عائلة السبهان، بقيادة حمود ابن سبهان، بانقلاب ضد سعود الذي هجره رجاله. ودخلت حائل تحت حكم حمود السبهان وصياً على ابن أخته سعود بن عبد العزيز بن متعب بن رشيد الذي كان قد أرسل إلى المدينة المنوّرة،(١٠٣) كما ذكرنا آنفاً. كان سعود يافعاً في العاشرة من عمره، ولم يكن ممكناً أن يتحمّل تبعات الحكم، فاجتمع أمر شيوخ شمر أن يقوم بالإمارة فيهم الطفل سعود بن عبد العزيز آل رشيد يساعده آل السبهان: «وهم من أنقى أهل شمرا نسباً، وأكثرهم ثراء، وكانوا وزراء آل رشيد وأصهارهم».(١٧٤) وبدأت سياسة استقطاب العرب القريبين من حدود حائل في الوقت الذي ثبت فيه أمر ابن سعود أو كاد في قبيلة مطير وأهل القصيم وسدير والمحمل. أمّا مبارك فيبدو أنه لم يعد يهتم بأمور ابن سعود كثيراً فقد بدأ يطمئن على وضعه الثابت في الكويت بضمان من البريطانيين. وأدرك مبارك أن البريطانيين يقفون بعنف ضد كل حركة يمكن أن يقوم بها في اتجاه نجد لتحقيق طموحاته، فنبذها، وقنع بوضعه القائم على رقعة ضيّقة من الأرض في مدى مدافع الأسطول البريطاني، كما أخذ يعمل على تحسين علاقاته مع البصرة والعراق العثماني.

لا نستطيع بالطبع أن نلاحق كل الحركات القبلية والحركات العسكرية لابن رشيد الذي تولّى الوصاية عليه خاله زامل السبهان بعد وفاة حمود السبهان. ويكفي أن نقول بأن منطقة القصيم قد ثبتت بعد هذا في ولائها لابن سعود فيما عدا بعض الاضطرابات غير الخطيرة التي سرعان ما تهدأ عندما يظهر لها ابن سعود. تمردت عنيزة في جمادى الثاني ١٣٢٧هـ/ يونيو ١٩٠٩م ورجعت كما تمرّدت مطير في هذا الوقت ثم عادت. ونقل عبد العزيز بعد هذا نشاطه إلى أطراف شمّر برغم القحط الذي ضرب البلاد في هذا الوقت وسبَّبَ في نجد والقصيم ارتفاعاً مطرداً في الأسعار، وهزلت الجمال والخيول. ولم ينزل هذا المحل في منطقة حائل التي كان حظّها من الأمطار أكثر. ولهذا لم يسع ابن سعود لتسديد ضربة قاضية إلى خصمه، وبدأت الأمور تسير إلى ركود، وكان من نتيجة هذا حالة التوازن التي يعتقد شكسبير، وكيل الكويت البريطاني، أن الشيخ مباركاً كان يسعى لتحقيقها: «فسياسته وسط القبائل كانت تسعى لإقامة هذا التوازن كهدف نهائي لأن هذا من

شأنه أن يجعل الفئتين المتقاتلتين تعملان على استرضائه وكسب ودّه». وبالطبع فإن هذا التوازن لم يستقر كثيراً حيث شغل ابن سعود بالأحساء بعد حيازته للقصيم، ولم تكن حائل هدفه الشاغل. ولا يهمنا مما تبقّى من تاريخ هذه الفترة في القصيم، سوى الغزو الذي قام به شريف مكة في ١٣٣٨هـ/ ١٩١٠م لحساب العثمانيين كما يدّعي. وجدير بالذكر أننا لم نعالج من الأحداث المحلية في القصيم أو في غيره إلّا ما كان له اتصال مباشر بالعثمانيين وسياساتهم في المنطقة.

حملة الشريف على القصيم

جاء في صحيفة شمس الحقيقة التي تصدر في مكة المكرمة في عدد من أعداد ربيع الثاني ١٣٢٨هـ/ أبريل ١٩١٠م بأن شريف مكة قد طلب إلى ابن سعود أن يدفع ٩٠٠ ليرة عثمانية في السنة عن القصيم، وطلب إليه أن يؤدّي المتأخّرات عن الثلاثين سنة الأخيرة، وتفيد التقارير البريطانية بأن ابن سعود لم يرد على رسالة الشريف وبأن الشريف قد أرسل إلى أهل القصيم يحرّضهم على عصيان ابن سعود ليكونوا تابعين له وللدولة العثمانية بالتالي. وتضيف هذه التقارير بأن الشريف ربّما قام بحملة على القصيم ليتولّاها بدلاً من ابن سعود.(١٧٥) تأكّد هذا الأمر حين أرسل شريف مكة إلى مبارك الصباح في ٢٠ شعبان ١٣٢٨هـ/ ٢٤ سبتمبر ١٩١٠م خطاباً جاء فيه: «إنّا قادمين إلى نجد وتحرّر هذا منه المعلوم والسبب لذلك أولاً السياحة وثانياً الاجتياز في القطعة المذكورة ولننظر في أسباب الشقاوة وتزايد الاختلاف الواقع به لعلّنا بعناية الله تعالى وببركة أدعيتكم نتوصل لإزالة ما في ذلك من سفك الدما وخراب البلاد وذهاب مصالح العباد جعل الله أعمالنا وإيّاكم خالصة لوجهه...»(١٧٦)

ويطلب الشريف بعد ذلك إلى مبارك أن يرسل له «مطاليب» هي أرز ودقيق وقهوة وسكّر إلى شقراء، كما طلب إليه أيضاً أن يبعث بخطابه المرفق «لصاحب مسكة» (مسقط)(١٧٧) ويفيد تقرير وكالة الكويت في الأسبوع المنتهي في ٢١ سبتمبر ١٩١٠م بأن الشريف قد ادّعى القصيم ملكاً له ورثه عن أجداده، وأنه يريد أن

يعيّن عليها ابن البسام (في عنيزة؟) ومحمد آل مهنا في بريدة، وأن الرجلين هما مع الشريف حالياً، وأن الشريف قد كتب لابن سعود يخطره بمسيره إليه إذا لم يجاب إلى طلبه. وأرسل ابن سعود مبعوثه ناصر بن فرحان ليقول للشريف ألّا يحاول أمراً عجز عنه غيره، وأن يجنح للسلم يحقن به دماء المسلمين. طلب ابن سعود إلى ناصر أن يبقى في معسكر الشريف ليومين متتاليين، وأن يسلك في حاله نجاح معاوضاته مع الشريف، في رحلة إيابه، الدرب نفسه الذي سيسلكه في رحلة الذهاب. أمّا إذا كانت الأخرى، فعليه أن يرجع بطريق مغاير حتى تستطيع كشافة ابن سعود أن تبلّغه الخبر ويستعد للحرب. وقد تيقّن ابن سعود بأن الشريف لا يريد إلّا الحرب إذ وردت الأخبار بأنه غادر مكة، وأقام معسكره في منطقة ما شمال الخرمة (شمال شرق الطائف). ثم تأكّدت الأنباء بأن الشريف سار في قوة كبيرة إلى تخوم القصيم حيث أرسل من هناك إنذاراً بالحرب إلى عبد العزيز بن سعود.(١٧٨)

كان سعد بن عبد الرحمن الفيصل في بادية عتيبة، ويبدو أنه كان يستنهض شيوخها للحرب، فتمكّن منه الشريف وأسره، وتحرّك عبد العزيز حركة ذكية حيث قام في هذه الفترة بالوصول إلى «تفاهم» مع ابن رشيد ليستبقي قوته لمواجهة الشريف لا ينشغل معه بأمر آخر.

جمع عبد العزيز بن سعود قوة كبيرة سار بها لملاقاة الشريف وردّه إلى الحجاز، وتسامع البدو الذين كانوا في معسكر الشريف بضخامة القوة المصاحبة لابن سعود وتيقّنوا من انتصاره، وقرّر الكثير منهم الانضمام إلى المعسكر السعودي، ونفّذ هؤلاء أمرهم بليل حين تسرّبوا إلى معسكر ابن سعود الذي كان يقع على بعد مسيرتين من معسكر الشريف. وحين أصبح الشريف كان معسكره خواء. ولهذا أسرع الشريف بالاتصال بابن سعود يزفّ إليه حسن نواياه، ويقول بأنه لم يأت في مسيرته هذه إلّا ليتحقّق بنفسه من أن السلم والأمن يسودان هذه الأرجاء، وأن أمور نجد تسير سيراً حسناً.(١٧٦) وأضاف الشريف بأنّه قد اطمأنّ وسُرَّ كثيراً لما رآه ووقف عليه بنفسه، وقد انتفت عنده كل الأنباء المغرضة والأباطيل التي وصلت سابقاً من أن نجداً تنوء بالمشاكل تحت وطأة «الوهابيين». وانتهى الأمر بعدئذ بالوصول إلى اتّفاق. وخرج سعد من معسكر الشريف إلى معسكر أخيه وهو

يسوق ١٢ من الإبل العمانيات هدية من الشريف وردّ عبد العزيز هدية الشريف بأحسن منها حين بعث له ١٢ حصاناً من خيرة الخيول النجدية، ورسالة رقيقة فحواها أنّه لا يحمل أي ضغن للشريف، ولا يفكّر في محاربته، ولا يعتبره عدواً».[١٨٠] أمّا إذا اعتبره الشريف عدوّاً فله أن يتقوّى بهذه الجياد على حربه إذا فكّر في منازلته مرة أخرى». كما أبلغ ابن سعود بعدئذ الآستانة بولائه وإخلاصه واستعداده للخضوع لأوامر السلطان. وبهذا الأسلوب الدبلوماسي الرفيع استطاع ابن سعود أن يستخلص أخاه من الشريف ويحقن الدماء.

وصل أشيقر بن طوالة برسالة من عبد العزيز بن سعود إلى الشيخ مبارك في الكويت. أبلغ أشيقر الشيخ مباركاً بأنه قد تمّ الصلح بين ابن سعود وأمير مكّة، وأن أمير مكّة قد بعث إلى ابن سعود بهدايا كثيرة من الأثاث والثياب ثم قفل إلى مكة المكرّمة راجعاً من العرجا حيث كان يقيم، وعاد ابن سعود بأخيه سعد إلى الرياض.[١٨١] وأضاف ابن طوالة بأن الشريف وجماعته ذهلوا لعدم إسراع ابن رشيد بالمسير إليهم لتكوين جبهة متحدة ضد ابن سعود. أمّا خطاب عبد العزيز إلى مبارك فأشار إلى أنّه جنح للتفاوض لخشيته على أخيه سعد الذي كان محتجزاً عند الشريف. وأدرك الشريف، رغم قلة حيلته وعدد مناصريه، بأن ابن سعود متلهّف على افتداء أخيه، ولهذا أرغمه على توقيع اتّفاق مجحف.[١٨٢] قضى الاتّفاق أن يطلق الشريف سراح سعد، وأن يظلّ عبد العزيز حاكماً للقصيم بشرط أن يدفع للشريف من دخول القصيم ٦،٠٠٠ ليرة سنوياً. وافق ابن سعود على ذلك، وأطلق الشريف سراح سعد، ورجع إلى مكّة المكرّمة. وأرسل عبد العزيز في أثر الشريف رسالة يشجب فيها الاتّفاق الذي تمّ بينهما لأنه قام على القسر، وكل ما قام على القسر باطل. وأكّد عبد العزيز في رسالته هذه للشريف ولاءه للسلطان، وأنّه لا يحمل غبناً للحكومة العثمانية، وأنّ أهل نجد المعترفين بسلطة السلطان قد اختاروه عليهم حاكماً بمحض إرادتهم.

استشار الأمير عبد العزيز مباركاً عمّا إذا كان من المستحسن أن يرسل إلى السلطات العثمانية في بغداد والبصرة يشكو من زحف الشريف إلى بلاده بالحرب. وكان رأي مبارك بأن هذين الواليين لن يفعلا أكثر من أن يرفعا الشكوى إلى

الآستانة، وربّما فتحت الشكوى باب نجد على مصراعيه مرة أخرى للجيوش العثمانية. وأضاف مبارك بأنه ما كان «لعبد العزيز أن يكتب على نفسه هذا التعهّد، وكان الأوجب له أن يستعرض قوّته ويهدّد الشريف لكي يطلق سعداً». واتّهم مبارك في حديثه مع نوكس عبد العزيز بعدم معرفته بأصول الدبلوماسية.

عموماً عاد الشريف إلى مقرّه وأبرق لدار الخلافة بنجاحه في مهمّته مخفياً فشله. ونشرت التايمز اللندنية في شوّال ١٣٢٨هـ/ ٦ أكتوبر ١٩١٠م بأن نجداً قد خضعت للحكومة العثمانية. «وقد عبّر عبد العزيز بن سعود لأمير مكّة عن استعداده للخضوع لما تريده الدولة». ولا نستطيع هنا إلّا أن نلاحظ مدى النجاح الذي أصابه ابن سعود سلماً حين تناقلت القبائل خبر تراجع الشريف وعجزه عن مواجهة خصمه.[١٨٣] وهكذا تمّ لابن سعود استخلاص القصيم من كافة القوى المحلية، وكذلك من الدولة العثمانية. لم يكن ابن سعود يسير بالأمور إلى نهاياتها مع معارضيه إلّا إذا اضطروه لذلك. وعليه لم يعارض العثمانيين بإنكار سيادتهم الاسمية عليه ما دام هو في موقع السلطة الفعلية لا ينازعه فيها منازع، وما دام العثمانيون عاجزين أو زاهدين في التدخل المباشر لصالحهم أو لصالح القوى المحلية التي ظهر لهم عجزها، وتبينّ لهم أن مساندتها لن ترجع عليهم إلّا بالخسران، ولن تزيد المنطقة المجاورة للحرمين التي يسعون لاستتباب الأمن فيها إلّا اضطراباً.

الفصل الخامس

نهاية الوجود العثماني على سواحل الخليج العربي

كان قدر الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ مبارك الصباح يقضي على كليهما التعاون الوثيق مع الآخر مهما بلغ التنافر بينهما. رغب مبارك في أن يدحض عنه عبد العزيز خطر آل رشيد حين أقحمت تلك الأسرة نفسها في النزاع الحادث في أسرة آل صباح حيث ناصرت تلك الأسرة الأطراف المناوئة لمبارك. وكان لابن سعود مع ابن رشيد حق يطلبه، ولهذا التقت المصالح السعودية المباركية. ودفع القدر بالرجلين ـ ابن سعود وابن الصباح ـ لدفع دورة التاريخ في المنطقة، يدعم عبد العزيز في ذلك تاريخ حافل لأسرته ثمّ نضاله وكفاحه ومقدرته في المجال العسكري والدبلوماسي. وكان مبارك بطموحه الكبير يعمل على مد تأثيره ونفوذه داخل الجزيرة العربية فيعين عبد العزيز بن سعود بالمال والسلاح. وحين أصاب الضعف أسرة آل رشيد تحقّق لعبد العزيز بعض ما كان يصبو إليه وتحقّق لمبارك الكثير ممّا كان يصبو إليه. وبالرغم من اختلاف الظروف التي أدّت إلى توثيق التعاون بين الرجلين إلاّ أن القدر أيضاً كان يدفعهما دفعاً في اتجاه التعاون. لم يكن لابن سعود وأرضه التي حازها منفذ للعالم الخارجي يمكن أن يخدم كل أغراضه سوى الكويت. وعلى هذا كان على ابن سعود أن يحقّق علاقات طيّبة أو رديئة مع الكويت ليحتفظ باتّصاله مع العالم الخارجي عن طريق ميناء الكويت المنفتح على ذلك العالم، وأن يحافظ على الكويت بعيدة عن كل تأثير لأيّة قوة قبلية مناهضة له، وأن يبعد عن أطراف الكويت كل خطر يقطع خطوط إمدادات نجد. أمّا مبارك فقد وجد نفسه متّصلاً بالعالم الخارجي الذي انفتحت مساراته كلّها أمام الكويت

بفضل علاقته بالبريطانيين المسيطرين على الدروب البحرية ـ في هذه الفترة ـ على امتداد الشرق. كان العالم الخارجي للخليج العربي في تلك الأيام ضيقاً، على اتّساعه، بالنسبة إلى القوى المحلية حيث جهد البريطانيون في شبه القارة الهندية على قصره على الهند والمصالح البريطانية فيها وفي مساراتها. ولم يكن ابن سعود بمستطيع أن يتّصل بالهند، ذلك العالم الخارجي، إلاّ من خلال مبارك وكويته.

إنفتح مبارك على العالم الخارجي وأُرتِجت دونه دروب «العالم المحلي» بحكم الوجود العثماني الذي بات لا يثق في مبارك، وبحكم بداية الاستقرار السعودي في المنطقة، سيطرت قوة آل سعود، سلماً وحرباً على القبائل النازلة على تخوم الكويت. وكان على هذه القوة الناشئة أن تتعامل بوضوح في مسألة السيادة على تلك القبائل التي أراد مبارك أن يساوم فيها ليمدّ في حدود الكويت ونفوذ شيخها. وقد حاولت سلطات الهند البريطانية في الخليج أن تقصر نفوذ شيخ الكويت إلى الداخل على المدى الذي يمكن أن تصل إليه حدود مدافع الأسطول البريطاني. والتقت المصالح البريطانية والعثمانية والسعودية في تحجيم نفوذ مبارك. وبالرغم من هذا قضى ارتباط مبارك الحيوي «بالداخل»، وارتباط ابن سعود الحيوي بالخارج، أن تُكمِّل القوتان السعودية والكويتية بعضهما بعضاً. وزاد هذا التكامل الواجب في حدّة التناقض القائم.

لم يكن مبارك يريد لعبد العزيز أن يتّصل بالعثمانيين أو البريطانيين ليفاوضهم إلاّ عن طريقه لأنه يخشى أن يضعف وضع الكويت أو يزداد ضعفها في الظهير إذا انحاز عبد العزيز إلى العثمانيين أو ارتبط بالبريطانيين. فإذا لم يكن هناك بدّ من تعامل عبد العزيز مع هاتين القوتين أو إحداهما فليس أقل من أن يتولى الوصاية على السعوديين الذين انطلقوا من أرضه وبدعمه لتحقيق أهدافهم. ولم يكن عبد العزيز، مع اعترافه بالدعم الكويتي، يرضى الوصاية في مسألة حيوية كهذه ولهذا اشتدّ التناقض. أراد مبارك أن يكسب القصيم لنفسه ليحقّق بها التوازن الذي يريده وليشكّل كتلة ثالثة تحكم المقدّرات السياسية في المنطقة تنحاز لإحدى القوتين السعودية أو الرشيدية حين يحقّق الانحياز لمبارك هدفاً. وكانت هذه رغبة مستحيلة لا يرجى أن يحقّقها له العثمانيون حتى على حساب ابن سعود المناوئ لهم في هذه

الفترة لأنهم يخشون من امتداد النفوذ البريطاني إلى داخل شبه الجزيرة العربية، ولن يحققها له البريطانيون الذين اقتصرت مصالحهم بصفة عامة على السواحل وبصفة خاصة في هذه الفترة وفي هذه المنطقة على الكويت، النهاية المقترحة لخط حديد برلين بغداد. ولم يسع البريطانيون ـ في هذه الفترة ـ للتدخّل في السياسة القبلية وتعقيداتها في منطقة لن تخدم لهم مصالح استراتيجية ولا اقتصادية. ولن يحقّق عبد العزيز بن سعود بالطبع، لمبارك رغبته هذه لأنّه حمل رأسه على كفّه وخرج ليرد المنطقة لطاعة السعوديين، ولم يكن مبارك سعودياً. ولن يحقّقها له ابن رشيد الذي خرجت القصيم من يده لعبد العزيز ولكنه كان يتطلّع إليها مرة أخرى. ولن تحقّقها له القبائل التي ما كانت تعرف لذلك الشيخ حقّاً تاريخياً على أراضيها، ولهذا كان التناقض الكبير. ولعلّه من أجل هذا كانت أنظار عبد العزيز تتّجه إلى الأحساء حتى يستغني بها عن الكويت ويجد منفذاً لا ينازعه فيه أحد.

كان الخليج في تلك الأيام يعيش السلام البريطاني، وينوء باستعمار السفن البريطانية لمياهه. ولم يكن ظهور القوة السعودية الناشئة على سواحل الخليج ممكناً إلّا بالتفاهم مع الحكومة البريطانية في الهند، وكانت علاقة الشيخ مبارك بالهند وثيقة. وعلى هذا تبدأ دورة أخرى في سلسلة التطابق والتنافر بين السياستين السعودية والكويتية. أراد مبارك أن يحقّق أمن الكويت في ظهيرها ضد القوى القبلية الأخرى في العراق العثماني، وكان أمن الكويت لازماً لاستراتيجية عبد العزيز الذي لم يضم الأحساء بعد، وعلى ذلك قام عبد العزيز لمناصرة الشيخ مبارك ضد المنتفق في عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.

التعاون القلق

زار عبد العزيز الكويت في ١٦ صفر ١٣٢٨هـ/ ٢٦ فبراير ١٩١٠م في وقت تزايدت فيه الخلافات بين سعدون المنصور شيخ المنتفق، وبين شيخ الكويت. وكانت خلافاتها حول مسائل مالية وتجارية.[1] وقدّمت جماعة من العجمان في فترة وجود عبد العزيز في الكويت اعتذارها لما سبق أن قامت به من إغارات على الكويت كان مبارك يُحمِّل وزرها لعبد العزيز، وعفا مبارك عنها. وانتظمت هذه

الجماعة في صفوف الحملة التي جُهِّزت للسير إلى السعدون، بالرغم من أن الحملة ـ كما قيل ـ كانت موجّهة ضدّهم في الأصل، وإلى شيوخ الظفير الذين كانوا يناصرون المنتفق على الكويت في الاضطرابات التي أحدثها السعدون سالفاً في المنطقة. وحين تقوّت الكويت بهذه المجموعة بالإضافة إلى الجماعة التي كانت مع ابن سعود، رأى الشيخ مبارك أن يوجّه هذه الحملة إلى السعدون رأساً. يشير الوكيل البريطاني في الكويت في خطابه بتاريخ ٩ مارس بأن هناك إشاعات تشير إلى أن هذه الحملة قد تمّت بإيعاز من والي البصرة الذي التقى بالشيخ مبارك في الفاو أخيراً.[٢] وعبّر المقيم البريطاني عن شكّه في هذه الإشاعة الرائجة التي ربّما أُحدثت لتغطية أمر ما. إشتركت في هذه الحملة إلى جانب ابن سعود ومبارك، قبائل عجمان، ومطير، والعوازم، وبني هاجر، وبني خالد، وآل مرة، وعتيبة، وقحطان، وسبيع الطواطة، وعريبدار الكويت. تراوح عدد فرسان الحملة ـ في تقدير الوكيل البريطاني في الكويت ـ بين ٢٥٠٠ ـ ٣٠٠٠. أمّا راكبو الهجن «فعددهم كذرّات الرمل» حيث يتراوح بين ٨٠٠٠ ـ ٩٠٠٠ رجل. وأحدثت الحملة في الكويت أثراً كبيراً حيث زاد سعر الذلول ٢٥٪، وارتفعت أسعار السلع بنسب متفاوتة خاصة ما يتصل منها بالهجن وتهيئتها للحرب، بالإضافة إلى أسعار الأرز والبن. وتدفّقت القبائل من شمال الأحساء لتشارك في الحملة. ويقول الوكيل البريطاني إن الكويت لم تشهد تجمّعاً كهذا منذ عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م على أيام حملة الصريف،[٣] أصبح عبد العزيز القائد الأعلى لهذه القوة و«بما أن الظروف قد هيّأت له هذه القوة الضاربة فإنّه لن يتهاون في انتزاع النصر انتزاعاً». ونعتقد من جانبنا أن تعيين عبد العزيز قائداً أعلى لهذه القوة لم يجئ اعتباطاً إذ إنّ أغلب القبائل التي ستسير إلى الحرب هي قبائل نجدية، وعليه فلا يعقل أن تناط قيادة قوة كهذه برجل غيره. ويشير تقرير الوكيل البريطاني بأن عبد العزيز قد ثَبَّط هِمة مبارك عن الخروج بنفسه مع الحملة مراعاة لسنّه، وحرصاً على صحّته. وأن مبارك قد استجاب لذلك تقديراً منه لعبد العزيز، وثقة منه في حنكته، ومقدرته العسكرية. ويضيف الوكيل البريطاني بأن مبارك لم تكن له مثل هذه الثقة في ابنه جابر الذي خرج أيضاً مع الحملة.[٤] ولربّما تذرّع عبد العزيز بهذه الحجج حتى لا يخرج مبارك مع الحملة

ويدخل في حرج تولي القيادة في حملة يكون فيها مبارك الذي ـ رغم كل ما يمكن أن يقال عنه ـ له فضل لا يمكن جحوده، وله في نفس عبد العزيز التقدير والعرفان.

تكاملت هذه القوات في الجهرة وخرجت الجموع في ٢ ربيع الأول ١٣٢٨هـ/ ١٣ مارس ١٩١٠م تزحف إلى أرض المنتفق، والتقت بقوات سعدون في يوم ١٦ مارس بين الرخيمية والوقبا والضريبيات في منطقة تسمّى جريبيعات الطوال. هاجمت القوات المشتركة قوة سعدون عند الفجر، وتراجعت المنتفق دون خسارة تذكر، واستجمعت قواها، وأغارت فجأة على الجناح الأيمن المشكّل من عريبدار الكويت وبدو مطير. ولم يكن أمام جابر بن مبارك إلاّ أن ينسحب من أرض المعركة تاركاً ابن سعود وجماعاته تناوش جماعات السعدون. وقام عبد العزيز وأخوته ومَن معهم من العجمان خاصة بمحاولات يائسة حتى لا تكون الهزيمة ساحقة. تقول المصادر البريطانية أن عبد العزيز قد تراجع بجماعاته تراجعاً تكتيكياً مدروساً، وقاوم بثبات ولكنه لم يستطع أن يستخلص النصر من براثن الهزيمة، فقد فرّت جماعات الكويت ومجموعات أخرى من البدو.(٥) ولم تكن قوة السعدون ضعيفة أو قليلة العدد فقد كانت المنتفق كلّها وراء السعدون، كما شاركته جماعات من الظفير، وعاضدته شمّر حيث اشترك ٥٠٠ من فرسانها في المعمعة. كما اشترك معه الكثير من القبائل والعشائر مثل زايد، وسميت، والصفا، والمجاريد، وبني مالك والشريفات، وبني حسين، والفضول، والخزاعل، وبني يهشم، وبني لامي، وبني خاقان وبني سعيد، وكثير غير هؤلاء من عشائر العراق العثماني.(٦) ويقول الوكيل البريطاني ـ نقلاً عن أحد شيوخ العجمان الذين فرّوا من المعركة طلباً للنجاة ـ بأنّه كان للسعدون ٤٠٠٠ فارس كانوا أكبر أثراً وأكثر قوة ونفراً من فوارس ابن الصباح وابن سعود. وشهد العجمي بأن هذه الحملة الكويتية السعودية كان يمكن أن تصل إلى دمار شامل لولا وجود عبد العزيز وتمرّسه في الحرب، وتهاون السعدون في قتل الأسرى، فقد طلب أن يجرّدوا من السلاح ويتركوا إلى حال سبيلهم.(٧)

لم ترض الحكومة البريطانية قيام هذه الحملة وطلبت في ٢٠ مارس إلى وكيلها في الكويت أن يحذّر مبارك من التدخّل في «شؤون نجد» وذلك حتى لا يعطي

للدولة العثمانية الذريعة للتدخّل بشكل فعّال في السياسة الكويتية لأن هذه الأمور «ستجعله يصطدم بالدولة التركية وسيحتج مبارك بأن حملته ضد المنتفق هذه تظفر برضاء الأتراك، ولكن يجب عليه أن يفهم بوضوح أن سياسة المغامرات في الداخل هو أمر لا تستسيغه هذه الحكومة».(٨) ولم يصل التحذير لمبارك في وقته حيث كانت الحملة قد حاربت معركتها في هذا الأثناء، وانتهى أمرها بالتراجع إلى الجهراء.

سار ابن سعود إلى الحالية (Haleeba) على مسيرة يوم غرب الجفر يسعى وراء مطير لتأديبها. ويبدو أن لحملة ابن سعود على مطير هذه سبباً يتّصل بالحملة على المنتفق التي كانت مطير أول المنسحبين منها، ولا يخفى ما يعنيه انسحاب البدو من فوضى ونهب وسلب. نستطيع أن نقول بهذا اعتماداً على أن ابن سعود قد قام بحملته هذه على مطير في الفترة الواقعة بين ٢٠ مارس، حين وصلت القوة المنسحبة إلى الجهراء، وبين ٢٤ مارس، حيث تفيد التقارير رجوع ابن سعود إلى الجهراء مرة أخرى. كما قام السبهان وابن رشيد بعد هذا بهجوم على مطير في ٢٧ ربيع الأول/ ٧ أبريل(٩) عقاباً لها - فيما يبدو - على انخراطها في صف ابن سعود ومبارك في الحملة المذكورة وارتدّ ابن رشيد عنها بعد أن خسر ٩٠ حصاناً.(١٠) لم يقنع مبارك بالهزيمة حين انكسرت قواته والقوات السعودية المشتركة أمام سعدون، وراح يجهّز للحرب، ويطلب إلى أهل مدينة الكويت أن يزيدوا في مساهمتهم المادية والعينية استعداداً «لجولة أخرى» واشتركت كل الفئات في المجهود الحربي بالرجال وبالجمال وبالمال، ولم تسلم من ضرائب مبارك حتى بنات الهوى في الكويت.(١١) أعدّ مبارك لحملة خطط أن تكون قوّتها ١٥،٠٠٠ رجل. وكرّر المقيم البريطاني للشيخ مبارك تحذير الحكومة البريطانية بعدم التدخل في هذه المسائل، إلاّ أن مباركاً ثبت على رأيه من أنه يجب أن يؤكّد سلطته في المنطقة ويعمل على حماية أتباعه، وأكّد مبارك للوكيل السياسي البريطاني شكسبير بأن الحكومة العثمانية لن تعترض على أعماله هذه، وأن الوالي العثماني في البصرة قد سبق أن تمنّى له النجاح في مهمته حين التقى به في الفاو. تطلّع مبارك إلى تحييد ابن السبهان وابن رشيد من ورائه فأرسل إليهما ليتحالفا معه إلاّ أنهما اعتذرا،(١٢) حيث إن منطق الأحداث يضع آل رشيد في ركاب السعدون. وجاءت الأخبار بعد

هذا بأن الحملة المزمعة قد أُرجئت لعدة أشهر. ويعبّر شكسبير بأنه قد استخلص من الإشاعات أن الحملة ربّما تكون قد ألغيت تماماً. قال الشيخ إنّه أرجأ الحملة حتى حلول الصيف حيث ستنشغل المنتفق عن سعدون بجني التمر في موسمه. كما أشار مبارك إلى أن رجال سعدون يحاربون فرساناً على الخيل وبينما ستقوم حملة مبارك على الهجن، ولن تصبر الخيل صبر الإبل على عطش الصيف وستنهك. ويفيد تقرير شكسبير هذا بأن الشيخ مبارك طلب إلى عبد العزيز أن يرجع إلى الرياض حيث إن غيابه قد أحدث مشاكل في المناطق الخاضعة له، وأن عبد العزيز لا يريد أن يغادر حتى يدرك ثأر هزيمته من السعدون. طلب شكسبير إلى الشيخ مبارك أن يُسرِّح تلك القوة التي كلّفت أهل الكويت الكثير من الجهد والمال، وتعنّت الشيخ وقال بأن أمن الكويت يقضي باستمرار التعبئة وذلك للحفاظ على الكويت من إغارات البدو. وأشار الشيخ محتجّاً بأن نغمات السلام التي ترسلها المنتفق والظفير خادعة لا يوثق بها، وأنّه قد أصمّ أذنيه عنها، ولن يصغي إليها ما لم ترد له الأسلاب التي غنموها.(١٣) ونلاحظ هنا خروجاً عن المألوف عند شيخ الكويت في عدم تنفيذه الفوري لأوامر الحكومة البريطانية، وربّما يعود السبب في هذا إلى تحسّن علاقته بالعمثانيين إلى الحد الذي أثار الشائعات بأن والي البصرة سيرسل فيلقاً من الجنود العثمانيين ليعسكروا في الكويت مع ضبّاط ثلاثة وأنه قد وعده بأن يحصل له على فرمان بتعيينه حاكماً على نجد والأحساء والقطيف وقطر.(١٤)

خرج عبد العزيز بن سعود من الكويت يريد الرياض غير عابئ بمشكلته المزمنة مع ابن رشيد رغم أن الأخير أخذت قوته في التزايد بينما أخذت قوة الأول تضعف. تفيد أخبار مايو ١٩١٠م بأن ابن رشيد قد هاجم بدو عتيبة وخسر المعركة بعد أن فقد ٢٠٠ من خيله، كما هاجم بعد ذلك شبرمة التي تقع على مسيرة ٣ - ٤ أيام إلى الجنوب من بريدة، وكتب بعدئذ لأهل القصيم معلناً سيادته عليهم «لأن سيّدهم قد هجرهم وذهب ليكون في خدمة مبارك».(١٥) وقد أرسلت القصيم هذه الخطابات إلى ابن سعود. لم تكن غزوات ابن رشيد في القصيم خطيرة إلاّ أنها قد أدّت إلى تفجّر المشاكل الخامدة بين الجانبين. أغار ابن سعود، كما تفيد تقارير

رجب ١٣٢٨هـ/ يوليو ١٩١٠م، على الحميدان وابن دويش وهما شيخان على بعض بطون مطير التي كانت تنزل مع بعض بطون شمر عند بعض الآبار التابعة لهم في أرض ابن رشيد في منتصف الطريق الرئيسي بين بريدة وحائل. وتمكّن ابن سعود من الانتصار وساق منهم ٤٠٠٠ جملاً غنيمة.(١٦) وتذهب التقارير اللاحقة إلى أن شريف مكّة قد أحدث في أوائل يوليو صلحاً جديداً بين ابن رشيد وابن سعود، كان من نتيجة هذا الصلح أن اعتذر ابن سعود لفيصل بن حمود العبيد الرشيد، وضاري العبيد الرشيد، عن مساندتهما، فقد كان الرجلان في جبهة ابن سعود ضد أبناء عمومتهما. خرج فيصل وضاري إلى الشيخ قاسم في قطر فأكرمهما وأمدّهما ببعض المال واعتذر لهما عن مساندتهما. غادر هؤلاء إلى العقير فالبحرين حيث التقيا بالشيخ عيسى هنالك ثم سافرا إلى الكويت التي بلغاها في نوفمبر ١٩١٠م ولم يجدا من مبارك مساندة لأن مباركاً كان في هذا الأثناء على علاقة طيّبة مع سعود بن رشيد الحاكم في حائل.(١٧) وقد بلغ من حسن العلاقة بين ابن الصباح وابن رشيد أن سارت في ذي الحجة ١٣٢٨هـ/ ديسمبر ١٩١٠م الإشاعات بقيام تحالف بين أمير حائل وشيخ الكويت ضد ابن سعود. وتفيد التقارير البريطانية الراجعة إلى هذا التاريخ أيضاً بأن السلم بين ابن سعود وابن رشيد لا يزال متماسكاً وأن كليهما يسيطر على منطقته.(١٨) ووصل السيد إبراهيم من حائل ليقود قافلة الحج العراقي، وأعطى ضمانات من قبله بأمن الطرق لكل من القائم مقام في النجف، ولمجتهدي الشيعة السيد كاظم اليازجي، والملا كاظم الخراساني ولوكلاء الحج بالنجف وغادرت هذه القافلة النجف في ذي الحجة ١٣٢٨هـ/ ١٣ ديسمبر في دروب مكّة المكرّمة. وكانت هذه هي أول قافلة حج تجتاز وسط الجزيرة العربية في دروب مكّة المكرّمة منذ بداية الاضطرابات في نجد.(١٩)

وصلت برقية في أواخر جمادى الثانية ١٣٢٨هـ/ أوائل يوليو ١٩١٠م من ابن رشيد إلى جار الله الدخيل وكيله في بغداد تفيد بأنه انتصر على عنزة في موقع قريب من مجرى خط حديد الحجاز، غير أن الجوف لا زالت تحت سيطرة الشيخين نوري ونواف من الرولة من عنزة، وأن هذين الشيخين قد استوليا على تلك المدينة قبل

أشهر. ويعلّق القنصل البريطاني في بغداد بأن ابن رشيد سينهي بالنصر مسألة الجوف حيث سيعيدها إلى سيادته ويستأنف بعد ذلك صراعه مع ابن سعود. وقد تحسنت علاقات «سعود باشا» بن رشيد بالعثمانيين في هذه الفترة تحسّناً جعل والي بغداد يرسل إلى ابن رشيد يستدعيه للتشاور معه واعتذر ابن رشيد بأن شؤون المنطقة لا تترك له وقتاً للمسير إلى بغداد، وأرسل إبراهيم بن سبهان نائباً عنه في هذه المهمة. (٢٠) أمّا الشيخ مبارك فقد كانت علاقته بابن رشيد طيّبة وانحاز له انحيازاً تامّاً ضد عبد العزيز. غير أن وصول عبد العزيز إلى الكويت أخيراً لمناصرة مبارك وتحسّن وضع ابن رشيد العسكري، جعل مبارك يسعى وقتها لإحداث التوازن بين القوتين، غير أنه ما لبث أن انحاز إلى صف ابن رشيد مرّة أخرى. (٢١)

لم يستقرّ السلم بين ابن سعود وابن رشيد، حتى مع ازدياد قوّة الأخير، استقراراً كاملاً حيث نجد رجال سعود بن رشيد يطلبون إلى بني عبدالله، وهم من المنتمين إلى مطير، الذين كانوا ينزلون قرب مضارب حرب أن يؤدّوا لهم الزكاة. وكان هذا بداية تجدّد الشقاق بين ابن سعود وابن رشيد والقضاء على السلم الذي استمرّ لأربع سنوات. (٢٢) لا تتخلّله إلاّ بعض المشاكل التي يتصدّى ابن الصباح أو شريف مكّة كل على حدة، لإزالتها حين يكون ذلك في مصلحته.

خرج فيصل وضاري آل رشيد في ١٣٢٩هـ/ سبتمبر ١٩١١م من الكويت إلى الظفير والرولة للعمل ضد سعود آل رشيد من هنالك وبدأت في هذه الفترة الخلافات بين آل السبهان الذين كانوا يتولّون الحكم الفعلي في حائل في ذلك الوقت. كان زامل السبهان الذي بيده مقاليد الحكم في حائل مخلصاً لسعود بن رشيد بينما لم يكن أخوه ناصر السبهان الذي يسيطر على بيت مال حائل يرضى باستمرار حكم هذه الأسرة. أراد ناصر أن يقضي على حكم هذه الأسرة لكي يصير الحكم خالصاً فعلاً واسماً لآل السبهان. (٢٣) وفتّ هذا النزاع بالطبع من قوة أسرة شمر، وزاد في ضعف هذه القوة استقرار فيصل وضاري المذكورين آنفاً في فرع عبدة من شمر. وكان هذا الفرع كارهاً لسيطرة آل السبهان على الحكم في حائل راغباً في أن يصير الحكم الفعلي في آل رشيد. (٢٤)

لم ينتهز ابن سعود فرصة انشقاق حائل فقد كانت له مشاكله المادية التي لن تفيده حائل في حلّها إنّما كان حلّها في الأحساء وواحاتها وتجارتها. وكان لابن سعود مع هذا وذلك مشاكله في التعامل مع أهله من العرايف الذين حملوا من جديد عبء الفتن التي أودت بالدولة السعودية الثانية وجرجروا ذيولها وأثاروا المشاكل يعاضدهم في ذلك أخوالهم من العجمان في الأحساء فرأى ابن سعود أن يخمد الفتنة في تلك المنطقة(٢٥). وكان لزاماً على ابن سعود أن يتخلّص من التوافق القلق الذي يشدّه إلى مبارك الصباح شدّاً، ولم يكن ذلك ممكناً إلاّ باستيلائه على الأحساء. رأى ابن سعود أن ضمّ الأحساء سيورث المال، ويخمد الفتنة ويفتح نجداً المنغلقة على نفسها إلاّ عن طريق الكويت المتقلّبة بين القوى المختلفة.

بداية العمليات السعودية في الأحساء

بدأت الفتنة «بتمرّد الهزازنة في الحريق الذي أخمده عبد العزيز بن سعود في ٢٩ ذي الحجة ١٣٢٧هـ/ ١٠ يناير ١٩١٠م بعد أن استولى على قلعتها ثم سجن شيخها، توسّط بعض أبناء عمومة عبد العزيز في هذه الحادثة لهذا الشيخ كما توسّطوا مرة أخرى في أموال بعض شيوخ العجمان، ورفض عبد العزيز الوساطة لما تجرّه من ازدواجية السلطة، فغضب هؤلاء عليه، وبيّتوا له أمراً. تقول المذكّرة رقم (٦) لوكالة الكويت السياسية البريطانية للأسبوع المنتهي في ٢٦ محرّم ١٣٢٨هـ/ ٦ فبراير ١٩١٠م بأن بعض هؤلاء قد دسّوا لعبد العزيز سمّاً قاتلاً في قهوة الصباح. وتصادف أن أختين لعبد العزيز من زوجات هؤلاء تناولتا القهوة، قبل حضور أخيهما للمجلس فقضتا نحبهما. وفرّ الزوجان حين علما بالنبأ خوفاً ممّا أقدما عليه، ولحق بهما سبعة آخرون ممّا يدل على اشتراكهم في هذا الحادث. وصل هؤلاء إلى الرقيقة التي تقع على مشارف الهفوف وأرادوا أن يستقرّوا بها فكتبوا إلى والي البصرة بذلك.(٢٦) وتراجع اثنان من هؤلاء هما تركي بن عبد العزيز بن سعود، وسليمان بن محمد بن سعود، فرجعا إلى عبد العزيز يطلبان العفو فعفا عنهما وأذن لهما أن يلحقا بالآخرين في الرقيقة كما طلبا.(٢٧) وحدث أن سطا بعض العجمان في هذه الفترة على جمال للكويت، وكان الشيخ مبارك يعتقد أن لعبد العزيز بن سعود يداً

في ذلك. ورأى عبد العزيز أن يحسم الأمر في لقاء له مع مبارك في الصمان أو الدهناء، وأخطر مبارك بذلك.(٢٨) ثمّ سار ابن سعود إلى الكويت في أواخر شهر صفر ١٣٢٨هـ/ مارس ١٩١٠م. كان سعود بن عبد العزيز بن سعود بن فيصل وسعود بن عبدالله بن سعود بن فيصل في الكويت حين قدم إليها عبد العزيز فهربا حين سمعا بمقدمه، واضطرّ عبد العزيز أن يرسل أخاه محمداً في أثرهما خشية أن يحدثا في نجد أمراً.(٢٩)

خرج الرجلان إلى الصفران من العجمان وسارا بهم فهاجموا فريقاً من سبيع والسهول كانوا في طريقهم لموعد مع عبد العزيز فوق رمال القرعا. وغنم السبيع حصاناً وذلولاً لسعود سلمتا إلى عبد العزيز. كان هذا في أوائل ربيع أول ١٣٢٨هـ/ أواخر مارس ١٩١٠م، وتأتي أخبار أبريل فتفيد بأن سعود بن عبد العزيز بن سعود الفيصل قد عاد لمهاجمة السهول والسبيع مرة أخرى، ووقعت في هذه الفترة معركة خسر فيها جماعة سعود ٣٠٠ جمل و١٢ حصاناً وسقط عدد من القتلى لا يتجاوز ٢٠ فرداً. وبهذا سار أبناء سعود بن فيصل وسط القبائل الموالية لعبد العزيز بن عبد الرحمن يهاجمون ويفسدون ويحدثون الاضطرابات في نجد وفي الأحساء على السواء. هاجم هؤلاء في أوائل يوليو بدو بني خالد ورجعوا منهم بغنائم وفيرة، كما اعتدوا على بيوت من آل مرة والعجمان، وخسروا ٦٠ جملاً و٦٠ بندقية. وخسر آل مرة ثلاثة قتلى، بينما خسر بدو أبناء سعود بن فيصل عشرة. رفض ابن نجيدان أن يصالح العرايف أبناء سعود أو يرد لهم أسلابهم بينما سار ابن حثيلين ومانع بن جمعة وابن ضيدان إلى مجاورة الكويت تجنباً لما يقوم به العرايف وبدأت شوكتهم في المنطقة تقوى.(٣٠) إستطاع العرايف أن يؤثروا على أهل الحريق فتمرّدوا على ابن سعود، وردّهم ابن سعود إلى الطاعة في ١٣٢٨هـ/ نوفمبر ١٩١٠م ثمّ تقدّم إلى بركة؟ (Brech) بالقرب من الحوطة ونازلها. وأرسل أهل الحوطة شيخهم أبا سبيعة يطلب عفو ابن سعود عن أهل مدينته فناله. هرب العرايف في هذه الفترة إلى وادي الدواسر، واستولى ابن سعود على جمالهم.(٣١) ورحل العرايف بعد هذا إلى مكّة المكرمة وعاد آخرهم في ربيع الأول ١٣٢٩هـ/ مارس ١٩١١م يطلب عفو ابن سعود وناله أيضاً. وبقي خمسة منهم في مكة، كما

تفيد أخبار ربيع الثاني ١٣٢٩هـ/ أبريل ١٩١١م. وتوفي واحد من هؤلاء في البحرين، والتجأ واحد منهم إلى قاسم بن ثاني في قطر، وأصبح بعد ذلك مع مَن وفد إليه من زملائه حرباً على عبد العزيز بن سعود. وكان على ابن سعود أن يتعامل مع هذا الخطر المنطلق من الشرق. . . من الأحساء.

كان العجمان بدورهم حرباً على ابن سعود. هاجم عبد العزيز في ربيع الأول ١٣٢٩هـ/ مارس ١٩١١م الصفران، وهم فرع السليمان من العجمان في الحمرة على مسيرة يومين من الهفوف واستولى منهم على ٢٥٠ جملاً.(٣٢) وفي تلك الأيام حضر شيوخ العجمان وآل مرة والعرجا إلى ابن سعود بالهدايا طالبين منه أن يصفح عنهم فاستبقاهم ورفض أن يفرج عنهم ما لم يردوا له كل ما سلبوه منه.(٣٣) ويبدو أن العلاقات قد وصلت في أبريل إلى انفراج وذلك حين تزوّج ابن سعود من أخت الشيخ ضيدان بن حثلين. وبدا وكأن القبيلة قد حالفته تماماً. وفي الشهر التالي مباشرة جرت موقعة بين ابن سعود وعشيرة ابن دبلان وعشيرة ابن محفوظ وكلتاهما من العجمان. وسار ابن سعود في ٨ مايو على أهل الرقيقة، واعتصم هؤلاء بقلعتهم، وأرسلوا إلى متصرّف الأحساء يطلبون دعمه. جاء المتصرّف إلى ابن سعود الذي اشترط على المتصرّف أن يرد له العجمان كل ما نهبوه منه، وأن يسمح له ببناء قلعة في المنطقة، وأن ترحل جميع القبائل إلى بواديها ولا يبقى بالمنطقة سوى العجمان. وكفل له المتصرّف إجابة طلباته.(٣٤) لم يوافق العجمان على ردّ ما نهبوه وأنكروا أن لابن سعود عليهم حقاً. وضيّق عليهم ابن سعود الخناق، وتصدّى له رجال المتصرّف في الرقيقة وفتحوا النار على حشود ابن سعود فتراجع دون أن يطلق طلقة واحدة. ورفع ابن سعود أمر هؤلاء الجند إلى المتصرّف. واعتذر المتصرّف عن تصرّفات رجاله ووعد بطردهم من الخدمة ثم سجنهم إذا أوصى عبد العزيز بذلك. وأعلن عبد العزيز العفو عن رجال الضبطية ولكنه طلب إلى المتصرّف أن يسجن فهد بن حثلين وخميس بن صفران حتى يستجيبا لطلباته ويردا له ماله عندهما. ولم يتردّد المتصرّف في ذلك. وطلب ابن سعود بعد ذلك إلى العجمان في الرقيقة أن يؤدّوا له ٣٠٠ جمل تعويضاً عمّا نهب منه سابقاً كما طلب منهم أن يبعثوا له بثلاثين من رجالهم ليعاقبهم بقتل رجاله أو يؤدّوا ٨٠٠ ريال ديّة عن كل قتيل.(٣٥)

بالرغم من وصول الأطراف المعنية إلى صلح إلّا أنّه أصبح واضحاً لابن سعود أن هذه القبائل التي تسكن الأحساء يجب أن تدخل في طاعته ليضبط أمورها حتى يستقيم له الأمر في نجد، فهو لن يطيق أن يطوّقه العداء شرقاً وغرباً. أصبحت الأحساء وأطرافها ملجأً للخارجين عن سلطة ابن سعود كما نستنتج من طلبه إلى المتصرّف برجوع كل القبائل إلى ديارها التي وفدت منها. أراد ابن سعود أن يقيم علاقات مع قاسم آل ثاني ليستغني به عن قيود مبارك في الانفتاح إلى الخارج واستيراد الأسلحة غير أن قبائل تلك المنطقة الخاضعة للعثمانيين كانت تمنع وصول الإمدادات والمؤن وتتجرّأ على قوافله وتنهبها. وقد حدث فعلاً أن قام آل مرّة في ذي الحجة ١٣٢٨هـ/ ديسمبر ١٩١٠م بنهب قافلة سعودية كانت تحمل لعبد العزيز ٤٠٠ بندقية واعترضوها.[٣٦]

كان عبد العزيز بن سعود يدرك أن القوة العثمانية في الأحساء واهية، وأنه يستطيع أن يستولي عليها ليضمن الأمن، وزيادة الإيرادات، والاتّصال بالعالم الخارجي، ولكنّه كان يدرك أيضاً أن احتلال الأحساء يعني أنه قد أصبح في داخل نطاق السلم البريطاني حيث تستعمر بريطانيا البحر وتسيطر بقوّتها على السواحل. وأدرك ابن سعود أنه لن يظفر بالأحساء إلّا برضاء بريطانيا التي تسيطر على سواحل الأحساء وتضبط تحرّكات القوة العثمانية في تلك المنطقة حيث تعاملها وكأنها قوة تابعة. كانت مشكلة ابن سعود تكمن في التعامل مع البريطانيين الذين يرضخ العثمانيون بمالهم من قوة بحرية في الخليج لرغباتهم هناك. ولم يكن عبد العزيز يملك قارباً حربياً واحداً. ولم يكن هناك من رأي سوى إعمال الدبلوماسية والسير خطوة خطوة. كان عبد العزيز يدرك تماماً أن البريطانيين في الهند قد أقاموا على سواحل الخليج نطاقاً حراماً لا يجوز لغيرهم أن يتطلّع إليه، وأن عليه أن يلتزم هذا النطاق ولا يتدخّل فيه ليصل إلى هدفه.

الاهتمام الهندوبريطاني بابن سعود

يبدو أن عبد العزيز قد خاطب بعض شيوخ الساحل العماني في أكتوبر ١٩٠٥م وأرسل إليهم خطاباً فهم البريطانيون منه أن ابن سعود يسعى لإعادة

«النفوذ الوهابي القديم الذي كان لآبائه في عمان، وأنه سيزور ساحل عمّان لتحقيق هذه التطلعات». لم يرض البريطانيون ذلك ورأت حكومة الهند في تطلّع ابن سعود لمدّ نفوذه في الساحل العماني أو على أتباع سلطان عمان «تطوّراً غير محتمل البتّة». ورأت حكومة الهند أن أفضل وسيلة لشرح هذا الأمر لابن سعود هي الاتّصال بالشيخ مبارك ليوضّح له المسألة.[٣٧]

صدرت تعليمات حكومة الهند إلى مقيمها في بوشهر ليطلب إلى وكيلها في الكويت أن يفاتح مبارك في هذا الموضوع. وطلب المقيم إلى الوكيل أن يكلّم الشيخ في ذلك «دون أن تظهر له بأنّنا نعطي أهمية كبيرة للأمر». وطلب الوكيل إلى مبارك أن ينصح عبد العزيز بعدم التدخّل «في شؤون الشيوخ الذين تجمعهم علاقات تعهّد مع بريطانيا. إن حكومة الهند حتى بعد أن وضعت في اعتبارها رأيكم (رأي كوكس) من احتمال عدم قيام هذه الزيارة ترى أن للأمر خطورته الكافية التي تستوجب العمل الحاسم لوقف هذا العمل». وتشير حكومة فورت وليام بأن مبارك الصباح يستطيع التعامل مع هذا الأمر «لأنّه يسيطر إلى حد بعيد على إمدادات السلاح الذي تستورده نجد».[٣٨] وحين تحدّث الوكيل البريطاني إلى الشيخ مبارك في هذا الأمر كان رأي مبارك أن الأمر لا يخرج عن كونه وسيلة «لابتزاز النقود» من هؤلاء الشيوخ، فليس لابن سعود المال، ولا الوسائل الأخرى لتنفيذ هذه السياسة ذلك رغم ثبات أمره في نجد. وأضاف مبارك بأنّه قد أبلغ ابن سعود بأنّه سيقطع علاقاته به إذا حاول أن يعتدي على تلك النواحي، ورأى أن ابن سعود سيتقيّد بما أشار عليه به. وأفاد مبارك بأنه على الرغم من هذا فإنّه غير مستعد لضمان سياسة «هذا البدائي الجاهل».[٣٩] ويعلّق الوكيل البريطاني في الكويت في تقريره هذا المؤرخ في ٦ ذي القعدة ١٣٢٣هـ/ ١ يناير ١٩٠٦م بأن الشيخ لم يعد راضياً عن ابن سعود. وأثبت الوكيل لحكومته نقد مبارك الجارح لشخصية ابن سعود الذي لا نفيد من إثباته شيئاً. وعاد مبارك في أواخر ذي الحجة ١٣٢٣هـ/ فبراير ١٩٠٦م ليقول للوكيل البريطاني في الكويت بأنّه يمكن الاعتماد عليه في التأثير على ابن سعود حتى لا يهاجم الساحل العماني، ولا ينفّذ نواياه في عمان «فكل إمدادات ابن سعود من السلاح تمرّ من ميناء الكويت». وفي نهاية فبراير كتب ابن سعود إلى مبارك في

هذا الأمر: «.. إن أهل عمان أهل مكاتيب لنا من يوم حنا بالكويت وصحيح روحنا لهم خطوط ومكاتيب لهم ما والله هي عن قصد ولا ذكرنا بها شيء من الأمور الذي نهتنا بها خلل إلاّ أن كان شيء ما أرعيناه بالترجل من لا عيب فيه ومنّة قبل مكاتيب إلى عند جنابكم وأبو شهر».(٤٠) وينتهي خطاب ابن سعود لمبارك بأن يخطر البريطانيين بأنه لن يخرج عن قواعد التعامل معهم التي يعرفها جيداً. وانتهى خبر هذه الزيارة إلى هذا الحد. لا بدّ أن ابن سعود قد لمس بنفسه مدى «الغيرة» التي تنتاب البريطانيين من مجرّد محاولة التراسل الودي مع شيوخ تلك المناطق، ولهذا كان عليه أن يتعامل مع سياسة الأمبراطورية البريطانية بمنطقها هذا أو أن يدفن تماماً طموحاته الخاصة بحيازة الأحساء.

كانت سياسة حكومة الهند البريطانية قد ثبتت على النطاق العازل الذي أحدثته في منطقة الساحل العماني، ولا تريد لهذا الشريط الساحلي امتداداً في العلاقة أو السياسة أو السيادة إلى داخل شبه الجزيرة العربية. كما حرصت لندن على عدم استعداء العثمانيين بالدخول في أية علاقات مع ابن سعود وأرضه التي لا تهيّئ لها فوائد استراتيجية أو اقتصادية والتي لم تكن - حتى هذا الوقت - تهتم بمجريات الأمور فيها، إلاّ فيما يخص أمن الشريط الساحلي الذي استحدثوه في الكويت وقطر وساحل عمان. ولم تكن اتصالات سلطات الخليج البريطانية مع ابن سعود إلاّ للمحافظة على هذا الشريط.

تمّت منذ ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م مقابلة بين مبعوث سعودي والكابتن بريدوكس وكيل المقيمية في البحرين. حمل السفير عن ابن سعود إلى البريطانيين رغبته في طرد العثمانيين عن سواحل الأحساء على أن تمنع بريطانيا وصول الإمدادات العثمانية لجنودها بحراً.(٤١) ولم يتحمّس بريدوكس لهذا الرأي انطلاقاً من السياسة الهندية الثابتة من عدم التعامل مع سياسة الظهير الصحراوي بخاصة مع الإرث السياسي للسعوديين المناهض للسياسة الهندوبريطانية على طول خطه. أرسل بريدوكس بتقرير عن هذا اللقاء إلى الهند التي قامت بدراسته. وكان رأي لويس دين (Dean)، أمين الشؤون الخارجية بحكومة الهند وقتها، رفض الطلب السعودي على أن تبقى حبال الاتّصالات ممدودة، فلربّما يُستفاد من ابن سعود يوماً «لأن نجداً

جارة الكويت». [٤٢] ورأى دين أن عبد العزيز قد يشتدّ أمره يوماً ما فيجري تأثيره على المنطقة التي سيجري عليها خط برلين بغداد بصرة، وربّما أضرّ حينئذٍ بالمصالح البريطانية على الساحل الذي ينتهي إليه هذا الخط، خصوصاً أن عبد العزيز غير مشدود إلى السياسة البريطانية باتّفاق ولا بتعهد. وكتبت الهند انطلاقاً من هذه الدراسة إلى كمبال مقيمها في الخليج العربي لينظر في جدوى إرسال رسول هندي الهوية إلى ابن سعود سرّاً. وردّ كمبال بأن سلطة ابن سعود لم تستقرّ بعد، وأن آل رشيد ربّما أعادوا الكرّة وهدموا البيت السعودي مرة أخرى. وعبر كمبال عن اعتقاده بأن خبر الرسول الهندي لن يبقى سرّاً عن الحكومة العثمانية التي ستتنسّم خبره. وانتهى الأمر في ٨ فبراير حين أبرق وزير الهند إلى نائبها بعدم موافقته على الدخول في أيّة علاقة مع نجد، وأن على الهند أن لا تبعث بأي وكلاء من قبلها إلى تلك الناحية إلاّ بموافقة مسبقة من الحكومة البريطانية. [٤٣]

تقدّم شيخ الكويت في ١٣٢٢هـ/ سبتمبر ١٩٠٤م نيابة عن الأسرة السعودية التي كان الإمام عبد الرحمن يمثّلها عنده في ذلك التاريخ بطلب الحماية والدعم. وقد أتينا على ذكر هذا الطلب حين تعرّضنا لهزيمة ابن سعود للقوات العثمانية في القصيم ومحاولة العثمانيين الدفع بقوة جديدة من المدينة المنوّرة إلى المنطقة. ورجّحت حكومة الهند تأييد هذا الطلب حيث خشيت من أن يقوى النفوذ العثماني في وسط شبه الجزيرة العربية ويصيب الخلل موقف مبارك. وردّت وزارة الهند، بعد مداولات مع وزارة الخارجية بوجوب الالتزام بعدم التدخّل في سياسة نجد. [٤٤]

وفي أواخر ذي الحجة ١٣٢٣هـ/ ٢١ فبراير ١٩٠٦م أثارت حكومة الهند مع لندن أمر تحديد خط سياسي للالتزام به في علاقتها مع ابن سعود. وأشارت الهند إلى ضرورة خلق نوع من العلاقة «لتحسّن علاقتنا به». نُقل هذا الرأي إلى أوكنور فأوصى بقصر التدخل في شؤون سياسة القبائل العربية إلى أدنى حد ممكن. وتبنّت الحكومة البريطانية هذا الرأي وألزمت الهند به. وجاءت بعد هذا اتصالات ابن سعود في مارس مع وكيل المقيمية البريطانية في البحرين التي لم تؤدِّ إلى نتيجة تُذكر.

قام المقيم البريطاني في بوشهر في رجب ١٣٢٤هـ/ أواخر أغسطس ١٩٠٦م بزيارة إلى قاسم آل ثاني في قطر وتطرّق الحديث لشؤون ابن سعود وموقفه من العثمانيين. وأعرب قاسم عن رأيه بأن ابن سعود يستطيع أن يطرد العثمانيين من نجد ومن الأحساء على السواء ولكنه يخشى من أن تهاجمه الحكومة العثمانية بحراً، ولهذا فهو يطلب أن يفاوض البريطانيين في تلك المسألة. وكالعادة أنهى المقيم إلى الشيخ بأنه سيرفع الأمر إلى الحكومة في الهند. وانتهى أمر عبد العزيز بن رشيد في هذا الوقت في روضة مهنا. وعبّر المقيم عن رأيه «بأن ابن رشيد الحالي (متعب) شاب في الثامنة عشرة من عمره ليس من المحتمل أن يصمد لفترة طويلة في مواجهة ابن سعود، وعليه فإنّي أرى أن الحاجة الآن ماسة لمراجعة موقفنا السياسي من وسط شبه الجزيرة العربية وتحديد موقفنا من ابن سعود. وساند المقيم وجوب أن تكون هنالك علاقة بينهم وبين ابن سعود. «لنا مبادئ ومصالح نريد الحفاظ عليها ولا يمكن لنا أن نتّخذ خطاً سياسياً سلبياً محضاً ونقف بمنأى عن الأحداث. إنّ أهدافنا ومصالحنا لن يخدمها بأي شكل من الأشكال رفع راية «عدم التدخّل» خفاقة عالية. إنّ معاملتنا للعنصر العربي الذي بدأ يسود في نجد «بتجاهل نشط» لن يؤدّي بنا إلاّ لموقف غير محمود وغير ضروري وما ذلك إلاّ من أجل ضمان مصالح الآخرين (العثمانيين)». وأبدى المقيم في نهاية رسالته اعتقاده بأنه لو كان هناك اتفاق يربطهم بابن سعود لما ذعر شيوخ الساحل المهادن من خبر زيارة ابن سعود لهم لأنهم «إذا عرفوا بوجود نوع من العلاقة بين المقيمية وابن سعود فإنهم، بما فيهم سلطان عمان، كانوا سيحصنون أنفسهم بالمعرفة المسبقة. إنّ عملاً كهذا (ضم المنطقة) يعني خروجاً عن أصول الصداقة». وبالرغم من أن حكومة الهند قد اقتنعت بهذا الرأي وحوّلته إلى وزارة الهند إلاّ أن وزارة الخارجية تثبت على ضرورة الالتزام بعدم التدخّل.(٤٦)

وأثار عبد العزيز الأمر مرّة أخرى في نهاية هذا العام، وطلب أن يكفّه البريطانيون العثمانيين بحراً وهو الكفيل بهم في البر، ورفضت لندن التدخل إطلاقاً رغم الأسباب التي تعلّلت بها حكومة الهند لتوثيق علاقتها بابن سعود.(٤٧)

التقى وكيل الكويت السياسي البريطاني بعبد العزيز في أواخر ١٣٢٨هـ/

مارس ١٩١٠م عندما جاء محارباً للمنتفق. وكتب الوكيل تقريراً ضمّنه انطباعاته التي نورد بعضاً منها لكي نبرّر بأن تخوّف البريطانيين من التعامل مع الإرث السعودي كان تخوّفاً نابعاً من سوء فهم وعدم دراية. قابل الوكيل الكثير من الأمراء السعوديين في هذا اللقاء. كان مع عبد العزيز ابنه تركي وأخوته سعود وعبدالله ومحمد وسعد. يقول الوكيل البريطاني «بالرغم من سمعتهم «الوهابية» وجدتهم لطيفين جداً، تناولنا الغداء سوياً ووجدتهم لا يكرهون الإنسان الأوروبي ولا الطعام الأوروبي».(٤٨) ويستطرد هذا التقرير ليقول «بأن عبد العزيز ذو وجه وضّاح وصريح... ذو أفق متّسع... صادق القول... يشتهر بين العرب بالنبل والكرم والعدل، ولا ينحدر للأساليب الخسيسة في أفعاله وخصاله. لم يناقشني عبد العزيز في الشؤون السياسية إلاّ أنّه قال إنّه يحمد الله لأن الأتراك بعيدون عنه. كما أشار إلى أن الإنكليز أصدقاء وأخوة لمبارك. وبما أنه صديق لمبارك فإن الإنكليز أصدقاؤه وأخوته كذلك».

التقى شكسبير الوكيل البريطاني في الكويت في أوائل ١٣٢٩هـ/ أبريل ١٩١١م بابن سعود مرة أخرى على تخوم الكويت. وأشاد به في تقريره للمقيم حيث قال عنه إنه «صادق صريح كريم طبقت شهرته آفاق القبائل. ناقشني بكل الصراحة والوضوح فيما يخصّ بلاده وعاداتها وتقاليدها ولم أجد فيه أثراً للتعصّب. يخاطبني «يا أخي» وقد عوملت كأنني فرد من أفراد الأسرة. سألني عن العلاقات بين حكومتنا وتركيا فرفضت مناقشته في هذا الأمر وقلت له إني قدمت لأستطلع كيف يقضي الأمراء العرب أوقاتهم في الصحراء. وأضفت بأن حكومتنا لا تريد علاقات مع القبائل في الداخل ما لم تتدخّل هذه القبائل في شؤون القبائل الساحلية». وعرف شكسبير بأن عبد العزيز قد أرسل، بموافقة أبيه، في يناير من هذه السنة مبعوثاً لمقابلة الوكيل السياسي البريطاني في البحرين، والمقيم في بوشهر للتفاكر معهما.(٤٩)

يستمرّ تقرير شكسبير ليسرد العلاقات البريطانية السعودية منذ زيارة لويس بيللي إلى الرياض في ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م ويصل بها إلى وقته ذاك من عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م. جاء في تقرير شكسبير بأن السعوديين لا يريدون العثمانيين في

الأحساء التي هي جزء من أملاك آل سعود، وهي من المناطق الزراعية والرعوية الغنية، كما أنه ليس لحاكم نجد ميناء طبيعي على الخليج، كما لا توجد له قاعدة عسكرية ثابتة يمكن لقوّاته أن تنطلق منها للسيطرة على قبائل البدو التي تقطن المنطقة بين الساحل والرياض ولضبط الأمن فيها». ويضيف تقرير شكسبير أن عدم وجود قاعدة عسكرية مثل هذه هو أمر يؤثر في أمن نجد وفي ازدهارها التجاري. كما تحدّث ابن سعود مع شكسبير في هذا اللقاء عن النظام الجديد في الآستانة الذي بدأ يكشّر عن أنيابه ويفصح عن حقيقته. أضاف ابن سعود أنه ليس وحده الكاره للإدارة العثمانية إنّما يشاركه هذه الكراهية كل القادة والزعماء العرب الذين يعملون بدورهم جاهدين لإجلاء العثمانيين عن أراضيهم. وأفاد ابن سعود أن لديه خطابات في هذا الصدد من الإمام يحيى والسيد محمد الإدريسي، ومن ابن رشيد كذلك. وأنهى ابن سعود لشكسبير بأن «الوهابيين» عموماً يمقتون الأتراك لأنهم أحدثوا في الدين بدعاً وأقاموا ممارسات تجافي ما جاء في القرآن والسنّة». وأفاد ابن سعود شكسبير بأن أعيان أهالي الأحساء وشيوخها قد كتبوا إليه يستقدمونه لقيادتهم ضد العثمانيين ولكنه آثر التريّث.[٥٠] ويشتمل التقرير الذي نحن بصدده حقائق أخرى كثيرة منها أن ابن سعود يسعى لإقامة علاقة مع البريطانيين لكي يوازن بها العلاقة مع العثمانيين ليبعدهم عن التدخّل في شؤون نجد. وقارن ابن سعود بين وضعه ووضع مبارك بالنسبة إلى العثمانيين فقال إنّ وضعه أفضل. فهو لم يعترف بالعثمانيين، ولم يرفع علماً عثمانياً كما هو شأن مبارك، كما أن مبارك في عنقه بَيْعة للسلطان أمّا هو فلم يبايع. كما أشار إلى أنّه لم يستلم راتباً أو مخصّصات من العثمانيين سوى ٦٠ ليرة يصرفها والده، ولكنه لا يريدها وسيستغني عنها، ولم يبعث له العثمانيون حتى الآن بأية أنواط أو كسوات شرف. وأشار ابن سعود بأن صلاته بالعثمانيين لا تخرج عن كونها «صلات دبلوماسية» فهو قد قدّم الولاء أكثر من مرة لخدمة هدف معيّن، أو لتسوية خلافات ناشئة، أو للعمل على التخليص من القوات العثمانية أو ما إلى ذلك. وأشار ابن سعود كذلك إلى أن السلطات العثمانية تعتمد في إدارتها للقبائل على تحريك هذه القبيلة ضد تلك، ممّا يضعف القبائل جميعها، وأن القبائل قد تبيّنت هذا الأمر، وكرهت هذه السياسة، ومجّت العثمانيين.[٥١]

أوصى شكسبير في نهاية رسالته بوجوب التعامل مع ابن سعود وذلك لأمرين أولهما أن هذا الأمر سيخدم السياسة التهادنية حيث سيبتعد ابن سعود عن التدخل في شؤون شيوخ الساحل باسمه أو باسم العثمانيين، وثانيهما أن هذه العلاقة ستخدم التجارة وازدهارها، «فكل السلع هنا انكليزية أو هندية». وأشار شكسبير إلى المقيم البريطاني بأن عبد العزيز طلب إليه عدم مفاتحة مبارك بما تم في هذا اللقاء لأنه ربما أعطى تفسيرات مزيفة لبعض الحقائق ولونّها أو أحال الأمر للعثمانيين. وقد أخطر شكسبير ابن سعود صراحة بأن بريطانيا لن تسانده لأن صلاتها بالعثمانيين طيبة، ولكنه على أية حال وعده برفع الأمر إلى المقيم.

علقّ المقيم كوكس على هذا التقرير بوجوب أن تبقى «حبال الصداقة ممدودة لابن سعود ليستعان به عند الحاجة. ووافقت حكومة الهند على هذا الرأي، ودعمته بالحجج والأسباب، وأرسلته إلى لندن التي أشارت مرة أخرى بوجوب الثبات على سياسة عدم التدخل أو اقامة أية علاقات مع ابن سعود.[٥٢]

ذروة معاناة أهل الأحساء من الإدارة العثمانية

تشير الوثائق الراجعة إلى ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م إلى المعاناة التي يعيشها سكان الأحساء تحت ضغوط الإدارة العثمانية المحلية. وفد عبد الرحمن بن سالم، وهو من أعيان الأحساء وأصحاب النفوذ فيها، إلى البحرين واتصل في ١٤ شعبان ١٣٢١هـ/ ٤ نوفمبر ١٩٠٣م بالوكيل السياسي البريطاني المساعد في البحرين جاسكن يطلب العون البريطاني ومناصرة أهل الأحساء ضد العثمانيين.[٥٣] أنهى عبد الرحمن بن سالم لجاسكن بأن «مصير الجزيرة العربية يتغير في هذه الأيام بسرعة فائقة حيث نجد هناك رغبة عربية جادة في التخلص من ربقة العثمانيين». ويرى ابن سالم بأن للعرب أسلحة حديثة، وأنهم بدأوا يحسون بقوتهم، وما عادوا يخشون بأس العثمانيين، ولا يرون فيهم القوة التي لا تهزم. واستشهد الرجل في هذا الصدد بما يقوم به ابن سعود ومبارك الصباح. وتنبأ ابن سالم في مجال المعارك السعودية الرشيدية بظفر ابن سعود وغلبته على ابن رشيد رغم المحاولات الملحة للأخير لاستعادة الرياض والمناطق الأخرى التي حاز عليها ابن سعود. وتوقع ابن

سالم بأن ابن سعود حين يقضي على ابن رشيد سيلتفت إلى الأحساء وينتزعها من العثمانيين، وأضاف «بأنه (ابن سعود) سينجح في هذا إذا بقيت أحوال المنطقة على ما هي عليه الآن». أشار ابن سالم كذلك بأن العثمانيين قد تمكنوا من الأحساء سابقاً بمساعدة شيوخ الكويت وعرب المنتفق. غير أن هذا الوضع قد تغير الآن حيث خرج شيخ الكويت من قبضة العثمانيين، ولم تعد المنتفق ترغب القيام بدور مؤثر في أية تحركات قادمة. وعبر ابن سالم عن قناعته بأن البدو في المنطقة لا يهمهم من الذي يحكم تلك المناطق لأنهم لا يعترفون بسلطة حكومة مركزية أبداً، وسيتعاملون مع كل سلطة تحكم المنطقة بنفس الروح، أما الحضر في الأحساء فإنهم غير راضين عن العثمانيين أبداً، وهم على استعداد لطردهم من المنطقة بعد حصارهم في قلاعهم وحصونهم، ولكنهم يخشون من وصول الإمدادات العثمانية ومن الإنتقام العثماني. ورغب عبد الرحمن بن سالم إلى جاسكن أن يعمل على اسباغ الحماية البريطانية على الأحساء بعد طرد العثمانيين. كما طلب عبد الرحمن، في حالة تعذر هذا الأمر، أن يُعطى واتباعه مكاناً في قطر يأوي إليه تحت حماية الحكومة البريطانية بعيداً عن تعديات الإدارة العثمانية.(٥٤)

نفّذ جاسكن أوامر حكومته التي تقتضي عدم التدخل في البر، والحفاظ على أمن البحار من الإضطراب والفوضى، ومن التحركات العسكرية للعثمانيين أو غيرهم من القوى المؤيدة أو المعارضة وأنهى جاسكن للشيخ عبد الرحمن «أنه ليس من سياسة الحكومة البريطانية أن تتآمر مع مواطني دولة معترف بها تجمعها مع الحكومة البريطانية روابط صداقة.» وزاد جاسكن بأن طلب إلى عبد الرحمن ألا يأمل في أدنى مساعدة من البريطانيين في هذا الإتجاه. «أما بخصوص قطر فهي تحت حكم الشيخ قاسم بن ثاني وأخيه.» ويستطرد جاسكن: «لقد أصيب هذا الرجل بخيبة أمل باهظة لعدم تشجيعي إياه، وطلب أن يبقى ما قيل بيننا سراً، وتطوع أن يكتب لنا بأخبار الداخل، فأهلاً به».(٥٥)

كانت الإدارة العثمانية تعيث فساداً في الأحساء مما أدى إلى انعدام الأمن وانفراط عقد النظام. تعاون الوالي مع الخارجين على القانون يقاسمهم ما يصيدونه من نهب الأبرياء في المدن وقطع السبيل. ولم يخف شيوخ الأحساء وأعيانها حنقهم

على المتصرف أو اتهاماتهم له فأبرقوا إلى الدولة يشكونه، وصمّت الدولة أذنيها ولم تصغ. جاء في برقية بتاريخ ١٠ ذي القعدة ١٣٢١هـ/ ٢٧ يناير ١٩٠٤م من شيوخ سنجق نجد إلى الصدر الأعظم: «بأن ما يقوم به المتصرف طالب باشا سوف يؤدي إلى تدمير الإقليم وخرابه تماماً، وستعود هذه الأعمال على الدولة بالخسران المبين». وجاء في هذه البرقية أيضاً أن أهل الأحساء، بدوهم وحضرهم، قد سئموا التعديات الحادثة في المنطقة، وأنهم على استعداد للرحيل عن هذا الإقليم لينزلوا مناطق أخرى بعد «أن غدا النهب والقتل والتعدي هو القانون الساري في هذا الإقليم، ولا قانون سواه يحكم الأحداث هنا». وتساءل الشيوخ والأعيان: «لماذا أتت الدولة بطالب وجعلته المتحكم في السكان المخلصين وأرضهم وممتلكاتهم؟» وأشارت هذه البرقية إلى برقيات سابقة أرسلها أهل الأحساء للسلطات العثمانية وبرغم ذلك «لم تصدر الدولة أمرها إلى متصرفها لكي يرد للأهالي حقوقهم المسروقة والمنهوبة. إن كل فرد هنا حزين لدم أهله الذي أهدر، وما عاد أحد يأمن على دمه ولا ماله». وانتهت البرقية إلى القول: «إذا أهملت شكاوينا في هذه المرة أيضاً ولم تجد العناية اللازمة فإن ٥٠٫٠٠٠ فرد وعوائلهم سيثورون وسيطلبون الحماية من قوة أجنبية، وذلك لتخليص أنفسهم من الطغيان والسلب والقهر بعد أن أصبح الأهالي ضحايا لذلك كله».(٥٦)

كانت كل التماسات المخلصين للدولة العثمانية لا تواجه من قبلها إلا بالتعسف وإنزال العقاب، وعلى هذا تردت الحالة الأمنية. وقامت بعد هذا اضطرابات العجمان في ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م وبلغ من ضعف السيطرة العثمانية أن فهد بن حثلين، من شيوخ العجمان، قد استطاع أن يغنم في ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م مدفعاً عثمانياً جره إلى الكويت ببغلين وعدد من الحمير وعرضه للبيع هنالك. واتصل فهد بن حثلين بالوكيل السياسي البريطاني في الكويت نوكس. وكان في رفقته سالم بن محمد «شيخ عجوز من شيوخ العجمان فقد أسنانه بتأثير الزمن». وبالغ الرجلان في الإنتصارات التي أصاباها في الأحساء ضد العثمانيين، وعرضا على نوكس التفاهم مع بريطانيا. «للوصول إلى أية اتفاقات». كما أنهى ابن حثلين لنوكس أنه سيعطي المدفع هدية لابن سعود أو ابن الصباح. . «لأن كلا الرجلين

على علاقة طيبة به، فقد اعتادا على أن يكرماه حين يزورهما»[٥٧].

استمرت الإضطرابات تتزايد وأصبح التمرد هو القانون والعرف الذي يحكم المنطقة حيث أصبح الحضر بدورهم يتعرضون لقوافل التموين للحاميات العثمانية. قام أهل المبرز في ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م بقطع الطريق على امدادات عثمانية لمدينتهم. وانتهز المتصرف هذه الفوضى لكي يفرض من الغرامات ما شاء على أهل المدينة. انعدمت روح القانون، وضربت الفوضى بأطنابها، واستهان الأهالي بالسلطة التي ذابت هيبتها حتى أقدموا في ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م على قتل المتصرف العثماني. وغدت المدن غير آمنة وعانت القطيف كثيراً من تجاوزات البدو[٥٨]، وكانت معاناتها أكثر من سواها. ولم يعد للعثمانيين إلا قلاع وحصون تأوي جندهم في وسط ثائر متمرد.

ابن سعود سيداً على الأحساء

كان تصميم عبد العزيز بن سعود على استرداد الأحساء جاداً ولكنه كان يثق أن هذا الأمر غير ممكن بغير كسب رضاء البريطانيين، ولهذا حاول ابن سعود الاتصال بهم مجدداً مع بداية عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م. ولم يشأ البريطانيون أن يتعاونوا معه خاصة وأن حكومة بريطانيا كانت تفاوض الحكومة العثمانية وقتها على تحديد مناطق السيادة والنفوذ في الخليج العربي. تمكن عبد العزيز من الأحساء بعد طرد الحاميات العثمانية في ١٣٣١هـ/ مايو ١٩١٣م فرحلت إلى البحرين. ولكنها عادت إلى الساحل مرة أخرى بقيادة جديدة فكتب عبد العزيز حينئذ لسلطات الخليج البريطانية محتجاً على التحركات العثمانية في مياه الأحساء. وكان المقيم كوكس حريصاً حرص عبد العزيز على سيادة الأمن في تلك المياه. وتجاوبت حكومة الهند مع رغبات مقيمها غير أن حكومة لندن رفضت كل اتصال مع عبد العزيز أو تقديم عون أو مساعدة له.[٥٩] وحين استقر الأمر بابن سعود في الأحساء كتب في ٩ شعبان ١٣٣١هـ/ ١٣ يونيو خطاباً إلى المقيم يعلمه رسمياً بالأمر ويطلب إليه عقد اتفاق «على النمط الذي ربط بينكم وبين اسلافي». ودافع كوكس عن وجوب قيام تعامل مع ابن سعود. وزجرت بريطانيا مقيمها وحكومة الهند هذه المرة زجراً

عنيفاً، وأفهمت لندن سلطات الهند بأن الخط السياسي لبريطانيا يقتضي الحفاظ على «ممتلكات تركيا في آسيا»، وأنه مبني على اعتبارات ليست كلها اقليمية(٦٠)». وبهذا اضطر ابن سعود للاتصال بالباب العالي معلناً الولاء. وحين وقعت بريطانيا في ٢٥ شعبان ١٣٣١هـ/ ٢٩ يوليو ١٩١٣م مع الدولة العثمانية بالأحرف الأولى على الاتفاق الذي كانت تسعى إليه،(٦١) انحازت تماماً لصالح الدولة العثمانية في المنطقة وأبرقت لندن إلى الهند حين علمت بأن ابن سعود يسعى لعرقلة خطط العثمانيين في منطقة قطر وما تلاها بأن على ابن سعود أن «يبتعد عن كل نشاط في تلك المنطقة، وأن يفهم بوضوح بأننا سنقاومه بالقوة»(٦٢) خاصة بعد أن خرجت قطر بموجب الإتفاق عن بوتقة العثمانيين.

توالت اتصالات ابن سعود بالبريطانيين في الخليج وذلك في محاولة منه لحجب تحركات القوات العثمانية بحراً. التقى ابن سعود في ١٥ ـ ١٦ ديسمبر بشكسبير، الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، وتريفور(Trivor) الوكيل البريطاني في البحرين، وذلك في ميناء العقير. وبرغم حماس حكومة الهند لأمر التعامل مع ابن سعود أصرت بريطانيا على عدم التدخل.(٦٣) وحين أرسل ابن سعود إلى تريفور في ١ ربيع الثاني ١٣٣٢هـ/ ٢٦ فبراير ١٩١٤م يستفسر عن سبب عدم الاتصال به بعد لقاء العقير «ولعل الداعي خيراً». وقد كان الداعي في الحقيقة هو ما كتبه هرتزل في ١٣٣٢هـ/ ١٢ ابريل من أن وزارة الخارجية البريطانية قد رجعت «إلى أسلوبها القديم في التصرف على أساس أن ابن سعود غير موجود». (٦٤)

إنحاز ابن سعود إلى الجانب الآخر في سعيه لتثبيت سيادته على أرضه فعقد مع العثمانيين في ٢٠ جمادى الثانية ١٣٣٢هـ/ ١٥ مايو ١٩١٤م اتفاقاً نظّم العلاقة بين القوتين.(٦٥) واطمأن ابن سعود إلى وضعه الجديد بعد أن حصل على اعتراف عثماني بسيطرته على تلك المناطق حتى أنه لم يتصل بالبريطانيين لإعلامهم بأمر هذا الاتفاق. وراحت الحكومة البريطانية بدورها تسعى إلى تحسين العلاقات بين ابن سعود والعثمانيين خاصة بعد عقدها اتفاق يوليو ١٩١٣م وكانت لندن قد اصدرت في ١٢ مايو ١٩١٤م تأكيداً لتعليماتها الثابتة المتكررة الخاصة بعدم التعامل مع ابن

سعود، ووجهت حكومة لندن الهند لكي تبلغ سلطاتها في المنطقة بـأنها اعترفت بموجب الاتفاق المشار إليه بالأحساء أرضاً عثمانية «وأن ابن سعود خاضع لتركيا، وعليه يجب أن يعامل بصفته هذه، ولا يجب أن تكون هناك اتصالات خارجة عن هذا الإطار. يجب أن يتعاملوا مع ابن سعود على أنه موظف تـركي، أو أن لا يتعاملوا معه البتة». وخففت لندن بعدئذ هذه التعليمات نوعاً ما حين أشارت على الهند في ١١ شعبان ١٣٣٢هـ/ ٤ يونيو ١٩١٤م بـأن لا تكون لسلطات الهنـد السياسية في الخليج العربي أية علاقة بابن سعود «إلا إذا كان لابد من ذلك». (٦٦) وكان ذلك التغيير الفجائي مرتبطاً بمقدمات الحرب العالمية الأولى في الخليج.

رياح الحرب تجبر بريطانيا على التعامل مع ابن سعود

حين بدأت رياح الحرب العالمية الأولى بدأت بريطانيا تراجع سياساتها في المنطقة والتحقّق من ارتباطات زعمائها مع العثمانـيين. أفادت التقارير البريطانية باتصـالات جرت بين أنور باشا في المدينة المنوّرة وابن سعود، ورأت بريطانيا في هذا أمراً طبيعياً. وكان الاعتقـاد السائـد لدى الـبريطانـيين «أن تركيـا لن تقوم بخطوات حاسمة في الحرب إلى جانب ألمانيا، ولكنها ما دامت واقعة تحت نفوذ تلك الجبهة العسكرية فإنها ستستمر في الإعداد للحرب والتجهيز لذلك على الجبهة المصريـة. ولا نعتقـد أن هــذه التجهيـزات العسكـريـة تـرقى إلى العمليـات العدائية». (٦٧) ويسترسل هـذا التقريـر ليقول: «إنّـه من الأنسب دون شك أن نطلب صداقة ابن سعود، ولكننا نعتقد أنّه من قبيل سوء الحظ أن نجعله يعتقد بأن أمورنا متوقفة بصفة خاصة على صداقته». وأشارت المذكرة إلى أن بريطانيا لم تحاول حتى بداية هذه السنة أن تتعامل مع ابن سعود أو تعينه ضد الحكومة العثمانية «إلاّ أن المستجدّات التي أحدثتها الحرب تجعل لنا كلّ الحق في إقامة علاقة صداقة معه». (٦٨)

أبرقت الأمانة الخارجية في الهند إلى مقيمها في الخليج في ٢٠ ذي القعدة ١٣٣٢هـ/ ٩ أكتوبر ١٩١٤م تعلمه بقرار لندن إرسـال الكابتن شكسبير مبعوثاً من قبلها إلى ابن سعود «وذلك لكي لا تثير العمليات الحربية البريطانية اضطراباً في

المنطقة العربية، ولكي نكسب حسن النوايا العربية» في حالة دخـول العثمانيـين الحرب. وطلبت الأمانة الخارجية بوزارة الهند إلى المقيم أن يملي على الشيخ مبارك رسالة يرسلها إلى ابن سعود تجري على النحو التالي «إن شيخ الكويت يثق تماماً من أن الألمان سيدفعون العثمانيين للقيام بما من شأنه مضايقـة بريـطانيا «العـظمى» وحلفائها في هذه الحرب، وأن بريطانيا، وهي الصديق التقليدي للمسلمين كافة، قد قامت من جانبها باتخاذ كافة الاحتياطات لعدم القيام بأيّة إجراءات عدائية إلاّ في حالة وقوع اعتداء عثماني». وطلبت الأمانة الخارجية في الهند من مقيمها بأن يعـد مباركـاً بالـدعم المادي وأن يعمـل على دعم ابن سعود كـذلك وذلـك حين يمارس الرجلان نفوذهما على القبائل التابعة لهما بشكل يساند السياسة البريطانية. وطلبت الهند إلى مقيمها أن يخطر مباركاً لكي يخطر ابن سعود بدوره» بأن صديقيهما شريف مكة وابن الشعلان ربّما سارت بهما الوعود العثمانية إلى اتجاه آخر». وانتهت هذه الرسالة إلى القول بأن الكابتن شكسبير سيصل المنطقة ليكون مبعوث الحكومة البريطانية لتوضيح رغباتها للعرب. وطلبت الهند إلى مقيمها بوجوب ألاّ يتحرّك ابن سعود ولا الشيوخ الآخرون أية حركة حتى لو قامت الحـرب، ما لـم يستـوثقوا من رغبات الحكومة البريطانية.(٦٩)

يبدو أن مبارك قد استطاع أن يرسل هذا الخطاب على وجه السرعة إلى ابن سعود الذي ربّما كان عند حدود الكويت إذ نجد ردّاً من ابن سعود بتاريخ ٢٣ ذي القعدة ١٣٣٢هـ/ ١٢ أكتوبر ١٩١٤م جاء فيه: «ما عرف حظرتكم كان لدى ابنكم معلوم مخصوص تقديم كتابكم لنا عنيد ولدكم عبـدالله بن جلوى رجعنا جوابه لكم بحال عنيد ولدكم أخينا عبدالله ثم عرف حظرتكم من قبل إثـارت الحرب بين ها الدول وان الى مع الانكليز يصيرون غالبين والدولة في غايت الخوف نرجو من الله أن يجعل الغلبة لَمن لنا ويّاهم صلاح ثم أدام الله وجودك معلوم مع هالتقلباة لا بدّ يحصل بعض الاختلال من الدول. تفهمون أن الرابطة وحدة إذا حصل أمر يوجب اختلال عن الحال السابق واعتمادنا على الله ثم عليكم».(٧٠)

لعلّنا نستطيع أن نتبينّ من هذه الرسالة البسيطة المعاني الكبيرة في دبلوماسية ابن سعود، فهو لا يهتم بهذه الحرب أو نتائجها إلاّ «لصلاح الأحوال» ذلك برغم

تأكيد مبارك ـ كما يُفهم من الرسالة ـ بغلبة البريطانيين. وكان ابن سعود يدرك تماماً بأن رسالته ستصل إلى البريطانيين وعليه جعلها رسالة مفتوحة لهم بأنه لن يساعد إلّا إذا سُوعد على تحقيق هدفه، ولا يتمنى انتصارهم أو انتصار غيرهم بقدر ما يتمنّى تحقيق أهدافه والحفاظ على مصالحه حيث قال: «نرجو من الله الغلبة لَمن لنا ويّاهم صلاح». كما نجد ابن سعود يحثّ مبارك على الوحدة فهي القوة خاصة مع هذه التقلبات التي تحدث اختلالاً في موازين القوى الدولية. ولعلّه أراد أن يجرّ مبارك إلى معسكره حين أعلمه بأن: «اعتمادنا على الله ثم عليكم»، حيث جعل المصير واحداً، واعتماد نجد على الكويت أمراً لازماً.

ولعلّنا لم نبعد عن الصواب حين قلنا بأن ابن سعود كان على مقربة من الكويت حيث تفيد الأخبار اللاحقة بأنه كان في بعض مناطق بريدة يسعى لتأديب بعض قبائل حرب وشمر الذين اعتدوا على بعض أتباعه.[٧١] كتب مبارك إلى ابن سعود في ٢٥ ذي القعدة هـ/ ١٤ أكتوبر أنه «معلوم عندنا أن الدولة الجرمانية تجتهد هذه الأيام لتحريض الدولة العثمانية على أن يفعلوا أمراً يكون سبباً لتثبيت الحرب بينها وبين الدولة البريطانية وحلفائها. أمّا الدول المذكورة لا تريد الحرب معها خصوصاً الدولة البهيّة التي هي محب لأهل إسلام من أقران. على كل حال أنه قد لزم على الدولة البهية الآن من سبب بعض الأفعال والكلمات الصادرة من الدولة العثمانية أن يجعلوا بعض الاستعدادات العسكرية لحفاظة نفسها ولكنها تريد أن نفهم نحن أهل العرب صريحاً أن الدولة البهية لا تهجم على الدولة العثمانية إلّا بعد هجم الدولة المذكورة عليها»..[٧٢] «فإن الدولة البهيّة تبغي مننا ومنكم المساعدة الكاملة في جهدها لإبقاء الصلح من تأثيرنا في أصدقائنا وعشائرنا والقبائل المتعلقة بنا وأن تعرف شريف مكة وبن شعلان بغواية الدولة الجرمانية حتى لا ينغووا بوعود باطلة بالأنعام ومن سبب الأخبار الكاذبة الآتية من أصحاب الجرمانية في هذه الأيام».[٧٣]

«وإن الدولة البهيّة ترسل لكم كبتان سجسبير المعروف عند العرب جميعهم حتى يعرفكم بمقاصد الدولة البهيّة ونيّاتها والدولة البهيّة تبغي منكم أنت والشيوخ المقيمين على شط البحر أن لا تفعلوا شيئاً من الحركات حتى بعد تشبيت الحرب إلّا

بعد ما صار مقاصد الدولة البهيّة معلومة عندكم بالتفصيل». (٧٤)

يتّفق هذا الخطاب مع ما طلبته الهند سلفاً من مبارك جملة وتفصيلاً. فهل كرّر مبارك خطابه السابق حيث كتب الأول نتيجة لما أملاه الوكيل السياسي البريطاني وكتب الثاني بعد أن وصله المقيم بشخصه؟ أم أن خطابه السابق لابن سعود كان مختلفاً هوناً ما عن ذلك؟ هذا ما لا نعرفه (٧٤ ـ أ) ولكننا نعرف ـ غير واثقين ـ بأن خطاب ابن سعود المؤرخ في ٢٣ ذي القعدة ١٣٣٢هـ/ ١٢ أكتوبر لم يكن قد وصل مبارك بعد، إذ لم ترد له إشارة في هذا الخطاب.

كتب مبارك خطاباً آخر أرفقه بخطابه هذا إلى ابن سعود جاء فيه أن «هل أحرف التي بالورقة نمرة ١ مضمونها جاينا من باليوز بوشهر السابق كرنل كاكس الذي الآن في سملا ناظر خارجية الدولت البهية وهو الرجل المعلوم أولاً أنه محب لنا ولك والآن زمام الأمور بيده وأنت هل الأحرف أقرأها بالدقة التامة وتميّز انشا الله معانيها ومثلما هو ذاكر كل أسباب هذا الحرب هو من حركاة الجرمن واغوا الترك معه الله يذلهم جميعاً وإلّا يا ولدي أفكار الجرمن بيسلط الترك علينا وعليك وعلى جميع العرب وأنت تعرف عداوة الترك للعرب ظاهرة والله سبحانه رحم العرب والإسلام بوجود الدولت البهية الإنكليزية هما الذي محافظين على الإسلام الذي عندهم بالهند ونحن يا إسلام العرب ومنهم أنا وتبعي وأنت وتبعك وعموم العرب ترا حنا الله يسلمك في هيبة الله ثمّ في هيبة الدولة البهية مانعه عنّا وهذا أمر شاهدناه أنا وأنت والعرب جميعهم إنشاء الله يتبعونا يلزمنا أن نحافظ على الصداقة مع الدولت البهية وإذا ساعدناهم لعرض عن التداخل إلّا أن نميل لهم ولا نقبل أن نسمع تفويهاة الجرمن الباطلة ويلزمنا أن نتبع إرادة الدولة البهية باستراحتنا ويلزمنا أن نشكر الدولة البهية لأن يا ولدي الدولة البهية هي غنية عن مساعدتنا لاكن نحن أنا وأنت ماحنا غنيين عنها راحتنا وصلاحنا بالله ثم فيهم والذين غيرهم الله لا يوليه يظرنا وهم الترك الذين مقويهم الجرمن وهذه العباراة الحسنة الذي جاينا من كرنل كاكس هي هم من مراحم الدولة البهية يبينون مقاصدهم الحسنة بنا وبعموم الإسلام ولا لهم رغبة في حرب الترك إلّا إذا الترك يعلنون الحرب ويبين منهم فعل فحين إذن يذهبون الترك ويتولون على الممالك التي للترك ويمكن أن هذي

عقوبة من الله على الترك من سوء نيّاتهم بالعرب فعاد يا ولدي الله يسلمك أنا وأنت يلزمنا أتباع نظر الدولة البهية لأجل صلاحنا وهو الواجب منا». وفي «ملحاق خير وسرور إنشاء الله» يخطر مبارك ابن سعود بأن شكسبير سيصل إلى البحرين في «١٥ من شهر ذا الحج . .» وطلب إليه أن: «يباشره ويجاويه بكلما يطيب خاطره والأمل أن يعود من عندكم مسرور لأن يا ولدي أنا وأنت وربنا واحد على الخير والسرور إنشاء الله راحتنا واطمئناننا باتباع رظاهم».(٧٥)

يكشف خطاب مبارك عن نشاط كبير للدعاية الألمانية في المنطقة وعن خشية البريطانيين من أن تؤثّر الدعاية على الأوضاع العربيـة، كما يكشف عن طمـوح مبارك القديم في قيادة العرب في المنطقة تحت الراية البريطانية، وعن ثقة كبيرة في البريطانيين الذين سيهزمون العثمانيين إذا دخلوا الحـرب ويستولـون على الأرض العثمانية «ويتولّون» عليها.

ردّ عبد العزيز بن سعود على مبارك يخطره بوصول خطابه، وأنه لن يخالف له أمراً: «أن أمري تابع أمركم ومن قبل الدولة البهية تعرف أن غايتنا عندكم وعندها ولا غذينا في أمر إلاّ معرفين صاحبهم الذي بطرفكم بشيء. . . .».(٧٦) ثم يقول ابن سعود لمبارك بأنه قد وصله مثل هذا الإعلام المرسل من مبارك: «وحنا جانا منه كتاب عن طريق البحرين مقابيل خطّه ها الذي جانا منكم على يد قنصل البحرين ورجعنا له جواب لايق وبينا له غايتنا لا من قبلهم ولا من قبل الثانيين وعرفته بموجب عدم استقرارنا في محل معلوم موجب ها الحركة. . إن قدر يكتب لنا شفرة بيننا وبينه حتى نتراجع فيها فإلى بالخاطر يحصل ومعرفينه ما لنا نقدر نخالف نفرهم فإن كان لا بدّ من المواجهة فعرفنا عبدالله يحضر لهم ركايب بالضهران أحسن من القيل والقال حتى نعرف النتيجة. . .».(٧٧)

ولعلّ خطاب ابن سعود هذا يكشف لنا أن غايته هي خدمة مصالحه وتحقيق أهدافه. يؤكّد ابن سعود مرة أخرى «بشكل لائق» أنّه لا يهتمّ لجانب دون آخر إلاّ بقدر اهتمام كل جانب له ولقضاياه. ويكشف لنا هذا الخطاب أن ابن سعود كان أقدر من مبارك في اللعب بورقة صراع القوى العالمية في المنطقة. ويعود هذا في تقديرنا لسببين هما:

أولاً: تأخر ابن سعود زمنياً عن مبارك، ولعلّ ابن سعود قد وجد بهذا فرصة الاستفادة من تجربة مبارك وطوّرها.

ثانياً: اختلاف الظروف الدولية حيث ساقت الأحداث مباركاً إلى معسكر الراج حثيثاً في وقت كانت فيه مفاوضات القوى العالمية حول الكويت تتقدّم وتتعثر، ولم يكن هناك وضع طارئ. ولهذا كانت فرصة الراج في استغلال طموح مبارك فرصة متأنّية فعمل على قيادته في تؤدة. كانت الهند تريد مباركاً سدّاً تحجز به النفوذ الدولي المغاير من بلوغ الخليج والتأثير على النظام التهادني. أمّا ابن سعود فقد أراد جعل النظام التهادني سداً يحول دون وصول العثمانيين إلى مناطقه الساحلية ليتفرّغ لتثبيت دعائم البيت السعودي في البر.(٧٨)

لم يشأ ابن سعود أن يلحق بالمعسكر البريطاني على عجل فهو يدرك أن بريطانيا تحتاج في هذا الوقت إلى صداقته التي رفضتها سابقاً، ولهذا أعتذر عن لقاء المبعوث البريطاني محتجاً بحركته الدائمة في نجد. وأراد ابن سعود أن يكتب له ذلك المبعوث البريطاني بشروطه «حتى نتراجع فيها» ثم يقع الاتّفاق بعد ذلك.

رأى ابن سعود أن يعرف بضاعة المبعوث البريطاني قبل لقائه وذلك حتى يعرف النتيجة: «أحسن من القيل والقال».(٧٩) ولم يمانع ابن سعود من أن يقابل شكسبير إن كان لابد من ذلك، فقد طلب إلى عبدالله بن جلوي أن يجهز لشكسبير ومرافقيه السوائم لتأخذهم إلى معسكره قرب المجمعة.(٨٠)

اتصل العثمانيون في هذه الفترة بابن سعود يطلبون إليه تجهيز قوة للعمل العسكري ضد البريطانيين في تلك المناطق. ورد ابن سعود على أنور باشا الذي خاطبه في هذا الطلب معتذراً بعدم استطاعته تنفيذ هذا الأمر، محتجاً بأن المشاكل المحلية تستنزف كل طاقاته، وتحوذ على ألوية العمل عنده.(٨١)

التقت بهذا مصلحة ابن سعود مع البريطانيين حيث أراد أن ينتهر فرصة الحرب العالمية للعمل على الخروج من ربقة العثمانيين، وتوطيد أركان حكمه، ومد سلطته ـ حال انشغال العثمانيين بأمور أخرى ـ في الجزيرة العربية. وبالطبع كان على العثمانيين أن يتجهوا إلى القوة الأخرى في شبه الجزيرة العربية وهي قوة ابن

رشيد. أفادت أخبار حلب بتاريخ ١٠ ذي الحجة ١٣٣٣هـ/ ٢٩ اكتوبر ١٩١٤م بأن العثمانيين عينوا ابن رشيد قائداً لنجد كلها وطلبوا إليه أن يمدهم بالجنود. وقام أمير جبل شمّر بإرسال قوة كبيرة إلى منطقة الفرات كان أغلب أفرادها من المسنين والأطفال[٨٢]. وحين انحازت الدولة العثمانية في الحرب ضد بريطانيا كتب الكولونيل كوكس إلى ابن سعود في ١٤ ذي الحجة ١٣٣٢هـ/ ٣ نوفمبر ١٩١٤م يخطره بأن «المبدي إلى حضرتكم مع التأسف أخبر جنابكم بتشبيت الحرب بين دولتنا والدولة العثمانية وأن دولتنا قد أرسلت بعض العساكر كثيرة العدد إلى شط العرب من سبب هذا التشبت»[٨٣] وطلبت الرسالة من ابن سعود مهاجمة البصرة أو قطع الإمدادات عنها بالتعاون مع شيخي الكويت والمحمرة، كما طلبت الرسالة إلى ابن سعود العمل على حماية أرواح وأملاك الرعايا البريطانيين. ووعدت الرسالة ابن سعود في مقابل هذا اعترافاً بمشيخته، وحمايته بحراً، والوقوف معه ضد العثمانيين.

رد ابن سعود على هذه الرسالة في ٩ محرم /٢٨ نوفمبر برسالة أخرى لم يلتزم فيها بشيء محدد بل قال: «إن التعاون مع الصديقين المذكورين (مبارك وخزعل) هو أمر واجب علينا كما أن علينا أن نتشاور مع الحكومة البريطانية الصديقة في العمليات المفيدة التي تطلب إلينا القيام بها، وأن نبذل كل جهدنا في دفع الأهداف المشتركة بيننا وبين أصدقائنا قدما وأني أحد الذين يعملون على مساندة الحكومة البريطانية لأنها تعمل على الوصول إلى نتائج مرضية تحقق أهداف الصداقة المشتركة». وتستمر رسالة ابن سعود لتعلن أنه قد قام بدوره سلفاً حين أجلى العثمانيين عن الأحساء. ثم يضغط ابن سعود على التعهدات التي يريد من بريطانيا أن تقوم بها تجاهه لتحقيق أهدافه والتي وردت في الرسالة المعنية. يقول ابن سعود في هذه الرسالة: «أما فيما يخص الأمور الثلاثة التي ذكرتموها وهي: وعد الحكومة البريطانية بحمايتنا من العثمانيين، ووعدها أيضاً بالحماية من أي هجوم أو اعتداء بحري، والإعتراف بمشيختي المستقلة على كل مناطق نجد والأحساء والقطيف، وعقد الإتفاق معنا فيضمن هذه الأمور فإن ذلك يعتمد تحقيقه على المفاوضات التي ستجري حال وصولنا إلى الكويت التي سأغادر إليها فوراً».[٨٤] ولعلنا لا نبالغ إن

قلنا أن ابن سعود قد تشرب تماماً السياسة البريطانية التي عايشها سابقاً واعمل في البريطانيين نفس السلاح حين أراد الحصول على كل شيء دون التنازل عن شيء أبداً. فهو لم يشترك في الجهد الحربي البريطاني، ولم يهاجم البصرة، ولم يشر إلى هذا الموضوع أبداً إلا إشارة عابرة لا تحمل معنى محدداً حين قال بأن التعاون مع مبارك وخزعل هو أمر واجب.

لم يقطع ابن سعود حتى هذه اللحظة علاقته بالعثمانيين تماماً، ولم يدخل في المعسكر البريطاني تماماً. جاءت التقارير في هذا الوقت التي حملها من الرياض راكان بن مكراد (Mokrad) أن ابن سعود ربما ألقى بثقله في كفة العثمانيين بالرغم من أنهم قد يئسوا منه أخيراً ولم يطلبوا إليه ذلك.[٨٥] ولم ينكر عبدالله القصيبي، وكيل ابن سعود في البحرين، حين سئل عن هذه الأخبار بل أكدها. وأشار القصيبي في هذا الصدد إلى خطاب ارسله له ابن سعود بنفس المعنى، وأكد القصيبي أن السيد طالب النقيب حالياً في معسكر ابن سعود. فهل نستطيع أن نحمل هذا الأمر على ظاهره أم نجنح إلى القول بأنها كانت إشاعة أطلقتها سياسة ابن سعود لكي تقول للسلطات البريطانية أن كل شيء محتمل، وأن عليها أن تبذل ما تستطيع حتى تحتفظ به بعيداً عن المعسكر العثماني.

ابن سعود وشكسبير.. بداية المفاوضات الصعبة

أرسل شكسبير في ١١ محرم ١٣٣٣هـ/ ١٩ نوفمبر ١٩١٤م خطاباً إلى عبد العزيز ابن سعود يعلمه بوصوله إلى الكويت، ويطلب إليه تحديد موعد ومكان اللقاء لبدء المفاوضات المقترحة، ويحذره من التعامل مع طالب النقيب «المتآمر» الذي حلّ بمعسكره. مارس ابن سعود نفس اللعبة التي مارسها معه البريطانيون سالفاً لسنوات عدة وهي أن تبقى حبال الصداقة ممدودة دون الإلتزام بشيء محدد. جاء في خطاب ابن سعود بتاريخ ٩ المحرم ١٣٣٣هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٩١٤م بخصوص تحديد مكان اللقاء وموعده: «إن طريقنا سيكون في المنطقة بين أم الجماجم إلى الحفر، ولا أستطيع أن أحدد لكم الآن موعداً محدداً لهذا اللقاء لأن الأحوال في المنطقة تحول دون ذلك. وسنبلغكم بالموعد لاحقاً حيث ستصلكم

رسالتنا في الكويت أو في الطريق حين تتحركون الينا». [٨٦] وتدل هذه الفقرة على أن ابن سعود لم يكن يسعى في هذه الفترة إلى البريطانيين سعيهم لـه إنما كـان يتحرك في هذا الطريق ببطء متروياً يراقب الأحداث. أما فيما يخص السيد طالب فقد شجب ابن سعود صراحة عنه تهمة «التآمر» ضد البريطانيين: «ليس هذا بصحيح، وحين نلتقي سنبلغكم بالحقيقة التي هي عكس ما تعتقدون». وتعكس هذه الرسالة هدف ابن سعود من المفاوضات المقبلة مع بريطانيا حيث جاء فيها: «أني امرؤ لا أسعى إلا لتحسين أحوالي، وخدمة ديني، والحفاظ على شرفي. وأرغب ـ والحالة هذه ـ أن أظل بعيداً عن كل نزاع». [٨٧] وقد سنّ ابن سعود بهذا سنة الحياد في سياسة الجزيرة العربية حين أعلن زهده في صراع العثمانيين أو أية قوة أخرى، فأمر الحرب العالمية لا يعنيه في شيء إلا «في خدمة أهدافه ودينه ومبادئه». وتستمر رسالة ابن سعود لتعبر عن نهج فريد في السياسة العربية حين ينهي إلى شكسبير في هذه الرسالة أيضاً: «أنه في فترات الإضطرابات قد نجد بعض الصعوبات في التعامل مع زملائنا الحكام العرب إذا لم نلتزم بالنهج الذي يريدونه أو نتبع الطريق الذي يطلبون منا السير فيه. وأني شخصياً لا أملك إلا أن أضحي بحياتي وبمالي في سبيل تحقيق رغباتهم مهما كانت الظروف. وأملي في الله ثم في الحكومة البهية كبير لتحقيق تنظيم أموري بما يكفل لي خدمة ديني والحفاظ على شرفي. وعندما نجتمع ـ إن شاء الله ـ سنتفاوض بشكل أشمل وأدق فيما يحقق رغبات الطرفين. وإن شاء الله سنتفق لما فيه خير الدين والدنيا». [٨٨]

ويأتي خطاب آخر من ابن سعود بتاريخ ١٧ محرم ١٣٣٣هـ/ ٥ ديسمبر ١٩١٤م إلى كوكس يخطره بوجود السيد طالب النقيب معه في معكسره في بريدة، وأنه وطالب لازالا يتمسكان بعلاقاتهما القديمة مع بريطانيا». لن يتغير مسلكنا معكم إلا أن تبدر منكم بوادر تضر بديننا أو بالعرب، ولكننا نجد، حتى الآن، أنكم الأفضل لخدمة أهداف العرب، ونأمل أن نلقى منكم كل خير». [٨٩] ويبدي ابن سعود اغتباطه لما ورد في الأخبار من المعاملة الطيبة التي لقيها سكان البصرة بعد سقوطها للبريطانيين. وينتهي الخطاب بتوصية من ابن سعود على أن يعامل البريطانيون العرب، خاصة النجديين وأصدقاءه الآخرين، معاملة طيبة. ويصل

هذا الخطاب إلى كوكس في القرنة فيرد على ابن سعود في ٢٩ محرم/ ١٧ ديسمبر يخطره بسير العمليات الحربية البريطانية، وما كان من احتلال البريطانيين للبصرة ثم القرنة، وبالغنائم التي استولوا عليها من القوات العثمانية، ويخطره بأنهم قد وضحوا «لأهل البصرة وأهل القرنة بأننا لا نحاربهم إنما نحارب الحكومة التركية التي ما كانت الحكومة البريطانية لتسعى لحربها لولا أنها قامت، مدفوعة بألمانيا، بأعمال عدائية لم تجد الحكومة البريطانية بداً من ردها. ولم يكن لنا سبيل آخر سوى محاربتها». ويشرح كوكس لابن سعود أهداف الحكومة البريطانية حين يقول: «إننا نرغب في صداقة السكان المحليين، ونتمنى أن يعيش هؤلاء في سلام تحت ظل العلم البريطاني، وأن تسود الحرية والعدالة كل شؤونهم «الدينية منها والدنيوية».(٩٠) ويستطرد كوكس ليهدىء من مخاوف ابن سعود في التعامل مع قوة نصرانية حيث يقول: «أرجو أن لا يساوركم أدنى خوف بالنسبة للأمور المتصلة بالدين. ولا يخفى عليكم بأن للحكومة البريطانية أعداداً من الرعايا المسلمين تفوق أية أعداد منهم تحت حكم أية حكومة أخرى. وأرجو في هذا الصدد أن أرفق لكم اعلاننا الذي تعهدنا فيه بصفة قاطعة باحترام الأماكن المقدسة، والمحافظة عليها، وكذلك المحافظة على كل المزارات في الحجاز، وفي منطقة ما بين النهرين». وينتهي خطاب كوكس إلى القول بأن الأرض التابعة لابن سعود ستزدهر لأنها ستصبح حرة، ولن يكون هناك تدخل من العثمانيين مرة أخرى: «ذلك التدخل والإزعاج الذي عانيتم منه كثيراً حتى الآن». ويطلب كوكس في نهاية الرسالة إلى ابن سعود أن ينصح طالباً بعدم الرجوع إلى البصرة «حتى يُنظر في شأنه»(٩١)

كان اهتمام ابن سعود بالسيد طالب كبيراً وراح يدافع عنه عند كوكس. أرسل ابن سعود لكوكس الحاج سليمان فيضي ليشرح له آراء طالب وليطلب إليه السماح برجوع طالب إلى البصرة التي سقطت للبريطانيين. وجاء في رسالة ابن سعود هذه: «أوصيكم خيراً بالسيد طالب لأن حسن معاملته سيسعد الرأي العام العربي والمسلم لما لهذا الرجل من مكانة دينية وسياسية في مجتمعه». وحمل الحاج فيضي معه رسالة من السيد طالب يشجب فيها كل كفاحه من أجل العثمانيين. جاء في رسالة طالب: «حين طالبت قبل سنتين في البصرة بالإصلاح اعتقد الحاكم

التركي أني أمالىء حكومتكم واتهمني بذلك. ومنذ ذلك التاريخ ما عاد الأتراك يثقون فيّ، ولهذا هربت خشية على حياتي. لقد كنت دائم الاتصال بحكومتكم عن طريق السيد خزعل خان، وقنصل المحمرة، وقنصل البصرة، وذلك في فترة ما قبل الحرب. وأرجو أن أذكّر بأن اتصالاتي بالحكومة البريطانية قديمة تعود إلى أيام وجود اللورد كتشنر في مصر». ويستطرد طالب إلى القول إلى أنه: «حين قيام الحرب ازدادت أعداد القوات التركية. وحين اشتدت الحرب طلبوا إليَّ أن أجمع القبائل لقتالكم. واضطررت أن أقوم بأشياء ضد حكومتكم ما كنت لأفعلها. طلبوا مني توقيع بعض البرقيات التي كانوا يرسلونها إلى المناطق، ولم يكن من الممكن أن أرفض لهم طلباً». وزاد طالب بأن قال إنه إذا رفض التعامل مع العثمانيين على النهج الذي يريدونه «فإن حياتي وحياة أبنائي وكل أسرتي وممتلكاتي ستكون في خطر » ويقول طالب إنه هرب من البصرة بعد أن خدع مفتش الشؤون الحربية وأقنعه بوجوب ذهابه إلى ابن سعود لكي يقنعه بدخول الحرب إلى جانب العثمانيين فسمح له بذلك. ويدّعي طالب أنه نصح حمود المير جابر رئيس لجنة البلدية في البصرة بوجوب عدم محاربة البريطانيين. ثم يتحدث طالب عن اتصالاته اللاحقة مع وكيل الكويت السياسي البريطاني، ونصيحة الأخير له بأن يبرىء نفسه بأن يلحق بالقوات البريطانية ويتصل بها. ويذكر طالب بأنه قد دفع هذا الرأي بأن العثمانيين سيقتلون حينذاك كل أسرته ويستولون على كل ممتلكاته. ويقول طالب إنه قد أعطى الوكيل وعداً «شرفاً» بأنه لن يعمل ضد الحكومة البريطانية «لا في الحاضر ولا في المستقبل». «وأفهمته بأن خروجي لابن سعود لا يزيد عن كونه فراراً بجلدي للنجاة من طغيان الأتراك، وليس كما يظن هؤلاء الأتراك من أني سأعمل على دفع ابن سعود لحربكم. . .».[٩٢] وتنتهي رسالة طالب إلى كوكس إلى القول بأنه حين كان في البصرة كان يحسن معاملة الرعايا البريطانيين هناك، والنصارى والبعثة التنصيرية بصفة خاصة، «ويشهد على ذلك كرو، القنصل البريطاني السابق، ويعرف بأني معكم جسداً وروحاً». ولم يجد هذا التزلف حيث رد كوكس على طالب في رسالة بتاريخ ٤ صفر ١٣٣٣هـ/ ٢٣ ديسمبر ١٩١٤م بأنه سيناقش أمره حين «يجتمع بابن سعود قريباً». كما أرسل كوكس لابن سعود

رسالة تحمل هذا المعنى. ويبدو أن كوكس قد لاحظ حماس ابن سعود للدفاع عن طالب فأراد أن يستغل هذا عنصراً من عناصر الضغط في المفاوضات اللاحقة.

خرج شكسبير من الكويت في المحرم ١٣٣٣هـ/ ١٢ ديسمبر متجهاً إلى معسكر عبد العزيز بن سعود. ولم يتمكن عبد العزيز من المجيء إلى مجاورة الكويت كما كان متوقعاً. وقد اعتذر عبد العزيز عن ذلك بأن المنطقة عند حدود الكويت مجدبة، وبأن معه عدداً كبيراً من الجمال التي يجب أن تظل قوية في مراعيها. ولم يصل شكسبير إلى معسكر عبد العزيز في الخفس إلا في يوم ١٢ صفر /٣١ ديسمبر بعد أن قطع رحلة طولها ٣٣٠ ميلاً[٩٣].

يبدأ تقرير شكسبير المؤرخ في ١٦ صفر ١٣٣٣هـ/ ٤ يناير ١٩١٥م عن رحلته إلى ابن سعود بالنظر في الوضع السياسي العام في المنطقة. يقول شكسبير «أشعر بأن الرأي العام في هذا المعسكر متعاطف مع بريطانيا معادٍ لألمانيا، وكذلك تركيا التي شعروا بأنهم قد تخلصوا أخيراً من اعتداءاتها المتكررة على نجد». ويرى شكسبير بأنه لا توجد أية علامات تدل على روح عدائية تجاه بريطانيا بعد أن استقبل الأمير وأفراد حاشيته إعلان بريطانيا وتعهدها بحماية الأراضي المقدسة استقبالاً حسناً: «وقد عرفت أن عبد العزيز قد طلب إلى أحد جلسائه أن يقرأ هذا الأعلان في جمع من أعيان بريدة كانوا معه حين وصول الاعلان إليه». وانتقد عبد العزيز دعوة تركيا للجهاد في الوقت الذي تتحالف فيه مع قوة نصرانية أخرى. ويفيد التقرير أن ابن سعود قد قبض على أربعة علماء في بريدة كانوا يسكنون بغداد وكربلاء ثم جاءوا إلى المنطقة للحض على الجهاد حين دفعهم العثمانيون إلى ذلك، ينظر التقرير بعدئذ في علاقة ابن سعود بالعثمانيين في ذلك الوقت فيقول بأن ابن سعود قد استلم، شأنه شأن الآخرين من الزعماء، طلبات متكررة من الباب العالي تدعوه إلى اعلان الجهاد ضد البريطانيين، وتكل له أمر حماية البصرة والدفاع عنها. ويرى التقرير بأن دور ابن رشيد المرسوم له حالياً من العثمانيين يقضي بأن يقود حشوداً من الرولة والحويطات وبني شاكر والشرارات، ومجموعة أخرى من القبائل التي تسكن قرب خط حديد الحجاز، ليزحف بهم تجاه شبه جزيرة سيناء ومصر، فيما يقوم شريف مكة والإمام يحيى والأدريسي بتأمين سواحل البحر الأحمر،

والدفاع عن الأماكن المقدسة وحماية موانىء الحجاز واليمن. ويرد شكسبير فشل دعوة الجهاد التي اطلقها العثمانيون إلى أنهم كانوا في فترة الخمس سنوات الأخيرة يثيرون الأحقاد بين القبائل، ويشجعون الأحن والثارات في أرض الجزيرة العربية، وعلى هذا لم يكن من الممكن لهم تجميع قبائل عملوا على تفريقها لكي تقوم بتحقيق هدفٍ مشتركٍ، فذلك لن يتم إلا بعد تسوية نزاعاتها وثاراتها. ويضيف شكسبير بأن بعض الشيوخ الذين استطاعوا أن يتشاوروا فيما بينهم بصدد هذه الحرب قرروا البقاء على الحياد حتى يتبينوا مصير الدولة العثمانية.[٩٤] ويفيد شكسبير بأن ابن سعود وشريف مكة وشيخ عنزة قد قرروا توحيد أمرهم تجاه هدف واحد يقررونه بالتشاور حين تنجلي الأحداث. «كما أن شيخ عنزة قد وعد بدوره ابن سعود بنصره والتعاون معه.» وأشار شكسبير بأن ابن سعود قد اعتذر للعثمانيين بعدم استطاعته التحرك لحماية منطقة ما بين النهرين لأن مشاكله الداخلية تتفاقم يوماً بعد يوم حيث ساءت علاقته منذ الصيف الماضي بابن رشيد، ولهذا فهو لن يستطيع أن يسير إلى الحرب ويترك نجد دون حماية ليقع عليها الآخرون. وأشار ابن سعود للعثمانيين بأنه يمكن أن ينظر في تحركه إلى منطقة العراق إذا تحرك ابن رشيد أولاً في اتجاه مصر. ويذكر شكسبير أن ابن سعود يريد أن ينتهز هذه الفرصة للتخلص نهائياً من ابن رشيد، وأنه يقدر أن ينتهي من هذه المهمة في خلال شهر واحد. ويرى شكسبير بأن ابن رشيد ضعيف حالياً حيث يعاني من نزاعات وقعت بين قبائله ثم يشير التقرير بعد هذا إلى قوة ابن سعود الذي يحشد الآن جيشاً قوامه ٣٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ محارب، ويستطيع أن يضيف لهؤلاء فوراً قوة من مطير والعجمان تضاف إليها قوة قوامها ٣٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ سيعمل على تجميعها في غضون الأيام القادمة.[٩٥]

ويستطرد التقرير بعد هذا فينظر في العلاقات السعودية البريطانية والسعودية الكويتية، ويشير إلى عدم ثقة عبد العزيز في مبارك حيث يعمل على تضليله في الشؤون السياسية. كان مبارك يحسِّن له العلاقة مع بريطانيا في الوقت الذي عرف عبد العزيز فيه تماماً بأن الحكومة البريطانية لن تساند مجهوداته بعد أن وصلت إلى اتفاق مع الباب العالي، وأن تعاملها معه يشكل خطورة على مصالحها. كما عرف

عبد العزيز أيضاً بأن الدولة العثمانية قد رفضت عرضاً بريطانياً للتوسط بينه وبين تلك الدولة. ويقول عبد العزيز بأنه أراد، والحال هذه، أن يصل إلى وفاق مع الدولة العثمانية يكون مبارك طرفاً فيه. وأفاد ابن سعود بأنه حين تحرك للقاء المبعوثين العثمانيين اذهله جداً أن تصله رسالة من مبارك ينصحه فيها بالتراجع وعدم التعامل مع العثمانيين، ويخطره بأنه لن يشهد اللقاء. ولهذا طلب عبد العزيز إلى الفريق العثماني المفاوض برئاسة طالب النقيب أن تظل هذه المفاوضات سراً عن مبارك. وهكذا دخل عبد العزيز في إتفاق أفهمه المبعوثون العثمانيون أنه من أجل حفظ ماء وجه الباب العالي الذي لن يصر على اعمال تلك الشروط.(٩٦)

ويتحرى التقرير بعد هذا في شخصية عبد العزيز فيقول: «تحرك عبد العزيز وطنية صادقة، وولاء لوطنه، وتقديس عميق مؤصل لدينه، ورغبة أكيدة لا يخامرها ظل شك أبداً في العمل على خدمة مواطنيه والوصول بهم إلى السلم والأمن. ثم يتحدث التقرير بعدئذ عن وضعه فيقول: «إنه في مركب صعب فهو يثق في البريطانيين أكثر من ثقته في أية دولة أخرى، ويريد أن يقيم معهم علاقات صداقة، وعلى هذا فهو يراوغ الأتراك ولا يعمل لخدمة أهدافهم على ما في ذلك من مخاطر». ويستطرد التقرير فيحدِّث عما جرى في المفاوضات الراهنة حيث يرى عبد العزيز بأن الوعود التي قدمتها بريطانيا له «هي في حقيقتها غامضة غير محددة، ولا يعرف عما إذا كانت هذه الوعود البريطانية تسري على فترة الحرب فقط أم تتجاوزها». وأشار ابن سعود إلى أن مناطقه تحدها من الغرب والشمال مناطق موالية للعثمانيين تستطيع أن تجتمع عليه، ولا يستطيع أن يتغلب عليها بمفرده. فهل ستشمل التعهدات البريطانية حمايته والدفاع عنه في هذا الصدد كذلك؟. وأشار عبد العزيز بأن الأمر أكبر من أن يعالج على عجل لأنه يستلزم الحذر حيث يمكن أن يعرض الخطأ أرضه لغضبة العثمانيين. وانتهى شكسبير إلى القول بأن عبد العزيز لن يرضى بالتعامل مع البريطانيين إلا بعد توقيع اتفاق يحدد الإلتزامات للطرفين. «وعليه ولكي أعرف ما يدور بخلده، طلبت إليه أن يصيغ الشروط التي يرضاها والإلتزامات التي يقبلها، وقد وافق على ذلك. أرسل لكم مع هذا النسخة العربية (التي كتبها عبد العزيز) ومعها ترجمة ابتدائية. ويعرف ابن سعود بأن

الشروط التي وضعها قابلة للنقاش وللمفاوضة والحذف والإضافة والتعديل. ولكن على الحكومة حين تفكر في تعديل هذه الشروط أن تضع في اعتبارها أن ابن سعود لن يتزحزح عن موقفه الحيادي أبداً، وأنه قد يتصل بالأتراك الذين يضعهم بديلاً ثانياً». ويخبرنا تقرير شكسبير أيضاً بأن عبد العزيز «لن يجعل الأمور أكثر سهولة لنا، أو أكثر صعوبة للأتراك ـ على الأقل فيما يخص الحرب الراهنة ـ إلا بعد أن يحصل من بريطانيا على اتفاق محدد ينص على ضمان بريطاني جاد لوضعه وموقف بريطانيا منه خاصة فيما يخص مسألته مع تركيا. وإذا ظفر الأمير بهذا الإتفاق فإنه لن يمانع في أن يضع كل نفوذه الكبير في الجزيرة العربية، وكل مصادره الأخرى في كفتنا حيث أنه لن يتعامل مع أية قوة خارجية إلا بعد الاتصال بنا». وأفاد التقرير بأن عبد العزيز، بالرغم من أنه لا يريد التعامل مع العثمانيين، «إلا أنه إذا لم يجد التعاون من البريطانيين، فإنه سيحدث مع العثمانيين سلماً يبرهن به على صداقته لهم لأنه لايجد شيئاً وسطاً». ويؤكد شكسبير على ضرورة التعامل مع عبد العزيز: «لأن حجم مسؤولياتنا تجاهه لا يبدو ثقيلاً»، ويشير شكسبير إلى أن الأمر ابن سعود لا يتطلع إلى الخلافة فهو «كوهابي» يعترف بالخلفاء الراشدين فقط ولا يعترف بسواهم «؟» وأضاف المبعوث البريطاني بأن ثقة العرب في الخلافة قد اهتزت نتيجة للحوادث الجارية في الدولة العثمانية التي سارت إلى نهاياتها حتى اقتلعت السلطان عبد الحميد. ويرى شكسبير بأن الثورات ربما تأتي بأنور باشا خليفة، وأن الخلافة ستخرج بعدئذ من العنصر التركي لتستقر عند الأسرة الشريفية في مكة المكرمة، وأن الخليفة الذي سيأتي من أسرة الأشراف سيلقى من ابن سعود المساندة والدعم. وانتهى التقرير بنقل رغبة ابن سعود بأن لا تناقش الأمور الخاصة بهذه المفاوضات مع مبارك لأنه لا يثق فيه[٩٧].

تبلور اتفاق دارين

كتب ابن سعود مسودة الاتفاق الذي يسعى إلى أن يدخل فيه مع بريطانيا على النحو التالي:[٩٨]

١ ـ أن تعترف الحكومة البريطانية وتقر بأن نجداً، والأحساء، والقطيف،

وملحقاتها، والموانىء التابعة لسواحل هذه المناطق في الخليج، ملحقة به، كما كانت لآبائه وأجداده من قبل، وأنه حاكمها المستقل، وسيرث أبناؤه ومن يجيء من أصلابهم بعد ذلك حكمها المستقل. «وأن هذه المناطق المذكورة هي مناطق مستقلة تماماً ليس لأية دولة أجنبية الحق في التدخل في شؤونها».

٢ ـ يعترف الإنكليز بحدود هذه المناطق، شمالاً، وجنوباً، وشرقاً، وغرباً، وبراً، وبحراً. أما فيما يخص المشاكل التي يحدثها البدو المتجولون بتحركاتهم وراء هذه الحدود، أو المشاكل التي يمكن أن تنشأ بين هذه المنطقة المحددة والمناطق الأخرى التي تحكمها بريطانيا حكماً مباشراً أو تدخل تحت الحكومة البريطانية فيمكن النظر فيها وحلها بحسب تبعية هذه المناطق للآباء والأجداد وأسلافهم.

٣ ـ أن تستمر الشريعة المحمدية، وهدى مذهب الامام أحمد بن حنبل (السلفي)، القانون السائد في المناطق التي يحكمها، وأن يخضع لهذا القانون وللعرف الجاري كل اتباعه وغيرهم من المتواجدين في حدود أرضه «فنحن دون هذا الدين لا حول لنا ولا طول ولن نستطيع أن نتجاوز حدوده.»

٤ ـ «أن لا يكون لأي أجنبي، بأي شكل كان، الحق في قبضة تراب من أراضينا التي ستحدد حدودها، وألا يحوز شيئاً منها، ولا حتى عن طريق التبادل، ما لم يتم الرجوع إلينا، والحصول على إذن منا».

٥ ـ تعترف بريطانيا بالبنود الواردة أعلاه وتصدر اعلاناً يتضمن تعهداً بحماية كل الأراضي التابعة لابن سعود من كل طغيان أو أي اعتداء يقع عليها براً أو بحراً من قبل أية قوة دولية مهما كانت.

٦ ـ أن تصدر بريطانيا اعلاناً بأنها لن تشجع ولن تسمح بأية محاولة من الحضر والبدو والمقيمين في المناطق التابعة له أو الذين يخرجون من هذه المناطق للتآمر ضده.

٧ ـ أن تحترم بريطانيا اتباع عبد العزيز، وتحمي حقوقهم، وتسبغ عليهم نفس

المعاملة التي تعامل بها مواطنيها ورعاياها، وذلك حين يخرج اتباع عبد العزيز للسكنى في الأراضي البريطانية أو التابعة لها.

٨ ـ إذا قبلت بريطانيا بالبنود السابقة، فإن عبد العزيز يقر بألّا يتعامل مع أية قوة أخرى، وألّا يعطي حقوق امتيازات في أرضه إلا بعد الرجوع إلى بريطانيا.

٩ ـ يتعهد عبد العزيز كذلك بحماية التجارة في كل المناطق التابعة له، وأن يشمل التجار من البريطانيين ورعاياهم بنفس الرعاية التي يجدها اتباعه. وعلى الحكومة البريطانية أن تعامل اتباعه بالمثل في أراضيها، والأراضي التابعة لها.

١٠ ـ يتعهد عبد العزيز بحفظ السواحل والموانىء الراجعة إلى حكومته وبعدم الإعتداء على الرعايا البريطانيين في تلك المناطق أو التدخل في شؤون الشيوخ المحميين الداخلين في حماية الدولة البريطانية.

١١ ـ يتعهد عبد العزيز بمنع تجارة السلاح والذخيرة في كل الموانىء التابعة لحكومته على اطلاقها بشرط أن تمده الحكومة البريطانية باحتياجاته من الذخيرة والسلاح.

كانت هذه هي الشروط التي أراد عبد العزيز الدخول فيها مع البريطانيين. ونلاحظ فيها حرصاً تاماً على الاستقلال حيث اشترط أن لا تتدخل أية قوة أخرى بالتحكم في قبضة تراب من ممتلكاته، وأصر على أن تحكم أرضه شريعة محمد. أما مسألة العلاقات الخارجية التي وافق على التنازل عنها لبريطانيا فإن ذلك لا يعدو بالنسبة لعبد العزيز عن كونه إثبات واقع. فالقوتان في المنطقة هما العثمانية والبريطانية فإذا هُزمت القوة العثمانية فإن عبد العزيز لن يجد في المنطقة، على تلك الأيام، قوة يتعامل معها سوى قوة بريطانيا.

لم ينس عبد العزيز في زخم هذه الأحداث أن يكتب في ١٥ صفر ١٣٣٣هـ/ ١٣ يناير ١٩١٥م إلى كوكس بخصوص طالب وأنه قد وصل إلى اتفاق مع شكسبير كي يرحل طالب إلى الجهرة ويبقى فيها حتى حضور كوكس لينظر في أمره: «وعليه بعد مقابلته بأسرع فرصة ممكنة وأن تشمله بعطفك».

يبعث كوكس في ٦ يناير ١٩١٥م بتقرير شكسبير إلى حكومة دلهي، ويقدّم ملخصاً وافياً له مع معلومات إضافية أخرى منها أن ابن رشيد قد أصبح في موقف ضعيف رغم وجود أربعة من الضباط العثمانيين في معسكره. وفي ١ ربيع الأول ١٣٣٣هـ/ ١٦ يناير يكتب كوكس مرة أخرى إلى الهند ليقرّر أن كل ما يسعى إليه الأمير عبد العزيز هو ضمان حصانة أرضه من هجوم العثمانيين عليها. ويرفق كوكس بهذا الخطاب البنود التي صاغها ابن سعود للوصول إلى تفاهم مع البريطانيين. وخاطب كوكس في ١٧ يناير دلهي بالشروط التي يراها للوصول إلى اتّفاق مع ابن سعود، جاء فيها:

أوّلاً: أن يستضيف ابن سعود مندوباً بريطانياً في عاصمته أو في ميناء من موانئه أو في كلا المنطقتين.

ثانياً: أن يوافق على تواجد الرعايا البريطانيين من غير المسلمين.

ثالثاً: أن يبتعد عن كل تدخّل في شؤون الشيوخ المهادنين.

رابعاً: ألّا يدخل في أية حرب في البحر دون موافقة بريطانيا وأن يتعاون مع السلطات البريطانية في ضرب القرصنة هناك.

خامساً: أن يحمي طريق الحج الذي يمر عبر أرضه.

سادساً: أن تكون الجمارك التي يفرضها مقبولة وأن تكون رسومها معادلة للرسوم المفروضة في الكويت والبحرين.

سابعاً: أن يسمح للسفن البريطانية التجارية بزيارة موانئه والاتّجار فيها.

ثامناً: أن يسمح للبريطانيين بإقامة مكتب بريد في مينائه، وربما مكتب برق حين يحين الوقت لذلك.[(٩٩)]

ويدافع كوكس من جانبه أيضاً عن أن ما يطلبه ابن سعود من حماية لا يشكّل عبئاً ثقيلاً على بريطانيا، ويعبّر عن اعتقاده بأن وسط الجزيرة لا يمكن لأية قوة أخرى بلوغه برّاً. «وأعتقد أنّنا لن نخاطر كثيراً حين نصدر التعهّد المطلوب وذلك بشرط ألّا يكون لابن سعود يد في القيام بالاعتداء». وأشار كوكس إلى أن حلفاء بريطانيا لن يعارضوا هذا الأمر «لأن وزن ابن سعود سيخدم قضيّتنا جميعاً». ولاحظ كوكس أن ابن سعود غير شغوف بعقد هذا الاتفاق على وجه السرعة

بحجة أن هذا الأمر يتطلّب «أخذاً وردّاً». كما لاحظ كوكس بأن موقف العثمانيين في المنطقة قد غدا ضعيفاً ولهذا لا يتوقّع أن يقوم ابن سعود بعمل ما نيابة عنهم ليستعدي به الحكومة البريطانية التي أصبحت مقاليد الأمور بأيديها، فهو يعرف تماماً أن ثبات موقفه أمام الحكومة البريطانية هو أمر مهم لحماية مصالحه مستقبلاً.[(١٠٠)]

الضائقة المالية وإشاعات الدعم المالي من بريطانيا

لم يقدّم البريطانيون حتى هذه اللحظة أية مساعدة، مهما كانت طفيفة، لابن سعود. ونجد أول إشارة من كوكس بخصوص هذا الموضوع في خطاب له إلى دلهي بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٣٣٣هـ/ ٢٣ يناير ١٩١٥م جاء فيه: «إنّ ابن سعود إذا وافق على تجميع قوات قبائله ومعاونتنا في زحفنا فيمكن أن يصرف له ١٥،٠٠٠ استرليني لتغطية نفقات جيشه». ولم يوافق ابن سعود على ذلك ولم يصرف له المبلغ.

كان ابن سعود يعدّ العدة لحرب ابن رشيد. وقد وصل إلى كوكس تقرير من شكسبير يقول بأن لابن سعود جيشاً من الحضر قوامه ٦٠٠٠ فرد يعاونه حشد كبير من بدو وعجمان، ومطير، بينما لا تزيد قوة ابن رشيد عن ٧٠٠ فرد من الحضر بالإضافة إلى قوة كبيرة من بدو وقبائل شمر. وتنبّأ شكسبير بانتصار ابن سعود في المعركة المقبلة.[(١٠٢)]

وقعت معركة جراب بين ابن سعود وابن رشيد في ربيع أول ١٣٣٣هـ/ يناير ١٩١٥م وقد جاء عند ابن سعود أنه أوقع هزيمة كبرى بخصمه. أمّا التقارير البريطانية فتعتقد بأن الخسائر كانت عظيمة في كلا الجانبين. تراجع ابن سعود إلى بريدة، وابن رشيد إلى حائل. وتشير هذه التقارير بأن كلا الرجلين منهك، وربّما لا يستطيع أي منهما أن ينازل الآخر إلّا بعد مضي فترة طويلة.[(١٠٣)]

هلك شكسبير المرافق لابن سعود في معركة جراب هذه، ولم يكن الرجل مشتركاً في المعركة ولا متسلّحاً بسلاح. وقد نعى ابن سعود إلى البريطانيين رجلهم

وأخطرهم بأن طلقة شمرية أصابته فأردته إلى الهلاك. وتؤكد المعلومات البريطانية أن شكسبير لم يقتل، إنّما أصيب في رجله أولاً ثم أُسِر. وأرسل ابن سعود يطلب إلى البريطانيين إرسال مفاوض آخر لإتمام الاتفاق، وطلب في حالة تعذّر هذا الأمر، أن تستمرّ المفاوضات عن طريق عبدالله منديل، وكيله في البصرة. كما طلب ابن سعود كذلك عدم زج مبارك في هذا الأمر أبداً.(١٠٤)

طلب ابن سعود إلى نوابه في الأحساء أن يعلنوا نصره في جراب على خصمه. ولم يجد ذلك الإعلان رواجاً حيث نجد الرأي العام في البحرين يميل إلى تصديق الأخبار التي وردته من الكويت بأن المعركة كانت متكافئة.(١٠٥) ويبدو أن الأمور قد وصلت بين مبارك وابن سعود في هذه الفترة إلى طريق مسدود، وسارت الإشاعات بأن ابن سعود راح يحرّض ضيدان، من شيوخ العجمان، لتنظيم هجوم على بعض التابعين لمبارك. وبدأ مبارك بذلك اتّصالاً مع ابن رشيد عارضاً صداقته.(١٠٦) وفي جمادى الآخرة ١٣٣٣هـ/ مايو ١٩١٥م قامت مجموعة من عرب شمّر بالهجوم على بعض القبائل الموالية للكويت وأخذت منهم ٤٠٠ جمل كما استولت على بعض ممتلكات لأهل شقرا. كتب مبارك لابن رشيد يطالبه باسم الصداقة بينهما ردّ هذه المنهوبات وردّ سعود بن رشيد على مبارك في ٣٠ رجب ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م بما يلي: «الخط الذي مع رجالكم سيف وصل وما ذكرتو كان معلوم خصوص من طرف الآباء والنقايص الذي خذوا الشهامره تعجبنا من ذلك في هذا الوقت ليس لها مدخال ثم تعلم أنا حنا نتبع حكومتنا السنية في انتظار أوامرها السامية في كل خصوص ما لنا تداخل في الأمور المناقضة لمصالح دولتنا العلية وتذكر من طرق الصداقة السابقة فأنتم ما جريتو على مقتضاها صديق الوجه عدو السرائر العاقل خصيم نفسه ومواد المحبة تفهمونها هذا ما لزم منا والسلام على العيال».(١٠٧)

ردّ ابن رشيد يد مبارك الممدودة له بالصداقة، ورفض أن يرد ما غنمه رجاله لأن هذا من أعمال الحرب القائمة. وعلى هذا لم يجد ابن الصباح غير ابن سعود نصيراً فانحاز له مرة أخرى.

كان ابن سعود في هذا الوقت يعاني من ويلات الحرب التي لم يدخلها حيث لم تصله إعانات من العثمانيين ولا من البريطانيين، كما سدّت الحرب دروب التجارة ومنعت رواجها. ونلاحظ أثر هذه المعاناة في الخطاب الذي أرسله ابن سعود إلى الشيخ عيسى شيخ البحرين يطلب أن يمدّه بقرض مقداره ٢٠،٠٠٠ ريال. وقد قام عيسى بإرسال ٣،٠٠٠ ريال إلى ابن سعود، كما أصدر أذونات مسحوبة على الأحساء لصالح ابن سعود بمبلغ ٣،٠٠٠ ريال أخرى، ونظم له أمر تحصيل ١١،٠٠٠ ريال نقداً قيمة تمر يستلمه من القطيف.(١٠٨) واشتدّت ضائقة ابن سعود المالية حتى أصبح مجموع القروض التي حازها من يوسف كانو في البحرين ٤٦،٠٠٠ ريال. وبما أن كانو كان عميلاً بريطانياً، فقد ساد اعتقاد في الأوساط العامة بأن هذا المال بريطاني يذهب عن طريق كانو إلى ابن سعود.(١٠٩) وفي الحقيقة أنّ ابن سعود لم ينل من البريطانيين حتى هذا الوقت شيئاً. غير أن الأحداث تأبى إلاّ أن تضعه، بحكم علاقاته بمبارك، وبحكم مقتل شكسبير في جراب، وبحكم مال كانو، في مصاف المتعامل مع بريطانيا، المستفيد من خبرة ضباط الأمبراطورية وأموالها. وقد أصدرت بعض الجهات الموالية للعثمانيين في البصرة في هذا الوقت كتاباً صغيراً أطلقت عليه اسم «الكتاب الأسود» يتحدّث عن زعماء العرب، جاء فيه أن ابن سعود قد تسلّم حتى الآن مبلغ ٧٠،٠٠٠ جنيه من البريطانيين، وأن بريطانيا تمدّه بألف جنيه بصفة دورية.(١١٠) وبالطبع فإن شيئاً من هذا لم يحدث إلاّ أن أصحاب الكتاب الأسود بنوا اتّهاماتهم على قرائن الأحوال.

بداية الدعم المالي والعسكري البريطاني

بدأت المساعدات المادية من بريطانيا إلى ابن سعود في أواخر عام ١٩١٥م حيث طلب إليهم أن يدعموه بالمال والسلاح. وصدّقت له الهند بمبلغ ٢٠،٠٠٠ روبية تدفع له على شهرين كطلبه.(١١١) كما طلب نائب الملك في الهند إلى وزير الهند بلندن في أواخر ذي القعدة ١٣٣٣هـ/ ٧ أكتوبر ١٩١٥م أن يسمح له بإهداء بعض الأسلحة التي صودرت من العثمانيين في العراق لابن سعود. وكانت

التعليمات السابقة تقضي بحجز هذه الأسلحة لإرسالها إلى بلجيكا. جاء في هذا الخطاب أنه يطلب إلى بريطانيا الإذن «بمدّ ابن سعود بألف بندقية ماسورة و٢٠،٠٠٠ طلقة وذلك حين تتمكّن القوات البريطانية من الاستيلاء على مثل هذا السلاح في العراق».[١١٢] وقبل أن تصل تعليمات لندن أمدّت السلطات البريطانية ابن سعود في المحرّم ١٣٣٤هـ/ نوفمبر ١٩١٥م بحوالى ٥،٥٠٠٠ طلقة من نوع لي ميفورد (Le Ford) و٥٠٠٠ طلقة مارتيني،[١١٣] وكانوا قد أمدوه في سبتمبر ١٩١٥ فعلاً بثلاثمائة بندقية من السلاح الذي غنموه من العثمانيين[١١٤] وكان ذلك عربوناً للصداقة لعقد اتفاق دارين في أواخر صفر ١٣٣٤هـ/ أواخر ديسمبر ١٩١٥م. وبالرغم من هذا اعتذر ابن سعود عن مساعدة البريطانيين حين طلبوا إليه وقت عقد هذا الاتفاق أن يتحرّك لمساندتهم في اتجاه البصرة أو الناصرية. إعترض ابن سعود على ذلك بحجة أن الماء والمرعى في الأرض التي طلبوا إليه التحرّك فيها لا يتبع للقبائل الداخلة تحت سيادته، وأن حركته في تلك الأرجاء لن تؤدي إلاّ إلى إثارة المشاكل والاضطرابات. وأشار عليهم بأن يفيدوا من حمود بن سويط في حماية الصحراء المتاخمة للناصرية.[١١٥] وبهذا تأكّد للبريطانيين مرة أخرى بأن ابن سعود لن يدعم مجهودهم الحربي، وازداد فتورهم في دعمه اقتصادياً وعسكرياً.

مسألة العجمان والعرايف

كتب وكيل البحرين السياسي البريطاني إلى المقيم كوكس بأن بعض العجمان قد هاجموا رعاة واحة الأحساء، وقتلوا عدداً من الرجال والنساء، واستولوا على بعض الجمال والخيول التابعة للواحة. ويفيد التقرير بأن لابن سعود في الأحساء حامية يصل عدد أفرادها إلى ٢٠٠٠ رجل، وبالرغم من ذلك فقد عجت المنطقة بالاضطرابات وأصبحت طرق القوافل غير آمنة بين الساحل والقطيف. ويفيد هذا التقرير بأن ابن سعود يعمل على تأمين طرق القوافل، وأنه قد نظم أخيراً قوة من ٥٠٠ فرد لكي تصحب القوافل التي تأخذ احتياجاته وإمداداته من الساحل إلى الداخل.[١١٦] وفي محاولة لابن سعود أيضاً لتطهير المنطقة من التمرّد اتّصل بالشيخ عيسى، شيخ البحرين والشيخ عبدالله، شيخ قطر، يطلب إليهما عدم تمكين العجمان والعرايف من المؤن حتى يكفّوا عن إثارة الاضطرابات في المنطقة التي

يعمل على تهدئتها. وقد وافق عبدالله على هذا الرأي وأفاد ابن سعود بأنّه يؤيده في الرأي، وأنه قد مدّ يد العون للعرايف حين كانوا في ضيافته كما تقتضي أصول الضيافة، ولكنه بعد أن جلوا عن أرضه فإنه، بحكم صداقته لابن سعود، لا شأن له بهم.

يشير خطاب أرسله ابن سعود إلى الشيخ عيسى في ١٣٣٣هـ/ أوائل يوليو ١٩١٥م بأنه قد بدأ في شن الحرب على العجمان لردّهم إلى الطاعة ولكنه تراجع إلى الهفوف بعد أن خسر بعض رجاله ومن بينهم سعد أخوه. ويشير خطاب ابن سعود بأنهم «هم الخاسرون إن شاء الله» لأنه ينتظر حالياً المدد من نجد الذي سيصل قريباً بقيادة أخيه محمد بن عبد الرحمن. كما أفاد ابن سعود بأن شيخ الكويت سيرسل له قوة ينتظر وصولها قريباً للتعاون معه.(١١٧)

كان الشيخ عبدالله بن ثاني في قطر عند رأيه من عدم تشجيع ثورة العجمان والعرايف فرفض لقارب قطري كان يحمل ذخيرة لهم أن يُنزلها في قطر. وغادر المركب إلى أم حسن في البحرين. إتّصل عبدالله القصبي، وكيل ابن سعود في البحرين، يطلب إلى الوكيل البريطاني هناك أن يعمل بنصوص اتّفاق دارين، ويمنع وصول الإمدادات إلى العرايف بحراً. واتّصل الوكيل البريطاني بعيسى يطلب إليه مصادرة الذخيرة. ورفض عيسى معتذراً بأنه قد استعدى العرايف بما فيه الكفاية.(١١٨) وكان الوضع في تلك الآونة، ينذر بخطر داهم في شرق شبه الجزيرة حيث كان ابن سعود بصفة عملية «رهين الهفوف» بعد أن تفرّق عنه البدو، وبعد أن أحدث العرايف مع مبارك تفاهماً. وعموماً استطاع الوكيل البريطاني أن يمنع وصول الذخيرة «كما أُرسلت لابن سعود في هذه الفترة بعض البنادق والذخيرة العثمانية المصادرة».(١١٩) وقد استطاع ابن سعود في أوائل أكتوبر ١٩١٥م أن يفرّق جموع العجمان، ويجليهم عن منطقة العقير، وذلك بمساعدة بني خالد. كما هرب سالم، أحد العرايف، من منطقة القطيف إلى وكرة أولاً، ثم إلى أبو ظبي بعد ذلك.(١٢٠)

كتب ابن سعود في ٢١ ذي القعدة ١٣٣٣هـ/ اكتوبر ١٩١٥م إلى كييس

(Keyes) الوكيل السياسي البريطاني في البحرين، يخطره بأنه قد هزم العجمان هزيمة ساحقة في صويدرة (Suwaidrah) التي تقع إلى الشرق من الأحساء، وبأنهم قد هربوا تاركين متاعهم غنيمة سهلة لابن سعود. كما أفاد نفس الخطاب بأن ابن رشيد قد ارتد عن بريدة بعد أن قاومه أهلها مقاومة عنيفة. ونجد في خطاب ابن سعود إلى كوكس في ٣٠ ذي القعدة/ ١٠ اكتوبر تفصيلات أكثر عن هذا الأمر حيث أفاد بأن العجمان قد فروا تاركين مواقعهم ومتاعهم، وذهب قسم منهم إلى جنوب الأحساء حيث التجأ إلى آل مرة هنالك كما اتجه قسم آخر منهم إلى «الشمال» وذلك لتنسيق أمرهم مع ابن رشيد. وطلب ابن سعود إلى كوكس التدخل حيث أن سالم العرايف قد هرب إلى حماية الشيخ حمدان بن زايد. وبما أن حمدان من المحميين بواسطة أصدقائنا في الحكومة البريطانية، ونظراً لعلاقات الصداقة مع الحكومة البريطانية، فإني لن أهاجمه (حمدان). ولا شك عندي أنكم ستقومون بما يلزم من معاقبته». وطلب ابن سعود في نهاية رسالته القاء القبض على العرايف.[١٢١] وفي خطاب لاحق أرسل ابن سعود إلى كييس مجموعة خطابات كتبها حمدان بن زايد إلى ابن رشيد، وإلى العرايف: فهد بن سعود آل سعود، وسلمان بن محمد بن سعود، وعدداً آخر من الخطابات يربو على العشرة أرسلها الشيخ حمدان الى شيوخ آل مرة يدعوهم إلى التمرد على سلطة ابن سعود وتنسيق جهودهم مع العرايف. كما أرسل ابن سعود مجموعة أخرى من الخطابات المرسلة من سلطان بن زايد، وصقر بن زايد، وغيرهما، إلى الشيوخ في منطقة الأحساء تدعوهم إلى التمرد والخروج عن السلطة الشرعية، وتعد بالمساعدة والدعم.[١٢٢] وقد حذّرت سلطات الهند البريطانية شيخ أبو ظبي بعدم التدخل في الأراضي التابعة لابن سعود، كما أقامت إجراءات جمركية في البحرين بهدف منع وصول السلاح إلى أعداء ابن سعود في الأحساء. ولم تكن هذه الإجراءات مؤثرة كثيراً حيث كان هناك تسيب في انضباط موظفي جمارك البحرين[١٢٣]. وأمدت سلطات الهند البريطانية في هذه الفترة ابن سعود بقرض «حسن» وأرسلت له بعض إمدادات السلاح. وبالرغم من هذا كانت احتياجات ابن سعود المادية متفاقمة حتى أنه اقترض مبلغ ٢٠,٠٠٠ روبية من يوسف كانو، إضافة إلى المبالغ السابقة[١٢٤].

نعرف من خطاب أرسله وكيل الكويت السياسي إلى المقيم في الخليج في ١٢ رمضان ١٣٣٣هـ/ ٢٣ يوليو ١٩١٥م بأنه قد عرف من مبارك، وتحرى من الشهود العيان أخبار المعركة التي جرت بين العجمان وابن سعود قرب القطيف. يقول الوكيل أن حشود العجمان كانت تنزل في جنزان، حوالي ٢٠ ميلاً إلى الغرب من القطيف، وأراد ابن سعود أن يفاجئهم ليلاً. وكان العجمان يعرفون من بعض المصادر خبر المفاجأة التي يعدها لهم ابن سعود، ففشل الهجوم، وارتد ابن سعود بعد أن فقد عدداً من القتلى بينهم أخوه سعد وإثنان من أبناء عمومته. وقد كتب ابن سعود بذلك إلى مبارك طالباً دعمه، كما كتب شيوخ العجمان بدورهم إلى مبارك كذلك طالبين الدعم. وحين وصلت أخبار هزيمة ابن سعود ارسل مبارك إلى ابنه سالم في الصبيحية الذي كان يقود جموعاً من الكويت في طريقها إلى نصرة ابن سعود، أن يبطىء الخطى، ولا يسير إلى معسكر ابن سعود أو يقدّم له أية مساعدة، إلا بعد أن يقبل ابن سعود بالشروط التي يريد مبارك أن يمليها عليه. وقد أكد مبارك لوكيل الكويت السياسي البريطاني بأن هنالك علاقة تنسيق بين العثمانيين والعجمان، وأن ابن رشيد يمول ثورة العجمان(١٢٥). كما أن ابن رشيد حين عرف بهزيمة ابن سعود في الأحساء، تحرك في اتجاه القصيم، ولكنه ارتد حين قاومه أهل بريدة.

وصل سلمان العرايف بعد هزيمته مع العجمان إلى جزيرة صير، وغادرها إلى أبو ظبي ليبقى في ضيافة زايد، فاعتذر له زايد طالباً إليه أن يرحل فوراً. ولم يجد سلمان إلا أن يتصل بالشيخ عبدالله بن ثاني في قطر طالباً إليه استضافته. وردّ عبدالله بأنه لن يوافق على ذلك ما لم يصل سلمان إلى صلح مع ابن سعود، وقبل سلمان وذهب إلى قطر على هذا الأساس(١٢٦). وتفيد أخبار ضاري بن رشيد لشيخ البحرين بأن بعض أهله الذين كانوا سجناء في حائل لأكثر من عشر سنوات قد فُك سجنهم أخيراً، وأنهم رحلوا إلى الرياض ليبقوا في ضيافة ابن سعود. ويفيد التقرير بأن أحوال ابن سعود قد بدأت في الازدهار، وأن شريف مكة يتوسط لاحداث سلم بين حائل والرياض، ولكن ابن سعود لايريد أن يصل إلى اتفاق بعينه مع جهة معينة حتى يجتمع العرب كلهم على شيء. ويفيد تقرير ضاري بأن

زعماء العرب بمن فيهم ابن سعود، يسعون إلى «الاستقلال المحلي» (١٢٧). وقد أخرج وكيل الكويت السياسي البريطاني الشيخ جابر بن مبارك الصباح عن هذا التصنيف حين نقل عنه في ٣١ ديسمبر ١٩١٥م «بأن كل ما يهمه هو القيام بواجبه تجاه الحكومة البريطانية التي لها ديون في رقبته ورقبة أبيه لما أحدثته من تنظيم في إدارة المنطقة» (١٢٨). وينقل الوكيل كذلك عن جابر بأن العجمان ربما يدخلون في حماية ابن رشيد. أما ابن سعود فقد ثبت على الاستقلال المحلي». وتفيد التقارير الراجعة إلى هذه الفترة أن ابن سعود زاهد في الخلافة، وأن علاقته بالشريف في مكة المكرمة جيدة بالرغم من أن الشريف حين سمع بهزيمته من قبل العجمان تطلع إلى حكم القصيم فأرسل أحد أبنائه لضم المنطقة، وتراجع عن القصيم بعد أن تبين له ضعف موقف العجمان، ولم يجرؤ إلا على عقاب بعض بدو عتيبة الذين رفضوا أداء الزكاة له سلفاً. وأضاف عبد العزيز بأنه لا يهتم إذا أعلن الشريف نفسه خليفة للمسلمين، وأن هذا الأمر لن يؤثر في الأوضاع العربية الراهنة «لأن العرب لن يسمعوا للشريف أو يطيعوا بأكثر مما هو عليه حالهم في ذلك الوقت» (١٢٩).

تفيد أخبار ربيع الأول ١٣٣٤هـ/ يناير ١٩١٦م بأن العجمان قد تقلصت قوتهم تماماً، وأن تمردهم على ابن سعود، كما يقول حمد بن مقرض، أحد شيوخهم، قد وقع لأن ابن سعود طلب منهم أداء الزكاة لحكومته. ويرى أن حركة العصيان كانت أساساً في أوساط الشيوخ الذين حركوا قبائلهم لأنهم كانوا يتلقون أموالاً من العثمانيين هي في مجملها أكثر مما يدفع أفراد قبائلهم للسلطات العثمانية في المنطقة (١٣٠).

لم يرض العجمان، رغم ضعفهم، بالهزيمة، وأرادوا تطوير علاقاتهم بالعثمانيين وتوثيقها. كتب ضيدان العجمي في أوائل يناير ١٩١٦م إلى قائد الجيش العثماني في منطقة ما بين النهرين خطاباً جاء فيه بأنهم يعتبرون أنفسهم رعايا عثمانيين وذلك منذ أن ضم العثمانيون الأحساء: «وأنتم المسؤولون عنا منذ ذلك التاريخ». وتستطرد هذه المذكرة لتدين استقلال ابن سعود بالأحساء عن العثمانيين. «وقد صممنا أن نستردها لكم، وكنا على وشك ذلك لولا مساندة ابن

الصباح. نحن الآن نضع أنفسنا لتنفيذ أوامركم وأوامر العجيمي (شيخ من شيوخ العجمان له اتصالات واسعة مع الشيوخ الآخرين من أمثال حمد بن سويط شيخ الظفير وابن طوالة شيخ اسلم من شمر.) فإذا امديتمونا بمئتي جندي ومدفعين فسنسترد لكم الأحساء، فنحن دوماً تحت أمركم وكيف توجهكم وطوع بنانكم ننتظر الإشارة»(١٣١).

ننتهي إلى القول بحياد ابن سعود في الحرب العالمية الأولى وعدم قيامه بأي حال بحركة تزعج العثمانيين إذ لم يواجههم إطلاقاً. وحين عقد ابن سعود اتفاق دارين لم يدفع ثمنه تعاوناً مع البريطانيين إنما استطاع بذكاء أن يستغل هذا الإتفاق لتثبيت سلطته في الجزيرة العربية، وإعادة إقامة الصرح السعودي مرة أخرى. قاوم ابن سعود بهذا الإتفاق العجمان، وأقام الأمن في الأحساء في وقت لم يكن يملك فيه اسطولاً يدافع عن تلك السواحل ولا المال الكافي لاقامة مراكز ثابتة للجند على امتداد الساحل. كما استعمل ابن سعود الاتفاق للتأثير على شيخ الكويت التابع للبريطانيين حتى يوقف الإمدادات والمؤن التي تصل إلى حائل أو إلى العجمان عن طريق الكويت. وما كان ابن سعود بمستطيع أن يؤثر على مبارك أو على ابنه جابر فيما بعد إلا بهذا الأسلوب. فالكويت منطقة تجارة وعدم الاتجار مع القوى المتقاتلة يضر باقتصادها. ولم يكن من الممكن لابن سعود أن يصل إلى مقاطعة الكويت اقتصادياً لحائل إلا بهذا الأسلوب.

كان الشيخ عيسى في البحرين شديد التعاطف مع العرايف، وأكثر ميلاً للتعاون معهم، واستطاع ابن سعود ضبطه بهذا الإتفاق.

لم يكن البريطانيون يجهلون أن ابن سعود لا يعمل سوى لخدمة مصالحه، ولم ينكروا عليه ذلك حيث التقت المصالح البريطانية السعودية. أفاد البريطانيون، حين ظل ابن سعود على حياده، بأنهم ضمنوا بهذا الحياد عدم إثارة الاضطرابات على حدود العراق العثماني أو تحرك القبائل التابعة لابن سعود في اتجاه البصرة، كما ضمنوا أيضاً بأن جهوده الحربية ستنصرف كلها لاقامة صرح البيت السعودي وستشغل ابن رشيد عنهم وتبقي الاضطرابات مقصورة على نجد التي لا يهمهم من أمرها شيئاً. وضمن البريطانيون، فوق هذا وذاك، عدم تدخل ابن سعود في

سياسة الساحل العماني أو عُمان أو الإخلال بالنظام التهادني في الخليج العربي، ولم يكونوا يطمحون إلى أكثر من ذلك.

كان البريطانيون يعرفون أن ابن سعود يتعامل بشكل أو بآخر مع العثمانيين، وما كان الأمر يهمهم إذا اقتصر التعامل العثماني السعودي على نجد التي لم تكن تشكل أدنى أهمية في سير الحرب. عرف البريطانيون في ربيع الثاني ١٣٣٤هـ/ فبراير ١٩١٦م من الدكتور فان ديك (Van Deck) طبيب البعثة التنصيرية في البحرين، بأنه قد عرف من ضاري بن رشيد الذي كان يلازم سرير المستشفى، ومن الشيخ عبد الرزاق كذلك بأن ابن سعود قد تلقى الهدايا من الشريف حسين من ضمنها سيوف وخناجر مطعمة جراباتها بالذهب وبنادق و ١٥٫٠٠٠ ليرة عثمانية. وكانت هذه الهدايا مرسلة من الآستانة لابن سعود لتأثيره على بعض العربان وأقناعهم بعدم العمل على تدمير سكة حديد الحجاز أو اثارة اضطرابات في تلك النواحي، وأفادت تلك الأنباء أيضاً بأن العثمانيين يحاولون دعم ابن سعود(١٣٢). كما تفيد أنباء وردت في أواخر عام ١٩١٦م بأن ابن سعود يغض النظر عن الإمدادات التي تذهب إلى المدينة عن طريق القصيم(١٣٣)، ولم تبدُرْ من عبد العزيز بن سعود أية مقاومة صريحة للعثمانيين حيث نجد اتصالاته مع فخري باشا في المدينة المنورة حتى عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م متصلة، بل أن الآستانة قد أصدرت في ذلك الوقت تعليماتها إلى فخري باشا بابلاغ ابن سعود باعتلاء سلطانها الجديد سدة العرش(١٣٤).

نهاية الوجود العثماني في قطر

دخلت قطر إلى طاعة العثمانيين بقيادة شيخها الطموح قاسم بن محمد آل ثاني مختارة. وتبين للإدارة العثمانية بعدئذ طموح قاسم فعارضته. شجعت تلك الإدارة محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن ناصر الفيحان في ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٧م على تحدي سلطة قاسم ولكن الفيحان لم يثبت في موقعه في الغارية حين عزم قاسم على مجابهته. كما شجعت تلك الإدارة أيضاً ناصر بن مبارك آل خليفة على الوقوف في وجه قاسم، ولكنها لم تصب من وراء ذلك طائلاً.

زار والي البصرة نصيف باشا في ١٨٨٨م الدوحة وعزز حاميتها بمجموعة من الجنود لتأكيد السيطرة العثمانية هناك، كما زار الدوحة في ذي الحجة ١٣٠٦هـ/ يوليو ١٨٨٩م عاكف باشا متصرف الأحساء حاملاً معه مشروعاً لتثبيت الإدارة العثمانية في قطر. ولم يوّفق المتصرف حيث عارض قاسم الأمر كما عارضت سياسة الهند البريطانية الإجراءات التي كان يزمعها العثمانيون في الزبارة والعديد. وبدأت منذ هذا الوقت مشاكل عنيفة بين قاسم والإدارة العثمانية في المنطقة انتهت بمواجهة دموية في قرية الوصبة بين قاسم واتباعه وبين القوات العثمانية وذلك في ١٣١٠هـ/ أواخر مارس ١٨٩٣م.

دارت بعد ذلك مفاوضات انتهت بقبول السلطات العثمانية في المحرّم ١٣١١هـ/ يوليو ١٨٩٣م لاستقالة قاسم من منصب القائم مقاميه ليتولاّه أخوه الشيخ أحمد الذي أصبح حاكماً فعلياً على الدوحة. أمّا قاسم فقد بقي، دون اللقب العثماني، الشيخ المسيطر على قطر كلّها.

نرى قاسماً مرة أخرى يتكاتف مع العثمانيين ويسعى في عام ١٨٩٥م إلى تنفيذ مشروعاتهم في الزبارة انطلاقاً فيما يبدو من شعور ديني يحتّم عليه منع امتداد النفوذ البريطاني النصراني، ونكاية - فيما يبدو كذلك - في شيخ البحرين الذي كان يرى أن له في الزبارة - بصفتها نقطة انطلاق آل خليفة من الساحل إلى البحرين - حق سيادة. وانتهى أمر هذا المشروع بتدخّل بريطاني صريح أوقف المشروع تماماً وكشف لقاسم ولسواه من الشيوخ في المنطقة العجز العثماني المريع في مواجهة المخططات البريطانية في الخليج. بدا لقاسم ولابنه وخليفته عبدالله من بعده بأن مواجهة الأمبراطورية البريطانية في الخليج العربي هو أمر يفوق طاقاتهم ومصادر قطر المحدودة ومقدرة الدولة العثمانية التي يعوّلان عليها في هذا الشأن.

بدأت سلطات الهند البريطانية - مع بداية هذا القرن الميلادي - محاولات جادّة لإدراج قطر ضمن النظام التهادني. ولم تتحمّس لندن لهذا الأمر في بداياته، كما أهملته بعدئذ حكومة الهند. أدركت حكومة الهند الضعف العثماني الواضح في الخليج الذي اضطرّهم للتراجع عن كل مخططاتهم في الدوحة والزبارة والعديد ثم

وكرة، كما رأت حكومة الهند ـ في هذه الفترة ـ بأن قاسماً الذي يمثّل السلطة في قطر قد شاخ، وأن الخلافات تلف أبناءه. ولم تكن الهند واثقة تماماً في تحديد خليفته على السلطة. وحين اغتيل الشيخ أحمد بن ثاني في ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م بواسطة أحد أتباعه من بني هاجر، وصار الحكم للشيخ عبد الله بن جاسم الذي يعمل تحت أمرة أبيه، رأت الهند التريّث في الأمر.

تقول مذكّرة رفعها نائب الملك في الهند إلى وزير الدولة للهند في ١٧ محرّم ١٣٢٥هـ/ ٢١ فبراير ١٩٠٧م يعبّر فيها عن وجهة نظر السياسة الهندية تجاه الوجود العثماني في المنطقة بأن حكومة الهند «لا ترغب أبداً في أن تكون لتركيا أيّة سيادة على الساحل الشرقي للجزيرة العربية في أية نقطة إلى الجنوب من الزبير وذلك لأن وجود هذه السيادة في مناطق كالقطيف والعقير يسبّب حرجاً كبيراً لهذه الحكومة ويشجّع ادّعاءات العثمانيين في السيادة على الكويت وكذلك في البحرين. وإنّه في حالات إبعاد هذا الخطر العثماني فإن الخطر الذي تخشاه بريطانيا من قيام قوى بحرية عالمية بتأجير موانئ في منطقة الخليج العربي سيقلّ تماماً». (١٣٥)

اتّخذت حكومة الهند، خاصة بعد أن تولّى أمرها كيرزن، ذلك الاستعماري المتشدّد، خطوات جادّة في سبيل محاربة الوجود العثماني الذي وهن في قطر باستعداء العثمانيين للشيخ قاسم خاصة بعد ١٨٩٣م.

كان قاسم قد اتّصل بالبريطانيين في الخليج في عام ١٨٨٢م، حين خذله العثمانيون، يطلب إليهم اعتبار اتّفاقية ١٨٦٨ سارية المفعول. ولكن ما إن ذهبت ثورة الغضب حتى عاد قاسم سيرته الأولى مع العثمانيين. وتجدّد طلبه للمقيم مرة أخرى في ١٨٩٣ م حين حاربه العثمانيون ولكن قاسماً لم يتابع طلبه بعدئذ. وجاءت حوادث ١٨٩٥م الخاصة بالزبارة فتأكّد قاسم من الضعف العثماني في مواجهة القوة البريطانية. أمّا أحمد الذي تولّى شؤون الحكم خاصة بعد ١٨٩٨م فلم يكن متحمّساً للعثمانيين حماس أخيه، وكان يرى وجوب الاستعانة بالبريطانيين لوقف تعدّيات العثمانيين.

في لقاء خاص بين الشيخ أحمد وروبنسون، قائد السفينة سفنكس، في

١٨٩٨م صرح الشيخ أحمد - نيابة عن أخيه قاسم - بأنه يريد أن يرتبط مع الحكومة البريطانية، مثله مثل شيوخ ساحل عمان المتهادن. وكان أحمد أكثر حرصاً من أخيه على متابعة هذا الطلب، ففي لقاء له في ١٣٠٧هـ/ نوفمبر ١٨٩٩م في وكرة مع المقيم ميد جدد رغبته في الارتباط مع الحكومة البريطانية، كما اتّصل بشكل غير مباشر بجاسكن، مساعد الوكيل السياسي في البحرين، أكثر من مرة في الفترة ١٩٠٠ - ١٩٠٢م. وفي ربيع ١٩٠٢م اتّصل بجاسكن أيضاً في رسالة محدّدة يطلب امتداد الحماية عليه وعلى قومه وأنه - في المقابل هذا - يقبل الإقامة في أية بقعة من الساحل تحدّد له. وتعهد أحمد بأن يحافظ على السلم البحري في تلك المنطقة، وأن يتعاون مع الحكومة البريطانية وشيخ البحرين في المسائل التي تهمهما. وبدأت حكومة الهند تحرياتها حول الشيخ أحمد. وعلى أيّة حال لم يكن أحمد هو صاحب الكلمة الأولى حيث كان قاسم لا يزال هو الممسك بزمام الأمور والموجّه للأحداث رغم كبر سنه.

وفي الوقت الذي كانت فيه التحريات تجري حول المقترحات التي قدّمها الشيخ أحمد في ١٩٠٢م اتّخذت الحكومة العثمانية من جانبها خطوة صرفت الاهتمام مؤقّتاً عن هذا الموضوع. ففي ١٣٢٠ هـ / نوفمبر ١٩٠٢ م أعلنت صحيفة اقدام العثمانية شبه الرسمية عن إنشاء مناصب لمديرين في العديد، ووكرة والزبارة وجزيرة آل عمير على الساحل العربي. وسرعان ما تأكّدت هذه الأخبار حين وصل المدير المعيّن للزبارة إلى الأحساء في ذي القعدة ١٣٢٠هـ/ فبراير ١٩٠٣م. وأعقبه في الشهر التالي وصول مدير وكرة. وتبيّن أن هذا المشروع يهدف أيضاً إلى إقامة مواقع حراسة تربط الزبارة بالعقير. وفي ذي القعدة ١٣٢٠هـ/ ٢٠ مارس ١٩٠٣م خرج قارب عثماني مسلح من البصرة إلى قطر ليساعد في تنفيذ هذه الخطة. وفي ٢٣ مارس تلقى سفير بريطانيا في الآستانة تأكيدات تفيد بأنه ليس في النيّة تعيين مسؤولين عثمانيين في المواقع المشار إليها.(١٣٦) وفي هذه الأثناء وصل إلى البحرين يوسف بك المعيّن مديراً لوكرة في طريقه إليها. وطلبت الهند البريطانية إلى سلطاتها في الخليج العمل على تأخيره في البحرين ريثما يتدبّر السفير البريطاني الأمر. قابل الوكيل السياسي في البحرين الشيخ عيسى في ٢٣ أبريل وطلب منه «تعطيل يوسف

بك مدير وكرة في البحرين حتى نهاية الشهر. وقد تعاطف الشيخ معي وأصدر أوامره لمساعديه بذلك على أن يتمّ الأمر دون أن يعرف يوسف بك من أمر التعطيل شيئاً». وبالرغم من اعتقال شيخ البحرين لأحد ملاّك القوارب الذي كان سينقل يوسف ورجاله الأحد عشر المرافقين له بحجة أن هناك ديناً مستحقاً على ذلك المالك، وأنه قد يفرّ بدينه إلى قطر، ورغم تحذير شيخ سوق المنامة للبحارة بعدم التعامل مع يوسف، إلاّ أن يوسف استطاع أن يفلت من هذا الحصار غير المعلن ويغادر البحرين في ٢٧ أبريل.(١٣٧) تقول رسالة الوكيل السياسي في ٢٤ أبريل بأن بعض رجاله قد عرفوا من يوسف بك أن مديري الزبارة والعديد لا يزالان في الأحساء في انتظار تعليمات الباب العالي، وأن المتصرّف في الأحساء مصمّم تماماً على إقامتهما في منصبيهما عاجلاً أو آجلاً. كما عبّرت هذه الرسالة عن اعتقاد بأن الشيخ قاسماً وأخاه أحمداً لا يرغبان في إقامة مدير عثماني لوكرة «وأنهما قد يدبّران اغتياله إذا وصل إلى هناك، ولكني لا أعتقد أنهما سيصلان إلى هذا الحد». كما أفادت أخبار وكيل البحرين السياسي في ربيع الأول ١٣٢١هـ/ يونيو ١٩٠٣م بأنه عرف من أحد البحارة الذين قدموا من وكرة أن مديرها قد غادرها إلى البدع، وأن رجاله سيلحقون به حالاً.(١٣٨) وبالفعل فقد استقرّ يوسف هناك مساعداً لقائم مقام قطر. وتبينّ بعدئذ أن العثمانيين قد استبدلوا يوسف بك بعبد الرحمن بن قاسم آل ثاني الذي تعينّ في ذلك المنصب. واحتج القنصل البريطاني في البصرة لدى الوالي العثماني على هذا الأمر وأفاد الوالي بأن «عبد الرحمن قد تعينّ شيخاً لوكرة بموجب التعليمات الصادرة له من وزارة الداخلية وأنه لم يعينّ في وظيفة مدير».(١٣٩) واحتجّت السفارة البريطانية في الآستانة على هذا الأمر بحجة الإضرار «بالوضع الراهن» حيث عينّ العثمانيون عبد الرحمن، وهو شيخ وكرة المعينّ بالفعل من قِبَل والده، شيخاً هناك و«خصّص العثمانيون له راتباً وأقاموه شيخاً على ساحل قطر في المنطقة التي تقع خارج منطقة السيادة الاسمية للباب العالي التي تعترف له بها الحكومة البريطانية». «وأن الحكومة البريطانية لن ترضى عن هذا التعيين الإداري الرسمي من قِبَل الأتراك، ولا يهمها إن كان هذا التعيين تحت مسمّى مدير أو شيخ».(١٤٠)

هذا ما كان من أمر وكرة أمّا مدير الزبارة فقد أفادت أخبار وكيل البحرين السياسي بأنه «عرف من أمين خزانة جمارك العقير الذي كان في زيارة إلى القطيف بأن عرابي أفندي الذي صدر أمر تعيينه مديراً للزبارة قد اختلف مع متصرف الأحساء وغادر القطيف إلى قطر في حوالي ١٠ مايو.(٤١) وكتب متصرّف الأحساء إلى الوالي يطلب تسمية مدير آخر ورد عليه الوالي بعدم تعيين أي مديرين آخرين إلّا بعد صدور تعليمات أخرى».(١٤٢)

زار جاسكن وكيل البحرين السياسي الوسيل للقاء الشيخ قاسم تلبية لأوامر صادرة من الهند وذلك للتحري في سير الأمور بوكرة. يقول تقرير جاسكن(١٤٣) «لقد أرهقت السنون الشيخ [قاسم] فبدا هزيلاً وكان يعاني من ألم في عينه. قال الشيخ بأنه لا يدير شؤون الحكومة الآن في ساحل قطر فقد ترك مسؤوليتها لأخيه الشيخ أحمد، وذلك بعد أن قرّر أن ينفض يديه من كل تعامل مع الأتراك بعد حادث الزبارة». وأضاف الشيخ بأنه كان يريد أن يترك الحكم لابنه محمد إلّا أن رؤساء قطر كانوا يفضلون أحمداً فاستجاب لرغبتهم وأخذ على ذلك توقيعاتهم. ثمّ أخطر الشيخ الباب العالي ووالي البصرة ومتصرّف الأحساء بتنازله لأخيه طالباً إليهم أن يحيلوا إليه كل ما يخصّ المنطقة. ولهذا فإن الشيخ أحمداً يعتبر منذ ١٨٩٨م هو شيخ قطر. أمّا فيما يخص ابنه عبد الرحمن فقد قال قاسم بأنّه قد تعيّن شيخاً لوكرة منذ خمس سنين وقد ورد أخيراً تعيين له في نفس الوظيفة من متصرّف الأحساء. وقال قاسم أنه يعارض هذا التعيين الرسمي درءاً للمشاكل المتوقعة.(١٤٤)

وفي البدع قابل جاسكن الشيخ أحمد الذي أكّد تنازل أخيه كما أكد أنه استلم خطاباً من متصرّف الأحساء في جمادى الأولى ١٣٢١هـ/ يوليو ١٩٠٣م يفيد بتعيين عبد الرحمن بن قاسم مديراً لوكرة براتب قدره ست ليرات عثمانية في الشهر وذلك خلفاً ليوسف بك. وكتب المتصرّف بعد ذلك في أغسطس إلى أحمد يطلب ضماناً بولاء عبد الرحمن للدولة. وردّ أحمد على المتصرّف بأن الشيخ عبد الرحمن يمارس مهامه سلفاً شيخاً لوكرة، وأنّه لا يرى ضرورة تسميته مديراً أو إسباغ راتب عليه، أو إرسال ضمان بولائه، ولم يرد المتصرف على هذا الخطاب. وقد اتّهم أحمد

العثمانيين بأنهم يريدون الاستيلاء على قطر تماماً لطرد أسرة آل ثاني من المنطقة. و«بما أنه لا يستطيع أن يناهض القوة العسكرية للأتراك فإنه يسعى لمعرفة ما إذا كانت حكومة جلالته ترغب في أن تمدّ نفوذها إلى قطر وذلك حتى يقدّم لها طلباً بذلك». ويقول الوكيل السياسي البريطاني أن الشيخ قاسماً لا يزال يقدّم المساعدات المادية للقبائل التي تقطن قطر ويعبّر عن اعتقاده بأن نهاية أسرة آل ثاني تعاني انهيار ولاء القبائل وقيام الفوضى في قطر.(١٤٥)

حين وصل كيرزن إلى البحرين في جمادي الثانية ١٣٢١هـ/ نوفمبر ١٩٠٣م في زيارته المشهورة إلى الخليج العربي، كان الظن أن الشيخ أحمداً سيحضر بنفسه لكي يثير أمر حماية قطر، وقد دارت مناقشات حول الرد الذي سيقدم إليه بين حكومة الهند والحكومة البريطانية. قرّرت حكومة لندن أن الباب العالي قد استجاب وسحب المديرين من وكرة والزبارة، ولهذا فلا يجب تعكير صفو هذا الأمر باتّفاق جديد تحدثه الهند مع قطر، وعليه فيمكن للمسؤولين البريطانيين أن يؤكّدوا للشيخ أحمد صداقة الحكومة البريطانية ما ظلّ بعيداً عن إبرام أية التزامات مع أيّة دولة أخرى. ولكن الشيخ أحمداً ـ على أية حال ـ لم يظهر في البحرين لمقابلة كيرزن وتلاشت ضرورة إنهاء أي شيء إليه. وحين زار المقيم بريدوكس قطر في ١٩٠٥م لم يجدّد أحمد طلبه في الحماية رغم استمرار شكواه من العثمانيين.(١٤٦) وحين اغتيل الشيخ أحمد في ١٣٢٣هـ/ ديسمبر ١٩٠٥م بيد عبد من عبيد بني هاجر أناط الشيخ قاسم الحكم بابنه عبدالله الذي كانت غيرته الإسلامية تدفعه بعيداً عن التعامل مع الإنكليز. وكان عبدالله في هذا الصدد مثل أبيه بل أشد، ولكن تبيّن له في النهاية أن لا بدّ مّما ليس منه بد.

بقيت الأمور على هذا المنوال حتى ذي القعدة ١٣٢٥هـ/ ديسمبر ١٩٠٧م حين نشأت مشكلة بين الشيخ عبد الرحمن بن قاسم شيخ وكرة وقبيلة البوعينين التي تسكن هناك واستعانت البوعينين على عبد الرحمن بالعثمانيين.(١٤٧) أثار المقيم السياسي البريطاني الأمر مع القنصل البريطاني في البصرة وأمده بجميع المراسلات التي جرت في شأن الوكرة في عام ١٩٠٣م وطلب إليه أن يطلب إلى الوالي «ألاّ يقدّم أيّة مساعدة لبعثة البوعينين». كما طلب إلى القنصل أن يتّصل بأحمد بن خاطر

البوعينين رئيس هذه البعثة لكي يخطره بأن «ممثلنا في البحرين سيزورهم وسيعمل من أجل الوصول إلى تفاهم مرضٍ بين القبيلة والشيخ». (١٤٨) وبالفعل فقد اتّصل القنصل كرو بالوالي وعرف منه أنه قد قابل بالفعل وفد البوعينين وأحالهم إلى متصرّف الأحساء للعمل «على مساعدتهم ضد قاسم، وطلب إليه اتّخاذ اللازم». وقد أفاد الوالي القنصل بأن هؤلاء النفر رعايا عثمانيون مستحقون للحماية». (١٤٩) و«بما أن الوالي قد تعينّ في منصبه حديثاً فقد شرحت له الأمر وأخطرته بأنه لن يسمح له بالتدخل في هذا الأمر ثم أرسلت له خطاباً بهذا الصدد كما أخطرت السفير البريطاني في الآستانة بالأسلوب الذي انتهجه الوالي». وفي هذا الأثناء تدخّل الشيخ قاسم وأرسل إلى شيوخ البوعينين ليوافوه في الدوحة، وهناك ذكّرهم بالعلاقات الوثيقة التي ميّزت المعاضيد والبوعينين وأخطرهم أنه وأبناءه من بعده باقون على تلك العلاقة. (١٥٠) واكتفت القبيلة بكلمة الشيخ واعتبرت أن «ما فات مات». وقد زار عبد الرحمن وجهاء القبيلة واجتمع الود مرة أخرى. وحين زار المتصرّف ماهر باشا المنامة في ذي القعدة ١٣٢٦هـ/ ديسمبر ١٩٠٨م قابله وفد من بوعينين وكرة وأخطروه بأن قبيلتهم قد وصلت إلى صلح مع قاسم وأولاده وأنهم ما عادوا يتوجسون من المعاضيد. وأبدى المتصرّف ارتياحه لهذا الأمر، ولبقاء القبيلة في سلطة آل ثاني، ولكنه أضاف: «أن القبيلة ستكون من الآن فصاعداً تحت الحماية التركية، فإذا حدث أن نالهم ظلم من آل ثاني فعليهم سرعة رفع الأمر إليه في الأحساء ليتخذ الخطوات اللازمة تجاه تلك الأسرة» وقد أعطى رئيس الوفد خطاباً بهذا المعنى.

جدّت أمور أخرى عالمية وإقليمية ومحلية بعد نهاية العقد الأول من القرن الحالي أثرت في اتجاهات السياسة البريطانية في الخليج. فقد دخلت الدولتان العثمانية والبريطانية في مفاوضات طويلة بشأن الخليج انتهت باتفاق ٢٩ يوليو ١٩١٣م. وحين نتتبع الخط الأخضر الذي يحدد حدود نجد في الإتفاقية (البند السابع) والخط الأزرق الذي يخرج قطر عن دائرة الحكم العثماني (البند الحادي عشر)، نجد أن هذا الإتفاق قد أحدث حدثاً جديداً في السياسة القطرية. وقد اعترفت الحكومتان في هذا الإتفاق بأن منطقة قطر يحكمها الشيخ قاسم وأولاده من

بعده. وتعهدت الحكومة البريطانية من جانبها بعدم السماح لشيخ البحرين بالتدخل في شؤون قطر[151]. أما على المستوى الإقليمي فقد ظفر ابن سعود في مايو من تلك السنة بالأحساء حين أجلى عنها الحامية العثمانية (١٥١ ـ أ) واعترف ابن سعود بالولاء للعثمانيين رغم هذا وأحدث معهم بعد سنة من هذا التاريخ اتفاقاً ينظم غلاقته بهم. وقد دفع هذا الأمر، بالإضافة إلى الإعتراف البريطاني بنجد عثمانية، بموجب الاتفاق المشار إليه، بالسياسة البريطانية إلى أن تنظر إلى ابن سعود على أنه «موظف عثماني» تخشى من سريان نفوذه إلى قطر التي خرجت بموجب الإتفاق من الحكم العثماني. أما على المستوى المحلي فقد توفي قاسم وآل الحكم إلى ابنه عبدالله الذي وجد من أخوته الكثير من الصعاب، وباتت السياسة الهندو ـ بريطانية تخشى من تدخل ابن سعود لمناصرة بعض الفئات المتطلعة إلى خلافة قاسم.

أدى اتفاق يوليو ١٩١٣م إلى نهاية الوجود العثماني فعلاً في الخليج العربي إذ تنازل العثمانيون طوعاً واختياراً عن قطر التي كان لهم فيها حامية عسكرية. وبالرغم من أن الإتفاق قد ألحق الأحساء بسيادتهم، إلا أنهم كانوا من الناحية الفعلية غير موجودين في الأحساء التي كان ابن سعود يسيطر عليها تماماً. ولم يكن لهم من مظاهر السيادة عليها سوى العلم العثماني الذي يرفرف على المسجد الجامع في كل جمعة.

زوال الحامية العسكرية العثمانية من الدوحة

لم يكن للعثمانيين في قطر في هذا التاريخ سوى قوة صغيرة العدد ضئيلة العدة في الدوحة. تفيد أخبار ١٣٣١هـ/ يونيو ١٩١٣ بأن سلطات البصرة العسكرية قد كتبت إلى السلطات العسكرية في بغداد بأنها سترسل في ١٣ شعبان/ ١٧ يونيو على السفينة البدري قوة إلى قطر قوامها ضابط و ٥٧ جندياً[152]. ويفيد الوكيل السياسي البريطاني في البحرين بأن هذه القوة قد وصلت إلى البحرين في ٢٢ يونيو على السفينة البدري وأنه عمل للتعجيل برحيل الفيرقة عن البحرين فسافرت في ٢٣ يونيو في قارب يملكه عبد الرحمن الوزان إلى قطر. وأفاد هذا

الوكيل بأن القوة تتكون من ضابط هو عبد الغفار أفندي و ٥٦ جندياً عثمانياً[١٥٣].

تم بعد شهر تقريباً من وصول هذه القوة التي أرسلت لتدعيم حامية قطر، توقيع الإتفاق العثماني البريطاني مما جعل وصولها أمراً غير ذي معنى حيث تخلى العثمانيون عن قطر. تفيد التقارير البريطانية في يوليو أن عدد أفراد حامية قطر قد بلغ حوالي ٢٥٠ جندياً. وتفيد تقارير رمضان/ أغسطس بأن عدد أفراد هذه الحامية لا يزيد عن ١٦٠ فرداً حيث نقص عددهم بهروب الكثير من الجند[١٥٤]. وبدأت في هذه الفترة حركة نشطة بين البصرة وقطر حيث نجد البكباشي حسن يقوم من قطر إلى البحرين في طريقه إلى البصرة. وقد عبر يوسف كانو للوكيل السياسي البريطاني في البحرين عن اعتقاده بأن حسناً يريد أن يحصل على موافقة البصرة لزيادة الحامية العسكرية، كما وصل بعدئذ الدكتور صافي الدين واليوزباشي فؤاد بك من قطر في طريقهما إلى البصرة عبر البحرين[١٥٥]. لم يكن شيوخ قطر يرفضون في هذه الفترة وجود هذه الحامية العثمانية فقد رأى قاسم، قبيل وفاته، ابن سعود على سواحل الأحساء، وبات يخشى تقدمه لامتصاص قطر قطعة بعد قطعة، وكان قاسم يرى في الوجود العسكري العثماني استمراراً لكينونة قطر السياسية. وقد ابتهج الشيخ قاسم بوصول هذه الفرقة العثمانية لأنها على حد تعبيره وفق الوثائق البريطانية، «ستؤخر يوم الشر»، وتضيف هذه الوثيقة بأنه مما «لاشك فيه أن الشيخ قاسم متعلق بالأتراك، والفيلق التركي، خاصة بعد أن نشط ابن سعود في المنطقة» وأن قاسماً «لايريد أن يفرط في الوجود العسكري العثماني إذا كان ذلك ممكناً» وأكد وكيل البحرين السياسي بأن قاسماً، لو وجد ضمانات بريطانية، لتراجع عن تأييده الجاد للعثمانيين[١٥٦].

كان من رأي المقيم أن يشرح لقاسم فحوى الإتفاق الأنجلو عثماني الذي أخرج قطر عن دائرة العثمانيين «وذلك لدفعه في اتجاه التقارب معنا». وعرف المقيم بعد ذلك عن طريق وكيله في البحرين، ويوسف كانو، أن قاسماً استاء من وضع قطر الجديد وخروجها من دائرة العثمانيين لتقع في قبضة بريطانيا. وبرهنت الأيام اللاحقة على أن قاسماً كان يؤمن إيماناً قاطعاً بفكرة الجامعة الإسلامية. وتشير

التقارير إلى أنه قضى نحبه وهو «ينتحب بل يبكي»[١٥٧] كما تفيد الوثائق، وذلك لما آلت إليه الدولة العثمانية من ضعف.

طلبت الهند إلى المقيم البريطاني في الخليج أن يكتب لها بآرائه في مسألة قطر على ضوء الإتفاق الانجلو عثماني الجديد. فأشار المقيم بأن عليهم أن يعقدوا اتفاقاً مع الشيخ قاسم يعترفون له فيه «بالاتونومية» ويؤكدون له حمايته بحراً ما دام مراعياً لإرتباطاته التي يقيمها معنا، ونعده بمساعينا الحميدة بالنسبة لمشاكله التي يواجهها براً [ابن سعود مثلاً] على أن يكون الإتفاق على النحو التالي:[١٥٨]

ـ أن يستضيف قاسم وكيلاً لحكومة الهند البريطانية في البدع (على أن يكون في الوقت الراهن من المسلمين شأنه في ذلك شأن مقيمية لنجة)، وأن يعمل هذا الوكيل بصورة مباشرة تحت رئاسة وكيل المقيمية في البحرين.

ـ أن يسمح قاسم للهنود البريطانيين بالإقامة في موانىء قطر واجراء تجارتهم، وأن يسبغ عليهم ذلك الشيخ حمايته، ويؤمنهم على أرواحهم وممتلكاتهم، وأن لا يفرض عليهم ضريبة أعلى مما يدفعها سواهم.

ـ أن يتعهد الشيخ بمحاربة تجارة الرقيق والقرصنة ووقف تجارة السلاح، وأن يراعي شروط التهادن البحري.

ـ أن يتعهد الشيخ بعدم السماح للأجانب، بما في ذلك الرعايا البريطانيين، بأن يحصلوا على أية احتكارات أو امتيازات في قطر، أو أن تكون لهم أية حقوق خاصة بصيد اللؤلؤ أو الغوص في المياه التابعة للخليج ما لم يحصل على موافقة الحكومة البريطانية.

ـ ألّا يسمح الشيخ لأية قوة أخرى فيما عدا الحكومة البريطانية (وربما التركية) بأن يكون لها مندوب في قطر، وألّا يتراسل مع مندوبي أية دولة أجنبية إلا بموافقة الحكومة البريطانية.

ـ أن يوافق الشيخ (مثله مثل البحرين والكويت) على السماح بوجود معدات البريد والبرق البريطاني وذلك حين ترى الحكومة البريطانية وجوب إرساء تلك المعدات وتشغيلها في تلك المنطقة».

وأشار المقيم بأنهم يمكن أن يستدرجوا قاسماً لتنفيذ هذه الأمور خطوة، بعد خطوة: «ولا يبدو لي أن أيا منها يتعارض مع الميثاق التركي. الأمر متروك للسلطات العليا. ويبدو لي أيضاً أن على الحكومة البريطانية حال ابرام الميثاق، أن تعمل على سرعة اجلاء الحامية التركية عن قطر(١٥٩)».

بدأت الهند تسعى لعقد الإتفاق، وأرسل المقيم البريطاني بالانابة في الخليج يسأل عما إذا كان من الأجدى أن يعقد هذا الإتفاق مع الشيخ عبدالله بن قاسم، «رئيس هذه العائلة بعد وفاة أبيه،» أم يجمع كل أبناء قاسم الكبار. كما تساءلت حكومة الهند في ١١ رجب ١٣٣٢هـ/ ٤ يوليو ١٩١٤م عما إذا كان هناك شيوخ آخرون في المنطقة التي سحبت عنها الحكومة العثمانية ادعاءات السيادة يمكن للهند أن تعقد معهم اتفاقات مماثلة، ورد المقيم بأنه لا يعرف في المنطقة شيوخاً آخرين(١٦٠).

لم يكن ابناء الشيخ قاسم، خاصة ابنه خليفة، راضين عن أخيهم عبدالله الذي تعين شيخاً للدوحة في حياة أبيه. وترد الوثائق البريطانية عدم الإتفاق الواقع بينهم إلى سيطرة الشيخ عبدالله على دخل الجمارك. وقد عقد الشيخ قاسم في ذي الحجة ١٣٣٠هـ/ نوفمبر ١٩١٢م اجتماعاً ضم أولاده الكبار كلهم فيما عدا ابنه خليفة الذي رفض الدعوة، ونصح قاسم ابناءه بالتعاون والتعاضد. وحضر الاجتماع كبار آل ثاني منهم الشيخ جبور بن محمد، ورضي عما قاله أخوه لابنائه ولكنه صرح بأن قاسماً قد نصح من لا يسمع. أما محمد بن الشيخ أحمد بن محمد آلي ثاني، فقد أعلن بأنه سيصيح لدعوة قاسم تقديراً له، وليس اقتناعاً بعبدالله. وجادل قاسم أسرته بوجوب وجود رئيس إذ «لا يعقل أن يكون الكل رؤساء». ورد محمد بأنه سيلتزم بدعوة الإتحاد ما دام قاسم حياً، أما حين يتوفى «فسينجلي كل شيء». وانتهى هذا الاجتماع إلى اتفاق ارتضى الجميع بموجبه رئاسة عبدالله ابن قاسم ـ ما دام قاسم حياً ـ أما بعد وفاته «فإن الأمر متروك لإرادة الله»، ولكنهم على حد تعبير قاسم، إن اتفقوا فسيلقون من أمرهم رشداً(١٦١).

تفيد مذكرات يوسف كانو في ٢٦ ذي الحجة ١٣٣٢هـ/ ١٥ نوفمبر ١٩١٤م

بأن عبدالله لقي من أقاربه معارضة ظاهرة ومستترة فجمعهم، وأعلن في الجمع بأنه لا يرغب في أن يكون شيخاً عليهم، وعليهم أن يتفقوا في مدى شهرين على شيخ منهم يسوسهم. وتفيد هذه المذكرات أيضاً بأن أقارب الشيخ عبدالله يحسدونه على التصرف في أموال الجمارك مع أنه يصرفها على النفقات العامة. وأشار عبدالله كذلك بأنه لا يضع جمارك إلا على سلع الرفاهية إذ أنه لا يتقاضى جمارك على الضروريات مثل الأرز والقهوة والبسكويت وما إلى ذلك من المواد التموينية. وزاد من قوة المعارضين لعبدالله، حتى في حياة أبيه، أن بني هاجر وبعض آل مرة وبدواً آخرين قاموا ببعض غارات أصابوا فيها بعض الغنائم وبهذا اتهم بعض أفراد الأسرة الشيخ عبدالله بالضعف وعدم اقدامه على محاربة اللصوص. وحين توفي الشيخ قاسم آل ثاني في يوليو ١٩١٣م ترك منطقته منشقة بين أهله وأقاربه، كما ترك علاقات سعودية قطرية متوترة. تفيد التقارير البريطانية في الأسبوع السابق لوفاته بأن العلاقة بينه وبين ابن سعود لم تكن على ما يرام حيث أن قاسماً استبقى الحامية العثمانية التي طلب إليه ابن سعود ترحيلها خوفاً من أن تكون نقطة ارتكاز ينقض منها العثمانيون على الأحساء مرة أخرى، كما أنه استضاف بعض العرايف والهزازنة. وكان آخر رد لقاسم على ابن سعود قاسياً بحق حين ذكّره بأنه استضافه وأباه سالفاً ولهذا فهو يستضيف العرايف، كما أنه اشترى منه دماء الهزازنة. وانتهى قاسم بأن طلب إليه عدم التدخل في شؤون علاقة قطر بالعثمانيين(١٦٢).

كان على الشيخ عبدالله أن يواجه الاطماع البريطانية فور توليه الحكم. وكان أول احتكاك مباشر مع البريطانيين حين رفض في أوائل سبتمبر ١٩١٣ م أن يبيعهم جزيرة في مواجهة ساحل قطر بمبلغ ٧٥٠٠٠ روبية. واحتج عبدالله بأن الجزيرة تابعة للعثمانيين. واحتج البريطانيون للشيخ بأنهم سيضمنون له موافقة الدولة العثمانية على هذا الأمر، فعاد واحتج عليهم بأن ابن سعود سيعارض الأمر، فأخطروه بضمانهم بأن ابن سعود لن يتدخل في أي شأن من شؤون قطر الداخلية، ورفض الشيخ حينئذ أن يبيع أرضه وكان رفضه صريحاً بعد أن لم يجد حجة يتذرع بها،(١٦٣) كما لم يرض الشيخ بوجود علم بريطاني على أرضه(١٦٤). وتفيد التقارير الراجعة إلى ٧ ذي القعدة ١٣٣١هـ/ ٧ اكتوبر ١٩١٣م بأن الشيخ عبدالله قد

كتب إلى والي البصرة يطلب إليه عدم ترك قطر في مواجهة البريطانيين، ورد الوالي العثماني بأنهم قد تخلوا عن قطر بموجب الإتفاق. ولم يرض الشيخ عبدالله هذا الرد ولكنه لم يكن يدري ماذا يفعل (١٦٥) إزاء التسلط البريطاني والعجز العثماني.

تجمع التقارير الواردة إلى البحرين في تلك الفترة بأن عبدالله بن قاسم هو الشيخ المؤثر في قطر، وأن أهل قطر يوقرونه ويحترمونه ولا يرضون عنه بديلاً، فهو طيب متسامح. غير أن هناك جبهة معارضة يقودها أخوه الشيخ خليفة تضم أبناء الشيخ أحمد بن ثاني. وتفيد تقارير شوال ١٣٣٢هـ/ سبتمبر ١٩١٤م بتصالح الجمع ووصولهم إلى اتفاق لم يخرج منه سوى اثنين من آل ثاني هما علي وخالد اللذين كتبا بدورهما إلى ابن سعود يطالبانه باقصاء عبدالله عن الحكم. كما يفيد هذا التقرير أيضاً بأن العثمانيين يعملون في هذا الوقت لتنفيذ انسحابهم من قطر حيث طلبوا إلى قيادتهم هناك سحب جنودهم ومدافعهم من قطر لا يستبقون سوى ١٠ جنود ومدفعين(١٦٦). لم يكن الشيخ عبدالله سعيداً بانسحاب هذه الحامية خوفاً من تحرك ابن سعود باتجاه قطر. ويعتقد الوكيل السياسي في البحرين أن البصرة قد اشعلت في ابن سعود «طموحه القديم لضم قطر».(١٦٧)

كتب مقبل الذكير إلى الوكيل البريطاني في البحرين بأن ابن سعود سيسعى إلى ضم قطر، كما عُرف بذلك من بعض خطابات ابن سعود المرسلة إليه. وأهمل الوكيل الردّ على خطاب مقبل الذكير لاعتقاده بأنه لا يعود أن يكون «بالونة اختبار» لاتجاه الريح. وطلب كييس الوكيل البريطاني في البحرين تعليمات حكومته للردّ على مقبل الذكير إذا حدث أن أثار الأمر مرة أخرى. ونصح كييس حكومته بأن يقال لمقبل بأن ابن سعود قد قبل الولاية من تركيا وأنه قد أصبح بهذه الصفة من رعايا تركيا. وبما أن الأتراك قد نفضوا أيديهم عن قطر فليس لابن سعود حق التدخل في تلك المنطقة. وقد وافقت الهند وكيلها على رأيه.(١٦٨)

حين اندلعت الحرب العالمية الأولى كتب نوكس من بوشهر في أغسطس ١٩١٤م إلى الشيخ عبدالله بن ثاني يخطره بقيام الحرب بين بريطانيا وألمانيا. ورد الشيخ عبدالله على هذه الرسالة «ردّاً مشجّعاً» حيث لم يعد لتعامله بشكل فعّال مع

البريطانيين بد. كان الشيخ عبدالله يعاني من اضطراب أموره مع أسرته كما نفهم من خطابه في هذه الفترة إلى يوسف كانو. يقول عبدالله عن هذا البعض المنشق بعد أن يسمّيه «إني لا أريد أن أجاريهم في صلفهم وطغيانهم. لا يهتم هؤلاء لامرأة أو لطفل ولا يراعون حق الغريب. إنهم سادرون في غيّهم يعمهون في طغيانهم ولن أوافقهم على ذلك فحبل الظلم قصير. وإذا خرج أي منهم عن جادة الحق فإني سأحمله عليه حملاً وسأدفعه إلى طريق العدالة دفعاً. يقف هؤلاء ضد مجرى العدالة ولا يريدون ردّ المظالم وإني أداهنهم حالياً ثقة مني بأن الله سيهديهم سبل الرشاد».[١٦٩] ويشير الخطاب إلى أن أبناء عمومته قد استقطبوا إلى جانبهم خالداً وخليفة ابني محمد بن ثاني. ولا يستبعد عبدالله في خطابه هذا أن يهب هؤلاء في وجهه بالسلاح، ويطلب عبدالله إلى الشيخ يوسف كانو «أن يصدقه النصيحة لأنه يحتاجها في مثل هذه الأمور».

وتفيد أخبار هذه الفترة أيضاً أن الحامية العثمانية قد غادرت قطر بمعداتها ولم يبقَ منها هنالك سوى ٢٠ رجلاً. وكان هذا هو العامل الذي دفع بعبدالله لكي يلتقي مع البريطانيين بعد أن تخلّى عنه العثمانيون. وتشير تقارير سبتمبر بأن أفراد هذه الفرقة قد وصلوا إلى البصرة وأنهم قد وجدوها مغلقة فارتدّوا عائدين إلى قطر. ولم يمانع الشيخ عبدالله في استضافتهم مرة أخرى رغم تحرّج الوضع.[١٧٠]

لم تكن علاقة عبدالله مع ابن سعود إلاّ كعلاقته مع أبناء عمومته وبعض اخوته حيث اكتنفها الشدّ والجذب وخفّف من حدّتها عوامل روابط الدم ومحاولات التوفيق بين الأهداف المتعاركة. ونجد في هذه الفترة أخباراً تفيد بمحاولات لعبدالله لزيارة ابن سعود تفشل كلّها ومحاولة لابْن سعود لزيارة قطر تفشل بدورها.[١٧١] ومع هذه العلاقات المشدودة إلى درجة التوتر في كل اتجاه، كان هناك اتجاه سلس منساب يعمل على المحافظة على المنطقة في هذه الفترة المتوترة بعيدة عن الاضطرابات ورياح التغيير. وكان هذا الاتجاه هو اتجاه حكومة الهند البريطانية حيث أملت بهذه السياسة أن لا تشتت جهودها الحربية في قمع الاضطرابات القبلية والأسرية وتستبقيها لما هو أجل من ذلك وأنفع في خدمة غايات الحرب التي لم يكن دور أهل الخليج العربي فيها أو أثرهم عليها إلاّ هامشياً. وقد أشار كييس

في أحد خطاباته في سبتمبر بوجوب تهدئة منطقة قطر بكل الوسائل: «هل نمضي على قطع المشوار حتى نهاياته فننفي أبناء عمومة الشيخ، ونحذّر ابن سعود، ونعمل على وضع فرقة مسلّحة صغيرة في قطر، ونحتفظ لفترة ما بسفينة حربية مسلّحة هنالك؟». ويمضي كييس إلى القول بأنه سيزور قطر، «بعد أن يحـذّر ابن سعود بوضوح وجديّة لكي يرفع يده عن قطر». وأضاف بأنه سيجتمع في قطر بالشيخ عبدالله وبأقاربه لكي يحدّثهم في وضع العثمانيين في تلك المنطقة وأنهم ما عادوا يدعون قطر أبداً. وعلى هذا فإن ابن سعود، وهو موظف تركي، لا شأن له البتّة بشؤونهم، وأنّا قد حذّرناه. وسأطلب منهم أن يعملوا على المحافظة على السلام الذي يجب أن يسود العلاقة بينهم، وأن عليهم أيضاً أن يمنعوا كل الخارجين على القانون من أن يأووا إلى سواحلهم أو يستعملوها في أغراضهم. وينهي كييس بأنه سيقرّر بعدئذ «من خلال السلوك الذي ينتهجه الشيخ عبدالله وأقاربه عمّا إذا كنا سنعقد مع الشيخ اتّفاقاً». ويضيف كييس: «لا أريد أن أذهب إلى قطر في السفينة لورنس حيث إنّنا إذا لم نتمكن من عقد الاتفاق فستلاحقنا الإشاعات التي تشير بعجزنا عن تحقيق هذا الاتفاق وهذا ممّا سيقوي في عضد حزب ابن سعود، أمّا إذا اعتقدوا أني نجحت في عقد الاتّفاق فلربّما جنح البعض إلى القول بأن عبدالله قد باع قطر للإنكليز». واقترح كييس على المقيم أن يرسل إلى ابن سعود مع الهدية التي طلب شكسبير توصيلها إليه خطاباً «يهنّئه فيه بما نالـه من شرف من تركيـا حديثاً، وأن يركّز هنا على أن ابن سعود موظف تركي وأن أهنّئه على الإصلاحات التي جرت في القطيف، وأن أعبّر له عن ثقتي بأنه سيقوم بشؤون العدالة خير قيام في هذه المناطق التركية التي تربطها بالبحرين صلات وثيقة ومعاملات عديدة وأن أنهي إليه بأن هنالك إصلاحات في قطر يحدثها شيخها الحاكم الذي سحبت تركيا، التي يتبعها ابن سعود، كل ادّعاءات السيادة عليه». [١٧٢]

كتب نوكس في ٣٠ شوّال ١٣٣٢هـ/ ٢٠ سبتمبر ١٩١٤م بمجريات الحرب من وجهـة النظر الهنـدوبريـطانية إلى الشيـخ عبدالله. وردّ عبـدالله في ٢١ ذي القعدة/١٣ أكتوبر برسالة يمكننا اعتبارهـا أول رسالـة «ود» من شيخ قـطر إلى السلطات الهندوبريطانية حيث اتّضحت له من خلال يوسف كانو والآخرين النوايا

الهندوبريطانية تجاهه، كما أيقن بخطورة الوضع العثماني الضعيف في المنطقة فكان من السياسة والكياسة أن يهادن ويلاطف ويتّقي. جاء في الرسالة: «أمّا فيما يخص هذه الحرب التي أزعجت العالم على امتداده فقد تألّمنا جداً لاندلاعها ولا زلنا نرقب التقارير بشأنها وننتظر نتائجها. إنّنا في الحقيقة لم نكن نعرف من شأنها شيئاً حيث لم تصلنا التقارير التي نؤمل وصولها فكثرت الإشاعات هنا وفي الإشاعات تعشش الأراجيف وتزدهر الأكاذيب. كان هذا حالنا حتى وصول خطابكم إلينا وقراءة الملاحظات الواردة فيه التي أزالت الشك عن عقولنا. وقد ابتهجنا جداً بما ورد في خطابكم من أنباء سارة. ونحن إذ نقدر لكم نواياكم الطيبة تجاهنا ونشكركم عليها نعبّر عن سرورنا للانتصارات الكبيرة التي حازتها بريطانيا العظمى وحلفاؤها. ولا زلنا نأمل في استمرار أن تحوز بريطانيا الرفعة والنصر والنجاح في هذه الحرب الكبرى». (١٧٣)

كتب كوكس في ٢٩ رمضان ١٣٣٢هـ/ ٢٠ أغسطس ١٩١٤م إلى الهند ينادي بوجوب الإسراع بإرسال حملة هندية إلى الخليج. وأبرق هاردنج، نائب الملك في الهند، باقتناعه بوجوب الإسراع في إرسال الحملة فاستراتيجية الحرب تقتضي هذه المسألة. وأشار هاردنج، من منظور هندي بحث، إلى أن هدف هذه الحملة يكمن في استثمار صداقة العرب في المنطقة لحماية المصالح الأوروبية وأرواح الأوروبيين. ويرى هاردنج أن تمرّد العرب على العثمانيين سيخلق نوعاً من الفوضى ما لم تقم قوة هندوبريطانية بحفظ الأمن والنظام في الخليج العربي. واقتنع الوزير كريوى وأصدر موافقته بإرسال حملة هندية إلى الخليج وذلك نظراً لما ستحدثه هذه الحملة من تأثير معنوي على العرب «وليس بهدف حماية آبار البترول». كما أيّد هرتزل إرسال الحملة الهندية إلى الخليج العربي معتمداً على ما كتبه بورو (Borrow)، أمين الشؤون العسكرية في حكومة الهند، من أن الدولة العثمانية ستنضمّ إلى دول الوسط وأن الأمر لا يعدو أن يكون مسألة وقت لكي تعلن الدولة العثمانية موقفها صراحة. (١٧٤) وركّز هرتزل في مذكرته على أنه من الخطورة بمكان أن تترك منطقة أعالي الخليج العربي دون تأكيد سيطرة البريطانيين هناك، فإغفال ذلك سيؤدّي إلى نجاح الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا في إثارة مسلمي الهند

والخليج العربي ضد الوجود البريطاني برمّته. وفي ٢ أكتوبر ناقش مجلس الوزراء البريطاني هذا الرأي وأقرّ إرسال حملة من الهند البريطانية إلى شط العرب لحماية المصالح البريطانية هناك، وطلبوا إلى الهند تنفيذ الخطة المقترحة وذلك بإرسال الفيلق السادس (بونا) إلى الخليج العربي. واعترض هاردنج على نزول القوة في عبدان أو أي منطقة قريبة من الأرض العثمانية. واستقرّ الرأي أخيراً على نزول الحملة في البحرين. ووصلت الحملة إلى البحرين قبل إعلان الحرب مع الدولة العثمانية بيومين.[١٧٥] وصدرت الإعلانات بشأنها لشيوخ العرب في المنطقة جميعهم. وكان الشيخ عبدالله بن ثاني أهم هؤلاء الشيوخ في هذا الصدد لوجود حامية عثمانية في أراضيه، ولقربه من البحرين جغرافياً، وللعلاقة السياسية الخاصة التي تربط بين قطر والبحرين. أرسل كييس في ١٠ ذي الحجة ١٣٣٢هـ/ ٣٠ أكتوبر ١٩١٤م إلى عبدالله يخطره بوصول الفرقة إلى البحرين. وردّ عبدالله في ١٤ ذي الحجة/ ٣٠ نوفمبر بأن «كافة ما حرّره جنابك صار معلوماً من خصوص ما شرفتمونا به من الأخبار بوصول العساكر المنصورة إلى البحرين وأنها تبقا منتضرة أوامر الدولة المعظمة البريطانية مستعدة للحركة بوقت اللازم فنحن نشكركم على إفادتكم لنا وعلى الدوام نرجو أن تنال الدولة البريطانية العظمى اليد الطولا والنصر والتمكين...».[١٧٦] وبهذا الخطاب حدّد الشيخ عبدالله موقفه تحديداً لم يقم على مشاعره التي كانت مع العثمانيين الذين ظلّ يستضيف حاميتهم حتى هذه اللحظة في أرضه بل إنّه كان يعينها ويخفّف من معاناتها.

غادرت الحامية العثمانية البدع، كما سبق أن ألمحنا، ولكنهم عادوا إلى قلعتهم مرة أخرى حيث وجدوا مدخل شط العرب محروساً بالسفن الحربية البريطانية.[١٧٧] وتشير التقارير إلى أن موقف الحامية قد غدا في نهاية ذي الحجة ١٣٣٢هـ/ نهاية أكتوبر ١٩١٤م عصيباً جداً، وقد ساعدهم الشيخ عبدالله بأن أقرضهم ما تيسّر له من مال بعد أن تأخّرت رواتبهم.[١٧٨] وتسلّل أحد ضباط الحامية من البدع إلى المحرق فالكويت ثم إلى البصرة عن طريق الزبير. وتذهب بعض التقارير إلى أن هذا الضابط قد حصل في البصرة على خطاب من والي بغداد إلى ابن سعود يطلب إليه معاونة الحامية، ورجع الضابط إلى الكويت قبل سقوط البصرة

مباشرة. أعطى ابن سعود لهذا الضابط خطاباً إلى عبد اللطيف بن مناع ليسلمه ١٠٠ ليرة عثمانية و١٠٠ جوال أرز، و٢٠ صفيحة سمن. وقد أعطى ابن مناع للضابط المذكور المواد التموينيّة التي أمر بها ابن سعود لهم وكتب إلى عبدالله بن جلوى أمير الأحساء معتذراً بأنه لا يملك النقود التي أمر بها ابن سعود. وقام ابن جلوى بإرسال المبلغ بواسطة ابن زادة إلى عبد الرحمن الوزان الذي قام بدوره بتوصيله إلى الحامية العثمانية في قطر. ولعلّ في هذا ما يشير إلى إثبات حسن نوايا ابن سعود ودحض الكثير من الآراء غير المؤسّسة التي تقول بعداء ابن سعود للدولة العثمانية. كان لابن سعود حقاً يطلبه وانحازت الدولة إلى الجبهة المضادة فلقيت من بأس ابن سعود ما استخلص به حقّه ولم يزد في العداء. نرى ابن سعود يحرّض قاسماً على هذه الحامية حين كان يخشى منها حال قوة الدولة العثمانية ويدعمها حال ضعفها وعدم تأثيرها على الأحساء.

ضمّت حامية الدوحة في هذا الوقت ٩٠ جندياً فقط يقال إن كلّهم كانوا من مواطني البصرة وبغداد، وكانوا بقيادة جواد أفندي وسيّد شاكر أفندي وكلاهما مواطن من بغداد أيضاً. وتشير التقارير البريطانية الواردة من البحرين بأن شعور الرأي العام في قطر مساند لتلك الحامية كما هو الحال في البحرين التي يريد الأهالي فيها أن يتبرعوا لهم.[١٨٠] ويشير هذا التقرير الذي كتبه كييس في ٢٢ ذي القعدة ١٣٣٢هـ/ ١١ نوفمبر ١٩١٤م بأن الشيخ عبدالله رغم «رغبته في عقد اتّفاق معنا إلاّ أنه غير منزعج من وجودهم. إنّنا إذا هاجمناهم دون إذن عبدالله فإنّنا نخرق بهذا تعهداتنا التي التزمنا بها من أننا لن ندخل الجزيرة العربية في حرب إلاّ لخدمة الأهداف العربية» ورأى كييس أنه ليس من الضرورة في الوقت الراهن مقاومة هذه الحامية فهي «ضعيفة وسيهرب رجالها حين ترسل عليهم أول قذيفة».[١٨١] وأشار كييس إلى عدم ضرورة تدمير القلعة إلاّ في حالة محاولة العثمانيين إنزال بعض رجالهم إلى البر. وانتهت رسالة كييس بأن الحامية تتآكل من نفسها حيث صعوبات المؤن والإمدادات وعدم دفع الرواتب تجبر الجند على الفرار، وأن هؤلاء الفارين يصلون أفراداً إلى البحرين ولا يسببون إزعاجاً. وعلى العموم حين نستطيع أن نأتي بفيلق من العراق لمهاجمة الحامية فلن يكون لتلك خيار سوى التسليم».

أرسل كوكس في ١٦ رمضان ١٣٣٣هـ/ ٢٧ يونيو ١٩١٥م ضابطاً عثمانياً أسيراً هو عبد الجبار أفندي بخطاب إلى كييس في البحرين طالباً إليه أن يعمل على ترحيله إلى البدع لإقناع الحامية العثمانية بالتسليم.(١٨٢) وكتب كوكس إلى الشيخ عبدالله أيضاً رسالة جاء فيها. . «أرسل لكم الضابط التركي عبد الجبار أفندي الذي يحمل رسالة مني إلى قائد الحامية التركية حيث يرى القائد للقوات البريطانية هنا وجوب خروج هذه الحامية. ويرى كذلك أنه من الأنسب، إذا كان ذلك في الإمكان، أن نتجنب إرسال بارجة حربية أو قوات عسكرية إلى مينائكم حتى لا تكون هناك إراقة للدماء. إن اعداد هذه الحامية ضئيلة جداً وأنهم مهما حاولوا أن يحاربوا بشجاعة فإنهم في النهاية لا محالة خاسرونْ حياتهم. ولهذا رأيت أن أرسل لكم هذا الضابط على أمل أن يتمكن من أن يأتي بأفراد هذه الحامية إلى البحرين، ويمكن لهم أن يحملوا عند خروجهم أسلحتهم معهم. ويسرّني أن أطلب إلى سعادتكم مدّهم بقوارب شراعية وبكل الضرورات التي يحتاجونها من أجل ترحيلهم إلى البحرين. وسأسدّد لكم كافة التكاليف حين أتلقّى منكم إشعاراً بذلك. إني أعتمد على تعاونكم في أمر خروج هؤلاء الجنود الأتراك بهدوء حتى لا نضطرّ لإجلائهم بالحرب والقذف بالمدافع من السفن. عليهم أن يسلموا أنفسهم للوكيل السياسي في البحرين الذي سيتولى بدوره إرسالهم لي لكي ينضموا إلى قافلة الأسرى هنا حيث سنرحلهم بالعناية اللازمة إلى المكان الذي نرسل إليه الأسرى في الهند».(١٨٣) ولم تنجح مهمة عبد الجبار مع تأكيده بأن «الجنود سيغادرون بشرف حيث لن تنزع عنهم أسلحتهم ولا شاراتهم وأن الوكيل البريطاني في البحرين سيستقبلهم بالحفاوة ثم يرسلهم إلى البصرة ومنها إلى معسكر الأسرى في الهند(١٨٤) ليبقوا حتى نهاية الحرب، ولن يعاقبوا أبداً». ولم يُسلِّم الجنود، وحين ظهرت سفينة حربية بريطانية أمام القلعة عمد الشيخ عبدالله إلى الاتّصال بهم حقناً لدمائهم فتفرقوا. وبهذا انتهت في ٩ رمضان ١٣٣٣هـ/ ١٩ أغسطس ١٩١٥م آخر نقطة نفوذ للعثمانيين في الخليج العربي الذي أصبح بعد دخول شيخ قطر في المتهادنين وكأنه بحيرة بريطانية لا أثر فيها لأي نفوذ دولي آخر.

خاتمة

توفي الإمام فيصل وثارت الفتنة بين أبنائه فرأت الحكومة العثمانية أن تتدخل لإخماد النزاع. خشي العثمانيون اضطراب حبل الأمن في الطرق المؤدية إلى البلاد المقدسة وامتداد هذا النزاع إلى تلك البقاع الطاهرة. وقد ساعد الدولة العثمانية في تطلعها للتدخل في نجد التقدم التقني في المواصلات والاتصالات، وطموح بعض الولاة والحكام لبسط سيادة الدولة في الشرق، وانحياز بعض أطراف النزاع في نجد للدولة العثمانية، والتغاضي البريطاني أول الأمر عن ذلك التحرك العثماني. وحفز الدولة للتدخل في المنطقة رجال من ساستها كانوا يأسفون لخروج بعض المقاطعات الأوربية من يد الدولة فأرادوا أن يقووا من موقفها في بلاد العرب.

ساقت الدولة العثمانية جنودها من بلاد ما بين النهرين قاصدة الأحساء لتؤازر طرفاً من أطراف الصراع وتتمكن منه ثم تدخله بعد ذلك بشكل قاطع ضمن نفوذها وتحت حكمها. لم يكن تخطيط تلك الدولة لحملتها ناجحاً، ولا تقييم ساستها للأمور ناجعاً، كما لم يكن إيمان الجندي الذي يحمل السلاح بما يساق إليه صادقاً. وهكذا لاقت الحملة من العقبات ما جعلها تقف في الأحساء وتكتفي بها بالرغم من كونها «حملة نجد». لم يحاول العثمانيون بعدئذ رأب الصدع بين أبناء فيصل ولم يتمكنوا من السيطرة على أحد منهم. ولهذا لم يجدوا الأسباب التي تحملهم إلى داخل نجد التي لم يكن قهرها بالجيوش المنظمة أمراً ممكناً. وعلى الرغم من عدم تمكن العثمانيين من نجد إلا أن النزاع الداخلي الذي كان يعتمل في قلبها، والحصار المضروب عليها من الخارج، وسنين الجدب والمعاناة التي أحدثتها الطبيعة، دفعت بنجد خارج القبضة السعودية. وسكنت بهذا رياح الدولة

السعودية الثانية (الوسطى) ثم خمدت، وحلّ فوق دست السلطة في المنطقة شيخ قويٌ طموح من شمّر حسنت علاقاته بالعثمانيين.

لم يتمكن العثمانيونَ من اجتياز الدهناء في اتجاه الرياض ولكنهم على أية حال أمنوا كل خطر يأتيهم من تلك الناحية حيث لم يكن بمقدور الجماعات المناهضة لهم أن تظهر في أعداد مؤثرة من تلك الدروب. كان على القيادة العثمانية في الأحساء أن تؤمِّن حدودها شمالاً وجنوباً وأن تقيم إدارة مؤثرة في المنطقة تحفظ بها الأمن. وإذا كانت الكويت مع بداية الإمتداد العثماني إلى الأحساء أرضاً عثمانية الهوية حيث لم تكن استراتيجية الهند قد امتدت إليها بعد، فإن قطراً كانت في تخطيط الهند حداً فاصلاً بين الساحل العماني المقيد بتعهدات الهند البريطانية وبين الأرض التي لم تكن حكومة الهند البريطانية تتطلع إليها أو تطمع فيها لأنها لم تكن تدر ربحاً اقتصادياً ولا نفعاً للاستراتيجية الأمنية وحين امتد العثمانيون إلى قطر لتأمين وضع جنودهم ارتاب سادة الهند في هذا الامتداد وسارعوا لوضع حد له وكانت العديد هي حدهم المرسوم الذي أعلنوا بأنهم لن يسمحوا بأي امتداد فيما وراءه. أما البحر فلم تكن الهند تساوم فيه بحال ولهذا كان دفاعها عن البحرين منذ البداية ضارياً.

لاقت قطر في سبيل الراية العثمانية الكثير من الصعاب وبذلت، خاصة تحت رعاية شيخها قاسم آل ثاني، الكثير من التضحيات. اندفعت قطر تجاه الدولة العثمانية بالروابط الإسلامية ولكنها لم تجد من الدولة العثمانية وسادتها وإدارتها الواهية في الأحساء أية مساعدة أو دعم يؤهلها للثبات في وجه قوة الهند البريطانية ومراكب الأسطول البريطاني. ولم تزد تلك الدولة في دفاعها عن قطر عن الاحتجاج لبريطانيا أو شجب أعمالها هناك. ولم تفد قطر من احتجاج الساسة العثمانيين ولا من شجبهم شيئاً.

تدخل الكويت، مع امتداد الخطوط الحديدية إلى المنطقة في استراتيجية الهند وتصبح في وقت وجيز جداً حجر زاوية في تلك الاستراتيجية. اقتضى أمن الهند أن تقبض لندن بشدة على كل المخانق البحرية في دروب الهند وتمنع بكل قوة الامتداد

الدولي من خلال تلك المخانق إلى مناطق النفوذ والحكم والسيطرة البريطانية. وحين قامت الكاريتلات الدولية غير البريطانية من المانية وروسية وغيرها بعد اكتشاف البخار تخطط لقيام سكك حديدية تفتح بها اليابسة على البحر كان على حكومة بريطانيا في لندن والأخرى في الهند أن تعمل بكل صرامة لإغلاق هذا المنفذ الجديد والتحكم فيه دون القوى الدولية الأخرى. وقفت الهند وبريطانيا من خلفها عند الكويت وقفة صادقة لمنع ولوج كل القوى الدولية المختلفة إلى الخليج عن طريق الكويت. ولم تكن بريطانيا إلا دولة اسطولية لا يشكل جيشها قوة أمام القوى الأوروبية القارية التي تسعى براً لبلوغ البحر. لم تشأ بريطانيا، كما هو شأنها في تلك الفترة، أن تدخل في صراع بري فوقفت بأساطيلها عند الكويت التي أرادتها رقعة ساحلية ضيقة يمكن الدفاع عنها بمدافع الأسطول. وكان لبريطانيا ما أرادت وخرجت الكويت من قبضة العثمانيين خروجاً بيِّنا اعترف به العثمانيون فيما بعد، كما اعترفوا أيضاً بخروج قطر وانحصر العثمانيون في الأحساء. وما كانت إدارة الأحساء العثمانية تدرك الهدف من وجودها على تلك الأرض ولهذا أوغلت في دروب لم تؤد إلى تحقيق هدف سوى اثراء بعض المتصرفين وزيادة في الضرر الواقع على الأهلين. ونسي كثير من المسؤولين في تلك الإدارة الرابطة الإسلامية التي تجمعهم مع الاعراق الأخرى وسادت الإدارة نغمة الترك والعرب وكان الإنقسام. وفشلت الإدارة بهذا فشلاً مريعاً.

جهدت الدولة البريطانية في قصر الكويت بحدودها ومصالحها على الساحل غير أن الأحداث الداخلية في مشيخة الكويت كانت تشد الكويت إلى الداخل. كان على مبارك شيخ الكويت، لكي يضمن بقاءه في سدة الحكم، أن يتعامل مع المشاكل التي أثارها بقتله أخويه اللذين كانا يحكمان الكويت وأراد الشيخ مبارك أن يخمد تلك الفتنة بالمال فصب الرشوة للإدارة الحكومية في البصرة وبغداد وما خلفهما فأُجهد مادياً ولم يظفر بطائل كبير. وكان على الشيخ أن يتعامل عسكرياً مع آل رشيد الذين أصبح لهم الريادة في نجد والذين كانوا يستضيفون أبناء القتيلين وأقرباءهم وأنصارهم المطالبين بالثأر وبالمشيخة. اضطر مبارك أن يستعين في نضاله ضد آل رشيد بالسعوديين الموجودين في كنفه والذين كان لهم حق يطلبونه في نجد

كما استعان بالعائلات القصيمية النجدية الأخرى التي سئمت حكم آل رشيد وخرجت تعتصم بالكويت.

تحرك الإمام عبد الرحمن وابنه عبد العزيز ومن والاهما من أفراد الأسرة السعودية والعوائل النجدية الأخرى صوب نجد. وحقق هذا الجمع انتصارات فتحت طريق عودة السعوديين إلى عاصمة ملكهم. خروج السعوديين إلى نجد من الكويت التي ارتبطت في هذه الفترة ارتباطاً وثيقاً بالبريطانيين بحكم وضعها في الاستراتيجية الأمنية للهند، أدى إلى تدخل العثمانيين لمساندة آل رشيد اعتقاداً منهم بأن الارتباط السعودي المباركي يمكن أن يجر معه نفوذاً بريطانياً من خلال مبارك إلى داخل شبه الجزيرة. وقد برهنت الأيام اللاحقة خطل هذا الرأي حيث لم تكن بريطانيا راغبة أبداً في امتداد نفوذها إلى الداخل بل أنها وقفت بكل حزم ضد امتداد نفوذ الكويت وشيخها إلى تلك الأرجاء. لم تكن بريطانيا تسعى لحيازة أرض أو نفوذ في منطقة لا تحقق لها هدفاً ولا تثمر سوى زيادة في أعباء الدفاع وامتداد على رمال ليس للعسكريين البريطانيين بها خبرة أو دراية.

وجد عبد العزيز بن سعود نفسه بين الدولة العثمانية التي ترتاب في نواياه وتعرقل خططه وتقف له بجندها وعتادها لأنه ينطلق من نقطة نفوذ بريطانية، وبين بريطانيا التي ترتاب بدورها في نواياه ولا تعمل على أن تعينه خشية أن يمتد نفوذ شيخ الكويت من خلال السعوديين إلى الداخل فيرهقها بذلك في الدفاع عنه، أو ربما أدى الأمر إلى إحياء الدولة الوهابية «التي يُحدِّث تاريخها على امتداده عن تناقض واضح مع السياسة الهندوبريطانية في الخليج. وبهذا لم يجد الأمير عبد العزيز الدعم لدى العثمانيين ولا عند البريطانيين. أما دعم مبارك فقد ناله عبد العزيز بالقدر الذي يتسق ورغبات مبارك. قامت خطة مبارك في نجد على إنهاك أسرة آل رشيد والمحافظة ـ في نفس الوقت ـ على بقائها خاصة بعد أن يئس من أن يحقق لنفسه سيادة على نجد. أراد مبارك لآل سعود وآل رشيد أن يقتتلا وينهك بعضهما البعض حتى يأمن وجود قوة ضاربة على أطراف حدوده. لم يكن يهم مبارك، بعد أن استوثق أن حصاد نجاح الأمير عبد العزيز لن يكون له، إلا تحقيق

التوازن بين القوتين المتصارعتين في نجد واستمراره حتى يصبح له دور الحكم في السلم والمرجح في الحرب.

أدرك عبد العزيز أن انفتاحه على العالم عن طريق الكويت لم يعد ممكناً إلا بالتجاوب الكامل مع رغبات مبارك وبالخروج الكامل من المعسكر العثماني. ولهذا اتجه إلى قطر أولاً ثم الأحساء ثانياً يبحث عن نافذة على العالم برضاء العثمانيين وبمباركتهم. ولم يصب عبد العزيز مع العثمانيين حظاً كبيراً. أراد الأمير عبد العزيز بعدئذٍ أن يقسر العثمانيين على التعامل معه بعد أن يظهر على مياه الخليج العربي ليجد لنجد ساحلاً غير الكويت يربطها بالعالم الخارجي. كان عبد العزيز يعلم أن ظهوره على ساحل الخليج العربي لم يكن ممكناً بغير رضاء بريطانيا التي تستعمر مياه الخليج فاتصل بالبريطانيين. ورفض البريطانيون التعامل مع ابن سعود وأصروا على التعامل مع الدولة العثمانية بدلاً منه إذ هم يعرفون تماماً سياستها في المنطقة واحتجاجاتها وشجبها حين يريدون امضاء أمر ما، أما عبد العزيز فإنهم لا يعرفون من أمره شيئاً بعد. ولهذا عقد البريطانيون قبيل الحرب مع العثمانيين اتفاقاً بشأن الخليج وأصروا على الزام عبد العزيز بهذا الإتفاق بزعم أنه «موظف تركي».

تهب رياح الحرب العالمية الأولى ويعيد البرطانيون تقييم الأمر بعد أن تيقنوا من أن الدولة العثمانية تقف في المعسكر المناوىء. تسرع بريطانيا إلى احتضان عبد العزيز بن سعود الذي تلقاهم بفتور. وانتهى الأمر بعقد معاهدة بريطانية سعودية اعترفت بالأمير عبد العزيز صراحة، ونال عبد العزيز بعدها المساعدات والدعم، ولكنه لم يقدم لهم دعماً ولم ينحز إلى معسكرهم وبقي في تلك الحرب على الحياد حتى ورث ما حدده الإتفاق الانجلو عثماني من أرض الدولة العثمانية في الخليج. وكان حياد عبد العزيز مؤثراً ومفيداً للبريطانيين حيث شلّ حركة ابن رشيد الموالي للعثمانيين وأبقى ، فوق هذا، على قبائل المنطقة منضبطة لا تثير الشغب أو تؤثر بشكل فعال في أحداث العراق العثماني.

ضمنت الهند في الخليج العربي حياد ابن سعود، كما ضمنت انحياز البحرين الكامل لها رغم الشعور العام المتعاطف مع العثمانيين. وقاومت حكومة الهند الوجود العثماني في قطر وعملت على التخلص منه بشتى الوسائل، ولكنها كانت

تصطدم دائماً برجل قوي الشكيمة صادق العزيمة هو قاسم آل ثاني الذي كان يصر صادقاً على الوجود العثماني رغم ما كان يلقاه من هذا الوجود. وحين حقق البريطانيون مع العثمانيين اتفاق ١٩١٤م كان على الحامية العثمانية في البدع أن ترحل رغم أن الشيخ عبدالله كان يرغب في استمرار وجودها لكي يتقي بها رياح التغيير، التي بدأت تهب في المنطقة بعنف عاصفة بثوابتها. ومع اندلاع الحرب وورود الدولة العثمانية أتونها ذابت فلول الحامية العثمانية في قطر. وبدا الخليج العربي في هذا الوقت وكأنه بحيرة بريطانية بدأ في تحقيق السلام البريطاني بعد أن توارى عنها شبح العثمانيين وانصرف ابن سعود، بعد أن أمن الخطر العثماني من الأحساء، إلى بناء الدولة السعودية الحديثة (الثالثة).

ذيول وتعليقات

الفصل الأول

١ محمد بن عبدالله بن عبد المحسن آل عبد القادر الأنصاري الاحسائي (الاحسائي)، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد، مطابع الرياض، ١٣٧٩ هـ، ص ١٦٥.

٢ Palgrave, W.G., A Year's Journey through Central and Eastern-Arabia, 2 vols. London 1865, vol 2, p.47.

٣ Ibid, p.48

٤ ابراهيم بن صالح بن عيسى (ابن عيسى)، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان (من ٧٠٠ هـ إلى ١٣٤٠ هـ). منشورات دار اليمامة، الرياض، د.ت، ص ١٧٣ - ١٧٤.

٥ ابراهيم بن عبيد العبد المحسن (آل عبد المحسن)، تذكرة أولى النهى والعرفان بأيام الواحد الديان وذكر حوادث الزمان، ٤ أجزاء، الرياض، د.ت، ج ١، ص ١٦٦.

٦ المرجع السابق، ص ١٧١.

٧ المرجع السابق، ص ١٧٢.

٨ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٨.

٩ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي ١٢٧٥ - ١٣٣٣، ١٨٥٨ - ١٩١٤، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٢٦)، الرياض ١٤٠٢ هـ، ص ١٣١ - ١٣٣.

١٠ (IOR) L/ PaS/20/240، Precis of Nejd Affairs (PNA) by J.A. Saldana., p.23.

١١ نور الدين عبدالله السالمي (السالمي)، تحفة الأعيان لسيرة أهل عمان، جزءان، دار الكاتب العربي بمصر، ط ٢، ١٣٨٠ هـ، ج ١، ص ٢٢.

١٢ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٠.

١٣ الاحسائي، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٩.

١٤ آل عبد المحسن، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٦.

١٥ Precis of Turkish Expedition، by Saldana (PTE) p.13.

١٦ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٨١.

١٧ PTE, p.20.

١٨ ibid. p.20.

١٩ كان عبد الله مقيماً مع قحطان في منطقة الروضة بالقويعية. راجع: آل عبد المحسن، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠.

٢٠ PTE, p.20.

٢١ آل عبد المحسن، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠.

٢٢ PTE, p.21.

٢٣ Loc. cit.

٢٤ مذكرات مدحت باشا، نشرها ابنه يوسف كمال حتاته، ط ١، مطبعة هندية بالموسكى، د.ت. ص ١٧٣.

٢٥ PTE, p.21.

٢٥ ـ أ يؤيد هذا أن الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ كان في بداية الأمر في صف الامام عبدالله، واستنكر ما قام به سعود ضد أخيه، ومفارقته أمر جماعة المسلمين حين خرج على امامه. أوصى الشيخ عبد اللطيف الأمام عبدالله بعدم الركون إلى العثمانيين، «لما في ذلك من هدم لأصول الاسلام وهدم لقواعده العظام». ونجد الشيخ عبد اللطيف بعد هذا في صف سعود ضد عبدالله.

عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، الرسائل والمسائل النجدية، جمعها سليمان بن سحمان، مطبعة المنار بمصر، ص ٢٤٨.

راجع كذلك «تذكرة أولى النهى والعرفان» ج ١، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

٢٦ مذكرات مدحت باشا، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

٢٧ جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ م، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٧١.

٢٨ مذكرات مدحت باشا، ص ١٧٥.

٢٩ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم (ترجمة وإعداد)، رحلة جورج فورستر سادلير، عمل غير منشور جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض.

٣٠ عبد العزيز ابراهيم (ترجمة وإعداد)، رحلة لويس بيللي، عمل غير منشور جامعة الإمام، ، ،

٣١ (IOR) Home Correspondance, Elliot to Granville, 27 Feb., 1871.

٣٢ (PRO) F.O 78/2/74, Elliot to Granville, Apr.3 1871.

٣٣ PTE., p.13.

٣٤ ibid, p.14.

٣٥ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، سياسة الأمن، ص ٢١٢.

٣٦ (IOR) Secret letters and Enclosures from India ,From Pelly to Simla.

٣٧ PTE ,p.14.

٣٨ ibid ,p. 15.

٣٩ Loc. cit.

٤٠ ibid, pp.15-16.

٤١ (IOR) L/P & S/20/C 248 B, Naval Arrangements for abolition of Indian Navy, p.6.

٤٢ PTE, p.27.

٤٣ (IOR) Secret Letters and Enclosures from India, 8, Herbert to Simla.
٤٤ (IOR) L/P& S/20/ 247، Precis of Bahrein Affairs (P.B.A) by JA Saldana, 8 Nov. 1904., p.30.
٤٥ (IOR) Home Correspondance, 67, Pissani to Elliot, 12 May 1871.
٤٦ Loc. cit.
٤٧ PTE, p.17.
٤٨ ibid p.18.
٤٩ P.B.A., p.30.
٥٠ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، سياسة الأمن. . . ص ٢١٨.
٥١ (PRO) F.O. 78/2/76, Midhat to Herbert, 1st June 1871.
٥٢ (IOR) Secret Letters and Enclosures, 8, Herbert to Simla, 2 June 1871.
٥٣ مذكرات مدحت باشا، ص ١٧٥.
٥٤ (IOR) L/P & S/18/B.9. Memo on Separate claims.
٥٥ (IOR) Secret letters and Enclosures From India, 8, Herbert to Simla.
٥٦ Loc. cit.
٥٧ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، سياسة الامن. . ص ٢١٧.
٥٨ PTE, p.25.
٥٩ ibid. p.26.
٦٠ مذكرات مدحت باشا، ص ١٧٦.
٦١ (PRO) F.O. 78/2/76, Herbert to Government of India (G 01) 21 June 1871.
٦٢ PTE, p.29.
٦٣ الاحسائي، مرجع سبق ذكره، ص ١٧١.
٦٤ PTE, p.45.
٦٥ Loc. cit.
٦٦ العبد المحسن، مرجع سبق ذكره، ج ١، ص ١٨٩.
٦٧ مذكرات مدحت باشا، ص ١٧٦.
٦٨ PTE, p.47
٦٩ لوريمر ج.ج.، دليل الخليج القسم التاريخي، ٧ أجزاء، جـ٣، ترجمة قسم الترجمة مكتب أمير قطر، د.ت، ص ١٢١٨.
٧٠ PTE, p.25.
٧٠ ـ أ احتج قاسم بانه اذا كان الانكليز سلاطين البحر فإن العثمانيين أصبحوا سلاطين البر، وليس لدى قطر الإمكانات الكافية لوقفهم دون أن يبلغوا قطر. راجع صلاح العقاد «حملة مدحت باشا في شبه الجزيرة العربية سنة ١٨٧١ م وصداها في منطقة الخليج، بحث مقدم إلى مؤتمر دراسات شرقي الجزيرة العربية، الدوحة، لجنة تدوين تاريخ قطر ١٩٧٦ ص ٩٣٣.
٧١ ibid. p.26.
٧٢ لوريمر ج ج، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٢١٨.

٧٣ .PTE, p.26

٧٤ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، سياسة الأمن... ص ٢١٩.

٧٥ .PTE, p.26

٧٦ لوريمر ح.ج، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٣٦١.

٧٧ PTE, p.31

٧٨ PBA, p.31

٧٩ PTE, p.31

٨٠ .ibid ,p. 34

٨١ .ibid ,p. 47

٨٢ آل عبد المحسن، مرجع سبق ذكره، ج ١، ص ١٩٣.

٨٣ .PTE, p.48

٨٤ مذكرات مدحت باشا.

٨٥ .(IOR) L/P7 S/20/c 240, PNA, p.3

٨٦ .Loc. cit

٨٧ آل عبد المحسن، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٢.

٨٨ الاحسائي، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٣.

٨٩ .PTE, p.49

٨٩ـ أ أورد ضاري بن فهيد في هذا الصدد تعبيراً طريفاً حيث قال عن نجد بأنها منطقة «اذا كثر فيها الجند جاعوا وان قلوا ضاعوا». راجع:

ضاري بن فهيد آل رشيد، نبذة تارخية عن نجد، كتبها عن لسان ضاري/ وديع البستاني، منشورات دار اليمامة، الرياض ١٣٨٦، ص ٣٢.

٩٠ Memo by Blech in, «Robin Bidwell, The Affairs of Kowait 1896- 1905. Foreign Office Confidential Print. Correspondance respecting the affairs of Kowait, 2 vols. Frank and Cass, 1971. vol.I, part IV, p.38.

٩١ .Loc. cit

الفصل الثاني

١ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، سياسة الأمن، ص ٢٢٣.

٢ .Precis of Turkish Expedition (PTE) p.28

٣ جمال زكريا قاسم، الخليج العربي ـ دراسة...، ص ١٩٠.

٤ .PTE ,p.30

٥ .ibid ,p. 34

٦ .Loc. cit

٧ .ibid, p.35

٨ مذكرات مدحت باشا، ص ١٨٠.

٩ PTE, p.36

١٠ لوريمر ج.ج، دليل الخليج التاريخي، ج ٣، ص ١٣٦٢.

١١ PTE, p.37-38.

١٢ ibid, p.40.

١٣ ibid, p.42.

١٤ (IOR) L/P & S/20/24., Precis of Bahrein Affairs, (PBA) p.32.

١٥ ibid, p.53.

١٦ ibid, p.68.

١٧ PTE, p.42.

١٨ ibid.p. 43

١٩ (IOR) L/P & S/20/CX 243, Precis of Katar Affairs. p.14.

٢٠ L/P & S/20/ 241, PBA, p.34.

٢٠ ـ أ قام القبيسات، وهم فرع من بني ياس، بمغادرة أبو ظبي وذلك بقيادة الشيخ خادم بن نهيان، واستقروا في العديد. وكان هذا نتيجة لخلاف بين الشيخ خادم والشيخ خليفة، شيخ أبو ظبي. هاجر القبيسات مرة أخرى في ١٨٤٩ م وأجبروا على الرجوع ثانية من العديد. وفي ١٨٦٩ م قامت هذه الفئة بالهجرة الى العديد للمرة الثالثة بقيادة بطي بن خادم. وفي ١١ مارس ١٨٧١ م خاطب المقيم بيللي حكومته في بومباي بأن شيخ أبو ظبي يشكو من أن خروج القبيسات إلى العديد قد أضعف ابو ظبي عسكرياً، كما أن العديد أصبحت ملاذاً للفارين من الدائنين. عن أصول المشكلة وأطوارها وتطوراتها المختلفة راجع:

جمال زكريا قاسم، مرجع سبق ذكره، ص ١١٩.

عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا دراسة وثائقية، دارة الملك عبد العزيز (٢٦) الرياض، ص ١٨٢.

وعن الأثر الذي أحدثته في سياسة الأمن الهندية في الخليج راجع: عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، سياسة الأمن... ص ٢٢٠ ـ ٢٣٩.

٢١ L/P & S/20/241, PBA, p.16.

٢٢ ibid, p.17.

٢٣ ibid, p.19.

٢٤ Loc. cit.

٢٥ L/ P & S/8/ B.19., Turkish Jurisdiction Along the Arabian Coast, Part 1.

٢٦ L/ P & S/20 CX 243, PKA p.42.

٢٧ L/P & S/20/ 241, PBA, p.36.

٢٨ (IOR) R/15/2/ 29, GOI to PR, Nov. 10, 1874.

٢٩ Same Series and vol., PR to SK Esou b.Abi, 2nd Zilkaada 1291, 12 Dec. 1874.

٣٠ Same Series and vol., Sk. Esau to PR, 24 Ramazan 1291, Nov.5, 1874.

٣١ Same Series and vol., PR to SK. Esau, 14 Mar. 1875.

٣٢ Same Series and vol., PR to GOI, 20 Mar. 1875.

٣٣ L/P & S/20/241., PBA, p.46.
٣٤ (IOR) R/15/2/ 29, PR to SK. Esau b.Ali Al Khalifa. 4 Suffur 1292, 12 Mars 1875.
٣٥ Same Series and vol. PR to SGI, 20 Mar. 1875.
٣٦ L/P & S/20/241, PBA, p.38.
٣٧ (IOR) R/15/2/29, Condensed Abstract, No.22.
٣٨ L/P & S/20/241.
٣٩ PBA, p.34.
٤٠ L/P & S/20/CX 243, PKA., p.43.
٤١ ibid, p.37.
٤٢ ibid, p.38.
٤٣ Loc. cit.
٤٤ ibid, p.40.
٤٥ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، سياسة الأمن. . .، ص ٢٣٨.
٤٦ L/P & S/20/241, PBA, p.86.
٤٧ L/P & S/20/CX 243., PKA, p.43.
٤٨ ibid, p.44.
٤٩ L/P & S/20/241., PBA, p.87.
٥٠ L/P & S/20/CX 243., PKA, p.43.
٥١ L/P & S/20/241., PBA, p.87.
٥٢ L/P & S/20/CX 243., PKA, p.45.
٥٣ L/P & S/20/241, PBA, p.87.
٥٤ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، سياسة الأمن. . .، ص ٢٣.
٥٥ L/P & S/20/CX 243, PKA, p.24.
٥٦ ibid., p.25.
٥٧ L/P & S/20/241., PBA, p.24.
٥٨ (IOR) R/15/2/29, Sk Jassim b.Thani, to PR, Jan. 9. 1881.
٥٩ Same Series and vol., PR to Jassim, Jan.28, 1881.
٦٠ L/P & S/20/241., PBA, p.64.
٦١ Loc. cit.
٦٢ L/P & S/20/XC 243., PKA, p.24.
٦٢ - أ حين سئل قاسم هل يعتقد بأنه عرابي آخر، رد بأنه عرابيان وليس واحداً فقط.
٦٣ ibid, p.25.
٦٤ L/P & S/20/241., PBA, p.68.
٦٥ ibid,p. 69.
٦٦ (PRO) FO./78/5/ 08, PR to F.Simla, 6 Oct. 1887.
٦٧ Same Series and vol., PR to F. Simla, Nov.19, 1887.

٦٨ Same Series and vol., F. Simla to PR, Nov.24, 1887.

٦٩ (IOR) R/15/2/29, Lord Baren's dispatch to F.O. 5 Apr. 1888.

٧٠ Same Series and vol., Lord Salisbury's letter of 17 Apr. to British Ambasador Constantinople.

٧١ (PRO) F.O./78/ 5/08, PR to F. Simla.,14 Dec. 1887.

٧٢ (IOR) R/15/ 6/19, PR to GOI, (F.D), 4 Feb. 1889.

٧٣ (IOR) R/15/ 2/29, Sk. Jassim b.Thani to Abdullah Pasha Ibn Thaniyan Al Saud, 23 Ramadan, 1302., 9 June 1888.

٧٤ Loc. cit.

٧٥ (IOR) R/15/ 6/19, PR to GOI (F.D), 4 Feb. 1888.

٧٦ (IOR) R/15/ 1/190, News Report No.229 of 1888, Bushire 25 July 1888.

٧٧ Same Series and vol., RA Shargah to PR, 25 July, 1888. CF; No.25 of 1888, August 1888.,From PR to RA.

٧٨ Same Series and vol., From the Report No 243 of 1888, 8 August, 1888.

٧٩ (IOR) R/15/ 6/19, I O to Undersecretary of State F.O., 12 July 1888.

٨٠ Loc. cit.

٨١ Loc. cit.

٨٢ (IOR) R/15/ 1/190, Teleg. of 27 Aug. 1888 from Simla to PR.

٨٣ (IOR) R/15/ 6/19, From Jasim b.Thani to Sk. Esau b.Ali, Chief of Bahrain, 13 Jan. 1889.

٨٤ Loc. cit.

٨٥ Same Series and vol., officiating R.A Sharjha to PR ,13 Jan. 1889.

٨٦ Same Series and vol., Officiating RA Sharja to PR, 18 Jan. 1889.

٨٧ Loc. cit.

٨٨ Same Series and vol., Extract from a note written by officiating RA Sharjha to PR, 25 Jan. 1889.

٨٩ Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 27 Jan. 1889.

٩٠ Loc. cit.

٩١ Same Series and vol., News Report by RA Sharjha dated 31 Jan. 1889.

٩٢ Loc. cit.

٩٣ Same Series and vol., RA Sharjha to PR, 7 Feb. 1889.

٩٤ Loc. cit.

٩٥ Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 13 Feb. 1889.

٩٦ Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 14 Feb. 1889.

٩٧ Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 25 Feb. 1889.

٩٨ Same Series and vol., RA Sharjha to PR, 23 Mar. 1889.

٩٨ ـ أ نقل الكتاب الوارد من راشد بن مكتوم راعي دبي باسم جناب السيد سعيد بن محمد في ١٩ محرم ١٣٠٣! هـ.

لم لا يخفا عليك وصلنا خط من قاسم بن ثاني ومعرفنا ان الدولة لهم نظر في عمان ومرادهم يوسطونه وذكر لنا يلتمسنا في هذا الجواب لصحبة بيننا وبينه ونحن ردينا عليه بالصفح عن ذالك المادة وعدم الخوض فيها فإن شفت تبينول للباليوز هذا الجواب وان أردت نرسل لكم الخط الذي واصلنا أو مسودته الرأي ما رئيتم. . . راجع النص في: (IOR) R/15/ 6/17.

٩٩. (IOR) R/15/ 6/19., RA Bahrain to PR, 19 Mar. 1889.

١٠٠. Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 28 Mar. 1889.

١٠١. Loc. cit.

١٠٢. Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 14 Feb. 1889.

١٠٣. Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 19 Mar. 1889.

١٠٤. Same Series and vol., RA Sharjha to PR, 8 Mar. 1889.

١٠٥. Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 13 Mar. 1889.

١٠٦. Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 15 Apr. 1889.

١٠٧. Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 10 Apr. 1889.

١٠٨. Same Series and vol., RA Sharjha to PR, 23 Mar. 1889.

١٠٩. Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 14 May 1889.

١١٠. Same Series and vol., RA Sharjha to PR, 1 June 1889.

١١١. Same Sèries and vol., RA Bahrain to PR, 20 Apr. 1889.

١١٢. Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 6 May 1889.

١١٣. L/P & S/20/CX 243, PKA, p.51.

١١٤. ibid, p.52.

١١٤ ـ أ اهتمت فارس بهذا النزاع فهي، وان لم يكن لها القدرة في التأثير على الأحداث، الا أنها كانت تتبعها. جاء في بعض الصحف الفارسية بتاريخ ٩ أغسطس ١٨٨٨ م خبر عن بداية تلك الأحداث ورد فيه: «أرسل الشيخ زايد حاكم أبو ظبي ابنه في ٥٠٠٠ من الفرسان والمشاة لمهاجمة الشيخ قاسم بن ثاني حاكم قطر. دخل المهاجمون قلعة قطر في ٧ رمضان واتجهوا إلى منزل الشيخ الذي باتوا يحاربون عنده الليل كله. وانجلت المعركة بعد ثلاث ساعات من شروق الشمس عن مقتل الشيخ علي بن الشيخ قاسم، و٣٨ رجلاً آخرين، كما جُرح ٤٠ شخص، وأسر عدد مماثل من الرجال والنساء وحصلوا على مغانم أخرى من الخيول والجمال والمتاع» راجع: (IOR) R/15/ 6/19, Extract from the Persian paper Ittala of 9 Aug. 1888.

١١٥. Same Series and vol., Jassim b. Muhmed b. Thani to PR, 17 Feb 1889.

١١٦. Same Series and vol., Extract of Correspondance relating to complaint mde by Sk. Zaid.

١١٧. Loc. cit.

١١٨. Loc. cit.

١١٩ Same Series and vol., Jassim b.Thani to PR, (Rec. 2 Apr. 1889.
١٢٠ Loc. cit.
١٢١ Same Series and vol., PA Bahrain to PR, 30 Apr. 1889.
١٢٢ Same Series and vol., PR (Ross) to S. GOI, 16 May 1889.
١٢٣ Same Series and vol., PR (Ros) to S. GOI, F.D. 8 Mar. 1889.
١٢٤ Same Series and vol., Jassim b.Thani to RA Bahrain. 22 Ramazan 1306, 3 May 1889.
١٢٥ Same Series and vol., RA Bahrain to PR, 11 April 1889.
١٢٥ ـ أ ـ كما أشرتم.
١٢٦ واحتاطوا لتجنب الأمر. (IOR) R/15/ 1/190, RA Sharjha to PR, 4 Aug. 1888.
١٢٧ من محمد بن رشيدْ إلى ناصر بن خليل ٤ ذي الحجة ١٣٠٥ هـ.
١٢٧ ـ أ هذا الذي جرى.
١٢٧ ـ ب الذي يراعي صداقتنا ويساند.
١٢٧ ـ ج نحن.
١٢٨ (IOR) R/15/ 6/19, Undersecretary 10 to FO, 23 Aug. 1888.
١٢٩ Same Series and vol., FO to Under Secretary 10, Aug. 27, 1888.
١٣٠ Same Series and vol., 10 to F.O, 29 Aug. 1888.
١٣١ (IOR) R/15/ 1/190, PR to Simla No.27 of 1888, 11 Sept. 1888.
١٣٢ Same Series and vol., Simla to Bushire, 15 Sept 1888.
١٣٣ Same Series and vol., Bushire to F. Simla, 17 Sept. 1888.
١٣٤ Same Series and vol., Bushire to F. Simla, 20 Sept. 1888.
١٣٥ Loc. cit.
١٣٦ (IOR) R/15/ 6/19., WA. White to FO., 1st Oct. 1888.
١٣٧ Loc. cit.
١٣٨ Same Series and vol., Note Verbale, 1st Oct. 1888.
١٣٩ Same Series and vol., Undersecretary FO. to I.O., 11 Oct 1888.
١٤٠ (IOR) R/15/ 1/190, PR to SSI, 15 Oct. 1888.
١٤١ Loc. cit.
١٤٢ من أحمد عبد الرسول إلى الباليوز، ١٠ صفر ١٣٠٦ ,.Same Series and vol
١٤٢ ـ أ ـ قوارب.
١٤٢ ـ ب ـ صاحب أو حاكم.
١٤٢ ـ ج ـ اختلف.
١٤٣ من لنجة إلى جناب الأفخم ذي الشوكة والاجلال ٢١ اكتوبر ١٨٨٨ ,.Same Series and vol
١٤٣ ـ أ ـ رسول.
١٤٣ ـ ب ـ لن يقبل عذراً ولن يؤمِّن.
١٤٣ ـ ج ـ آلات.

١٤٤ من فيصل بن تركي إلى جناب عالي القدر والشأن سامي الرتبة والمكان Same Series and vol.,

١٤٥ إلى عمدة الأصحاب السيد فيصل بن تركي . . Same Series and vol.,

١٤٦ Same Series and vol., Threatened attack on Oman from Nejd, May 1889.

١٤٧ (IOR) R/15/ 2/29, Lord Rosebury's letter of 12.12.92 to Turkish Ambassador, London.

١٤٨ Same Series and vol., Niclson to F.O., 29 Dec. 1893.

الفصل الثالث

١ (IOR) L/P & S/, Precis of Turkish Expedition, (PTE.) p.53.

٢ (IOR) L/P & S/20/240, Precis of Nejd Affairs, (PNA) p.42.

٣ PTE, p.53.

٤ L/P & S/20/240., PNA, p.42.

٥ PTE, p.53.

٦ Loc. cit.

٧ Loc. cit.

٨ ابن عيسى، تاريخ بعض الحوادث . . . ص ٧٨.

٩ L/P & S, PTE, p.54.

١٠ لوريمر، ج. ج، مرجع سبق ذكره، التاريخي، ج ٣، ص ١٤٧٠.

١١ L/P & S/20/240, PNA, p.43.

١٢ لوريمر، ج ج، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٧٠.

١٣ PTE, p.55.

١٤ الاحسائي، تحفة المستفيد، ص ١٨٠.

١٥ PTE, P.55.

١٦ لوريمر، ج. ج.، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٧١.

١٧ الاحسائي، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٠.

١٨ لوريمر. ج.ج، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٧١.

١٩ PTE, p.58

٢٠ Loc. cit.

٢١ L/P & S/18/B.19, Turkish Jurisdiction Along the Arabian Coast.

٢٢ الاحسائي، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٦.

٢٣ بما أن المناصير كانوا يقعون تحت سلطة شيخ أبو ظبي فقد أرسل متصرف الاحساء إلى شيخ أبو ظبي يهدده ويتوعده، كما كتب له والي البصرة أيضاً بنفس الأسلوب. ورد الشيخ شاجبا كل علاقة له بالمناصير. وحين احيلت الخطابات إلى حكومة الهند علق عليها المقيم طالبوت (Talbot) بقوله «بالرغم من أن هذه القبيلة تقع بشكل أو بآخر تحت سلطة شيخ أبو ظبي الا أنه لا يمكن مساءلته في تصرفات قبيلة تتجول على قطعة من الارض تمتد إلى ٤٠٠ ميل من منطقة ابو ظبي». وشجب

طالبوت نغمة التهديد الواردة في الرسالتين، وأشار إلى أنه اذا حدث أن تكرر مثل هذا الأمر مرة أخرى، فعلى بريطانيا أن توضح للباب العالي علاقتها مع هذا الشيخ. كما طلب طالبوت الى الشيخ ألا يرد مستقبلاً على مثل هذه الرسائل الا بعد أن يحيلها للمقيم. راجع: PTE, p.135.

٢٤ PTE, p.52
٢٥ ibid, p.57
٢٦ ibid, p.56.
٢٧ ibid, p.58.
٢٨ لوريمر، ج.ج. مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٧٢.
٢٩ PTE, p.60.
٣٠ الاحسائي، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٨.
٣١ PTE, pp.60-61.
٣٢ الاحسائي، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٨.
٣٣ L/P & S/20/241.0.PNA, p.53.
٣٤ Loc. cit.
٣٥ PTE, p.58
٣٦ ibid, p.46
٣٧ عمل السلطان عبد الحميد على منافحة بريطانيا الا أنه لمشاكله المتفاقمة ما كان يستطيع مواجهتها علناً، ولهذا اتسمت سياسة دولته بالتناقض. منذ عام ١٨٨٨ نجد أن ابن رشيد، شيخ نجد، يسعى لوراثة العثمانيين في الاحساء. يفيد بهذا خطاب السفير البريطاني في الأستانة بتاريخ ٩ مايو ١٨٨٩ م، كما نجد السلطان يسعى لاستبقاء الاحساء تحت سلطته المباشرة وإدخال نجد من خلال شمر في هذه السلطة أيضاً، وبالطبع لا يمكن المصالحة بين هذين الهدفين المتعارضين. فالسلطان يسعى لبسط نفوذه والآخر يسعى للاستقلال تحت السيادة الاسمية للسلطان. كما نجد السلطان في ١٨٩٣ م يسعى لبسط سلطته على امتداد الجزيرة العربية وتعيين حاكم مدني على كل شبه الجزيرة بما في ذلك البحرين والاحساء، خاصة وأنه لم يكن راضياً عن سلوك ابن رشيد الذي أراد أن يقيم علاقات طيبة مع خديوي مصر وأرسل له بعثة في عام ١٩٠٠. أصدر السلطان أمره لوالي البصرة بوجوب اعتقال هؤلاء المبعوثين وذلك خشية أن يمتد النفوذ البريطاني من خلال مصر إلى شبه الجزيرة العربية. راجع: ibid, p.135
٣٨ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ٦٥.
٣٩ L/P & S/18/B.19, Turkish Jurisdiction...
٤٠ PNA, p.36.
٤١ ibid, pp.36-37.
٤٢ ibid. p.37.
٤٣ L/P & S/18/B.19, Turkish Jurisdiction...
٤٤ PNA, p.43.

٤٥ ibid, p.44.
٤٦ ibid. p.44-45.
٤٧ الاحسائي، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٣.
٤٨ آل عبد المحسن، تذكرة أولى النهى والعرفان، ج ١، ص ١٩٤ - ١٩٥.
٤٩ المرجع السابق، ص ١٩٣.
٥٠ L/P & S/20/240, PNA, p.41
٥١ ibid, p.38-39
٥٢ ibid, p.42.
٥٣ ibid, p.53.
٥٤ Loc. cit.
٥٥ L/P & S/20/241, PBA. p.46.
٥٦ PNA, p.42.
٥٧ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٧.
٥٨ (IOR) R/5/6/18, PA Muscat to PR, 29 Jan. 1275.
٥٩ L/P & S/20/240, PNA, p.43.
٦٠ ضاري بن رشيد، نبذة تاريخية عن نجد. . . ص ٥١.
٦١ L/P & S/20/240, PNA, p.43.
٦٢ العبد المحسن، مرجع سبق ذكره ج ١، ص ٢١٤.
٦٣ (IOR) R/15/5/29, GOI to PR, 25 Feb. 1875.
٦٤ الاحسائي، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧.
٦٥ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ، مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، جمع سليمان بن سحمان.
٦٦ L/P & S/20/240, PNA, p.44.
٦٧ Loc. cit.
٦٨ ibid, p.46.
٦٩ لوريمر ج.ج، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٦٨٨.
٧٠ L/P & S/20/240, PNA, pp. 46-47.
٧١ Loc. cit.
٧٢ ibid, pp.45-47.
٧٣ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٥.
٧٤ Memo by Blach in Bidwell, (AK). vol II, part VI, p.38.
٧٥ ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ج ١، ص ٤٨.
٧٦ المرجع السابق، ص ١٥٢.
٧٧ المرجع السابق، ص ١٥٧.
٧٨ حسين بن غنام، (ابن غنام) روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعدد غزوات ذوي الاسلام المسمى بتاريخ نجد. تحقيق ناصر الدين الاسد، القاهرة ١٩٦١، ص ١٣٠.

٧٩ ابن بشر، مرجع سبق ذكره، ج ١، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.
٨٠ المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٩ ـ ١٨٠.
٨١ PNA, p.47.
٨٢ ابن بشر، مرجع سبق ذكره، ج ١، ص ٢٠٨.
٨٣ PNA, p.47-48.
٨٤ ضاري بن رشيد، مرجع سبق ذكره، ص ٣١.
٨٥ المرجع السابق، ص ٣٦.
٨٦ نجد تقريراً من المقيم روث ROSS للهيئة الخارجية لحكومة الهند بتاريخ ٨ ديسمبر ١٨٨٨ يقول فيه عن تاريخ بدء حكم هذه الأسرة: «حدث نزاع على السلطة في عام ١٨٣٥ بين عبدالله بن علي ابن رشيد وبين أبناء عمومته من بيت علي، وتدخل الأمير الوهابي فيصل بن تركي بالدعم ليصبح عبدالله ابن رشيد حاكماً».
٨٧ ابن بشر، مرجع سبق ذكره، ج ٢، ص ٨٨.
٨٨ ضاري بن رشيد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧.
٨٩ نفس المرجع نفس الصفحة.
٩٠ راجع نص القصيدة في: المرجع نفسه، ص ٩٤ ـ ١٠١.
٩١ (IOR) R/15/6/19, PR to GOL, 8 Dec 1888.
٩٢ ضاري بن رشيد، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧.
٩٣ PNA, p.48.
٩٤ Memo by Blech, in Bidwell, (AK) vol.II, part VI, p.38.
٩٥ L/P & S/20/240, PNA, p.48.
٩٦ Memo by Blech in Bidwell (AK) vol.II part VI, p.38.
٩٧ L/P & S/20/240, PNA, p.48.
٩٧ ـ أ عن قصة انتحار الأمير راجع: Doughty Charles, Travels in Arabia Deserta, London 1939.
٩٨ ضاري بن رشيد، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٤.
٩٩ المرجع السابق، ص ١٠٩.
١٠٠ Memo by Blech, in Bidwell, (AK) vol.II, part IV, p.42.
١٠١ Doughty Charles, op. cit., p.225.
١٠٢ ibid, p.226.
١٠٣ L/P & S/20/240, PNA.
١٠٤ لوريمر، ج.ج.، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٣٣.
١٠٥ Memo by Blech in Bidwell, (AK) vol II, part VI, pp. 36-43.
١٠٦ Doughty, op. cit. p.377.
١٠٦ ـ أ يقول موزل Musil إن الإمام عبدالله بن فيصل كان في موقف ضعيف ولهذا صالح محمد بن رشيد على أن يترك له القصيم ويتراجع إلى الرياض ولا يتدخل بعد ذلك في شؤونها أبداً.
Musil, Northern Negd, New York, 1928, p.276-277.

١٠٦ ـ ب توفي تركي بن عبدالله في حايل عام ١٣٠٧ هـ/ راجع ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٤.

١٠٧ L/P & S/20/240, PNA.

١٠٨ العبد المحسن، مرجع سبق ذكره. ص ٢٥٢.

١٠٩ Memo by Blech in Bidwell (AK) vol II, part X p.48.

١١٠ L/P & S/20/240, PNA, p.55.

١١١ Doughty, op. cit., p.456.

١١٢ L/P & S/20/240, PNA p.57.

١١٣ ibid. p.64.

١١٤ ibid. p.59.

١١٥ الاحسائي، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٦.

١١٦ L/P & S/20/240, PNA, p.52.

١١٧ Memo by Blech, in Bidwell, (AK), vol II, part VI, p. 39.

١١٧ ـ أ يرى ضاري بن رشيد أن علاقة المصاهرة التي تربط بين الامام عبدالله وبين آل رشيد كانت من العوامل التي حركت ابن رشيد لنجدة الامام، وكان الامام عبدالله في هذه الفترة بانياً بطريفة بنت عبيد بن رشيد. ونلاحظ كذلك أن زوجة محمد بن رشيد حين تولى الحكم في حايل كانت احدى بنات عبيد بن رشيد كذلك. والملاحظ أيضاً أن الامام عبدالله كان قبل زواجه من طرفه بنت عبيد بن رشيد متزوجاً من نورة بنت عبدالله بن رشيد، وحدث بينهما فراق.

راجع: ضاري بن رشيد، مرجع سبق ذكره، الصفحات ٥١، ٨٩، ١١١.

١١٨ العبد المحسن، مرجع سبق ذكره، ج ١، ص ٢٦٨.

١١٩ Memo by Blech, in Bidwell, (AK) vol II, part VI, p.39.

١٢٠ L/P & S/20/240, PNA, p.53.

١٢٠ ـ أ يروي ضاري بن رشيد رواية أخرى، حيث يقول بأن عبدالله كان عند غزو ابن رشيد للرياض مريضاً بداء الاستسقاء فطلب من ابن رشيد أن «يجعل في مكانه خليفة من أوادمه، وأن يسافر هو وزوجته طريفة بنت رشيد الى حايل. فامتثل ابن رشيد لأمره، وأمّر في البلاد رجلاً يسمى سالم السبهان». وقفل ابن رشيد راجعاً إلى حايل وفي صحبته عبدالله بن فيصل.

راجع: ضاري بن رشيد، مرجع سبق ذكره، ص ٥١.

١٢١ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره. ص ١٩٣.

١٢٢ L/P & S/20/240.p PNA p.52.

١٢٣ ضاري بن رشيد، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢.

١٢٣ ـ أ يروي بلش Blech في هذه المسألة رواية أخرى حيث قال: أرسل محمد بن رشيد إلى محمد ابن سعود بن فيصل يستدعيه الى حايل للتشاور معه وأنهى إليه انه يمكن أن يرسل أحد اخوته إذا تعذر حضوره. وكانت في صيغة هذه الدعوة خدعة اطمأن لها محمد فلم يأخذ حذره مما يدبره ابن رشيد. أرسل محمد أخاه عبد العزيز للمهمة التي لفقها ابن رشيد فيما أرسل ابن رشيد في نفس الوقت المدعو ابن سامي في ١٨ من الفرسان لأخذ محمد على حين غرة. لم تجد جماعة ابن

سامي محمداً في الخرج، حيث كان قد خرج إلى بعض النواحي، فأدركوه في بعض البساتين خارج المدينة. قاتل محمد رجال ابن سامي وقاومهم ثم أُعطِيَ الأمان فخرج إليهم فأرسل إليه أحدهم طلقة غـادرة أدت إلى هلاكه، رجعت هذه الجماعة الى الخرج حيث قتلوا هنالك عبدالله بن سعود وهرب أخوه سعود ولكنهم سرعان ما أدركوه وقتلوه. وصل عبد العزيز بن سعود إلى حايل بخطاب أخيه محمد وهناك أدرك أخبار مذابح اخوانه الثلاثة، وعرف أن بن رشيد قد غرر بهم جميعاً ثم غدر. ولم يكن من عبد العزيز إلا أن ذهب إلى قصر ابن رشيد وألقى سلاحه أمامه وطلب منه أن يقتله حتى يلحق بأخوته الذين نالهم غدره. تأثر ابن رشيد لهذا الموقف فلم يقتل عبد العزيز واستبقاه أسيراً مكرماً إلى جانب عمه عبدالله. راجع:

Memo by Blech, in Bidwell (AK) vol II, part VI, p.40.

أما ضاري فيروي رواية أخرى يبرىء بها ابن رشيد هونا ما. راجع: ضاري بن رشيد، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤ ـ ٥٦.

١٢٤ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٤.

١٢٥ L/P & S/20/240, PNA, p.52.

١٢٦ العبد المحسن، مرجع سبق ذكره ج ١، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

١٢٧ تختلف المراجع التي بين أيدينا في تاريخ الوفاة، فعلى حين يذكر صاحب تذكرة أولى النهى والعرفان بأن خروج عبدالله في صحبة أخيه عبد الرحمن من حايل كان في ١٢ ذي الحجة ١٣٠٦ هـ وان وفاة عبدالله قد حدثت في الرياض في مستهل ١٣٠٧ هـ، يقول ابن عيسى في تاريخه ان خروج عبدالله وعبد الرحمن من حايل كان في ربيع أول ١٣٠٧ هـ وأن عبدالله قد توفي بعد رجوعه إلى الرياض بيومين. ويجنح ابن عيسى إلى التحديد أكثر حين يقول أن وفاة عبدالله كانت في يوم الثلاثاء ثاني يوم من ربيع الثاني في هذه السنة» (١٣٠٧ هـ). راجع العبد المحسن، مرجع سبق ذكره ج ١، ص ٢٧٧.

١٢٨ مرجع سبق ذكره، ص ٥٥.

١٢٩ العبد المحسن، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٠.

١٣٠ L/P & S/20/240, PNA, P53.

١٣١ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٥.

١٣٢ العبد المحسن، مرجع سبق ذكره ج ١، ص ٢٨٢.

١٣٣ L/P & S/20/240, PNA. p.53.

١٣٤ Loc. cit.

١٣٥ Musil, op.cit., p.279.

١٣٦ L/P & S/20/240, PNA, p.53.

١٣٧ ضاري بن رشيد، مرجع سبق ذكره، ص ٥٦.

١٣٨ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٦.

١٣٩ المرجع السابق، ص ١٩٧.

١٤٠ سليمان بن سحمان، الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، الرياض، ١٣٧٦، ص ٦٠.

١٤١ الاحسائي، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٠.

١٤٢ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٨.

الفصل الرابع

١ India Office (IO) to Foreign Office (FO) Mar. 24, 1877, inBidwell, (ed.) «The Affairs of Kuwait 1896- 1905», (AK) Foreign Office Confidential Print, 2 vols, London, 1971, vol.1, part I, p.2.

٢ Loc. cit.

٢ ـ أ قام سعود الابن الثاني لمحمد باشا الصباح بزيارة الميجور فيجان (Fagan) الوكيل القنصل البريطاني في البرة وطلب إليه أن تدرجه الحكومة البريطانية في حمايتها وتعمل على مناصرته ضد عمه المغتصب. رفضت لندن أدنى تدخل في هذه المسألة الا اذا اضيرت المصالح البريطانية أو تأثر أمن الخليج. راجع:

Consul General Lock to Govt. of India (GOI) Bagdad., Dec.22. 1897. in ibid. vol.I, part I, p.9.

٣ IO to FO., Sept. 28. 1897. in ibid, vol.I, part I, p.13.

٤ The Marquis of Salisbury to Sir P. Qurrie, July 17, 1897, in ibid, vol I, part I, p.12.

٥ Major Meade to GOL. Sept. 25, 1897. in ibid, vol I, part I, pp.12-14.

٦ FO to IO, Dec. 5, 1898, in ibid, vol I, part I, pp.28-32.

٧ (PRO) FO/371/ 149/XC/ A/3722, Appendix No.1, Agreement with the SK. of Koweit.

٨ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، السلام البريطاني في الخليج العربي ١٨٩٩ ـ١٩٤٧، دراسة وثائقية، الرياض ١٤٠٢ هـ، ص ٢٠ ـ ٣٦.

٩ Meadle to Gol. May 7, 1899 in (A.K.) vo I, part I, p.69- 70.

١٠ Consul Wartis low to Meade, June 2, 1899, in ibid, vol. I, part I, p.76.

١١ من عبد الرحمن الفيصل السعود إلى جناب عالي الجاه قبطان ناكس، (IOR) R/15/ 5/24

١٢ (IOR) R/15/ 5/25, Bassam Report.

١٣ العبد المحسن، تذكرة أولى النهى والعرفان، ج ١، ص ٣١٠.

١٤ (IOR) R/15/ 5/25 Bassam Report. CF, Musil, op. cit.,p.138.

١٥ Wartislow to De. Bensen, 22 Nov. 1900 in Bidwell (A.K.), vol.I, part II, p.66-67.

١٦ لوريمر ج.ج.، دليل الخليج، التاريخي، ج ٣، ص ١٥٤١.

١٧ Sir N O'cner to Marquis of Lansdowne, Apr. 29, 1901. in (AK), vol. I, part III, p.32.

١٨ Kembal to GOI, Mar., 11, 1901, in Bidwel, (AK) vol.I, part III, p. 27, cf, Wartislow to Ocner, Mar, 16, 1901 in ibid, vol.I, part III, p.24

١٩ لوريمر ج.ج.، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٥٤١.

٢٠ Report of Residency News (RRN), Feb. 19. 1901 in Bidwell, (AK) vol.I, part III, p.27.

٢١ RR. Feb. 27, 1901 in ibid, vol.I, part III, pp.28-29.

٢٢ Loc. cit.

٢٣ GOI to Hamilton, Apr. 3, 1901, in Ibid, vol.I, part III, p.20.

٢٤ GOI to George Hamilton, Apr. 12. 1901 in ibid, vol I. part III, p.25.

٢٥ Kemball to GOI. Apr 20, 1901, in Bidwell, (AK) vol.I. part III, p.43-44.

٢٦ لوريمر ج ج ،مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٥٤٦.

٢٧ (IOR) R/15/5/25, Report of Shakespear.

٢٨ Wartislow to O'cner. 22 Mar., 1902 in Bidwell (AK) vol II, part I, p.79.

٢٩ Loc. cit.

٣٠ ibid, part II, p.97.

٣١ Abdul Rahman B Feysal to Kemball, 5 Safar 1320, 14 May 1902, in ibid, vol II, part IV, p.101- 102.

٣٢ Kemball to GOI, May 23, 1902, in ibid vol II, part IV, p.101.

٣٣ Wartislow to O'cner. July 31, 1902 in ibid, vol. II, part IV, p.107.

٣٤ GOI to Hamilton in ibid, vol II, part IV, p.158.

٣٥ Commander Cortright to Rear admiral Drury, Nov.21, 1902, in ibid, vol II, part V, pp.1-2.

٣٦ (PRO) FO. 371/347/ 3788, OF (F.D) to SS Feb. 1907.

٣٧ العبد المحسن، مرجع سبق ذكره، ج ٢، ص ٧.

٣٨ Mubark to PR. 15 Moharram 1321, Apr. 14, 1903 in Bidwell (AK) Vol II., part V, p.38.

٣٩ Loc. cit.

٤٠ لوريمر ج.ج. مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٠٠.

٤١ Crow to O'cnor, Oct. 21, 1903 in Bidwell (AK). vol.II, part V, p.70.

٤٢ (IOR) R/15/5/24., Teleg. of 8 Feb. 1904 from PR to viceroy (Vic.) Calcutta

٤٣ Same Series and vol., Amir of Nejd to Grand Vizier, Jan, 7, 1904. in AK., vol II, part VI p.9.

٤٤ Loc. cit.

٤٥ Same Series and vol., O'cnor to Marquis of Lansdowne, 8 Feb. 1904.

٤٦ FO to O'cnor, in Bidwell (AK) vol II., part VI, pp.11-12.

٤٧ (IOR) R/15/5/24, GOI to Kemball, officiating PR, 6 Jan 1904.

٤٨ Loc. cit.

٤٩ Same Series and vol., Teleg to Vic., Calcutta, 8 Feb. 1904

٥٠ Same Series and vol., Kemball to Dane (F.D)

٥١ Loc. cit.

٥٢ (IOR) R/15/5/24., Kemball, officiating PR to Dane (F.D.)

٥٣ Same Series and vol., Kemball to Dane.
٥٤ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٢.
٥٥ (IOR) R/15/5/24., Consul Crow Busrah, to Sir O'cnor. Mar.15. 1904.
٥٦ Loc. cit.
٥٧ العبد المحسن، مرجع سبق ذكره، ج ٢، ص ١٤.
٥٨ IO to FO., 20 Apr. 1904, in Bidwell (K.A) vol II 2, part IV, p.22.
٥٩ (IOR) R.15/5/24, Abdul Aziz b.Abdur Rahman Essaud to SK. Koweit, 10 Moharram 1322.
٦٠ ابن عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٠.
٦١ (IOR) R/15/5/24, Sir O'cnor to Marquis Lansdowne, Apr. 13, 1903.
٦٢ Same Series and vol., Sir O'cnor to Marquis Lansdowne, 30 Jan. 1904
٦٣ Same Series and vol., Vic to SSI. 2 Mar. 1904.
٦٤ Loc. cit.
٦٥ لوريمر، ج.ج.، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٥٣٩ ـ ١٥٥٢.
٦٦ (IOR) RR/15/5/24., Major New march to PR. 25 Apr. 1904.
٦٧ Same Series and vol., Vic to SSI, 24 Apr. 1904.
٦٨ Same Series and vol., Sir O'cnor to F.O., 29 Apr. 1904.
٦٩ Same Series and vol., IO to FO., 5 May 1904.
٧٠ Same Series and vol., O'cnor to Lansdowne, 4 May 1904.
٧١ Same Series and vol., Consul Devy Jeddah to O'cnor, 22 Apr. 1904.
٧٢ Same Series and vol., Consul Crow Bussrah to O'cnor, 24 Apr. 1904.
٧٣ Loc. cit.
٧٤ Same Series and vol., Lansdowne to O'cnor, May 10th 1904
٧٥ Loc. cit.
٧٦ Same Series and vol., O'cnor to Lansdowne, 16 Mar. 1904.
٧٧ Same Series and vol., Manahan Officiating consul Bussrah, toGOI (F.D), 1st June 1904.
٧٨ Same Series and vol., Cox to Dane (F.D), 18 June 1904.
٧٩ Same Series and vol., FO (Sanderson) to IO, 21 June 1904.
٨٠ Same Series and vol., PA. Koweit, No.1 of 4 July 04, to Abdul Rahman b. Saood.
٨١ لوريمر ج.ج.، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٠٤.
٨٢ العبد المحسن، مرجع سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٢.
٨٣ (IOR) R/15/5/24, News up to Thrusday Last the Fourth Instant from the Interier.
٨٤ من عبد الرحمن الفيصل السعود الى جناب عالي الجاه قبطان ناكس Same Series and vol.,
٨٥ Same Series and vol., Cox to Knox, (ND).
٨٦ من قبطان ناكس بولتكل اجنت من قبل الدولة البهية القيصرية الانكليز في الكويت الى جناب

الافخم عمدة الاصحاب المحب عبد الرحمن بن فيصل ٢٤جمادى الأخرى١٣٢٢/ ٥ سبتمبر ١٩٠٤.
Same Series and vol.,

٨٧ Loc. cit.

٨٨ Same Series and vol., Reports from reliable sources 8.8.04

٨٩ Loc. cit.

٩٠ Same Series and vol., Report of 26/8

٩١ Same Series and vol., Bushire, In Charge of Current duties, No.48 of Koweit 17/10/04.

٩٢ Loc. cit.

٩٣ Loc. cit.

٩٤ Same Series and vol., British Consulate Bussrah, Nov.5, 1904

٩٥ Same Series and vol., Acting Consul Bussrah to Townley HM Charge d'Affairs, 25 November, 1904.

٩٦ Same Series and vol., Consulate Bussrah to Townly.

٩٧ Same Series and vol., Fakir Pasha Acting Wali of Bussrah to Grand Vizier (8) 21 Oct. 1904.

٩٨ Loc. cit.

٩٩ Same Series and vol., Acting Consul Bussrah to Townley, 25 Nov. 1904.

١٠٠ Same Series and vol., Report from Knox, Koweit 20/11/04.

١٠١ Same Series and vol., Grand Vizier to Minister of Interior - 30 Oct., 1904.

١٠٢ Same Series and vol., Lieutenant Colonel Mounsell, Military attache to Townley, 8 Nov., 1904.

١٠٣ Loc. cit.

١٠٤ Loc. cit.

١٠٥ Same Series and vol., Newmarch to O'cnor, 10 Aug., 1904.

١٠٦ Extract from Diary for Week ending Nov., 28, 1904. Cf, Newmarch to Sir O'cnor. in Bidwell (AK) vol II, part VI, p.63.

١٠٧ (IOR) R/15/5/25. O'cnor to Lansdowne, 20 Sept., 1904.

١٠٨ Diary by Newmarch to GOI in Bidwell (ed) The Affairs of Arabia (AA) 2 vols, London 1971, vol I, part 1, p.74.

١٠٩ (IOR) R/15/5/24, to PR, No.18 of Koweit 3/9/4.

١١٠ Loc. cit.

١١١ Loc. cit.

١١٢ Loc. cit.

١١٣ (IOR) R/15/5/25., Memo. by Viceconsul Hussain, Jan 3, 1905. CF, Bidwell (A.A.) vol.1, part I, p.73.

١١٤ (IOR) R/15/5/24, Report by Knox 20.11.04.

١١٥ Same Series and vol., to PR. No.35 of 4/1/05.

١١٦ Loc. cit.

١١٧ Townley to Lansdown, Jan, 2., 1905. in Bidwell (A.A), vol I, part 1, pp.7-8.

١١٨ Loc. cit.

١١٩ Loc. cit.

١٢٠ (IOR) R/15/5/24, Townley to Lansdowne of Jan. 1905.

١٢١ Townley to Lansdowne, 2 Jan. 1905 in Bidwell (A.A.), vol.I,pp.7-8.

١٢٢ Loc. cit.

١٢٣ (IOR) R/15/5/24, Interview with Mubarak on 24 Feb. 1904.

١٢٤ Loc. cit.

١٢٥ Loc. cit.

١٢٦ Loc. cit.

١٢٧ Same Series and vol., Knox to Cox 15.2.05.

١٢٨ Same Series and vol., Cox to Knox, 24-Jan, 1905.

١٢٩ Loc. cit.

١٣٠ Loc. cit.

١٣١ Same Series and vol., P.A. Koweit to PR, 27/1/5.

١٣٢ من ميجور كاتش باليوز الدولة البهية في خليج فارس الى جناب الأكرم الأفخم عمدة الأصحاب الشيخ مبارك. Same Series and vol.,

١٣٣ Same Series and vol., H.M. Consul Bussarah to Ambassador, Const. 3 Apr. 1905.

١٣٤ Townley to Lansdowne, feb.17, 1905.

١٣٥ لوريمر ج.ج.، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٠٧ ـ ١٧٠٨.

١٣٦ المرجع السابق، ص ١٧٠٩.

١٣٧ (IOR) R/15/5/24, Conversation bet. PA Koweit and Mubark of Koweit.

١٣٨ Loc. cit.

١٣٩ (PRO) FO 371/15/ XA/3722, O'cner to Edward Gery 29, May, 1905 cf Bassrah to Constantinople in Loc. cit.

١٤٠ Loc. cit.

١٤١ (IOR) R/15/5/24, O'cnor to Edward Grey, 8 May 1906.

١٤٢ (PRO) FO/371/151 XA/3722, Hussain to O'cnor, May, 3,1906.

١٤٣ Loc. cit.

١٤٤ Loc. cit.

١٤٥ (IOR) R.15/5/24,Copy pf a secret letter. Disp. No.62, 31. Aug. 1906 from Consul Bussrah to Ambassador Constantin.

١٤٦ Same Series and vol., PA, Koweit, to PR. 26/9/6.

١٤٧ Same Series and vol., Consul Bussrah to Ambassador Constantin. 31 Aug 1906.
١٤٨ Loc. cit.
١٤٩ Loc. cit.
١٥٠ Same Series and vol., Knox to PR. 22 Sept. 1906.
١٥١ Same Series and vol., Memo of Information obtained by Jaskin, 24 Sept. 1906.
١٥٢ لوريمر، ج.ج. مرجع سبق ذكره ج ٢، ص ١٧١٣.
١٥٣ المرجع السابق، ص ١٧١٧.
١٥٤ (IOR) R/15/5/ 2/25; Mubark Desejion of present state of affairs in the interior of Arabia, Dec. 1906.
١٥٥ Loc. cit.
١٥٦ Same Series and vol., Bassarah Report.
١٥٧ (IOR) R/15/5/24, Memo of Information by Jaskin, 24, sept., 1906.
١٥٨ Loc. cit.
١٥٩ Same Series and vol., Knox to Cox 20/11/06.
١٦٠ Loc. cit.
١٦١ Same Series and vol., PA Koweit 21/1/07.
١٦٢ Same Series and vol., Knox to PR, 22 sept., 1906.
١٦٣ Same Series and vol., PA Koweit 21.1.07
١٦٤ Same Series and vol., PA Koweit to PR. 15 Apr. 1907.
١٦٥ Same Series and vol., Knox to Cox 13/5/7.
١٦٦ Loc. cit.
١٦٧ Same Series and vol., PR to PA Koweit, 22 June 1907.
١٦٨ Same Series and vol., Knox to Cox 13/5/7.
١٦٩ Same Series and vol., Bill to Louis Dane (F.D) 23 Sept. 1907.
١٧٠ Same Series and vol., Devy, Damascus to O'cnor, sept.6, 1907.
١٧١ Same Series and vol., Bill to Dane (F.D), 23 sept., 1907.
١٧٢ Same Series and vol., FO to IO, oct.9, 1907.
١٧٣ (IOR) R/15/5/25, Devy Damascus, to O'cnor, sept.28, 1908.
١٧٤ Same Series and vol., Bassam Report.
١٧٥ Same Series and vol., Lowther to Grey, Void Consul Monhan to Lowthe, June 11, 1910.
١٧٦ من شريف مكة الى الهمام الأجل الأكرم الأمير مبارك الصباح، ٢٠ شعبان ١٣٢٨.
١٧٧ نفس الوثيقة.
١٧٨ Same Series and vol., Koweit News for Week ending 2 sept., 1910.
١٧٩ Same Series and vol., Koweit News for Week ending 120 Oct., 1910.
١٨٠ Loc. cit.

١٨١ Same Series and vol., Kowait News for week ending.

١٨٢ Same Series and vol., Abdul Aziz b.Saaud to SK Mubarak.

١٨٣ Same Series and vol., The Times, 6 oct. 1910.

الفصل الخامس

١ (IOR) R/15/5/25, Basrah Agency, 20 Mar. 1901.

٢ Same Series and vol., PA Koweit to PR, 9 Mar. 1910.

٣ Loc. cit.

٤ Loc. cit.

٥ Same Series and vol., Diary No.12 KPA for week ending 23 Mar. 1910.

٦ Loc. cit.

٧ Loc. cit.

٨ Same Series and vol., First Assist PR to SGI (F) 20 Mar 1910 cf, First Assist PR to PA Koweit, 22 Mar 1910.

٩ Same Series and vol., KPA, Week ending 13 Apr. 1910.

١٠ Loc. cit.

١١ Same Series and vol., KPA, Week ending 30 Mar. 1910.

١٢ Same Series and vol., Shakespear to PR, 30 Mar. 1910.

١٣ Same Series and vol., Cox to SGI (F.D), 9 July 1910; cf, Shakespear to Cox, 25 may 1910.

١٤ Same Series and vol., KPA Diary No.25, for Week ending 15 June 1910.

١٥ Same Series and vol., KPA, Week ending 18 May 1910.

١٦ Same Series and vol., KPA, Week ending 13 July 1910.

١٧ Same Series and vol., Extract from Koweit News week ending 9 Nov. 1910.

١٨ Same Series and vol., Iraq Affairs, 15 Dec. 1910.

١٩ Loc. cit.

٢٠ Same Series and vol., Commander General Bagdad to PA Koweit 9 July 1910.

٢١ Same Series and vol., KPA for Week ending 25 Jan 1910 (Extract).

٢٢ Same Series and vol., PA Week ending 20 Sept. 1911.

٢٣ Same Series and vol., PA Koweit, 20 Sept 1911.

٢٤ Same Series and vol., KPA, Week ending 25 Sept. 1911.

٢٥ Same Series and vol., KPA, Diary No.5, Week ending 2 Feb. 1910.

٢٦ Same Series and vol., KPA, Diary No.6, Week ending 9 Feb. 1910.

٢٧ Same Series and vol., KPA, Diary No.9, Week ending 2 Mar. 1910.

٢٨ Same Series and vol., KPA, Diary No.5, Week ending 2 Feb 1910.

٢٩ Same Series and vol., KPA Diary No.11, Week ending 16 Mar. 1910.
٣٠ Same Series and vol., KPA Diary No.13, Week ending 30 Mar. 1910.
٣١ Same Series and vol., Extracts from Koweit News, Week ending 16 Nov. 1910.
٣٢ Same Series and vol., KPA, Week ending 11 Mar. 1911.
٣٣ Loc. cit.
٣٤ Same Series and vol., KPA, Week ending 31 May 1911.
٣٥ Same Series and vol., KPA, Week ending 8 June.
٣٦ Same Series and vol., KPA, Week ending 21 Dec. 1910.
٣٧ (IOR) R/15/5/24, Deputy sec govt.of India (Goi) Foreign Dept. (FD) to Major Cox PR, Fort William 5 Dec. 1905.
٣٨ Same Series and vol., PR and Cons. Gen. Bushire, 17 Jan, 1906.
٣٩ Same Series and vol., P.A. Koweit to PR, 18.1.06.
٤٠ من عبد العزيز بن عبد الرحمن الى مبارك الصباح ٢٥/٢/ ١٩٠٦ م. Same Series and vol.,
٤١ Kumar, R, India and the Persian Gulf, Bombay, 1965, p.201.
٤٢ Loc. cit.
٤٣ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، السلام البريطاني في الخليج العربي ١٨٩٩ - ١٩٤٧ م،دراسة وثائقية، دار المريخ، الرياض ١٤٠٢ ص ١٦٣.
٤٤ L/P & S/18 B.437, Historical Memo on the Relations of the Whabee Amir Ibn Saud with Eastern Arabia and the British Gov. 1800-1934.
٤٥ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٦.
٤٦ (IOR) R/15/5/24, PR. to Louis Dane SGI (F.D) 16 Sept. 1906.
٤٧ Same Series and vol., P.R. Bushire to P.A. Koweit, 22 June 1907.
٤٨ Same Series and vol., PA Koweit to PR 9 Mar. 1910.
٤٩ (IOR)R/15/5/25, Shakespear to P.R., 8 Apr. 1911.
٥٠ Loc. cit.
٥١ Loc. cit.
٥٢ (PRO) FO 371/1820: 22067:2915, Shakespear to Cox, May 15. 1913.
٥٣ (IOR) R/15/5/24, Kembell, Officiating PR. to Goi. (F.D.) 12 Nov. 1903.
٥٤ Loc. cit.
٥٥ Loc. cit.
٥٦ Same Series and vol., Kembell officiating PR to SG (FD)
٥٧ Same Series and vol., Knox to Cox, 20/11/06.
٥٨ Loc. cit.
٥٩ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٩.
٦٠ (PRO) FO 371/180: 22076:29150, FO to IO, July 2, 1913,.
٦١ Hurtwitz, J.E. (ed.) The Middle East and North Africa in World Politics, 2nd ed,

Yale, 1975, pp.567- 570.

٦٢ L/P & S/18/B 437., Historical Memo on the Relations of the Whabee Amir Ibn Saud with Eastern Arabia and the British Govt. 1800- 1934.

٦٣ L/P & S10/2182; 1913: 3010: 1914, Minute by AH. Mar. 16, 1914.

٦٤ Same Series and vol., Minute, by A.H., 2 AP. 1914.

٦٥ وجد كوكس الاتفاقية في الأرشيف العثماني في بغداد ـ أهم بنودها ضمان عثماني لوراثة الحكم في أبناء عبد العزيز. ويتعهد ابن سعود في المقابل بعدم التعامل مع القوى الأجنبية او اعطائها الامتيازات كما تعهد بمساعدة الحكومة العثمانية في حالة دخولها في حرب ضد اية قوة اخرى وفي حالات الاضطرابات الداخلية والثورات كذلك. راجع: (IOR) R/15/5/25, Cox to Dehli,26 Jan 1915.

٦٦ (PRO) F.O. 371/21 24, 1990:22405, Crewe to Vic, 5 June 1914.

٦٧ (IOR) R/15/5/25, from Foreign (F) to Bombay and admiral.

٦٨ Loc. cit.

٦٩ Same Series and vol., F. to PR. 9.10.1914.

٧٠ Same Series and vol., From Ibn Saud 12.10.1914.

٧١ Same Series and vol., P.A. Koweit. to P.R. 21 Oct. 1914.

٧٢ Same Series and vol., from SK. Mobarak to Ibn Saud, 14 Oct.

٧٣ Loc. cit.

٧٤ Loc. cit.

٧٤ـ أ يقول جراي Grey، الوكيل البريطاني، انه حين اخطر مبارك بقيام الحرب مع العثمانيين رد مبارك بأنه ربط مصيره بهم ينتصر معهم أو يهلك بهلاكهم. وانبرى مبارك يكتب لكل الشيوخ البارزين في المنطقة يطلب اليهم ان يثقوا في بريطانيا: راجع: /IOR) L/P & S/11/ 94/ 1915) P22545.

٧٥ ملحاق خير وسرور,IOR) R/15/5/25)

٧٦ من عبد العزيز آلفيصل السعود الى الشيخ مبارك .Loc. cit

٧٧ Loc. cit.

٧٨ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ١٦١ ـ ١٦٢.

٧٩ من عبد العزيز الفيصل السعود الى الشيخ مبارك:,IOR) R/15/5/25)

٨٠ Loc. cit.

٨١ Same Series and vol., P.A. Koweit to P.R. 27 Oct. 1914.

٨٢ Same Series and vol., F. Simta to PR 29-10-1914.

٨٣ من كرنيل و.ك ـ كوكس بوليتيكل الجنت الدولة البهية القيصرية الى جناب الاجل الامجد الافخم حميد الشيم المحب عبد العزيز ابن الامام عبد الرحمن الفيصل حاكم نجد وتوابعها. Same Series and vol.,

٨٤ Same Series and vol., Abdul Aziz b.Abdur Rahman Al Faisal to P.R., 9 Moharram, 28 Nov. 1914.

٨٥ Same Series and vol., Keyes Bahrain to Knox 9:XII, 14.

٨٦ Same Series and vol., Abdul Aziz Al Faisal Bin Saud to Capt. Shakespear, 10 Moharram - 28 Nov. 1914.

٨٧ Loc. cit.

٨٨ Loc. cit.

٨٩ Same Series and vol., Bin Saud to Cox, 17 Moharrum 1333 (5 Dec. 1914).

٩٠ Same Series and vol., Cox to Abdul Aziz 29 Moharrum 1333, 17 Dec. 1904.

٩١ Loc. cit.

٩٢ من طالب النقيب الى كوكس ٢٢ محرم ١٣٣٣/ ١٠ ديسمبر ١٩١٤ م. Same Series and vol.,

٩٣ Same Series and vol., Shakespear to PR. 14 Jan. 1915.

٩٤ Loc. cit.

٩٥ Loc. cit.

٩٦ Loc. cit.

٩٧ Loc. cit.

٩٨ Same Series and vol., The Clauses which will be reasons for a binding agreement bet. Myself (Bin Saud) and the Gt. Brit. Govt..

٩٩ Same Series and vol., Cox, Bassrah to F. Delhi, 17 Jan 1915.

١٠٠ Loc. cit.

١٠١ Same Series and vol., PR Bassrah to F. Delhi 23 Jan, 1915.

١٠٢ Loc. cit.

١٠٣ Same Series and vol., PR Bassrah to F. Delhi 24 Feb. 1915.

١٠٤ Same Series and vol., Ibn Saud to PR., ef. PA Koweit to PR.

١٠٥ Same Series and vol., PA Bahrain, 15.3.15.

١٠٦ Same Series and vol., Grey P.A. Koweit to P.R. 29 June 1915.

١٠٧ من سعود بن رشيد الى جناب المكرم مبارك الصباح ٣٠ رجب ١٣٣٣. Same Series and vol.,

١٠٨ Same Series and vol., P.A. Bahrain to Knox, 27 June 1915.

١٠٩ Same Series and vol., Keyes Bahrain to Cox Bassrah, 27: XI:15.

١١٠ Same Series and vol., Holland Bassrah to Cox.

١١١ Same Series and vol., Cox Bassrah to trevor Bahrain, 15 Sept 1915.

١١٢ Same Series and vol., Vice to Sec. State for India (SSI), 7 Oct. 1915.

١١٣ Same Series and vol., PA Bahrein to Cox Bassrah, 22:V11:15.

١١٤ Nejd Mission.

١١٥ Same Series and vol., Note Regarding Interview with Ibn Saud, 31 Dec 1915.

١١٦ Same Series and vol., PA Bahrain to Cox PR Bussrah.

١١٧ Same Series and vol., Ibn Saud to Sk. Isa. Void P.A. Bahrain to Cox Bussrah, 12 July 1915.

١١٨ Same Series and vol., PA Bahrain to PR.
١١٩ Same Series and vol., PA Bahrain to Cox Bussrah 6:V III:15.
١٢٠ Same Series and vol., P.A. Bahrain to Deputy PR 4 Jan. 1916.
١٢١ Same Series and vol., Sk. Abdul Aziz Ibn Abdur Rahman al Faissal to Major Keyes PA. Bahrain, 21 Zill Gadah 1333, cf, Sk. Abdul Aziz Ibn Abdur Rahman al Faisal to P.R., 30 zill Qadah. 1333, 10 oct 1915.
١٢٢ Same Series and vol., PA. Bahrain to PR Bussrah 18: x:15.
١٢٣ Loc. cit.
١٢٤ Loc. cit.
١٢٥ Same Series and vol., PA Kowait to PR, 23 July 1915.
١٢٦ Same Series and vol., PA., Bahrain to PR Bussrah, 23 Jan 1916.
١٢٧ Loc. cit.
١٢٨ Same Series and vol., Note Regarding an Interview with Bin Saud, 31 Dec 1915.
١٢٩ Loc. cit.
١٣٠ Same Series and vol., Bahrain to PR, No.6 C.
١٣١ Same Series and vol., Sk. Dhaidan Alagamani to Turkish Army.
١٣٢ Same Series and vol., Bahrain to PR., 24 Feb. 1916.
١٣٣ Same Series and vol., Report No.24., Jan.1917. p.3.
١٣٤ Same Series and vol., cf Hejaz Report, p.19.
١٣٥ (F.D) to J. Morley, SSI, 21 Feb 1907.
١٣٦ لوريمر ج.ج.، مرجع سبق ذكره، التاريخي ج ٣، ص ١٢٥٦.
١٣٧ (IOR) R/15/5/25, PR, 24th Apr. 1903.
١٣٨ Loc. cit.
١٣٩ Same Series and vol., Acting Consul Bussreh to Vice
١٤٠ ist PR, 4 Aug. 1903.
١٤١ Same Series and vol., Bahrein to PR, 9 June 1903.
١٤٢ Loc. cit.
١٤٣ Same Series and vol., Bahrein to First Assist PR., 20 Sept. 1903.
١٤٤ Loc. cit.
١٤٥ Loc. cit.
١٤٦ لوريمر ج.ج.، مرجع سبق ذكره، التاريخي، ج ٣، ص ١٢٥٨.
١٤٧ (LOR) R/15/2/27, No.310, dated 13 Dec. 1907.
وجاء في هذه الوثيقة أن المشكلة نجمت أساساً من طلب الشيخ عبد الرحمن بن قاسم آل ثاني الى المدعو جابر البوعينين أن يدفع الضريبة المستحقة على قوارب الصيد خاصته فرفض جابر - قام عبد الرحمن بمصادرة شحنة تمر خاصة بجابر فاحتج الأخير فما كان من عبد الرحمن إلا أن زج به في

السجن. وما أن علم حمود بن جابر بما وقع لأبيه حتى حمل بندقيته وذهب لعبد الرحمن ولحقت أم جابر بابنها وأمسكت به وهو يصوب تجاه عبد الرحمن الذي أخطأته الرصاصة، قبض عبد الرحمن على حمود واطلق سراح والده.

١٤٨ Same Series and vol., PR. to Crow, 17 Nov. 1908.

١٤٩ Same Series and vol., Crow to PR., 1 Dec 1908.

١٥٠ Same Series and vol., Weekly Diary No.46 of PA Bahrein for Week ending 13 Nov. 1908.

١٥١ (IOR) R/15/5130, Sk. of Bahrain Claim to Tribute from Qater

١٥١ - أ تفيد أخبار الوكيل السياسي البريطاني في البحرين بأن العلم العثماني كان يرفع في القطيف في أيام الجمع بأمر من ابن سعود. (IOR) R/15/6/67, PA Bahrain to PR. 6.9.14.
ويضيف يوسف كانو بأن ابن سعود يعلق العلم العثماني نتيجة لنصيحة السيد طالب النقيب له ويعتقد كانو أن ابن سعود يتمسك بالعثمانيين نتيجة للاتفاقية المعقودة بين الطرفين. راجع:
Same Series and vol., PA Bahrain to PR. 21.6.14.

١٥٢ (IOR) R/15/5/30, Consulate Basrah to Embassy, 16 June 1913.

١٥٣ Same Series and vol., PA Bahrain to PR 24 June 1913.

١٥٤ Same Series and vol., PA Bahrain to PR, 12 July 1913.

١٥٥ Same Series and vol., PA Bahrein to PR, 21 Aug. 1913.

١٥٦ Same Series and vol., PA Bahrein to PR. 3 July 1913.

١٥٧ Same Series and vol., Memo by Yousif Kano, 28 Apr. 1913.

١٥٨ Same Series and vol., PR to Soi (F.D) Simla.

١٥٩ Loc. cit.

١٦٠ (IOR) R/15/2/24, Knox officiating PR to Cox (F and PD) Simla 2/11/1914.

١٦١ (IOR) R/15/2/30, Report of Yousif Kano.

١٦٢ Same Series and vol., Memo by Yousif Kano 27 July 1913.

١٦٣ Same Series and vol., Memo by Yousif Kano, 7 Sept. 1913.

١٦٤ Same Series and vol., Bahrein to Bushire 240.

١٦٥ Loc. cit.

١٦٦ Same Series and vol., Keyes Bahrein to Knox Bushire, 9 Sept. 1914.

١٦٧ Loc. cit.

١٦٨ Same Series and vol., PA Bahrein to PR, 11 Sept. 1914.

١٦٩ من عبدالله بن قاسم الى الحاج يوسف بن أحمد كانو. Same Series and vol.,

١٧٠ Same Series and vol., PA Bahrein to PR, 11 Sept. 1914.

١٧١ Same Series and vol., Reports of Kano (Various).

١٧٢ Same Series and vol., PA Bahrein to PR, 11 Sept 1914.

١٧٣ Same Series and vol., Abdulla b. Jassim Sk Qater to Knox. PR, 22 zil Qadar 1332, 13 Oct. 1914.

١٧٤ جمال زكريا قاسم، الخليج العربي - دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥، ص ٧.

١٧٥ Marlow, J., The Persian Gulf in the Twentieth Century, London, 1962, p.254.

١٧٦ من عبدالله بن قاسم آل ثاني الى جناب المكرم الأفخم عالي الحال. قبطان تي ايح كيزباليوز في البحرين ١٤ ذي الحجة ١٣٣٢ . (IOR) R/15/5/30,

١٧٧ Same Series and vol., PA Bahrain to PR.,11.11.15.

١٧٨ Loc. cit.

١٧٩ Loc. cit.

١٨٠ Loc. cit.

١٨١ Loc. cit.

١٨٢ Same Series and vol., Basrah, 27 June 1915, Cox to Keyes.

١٨٣ Same Series and vol., Abdulla b. Jassim b. Thani, 27 June.

١٨٤ Loc. cit.

مصادر ومراجع

المصادر

أولاً ـ مراسلات وتقارير قصيرة من الوثائق غير المنشورة.

١ ـ من الارشيف البريطاني العام (PRO):

أ ـ ملفات من سلسلة تركيا (78) في وزارة الخارجية F.O.

78/2147

78/2176

ب ـ ملفات من سلسلة المراسلات الخارجية (371) لوزارة الخارجية.

371/149/xc/A/3722

371/151/XA/3722

371/180: 22076: 29150

371/1810: 22067: 2915

371/1820: 22067: 2915

371/2124: 1990: 22405

371/3044

371/3393

371/3451/3788

٢ ـ من أرشيف مكتب الهند (IO):

أ ـ ملفات من مكتب المقيم البريطاني في الخليج. R/15/1

R/15/1/190

ب ـ ملفات من مكتب وكالة البحرين السياسية البريطانية R/15/2
R/15/2/27
R/15/2/29
R/15/2/30

جـ ـ ملفات من مكتب وكالة الكويت السياسية البريطانية R/15/5

R/15/5/21

R/15/5/24

R/15/5/25

R/15/5/29

R/15/5/30

د ـ من ملفات وكالة مسقط السياسية R/15/6

R/15/6/17

R/15/6/18

R/15/6/19

R/15/6/67

ثانياً: دراسات وتقارير مفصلة (مذكرات كتبها سالدانا (Saldana) وغيره من المسؤولين الرسميين):

- Persian Gulf Gazetter, Part I, Historical and Political Material, Precis of Turkish Expedition on the Arab littoral of the Persian Gulf and the Hasa and Katif Affairs. by J.A. Saldana, 25 November 1904.
- Persian Gulf Gazetter, Precis of Katar Affairs, 1873-1904 by J.A. Saldana, 28 September 1904.
- Persian Gulf Gazetter, Precis of Nejd Affairs by J.A. Saldana, 5 October 1904.
- Persian Gulf Gazetter, Precis of Bahrein Affairs 1854-1904, by J.A. Saldana, 8 November 1904.
- Turkish Jurisdiction Along the Arab Littorial of the Persian Gulf.

ثالثاً: وثائق منشورة في كتب:

- Aitchison CU, (ed.) A Collection of Treaties, Engagements and Sa-

nads Relating to India and Neighbouring Countries, vol.XI, Bombay.
- Robin Bidwell, (ed.) The Affairs of Kowait 1896-1905. Foreign Office confidential Print: Correspondance Respecting Affairs at Koweit, 2 vols, Frank Cas and company, 1971.
- Robin Bidwell, (ed.) The Affairs of Arabia, 1900-1905. Foreign Office confidential Print. Correspondance Respecting Affairs of Arabia, 2 vols, Frank and Cas company, 1971.

المراجع

أولاً ـ مراجع باللغة العربية:

- ابراهيم بن صالح بن عيسى، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان (من ٧٠٠ هـ الى ١٣٤٠ هـ). منشورات دار اليمامة، الرياض. (بدون تاريخ).
- ابراهيم بن عبيد بن عبد المحسن، تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الواحد الديان وذكر حوادث الزمان، ٤ أجزاء، الرياض (بدون تاريخ).
- جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ القاهرة ١٩٦٦ م.
- حسين بن غنام، روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام المسمى بتاريخ نجد، تحقيق ناصر الدين الاسد، القاهرة، ١٩٦١ م.
- صلاح العقاد، «حملة مدحت باشا في شبه الجزيرة العربية سنة ١٨٧١ وصداها في منطقة الخليج، بحث مقدم الى مؤتمر دراسات شرقي الجزيرة العربية ـ الدوحة. لجنة تدوين تاريخ قطر ١٩٧٦ م.
- ضاري بن فهيد الرشيد، نبذة تاريخية عن نجد، كتبها عن لسان ضاري وديع البستاني، منشورات دار اليمامة الرياض، ١٣٨٦ هـ.
- عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق.. بن عبد اللطيف آل الشيخ، منشورات دارة الملك عبد العزيز (٢٧) الرياض.
- عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، السلام البريطاني في الخليج العربي، دراسة وثائقية. الرياض، ١٤٠٢ هـ.

- عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، سياسة حكومة الهند في الخليج العربي - دراسة وثائقية، منشورات دارة الملك عبد العزيز (٢٦) الرياض، ١٤٠٢ هـ.
- عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية، منشورات دارة الملك عبد العزيز (٢٥) الرياض ١٤٠٢ هـ.
- عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، الرسائل والمسائل النجدية، جمعها سليمان بن سحمان، مطبعة المنار بمصر.
- لوريمر، ج.ج. ،دليل الخليج، القسم التاريخي، ٧ أجزاء ترجمة قسم الترجمة بمكتب أمير قطر.
- محمد بن عبدالله بن عبد المحسن آل عبد القادر الانصاري الاحسائي، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد، مطابع الرياض، ١٣٧٩ هـ.
- مذكرات مدحت باشا نشرها ابنه يوسف كمال حتاته، ط١، مطبعة الهندية بالموسكى (بدون تاريخ).
- نور الدين عبدالله السالمي، تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان، جزءان، دار الكاتب العربي بمصر، ط٢، ١٣٨٠ هـ.

ثانياً - مراجع أجنبية:

- Doughty Charles, Travels in Arabia Deserta, 2 vols, London 1939.
- Marlowe, J., The Persian Gulf in the Twentieth Century, London, 1962.
- Musil, Northern Negd, New York, 1928.

المحتويات

[illegible] الوضع في الخليج [illegible] الآن [illegible] الأحداث [illegible] الإقليمية [illegible]
الصراع على الخليج [illegible] بل إن [illegible] الآن [illegible]
بقوة في الأحداث التي بدأت في أواخر القرن الماضي.

إذا كان قيام الدولة السعودية الثالثة العامل الإقليمي الأبرز في تحقيق وقائع الجغرافيا السياسية الراهنة في المنطقة، فإن تسلسل الأحداث في تلك الفترة يظهر أن مفتاح التغيير إنما كان الانقلاب الذي وقع في الكويت في العام ١٨٩٦، والذي ساعد في قيام المملكة العربية السعودية.

وكان ذلك كله يتم في إطار وضع دولي من أبرز سماته تراجع الوجود العثماني بموازاة تقدم النفوذ الإنكليزي. وهكذا فالسياسات الدولية هي التي فصلت بين قطر والبحرين، حيث استمر الوجود العثماني في الأولى (قطر) مع بروز شخصية مستقلة لها في ظل أسرة آل ثاني، في حين تمكن النفوذ الإنكليزي في الثانية (البحرين).

وهذه التغيرات التي عرفتها ساحات الخليج إنما كانت بمثابة إرهاصات تشكل الحدود بين الكيانات الوطنية التي ظهرت في مرحلة لاحقة. فالبريطانيون فصلوا بين قطر وإمارات الساحل العماني بخط الحد يوم في العقير، ونتيجة اتفاق إنكليزي - عثماني، ثم تحديد خطوط الفصل بين قطر ونجد... وهكذا.

وكتابنا هذا يتابع عارضاً ومحللاً الأحداث محطة محطة، وهو بذلك يشكل مساهمة مميزة في توضيح سمات تلك الفترة الحاسمة في تاريخ الخليج، حيث شهدت رسم حدوده المعاصرة وتأسيس كياناته الإقليمية.

يعتبر الدكتور عبد الغني إبراهيم، الباحث والأستاذ الجامعي السوداني المولد (١٩٣٩) من أبرز الذين اعتنوا بدراسة تاريخ منطقة الخليج [illegible] من الدراسات الوثائقية في مجال تاريخ الخليج والجزيرة العربية. ظهرت [illegible] مؤلفات عدة منها: [illegible] بريطانيا وإمارات الساحل العماني [illegible] حكومة الهند والإدارة في الخليج العربي [illegible] في الخليج العربي ١٨٥٨ – ١٩١٤ [illegible]

ISBN 1 85516 041 2

DAR AL SAQI
26 Westbourne Grove London W2 5RH